

بنو إسرائيل

الجزء الرابع

الحضارة

الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقضائية والعسكرية

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي حيران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

رقم التسجيل 959.014924

رقم التسجيل ٣١٧٧

١٩٩٩

دار المعرفة - الجامعة
شماره ٥٠ شارع ستيرز - الأزاريطة
الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وآله

تقديم

قدمنا في الجزءين - السابع والثامن - من سلسلة دراستنا في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دراسة عن تاريخ إسرائيل السياسي، وكان لابد بعد ذلك من أن نقدم دراسة للمظاهر الحضارية في إسرائيل القديمة، وما أسهم به العبريون - وإن كان قليلا - في ميدان الحضارة في الشرق الأدنى القديم، فضلا عن الذي اقتبسوه - وهو الكثير - من معاصريهم، وبدهى أن الهدف من ذلك إنما هو تقديم دراسة متكاملة للتاريخ والحضارة اليهودية في العصور القديمة.

وتقع هذه الدراسة في جزأين، الواحد، خصص للتوراة والتلمود، وهما مصادر الفكر الإسرائيلي لكل مناحي الحياة، والثاني، خصص للديانة اليهودية فضلا عن الحياة الاجتماعية، إلى جانب التنظيمات السياسية والاقتصادية والقضائية والعسكرية، التي سارت عليها يهود، في عصور تاريخ بني إسرائيل القديم، بل ما تزال تسير على منوالها في معظم مناحي الحياة، ذلك لأننا في الواقع، لا نعرف شعباً في التاريخ الإنساني كله، حافظ على قديمه، كما حافظ عليه هذا الشعب، وهو لا يصدر اليوم وغداً في كل شأن من شئونه إلا عن فهم لهذا القديم، بل عن إيمان بهذا القديم.

والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة بعض النفع.

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيبُ»

بولكلي - رمل الإسكندرية في] الثاني من صفر عام ١٣٩٩ هـ
الأول من يناير عام ١٩٧٩ م

دكتور

محمد بيومي مهران



الباب الثاني الديانة اليهودية



الفصل الأول

الله في التوراة

اشتهرت الديانة الموسوية - كما أشرنا من قبل - بأنها دين سماوي، نادى بوحدانية الله الواحد القهار، ونحن نؤمن بكل هذا، ذلك لأن دعوة موسى - عليه السلام - إنما كانت دعوة توحيد، ما في ذلك من ريب، وأن كليم الله، عليه السلام، إنما قد دعا إلى عبادة الله، الواحد الأحد - وهو أمر لا يخامرنا فيه مجرد شك، ولو لحظة واحدة، بل إننا كمسلمين لا بد وأن نؤمن بذلك كله، بل إن إيماننا بمولانا وسيدنا وجدنا محمد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - لا يكمل، إلا إذا آمننا بموسى وإخوانه من الأنبياء - عليهم السلام - فضلا عن الإيمان برسالاتهم وكتبهم، ذلك لأن الهدف واحد، والعقيدة واحدة فالأنبياء دينهم واحد، وإن تنوعت شرائعهم^(١).

وانطلاقاً من هذا كله، فإننا نؤمن - الإيمان كل الإيمان - بأن موسى نبي الله، وأن الله - سبحانه وتعالى - قد أنزل عليه توراة، (فيها هدى نور)، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كانت توراة موسى من لدن على قدير، فإنها لا بد، وأن تقدم لنا - من خلال نصوصها - مفهوماً متسقاً عن الذات العلية، إذ تتجلى لموسى هدى للعالمين ونور، وهذا ما نعتقه ونؤمن به.

ولعل سؤال البدهاة الآن: هل قدمت لنا توراة اليهود المتداولة اليوم شيئاً من ذلك؟ فتؤيد دعوة التوحيد، وتنزه الله - جل وعلا - عن صفات البشر؟ ثم ما هي القيمة الحقيقية لمفهوم التوحيد اليهودي - كما تقدمه التوراة الحالية - وما هي صفات الله في التوراة المتداولة اليوم.

(١) انظر: سورة البقرة، آية: ٤، ١٢٦، آل عمران، آية: ١٨٤، سورة النساء، آية: ١٥٠-١٥٢، المؤمنون، آية: ٥٢، الشورى، آية: ١٣، صحيح البخارى، كتاب المناقب: باب خاتم النبيين، ٢٢٦/٤، (دارالشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ).

١ - الله واليهود:

تطلق التوراة على الله - جل وعلا - لفظ «يهوه» Jhwh أحياناً، ولفظ «إلوهيم» Elohim أحياناً أخرى، وهو في كلتا الحالتين، إنما هو إله بنى إسرائيل دون سائر البشر، وليس ربّ العالمين - كما يعتقد المسلمون والمسيحيون.

وقد بدأت فكرة الإله الواحد في التوراة مع إبراهيم، وذلك حين جعلت من «الرب الإله»، رباً إلهياً لإبراهيم، ويعد إبراهيم رباً لإسحاق، ثم ليعقوب من بعده^(١)، ثم موسى^(٢)، وأخيراً تنتقل التوراة خطوة أخرى في مفهوم الله بعد ذلك، فتصوره رباً لبني إسرائيل جميعاً^(٣)، بل إن اليهود لم يفكروا قبل النبي «إشعيا» (حوالي ٧٣٤-٦٨٠ ق.م) في أن «يهوه» هو إله أسباط بني إسرائيل جميعاً^(٤).

وعلى أي حال، فإن التوراة حين تخرج في أسفارها الأخيرة بيهوه من دائرة بني إسرائيل إلى غيرهم من الشعوب، فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم الله في التوراة، على أنه إله إسرائيل في المقام الأول^(٥)، ولهذا يقول يشوع في سفره: «هكذا قال الرب إله إسرائيل^(٦)»، وهكذا بنى مذبحاً للرب إله إسرائيل^(٧)، و«أن جماعة إسرائيل حلفوا بالرب إله إسرائيل^(٨)»، ويقول داود في سفر صموئيل الأول «مبارك الرب إله إسرائيل^(٩)»، ويقول في سفر أخبار الأيام الأول «مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد»^(١٠).

(١) تكوين ١٢: ١-٣، ١٣: ١٤-١٨، ١٥: ١٨-٢٠، ٢٢: ٣٢، ٢٤: ٢٢، ٢٨: ١٣، ٤٦: ٤٠.

(٢) خروج ٣: ٦، ١٥: ٦-٧.

(٤) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران القاهرة ١٩٦١، ص ٢٤٢.

(٥) صبرى جرجس، التراث اليهودي الصهيوني، ص ٢٥.

(٦) يشوع: ١٣ (٧) يشوع: ٨: ٣.

(٨) يشوع ٩: ١٨ (٩) صموئيل الأول ٢٥: ٢٣.

(١٠) أخبار أيام أول ١٦: ٢٦.

وهكذا كانت ديانة يهود، ديانة أسرة بشرية واحدة، هي بنو إسرائيل، ذلك لأن إله إسرائيل - كما تصوره التوراة - لم يكن الله، كما تفهمه البشرية في الديانات المعاصرة^(١)، وهذه الفكرة تتناسق تناسقاً كاملاً مع سياق النظام الإسرائيلي عامة، لأن الدين الخاص لشعب خاص، لا بد وأن يكون له إله خاص، وهذه الخصوصية مهمة جداً في عقيدة هذا الشعب^(٢)، إذ اعتبروا أن كرامة الله، مرتبطة بكرامة الأمة.

وانطلاقاً من هذا فقد دعوا «الله» ربّ الجنود، معتقدين بأن هذا معناه ربّ جنود إسرائيل، مما جعلهم يعتقدون كذلك بأن الله ملزم بأن يحامي عنهم، لأن حمايتهم إنما هي حماية لكرامته هو، وإذا حدث أن سقطت الأمة، فمعنى هذا - في نظرهم - أن الله نفسه قد سقط^(٣) - والعياذ بالله - ومن هنا كان عليه أن يكرس كل قوته وسلطانه من أجل شعبه إسرائيل^(٤)، وهو لذلك يحارب إلى جانبهم، أو يحارب بدلاً عنهم، أو يطرد من أمامهم أعداءهم، ويسر لهم قتلهم، ويحل لهم نهبهم^(٥).

وهو في سبيل انتصار شعبه مستعد أن يرتكب من ضروب الوحشية ما تشمئز منه نفوسنا، اشمئزاً لا يعادله إلا رضاء أخلاق ذلك العصر عنها، ويأمر شعبه بأن يرتكبوا هم هذه الوحشية، فهو يذبح أمماً بكلمها راضياً مسروراً عن عمله، ومع ذلك - وفي نفس الوقت - فإن اللعنات التي يهدد

(١) صبرى جرجس، المرجع السابق، ص ٥٢.

(٢) عبده الراجحي، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٤٧.

(٣) القس عاموس عبد المسيح، دراسة في عاموس، ص ١٨.

(٤) لعل هذا ربما يشير إلى أن القومية الإسرائيلية، ليست قومية وطنية إقليمية أو سياسية، بل دينية، تعتمد على العهد بين «يهوه» وإسرائيل ويتجلى ذلك واضحاً في أغاني إسرائيل الدينية كأغنية تابوت العهد، وأغنية دبورة، وحتى التي قيلت في الملوك فقد اعتبرت الملك رديفاً ليهوه. (فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، ص ٣٥).

(٥) تثنية ٩: ٢٣ عبده الراجحي، المرجع السابق، ص ٤٧.

بها «يهوه» شعبه المختار، إذا عصاه - كما ترويه التوراة (١) - لجديرة بأن تكون نماذج في القدح والسب، ولعلها هي التي أوحى إلى الذين حرقوا الكفرة في محاكم التفتيش الأسبانية، أو حكموا على الفيلسوف اليهودي المشهور «باروخ سبينوزا» (١٦٣٢-١٦٧٧م) بالحرمان، أن يفعلوا ما فعلوا (٢).

ولا يقف اليهود عند حد معين في علاقتهم بربهم «يهوه»، فهم ينسبون «بنوة الله» إلى بنى إسرائيل جميعاً، وذلك حين تروى التوراة، أن الله قد أمر موسى، عليه السلام، أن يذهب إلى فرعون ليطلق إسرائيل - ابنه البكر - بغية أن يعبد في البرية، فإذا ما امتنع فرعون عن إجابة طلب موسى هذا، فإن الله سوف يقتل «ابن فرعون البكر» (٣)، وهكذا بكرا بيكرا، ولست أدري كيف قبل المؤمنون بالتوراة ذلك كله؟ وهل يتفق ذلك مع الوحدةانية التي يزعمونها؟

وقد يزول العجب حين نقرأ في التوراة «أن الله قد كان له أبناء منذ بدء الخليقة، وأن هؤلاء الأبناء إنما قد فتنوا بجمال بنات الناس، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا»، ثم تحدر من هؤلاء وأولئك نسل رزقه الله بسطة في الجسم، وهم الجبابرة الذي سكنوا في الأرض قبل الطوفان (٤).

وليت الأمر اقتصر على ذلك، فإن صفة الألوهية نفسها لم تكن مقصورة على الله وحده، بل شاركه فيها موسى، الذي كان بدوره إلهاً، وله أنبياء، «فقال الرب لموسى: انظر: أنا جعلتك إلهاً لفرعون، وهارون أخوك نبياً» (٥).

(١) تثية ٢٨: ١٥-٦٨.

(٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٤١-٣٤٢.

(٣) خروج ٤: ٢١-٢٢.

(٤) تكوين ٦: ١-٥.

(٥) خروج ٧: ١.

صفات الله في التوراة:

لا ريب في أن صفات الله في التوراة إن كانت تتفق والذات العلية أحياناً، فإنها في أغلب الأحيان «أقرب إلى صفات البشر، بما فيهم من ضعف ونقص، وبما لهم من حركات وأعمال، وما يجوز عليهم من غفلة النسيان، فها هي التوراة تصف الله - جل وعلا - في صورة المساوم مع أحد عباده، ونقرأ في سفر التكوين^(١) - على لسان يعقوب - «إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه، وأعطاني خبزاً لأكل، وثياباً لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت أبي، يكون الرب لي إلهاً»، ولا حاجة بنا إلى التعقيب بأن هذا القول يعني ضمناً، أن الرب إن لم يقبل الصفقة، فإن يعقوب لن يقبله إلهاً^(٢).

وتصور التوراة رب إسرائيل على أنه كثيراً ما يدخل في نقاش حاد مع عباده، وليت الذي ألف هذه المناقشات قد فطن إلى الاحتفاظ لها بما ينبغي أن تكون عليه من سمو ووقار، ولكنه أجراها على مستوى لا يكون إلا بين الأنداد الحمقى من بني البشر، وقد وصل فيها أحياناً إلى الحد الذي جعل إله إسرائيل يسأل موسى ذات يوم قائلاً: «حتى متى يهينني هذا الشعب»^(٣)، ثم إلى حد التهديد بأن الله لا يريد أن يرى جميع الذين أهانوه الأرض التي حلف لأبائهم، على أن يمنحها إياهم^(٤).

وتصور التوراة الله، بأن نفسه إنما ترتاح وتتشم من رائحة الدخان

(١) تكوين ٢٨: ٢٠-٢١.

(٢) صبري جرجس، المرجع السابق، ص ٥٤، ٥٦.

(٣) عدد ١٤: ١١. (وقد جاءت الصيغة في الطبعة الكاثوليكية للتوراة كالتالي: وقال الرب لموسى إلى

متى يستخف بي هؤلاء الشعب، طبعة بيروت، ١٩٥١).

(٤) عدد ١٤: ٢٣. (والنص في الطبعة الكاثوليكية كالتالي: «لن يروا الأرض التي أقسمت عليها

لأبائهم، وكل من استهان بي لن يراها).

المتصاعد من المحرقات، وأنه يغضب - الغضب كل الغضب - إذا لم تقدم له في الصورة التي يرضاها، أو إذا قدمت له في صورة غير الصورة المقررة في شريعتهم^(١)، وأنه قد يصب غضبه حينئذ على المقصرين، فيرسل عليهم ناراً تحرقهم^(٢).

وتصور التوراة الله - أو يهوه كما يسمونه - على أنه إله بركاني، فنقرأ في سفر القضاة: «يا ربّ بخروجك من سعير، بصعودك من صحراء أدوم، الأرض ارتعدت، السماوات أيضاً فطرت، كذلك السحب قطرت ماء، تزلزلت الجبال من وجه الربّ إله إسرائيل»^(٣)، وفي نصوص أخرى من التوراة نقرأ: «صوته يجلجل كالرعد»، «فتذوب الجبال وتنشق الوديان»، وخاصة «إذا ما اتقد غضبه»، فإن غيظه ينسكب كالنار، فتتهائل الصخور، وتلتهب الأرض، ونقرأ «وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الربّ نزل عليه بالنار، وصعد دخانه كدخان الآتون»^(٤).

ويعلل المؤرخ الأمريكي «جيمس هنري بريستد» (١٨٦٥-١٩٣٥م) ذلك بأن خروج العبرانيين من مصر، إنما قد صحبته خوارق، لا ريب في أنها إنما كانت ذات صبغة بركانية، فالظهر الغريب الذي ظهر به «يهوه» رب إسرائيل، في صورة عمود من نار، أو «عمود من دخان»، ثم تجليه فوق سيناء نهاراً، محدثاً «الرعد والبرق والسحاب الكثيف»، إنما هي بدهة ظواهر

(١) يرد القرآن على مزاعمهم الكذب هذه بقوله تعالى: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لِحُومَهَا وَلَا دَمَآؤَهَا، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ، كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ» (سورة الحج، آية: ٢٧) ويقول تعالى: «فَكُلُوا مِنهَا، وَأَطِيعُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ» (سورة الحج، آية: ٢٨).

(٢) سفر اللاويين ١: ١-٩، ١٠: ١-٢؛ إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود، القاهرة ١٩٦٧، ص ٨٦-٨٨.

(٣) سفر القضاة ٥: ٤-٥.

(٤) خروج ١٩: ١٨، ثنية ٣٢: ٣٢، مزمير ١٠٤: ٣٢؛ إرميا ٢٥: ٣١؛ عاموس ١: ٢؛ ميخا ١: ٤؛ ناحوم ١: ٦.

بركانية، وعلى ذلك فقد كان من المعترف به منذ زمن بعيد، أن «يهوه» رب إسرائيل، ليس إلا إلهًا محليًا للبراكين، وكان مقره المختار سيناء، ولكن الإسرائيليين تخلوا - بتأثير من موسى - عن آلهتهم القدامى (إلوهيم)، واتخذوا من «يهوه» إلهًا واحدًا لهم^(١).

ثم تمضى التوراة، فتصف الله - سبحانه وتعالى - وكأنه الدليل لبنى إسرائيل في سيناء بعد طردهم من مصر، وذلك على هيئة عمود من غمام نهارًا، ومن نار ليلاً^(٢)، ويعلل «سميث» لهذه الظاهرة، بأن شبه جزيرة سيناء منطقة بركانية، يكثر فيها الدخان المنبعث من البراكين، ومن المحتمل أن يكون عمود السحاب، الذي تبعه بنو إسرائيل، وظنوا أن إلههم «يهوه» يسير فيه، ليس في الحقيقة إلا دخانًا متجمعًا من البراكين دفعته الرياح إلى الأمام^(٣).

وتصف التوراة الذات العلية بالنسيان، بل لم يجد كات التوراة غضاضة في أن يزعم بأن الله تعالى قد نسى عهدًا كان قد قطعه على نفسه لأباء العبرانيين الأولين، ولم يتذكره إلا حين سمع الأنين من بنى إسرائيل^(٤)، والأدهى من ذلك وأمر أن الرب لا يتذكر وعده، إلا عندما يموت أولئك الذين يطلبون الثار من موسى^(٥).

ثم لا يقتصر كاتب سفر الخروج من التوراة على ذلك، بل إنه إنما يصور الرب، وكأنما هو أراد من الإسرائيليين، أن يسرقوا أمتعة المصريين ومن ثم نراه يسجل في هذا السفر من التوراة: «فيكون حين تمضون، أنكم

(١) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 351.

(٢) خروج ٢٣: ٧-١٠.

(٣) J.W.D. Smith, God and Man in Early Israel, p. 35.

(٤) خروج ٦: ٥.

(٥) خروج ٤: ١٩.

لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها، أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين»، ثم نقرأ بعد ذلك أن القوم إنما قد فعلوا ما أمروا به، «وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين»^(١)، ولعل في هذا إشارة واضحة إلى خلق الإسرائيليين، واستحلالهم لأموال غيرهم، وسلبها بأية وسيلة.

ويتمادى كاتب التوراة على جلال الله - سبحانه وتعالى - وذلك حين يصوره - جل وعلا - وقد أراد قتل موسى، وهو في الطريق من مدين إلى مصر، بسبب تركه سنة الختان، لولا أن أنفذته زوجته المديانية «صفورة»، حين أسرعته بالقيام بهذه الجراحة، حيث أخذت صوانة وقطعت قلفة ولدها، ومست بها قدميه قائلة: «حقاً إنك لي حليل دم»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن قصة الختان هذه في التوراة، إلى جانب تطاولها على الذات العلية، فإنها إنما تدل كذلك على مدى التضارب في نصوص التوراة بشأنها، ذلك لأن هناك نصوصاً في سفر التكوين إنما ترجع بسنة الختان إلى عهد إبراهيم، عليه السلام^(٣)، وقد دونت أول ما دونها أحبار السبي البابلي، فيما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد^(٤)، أي بعد عهد إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - بما يربو عن ألف وخمسمائة عام، ثم إنها رواية لم تتداخل مع بقية النصوص في صلب أسفار الشريعة في صورتها الحالية، إلا في عام ٤٠٠ ق.م - أو ما

(١) خروج ٣: ٢١-٢٢، ١٢: ٣٥.

(٢) خروج ٤: ٢٤-٢٦.

(٣) تكوين ١٧: ١٠-١١.

(٤) Adolphe Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, Translated by S.H. Hoolte, London, 1962, p. 251.

يقرب من ذلك - حين ابتعثت دولة يهوذا في ظل الحماية الفارسية على يد «نحميا» و«عزرا» فلا غرو أن يتعارض تعارضاً جذرياً، مع روايات أخرى - كما سفر التثنية^(١) - ربما أن كانت أصداء خافتة لوقائع في صورة من أساطير عن نشأة سنة الختان، تلك السنة التي كانت عادة مصرية متأصلة^(٢)، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ^(٣).

وتصف التوراة الله على أنه لا يدعى أنه عالم، وإنما يطلب من الإسرائيليين أن يميزوا بيوتهم عن بيوت المصريين بأن يرشوها بدماء الكباش المضحاة، لئلا يهلك أبناءهم على غير علم منه، مع من يهلكهم من أبناء المصريين^(٤).

ويصور سفر الخروج الله على أنه ليس معصوماً، وأنه كثيراً ما يقع في الخطأ، ثم سرعان ما يندم على خطئه، حدث ذلك عندما فكر في إهلاك اليهود عن بكرة أبيهم، مما اضطر موسى إلى أن ينصحه فينتصح، بل إن موسى إنما يتخذ منه موقف المرشد المعلم، فمن ذلك أن «يهوه» قد غضب على بنى إسرائيل، وقال لموسى: «فالآن اتركنى ليحمنى غضبى عليهم وأقنيهم»، ولكن موسى يستشير فيه العواطف الطيبة، وينصحه أو يأمره أن يفكر فيما يقول الناس عنه، إذا ما سمعوا بفعلته هذه «لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض، ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك»، وهنا يضطر رب إسرائيل أن يتراجع عن وعيده لشعبه إسرائيل «فندم الرب على الشر، الذي قال إنه يفعل به شعبه»^(٥).

A.Lods, op.cit., p. 199.

(١) تثنية ٥: ١-٣، وكذا:

A. Powell Davies, Ten Commandments, New York, 1956, p. 59-60. (٢)

(٣) محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية، الجزء الأول، الآداب والعلوم، الإسكندرية ١٩٨٩،

J.H. Breasted, op.cit., p. 303, No. 10. ص ٤١٤-٤١٨، وكذا:

(٤) خروج ١٢: ١٢-١٣، ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(٥) خروج ٣٢: ١٠، ١٢، ١٤.

ولم يكن ذلك كل ما قدمته لنا أسفار التوراة من ندم الرب على الشر الذي قال إنه فعله أو سيفعله، فهناك ندمه على اختيار شاول ملكاً، تقول التوراة في سفر صموئيل الأول: «ندمت على أنني قد جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي، ولم يقم كلامي»^(١)، إلا أن أشنع ما وقع فيه الرب من أخطاء، إنما هو خلقه للإنسان، «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه»^(٢).

وتصور التوراة موسى على أنه صاحب الأمر بالنسبة إلى ربه، فكان إذا رأى التابوت قد حمل وتحرك فإنه يأمره بالقيام، وعندما يبلغ مكان الجيش يأمره بالعودة إلى ربوات إسرائيل، «وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول: «قم يارب، فلتبتدد أعداؤك، ويهرب مبغضوك من أمامك، وعند حلوله كان يقول: ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل»^(٣).

وتصور التوراة «يهوه» إله اليهود هذا، قاسياً مدمراً متعصباً لشعبه، متعطشاً للدماء، متقلب الأطوار، نزقاً، نكداً، «أتراف على من أتراف، وأرحم من أرحم»، وهو يرضى عما استخدمه يعقوب من ختل وخداع، في الانتقام من خاله «لابان»، وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الأسقف الذي يندفع في تيار السياسة، وهو كثير الكلام، يحب إلقاء الخطب الطوال، وهو حبي لا يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره، وقصارى القوى أنه لم يكن للأمم القديمة إله آدمي في كل شيء، كإله اليهود هذا^(٤).

(١) صموئيل أول ١٥، ١١؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٤٣٠.

(٢) تكوين ٦، ٦؛ لرميا ١٨، ٧-١٠؛ عاموس ٧، ١-٦؛ يونان ٩٠٣-١٠؛ رحمة الله الهندي،

إظهار الحق، الجزء الأول، ترجمة عمر الدسوقي، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(٣) عدد ١٠، ٣٥-٣٦.

(٤) تكوين ٢٨، ٢٠-٢١، ٣١، ١١-١٢؛ خسروج ٣٢، ١٩، ٣٣، ٢٣؛ ول ديورانت، المرجع

السابق، ص ٣٤٠.

والله - في عرف التوراة - إله «غير يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه»^(١)، و«أن الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون»^(٢)، وإن كانت التوراة قد غيرت من ذلك على أيدي الأنبياء المتأخرين^(٣).

والله - في عرف التوراة كذلك - لا يتنزه عن أن يأتي أعمال الإنسان وحركاته، فتروى التوراة، أن الربّ بينما كان يتمشى في الجنة، سمع آدم وحواء صوته عند هبوب ريح النهار، «فاختبأ آدم وامرأته من وجه الربّ الإله في وسط شجرة الجنة، فنادى الربّ الإله آدم، وقال له: أين أنت، فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأنني عريان فاختبأت»^(٤).

وتصور التوراة الله في سفر التكوين، على أنه قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع^(٥)، وهكذا يصور الإله الخالق - جلّ جلاله - في صورة بشر يعملون فيمسهم لغوب، ومن ثم يستريحون^(٦).

ومن الصور المادية كذلك في التوراة، أن الله تعالى، وملكين معه، قدموا على إبراهيم وهو جالس أمام خيمته، وأن إبراهيم قد عرف الله من بينهم، ورجاء أن يستريحوا عنده قليلاً، من وعشاء السفر ومشقة الطريق، وقدم

(١) خروج ٢٠، ٥.

(٢) حزقيال ١٨: ١. ثم قارن ذلك بالآيات الكريمة - على سبيل المثال - سورة فاطر، آية: ١٨، سورة البقرة، آية: ١٤١.

(٣) لرميا ١٧، ١٠، ٣١، ٢٩، ٣٠، حزقيال ١٤، ١٨، ١-٤، ٢٥-٢٩، وانظر:

S.A. Cook, The Prophets, in CAH, III, Cambridge, 1965, p. 467-468.

(٤) تكوين ٣، ٨-١٠.

(٥) تكوين ٢، ١-٣.

(٦) قارن ذلك بقوله تعالى: «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب» (سورة ق، آية: ٣٨، وانظر: تفسير القرطبي ٦١٩٢-٦١٩٤، تفسير ابن كثير ٣٨٥/٧-٣٨٦).

لهم ماء لشربهم وغسل أرجلهم، وفطائر وعجلا حينذاك لطعامهم، فانتحى ثلاثهم تحت شجرة، وأخذوا يأكلون مما قدمه لهم إبراهيم، الذى ظل جالسا على مقربة منهم، ثم تفقد الرب الإله «سارة» زوج إبراهيم، وسأل عنها، وأخذ يبشرها ويبشر زوجها إبراهيم، بأنه سيمر بهما فى هذا الموعد نفسه من العام القادم. فيجدهما وقد رزقا غلاما زكيا^(١)، ثم اشتبك معه إبراهيم فى نقاش وجدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد إهلاكهما (وهما سدوم وعمورة، قريتا لوط عليه السلام)، بغية أن يثنيه عن ذلك، لأن بعض أهلها من الأتقياء، ولا يصح أن يؤخذ المحسن بذنب المسيء^(٢).

ولم يقتصر كاتب التوراة على ذلك فى تصوير إله إسرائيل بصورة مادية، بل نراه مغرقا فى المادية، وذلك حين يقول: «ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو، وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل تحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء فى النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل، فرأوا الله، وأكلوا وشربوا»^(٣)، ويبدو أن كاتب التوراة لم يرضه أن يكون شرف اللقاء مع الله مقصورا على الخاصة

(١) تكوين ١٨ : ١٠-١٥ ثم قارن ذلك بقوله تعالى: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام، فما لبث أن جاءهم بعجل حنيذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وإمراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز، وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد» (سورة هود، آية: ٦٩-٧٣، وانظر: سورة الذاريات، آية: ٢٤-٣٠، تفسير الطبرى ١٥/٢٨١-٤٠٦، تفسير المنار ١٢/١٠٥-١٠٨، تفسير القرطبي، ص ٣٢٩٠-٣٢٩٩، ٦٢١٤-٦٢١٦، تفسير ابن كثير ٤/٢٦٤-٢٦٦، ٧/٣٩٧-٣٩٨).

(٢) تكوين ١٨ : ١٦-٢٣. ثم قارن الآيات الكريمة (سورة هود، آية: ٧٤-٧٦، سورة العنكبوت، آية: ٣١-٣٢، سورة الذاريات، آية: ٣٠-٣٧، وانظر: تفسير القرطبي، ص ٣٣٠٠-٣٣٠١، ٥٠٥٧-٥٠٥٨، ٦٢١٧-٦٢١٨، تفسير ابن كثير ٧/٣٩٨-٣٩٩).

(٣) خروج ٢٤ : ٩-١١.

من بنى إسرائيل، فجعله للإسرائيليين عامة، وذلك حين أمر الربُّ موسى أن يستعد القوم للقاء ربهم ويغسلوا ثيابهم، «لأن الربُّ ينزل أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء»^(١).

وهكذا ظل الإسرائيليون يضورون ربهم «يهوه» بشتى الصور المادية، حتى وصل الأمر إلى أن يصور الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - وهو يصارع يعقوب حتى مطلع الفجر، فلا يفلته يعقوب حتى يغير اسمه إلى إسرائيل، ويقص علينا سفر التكوين تلك الأسطورة، فيروى أن يعقوب بينما كان عائداً من «فدان آرام» إلى أرض كنعان، وهناك عند «مخاضة يوق»، وقد أجاز يعقوب عائلته عبر الوادي، يبرز له من يصارعه حتى مطلع الفجر، صراع رهيب، يكاد يعقوب يتغلب فيه على خصمه، لولا حركة مخالفة للأصول، يصاب فيها يعقوب بضربة ينخلع لها حق الورك، ويسأل يعقوب غريمه فلا يجيبه، وإن كان يباركه، فيطلق عليه اسم «إسرائيل»، فيفرح يعقوب، ويسمى المكان «فتوئيل» (وجه الله)، قائلاً: «لأنني نظرت الله وجهاً لوجه، ونجيت نفسي»، وتشرق الشمس، فإذا بيعقوب يخمع على فخذه، ومن ثم «لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء، الذي على حق الفخذ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النساء»^(٢).

ويصور الإسرائيليون ربهم «يهوه»، وكأنه يخاف من مركبات الجبال، كما يخافها جنوده، وغبروا ردحاً من الدهر، وهم يسون بينه وبين عزازيل - شيطان البرية - فيتقربون إليه بذبيحة، ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلها^(٣)، كما كانوا يعتقدون أن الربُّ هو الذي دفن موسى، عندما مات عند رأس

(١) خروج ١٩: ٩-١١.

(٢) تكوين ٣٢: ٢٢-٣٢، وانظر عن أسطورة المصارعة هذه بالتفصيل . (محمد بيومي مهران،

إسرائيل، الكتاب الثاني - التاريخ، ص ١٩٩-٢٠٥)، ط ١٩٧٨.

(٣) عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة ١٩٦٥، ص ٥١.

«الفسجة»، التي يفترض أنها جزء من جبل «نبو»^(١) في أرض مؤاب^(٢).

ويبلغ الأمر أشده حين يرى كتابة التوراة أن إسكان إله إسرائيل في وسط إسرائيل، أفضل من سكناه الجبل، ففي سكناه في وسط شعبه، ضمان كفي لا تعود هذه الجماعة إلى ما صنعت يوم طلبت من هارون أن يصنع لها عجلاً مسبوكة وراحت أمامه ترقص^(٣)، فلو لم يكن «يهوه» في الجبل لما استطاعت إسرائيل أن تصنع ما صنعت، ومن ثم فلتنتصب له بين خيام جماعة إسرائيل خيمة.

ثم يأتي هذا المؤلف، إلا أن يتمادى في بهتانه، فينسب ذلك إلى موسى حيث يقول: «وأخذ موسى الخيمة ونصبها خارج المحلة، بعيداً عن المحلة، ودعاها خيمة الاجتماع، فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التي خارج المحلة، وكان جميع الشعب إذا خرج موسى إلى الخيمة، يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمته، وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة» وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة، ويقوم الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته، فإنما في هذه الخيمة بالذات «يكلم الرب موسى وجهاً لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه»^(٤)، ومن هنا، فإن هذه الخيمة لن تترك وحدها

(١) من المحتمل أن «جبل نبو» إنما هو «جبل نبا» الحالي، على مبعده ١٣ كيلاً إلى الشرق من نهر الأردن، وأما «الفسجة» فربما كانت القمة الغربية والسفلى لنفس الجبل، ويقودنا الطريق المنحدر من الجبل إلى «عيون موسى» التي تشرف على خرائب قلعة «خرية عين موسى»، وهناك خرائب بعيدة عنها، وهي «خرية الخيط»، التي يمكن أن توحد بمدينة «نبو» على مبعده ٨ كيلاً إلى الجنوب الشرقي من «حسيان»، بينما على الجبل نفسه بقايا كنيسة بيزنطية. (قاموس الكتاب، ٩٥٣/٢-٩٥٤. وكذا:

N. Glaeck, The Other side of the Jordan, New Haven, 1945, p. 143.

(٢) تثنية ٣٤: ٥-٦. عباس محمود العقاد، الله، القاهرة ١٩٦٨، ص ٩٩.

(٣) خروج ٣٢: ١-٢٩. ثم قارن: سورة البقرة، آية: ٩٢، سورة الأعراف، آية: ١٤٨-١٥٢.

(٤) خروج ٣٣: ٧-١١.

أبدًا، فإذا ما غاب موسى عنها، كان يشوع خادمه في داخلها، لأنها مكان اللقاء بين موسى وربّه، فإذا ما أراد الربُّ موسى - أو أراد موسى الربُّ - ينزل الربُّ، وفي عمود سحب يقف بالباب^(١).

ويبدو أن هذا ليس كل ما في جعبة كتبة أسفار التوراة لذا نراهم يصورون الله - أو يهوه اليهود - قاسيًا مدمرًا، متعصبًا لشعبه، لأنه ليس إله كل الشعوب وإنما إله بنى إسرائيل فحسب، وهو بهذا عدو للآلهة الأخرى، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى، ومن هنا فإن ربَّ إسرائيل إنما يأمر شعبه باستعباد جميع شعوب المدن القريبة منه، حين توافق على الصلح معهم، فإن شئت ضدّهم حربًا، وكتب لهم نصرًا عليها، فليس لهذه الشعوب عند بنى إسرائيل سوى السيف، تضرب به رقاب رجالهم جميعًا، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل من في المدن، فغنيمة خاصة للإسرائيليين، وأما الشعوب الأخرى، فعلى الإسرائيليين ألا يبقوا منها نسمة أبدًا أي على الإسرائيليين أن ييدوهم تمامًا^(٢).

وهكذا حبس اليهود إلههم «يهوه» داخل ذلك الإطار الإنساني المحدود لم يستطع خيالهم أن يتسامى بصورة إلى ما وراء الحدود المادية، فخرج في روايات توراتهم على صورة تأباها النفس، ويمجها الذوق، صورة أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، وهو أمر تنبّهت إليه الأديان الكتابية فيما بعد، فضغطت على الناحية الروحية ضغطًا واضحًا^(٣)، الأمر الذي يتجلّى، أعظم ما يتجلّى، في الإسلام - ديون التوحيد المطلق - يقول عز من قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٤).

(١) أفكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) تثنية ٧: ١-٣، ٢٠: ١٠-١٦.

(٣) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٤) سورة الإخلاص.



الفصل الثاني

يهوه : إله إسرائيل

١ - الأصول العربية للإله يهوه

يتجه بعض الباحثين إلى أن الشريان الرئيسي للديانة العبرية، إنما يتصل في واقع الأمر ببلاد العرب القديمة، ومن ثم فعلينا أن نبحث عن وطن القبائل العبرية وديانتها في شمال غرب الجزيرة العربية، وهي منطقة كانت مركزاً من مراكز الثقافة العربية القديمة^(١).

ذلك أن أصول الديانة العبرية القديمة وأسسها - ولا أعنى هنا ديانة الأنبياء، وإنما أعنى تلك الديانة التي سادت بين الشعب العبري - إنما ترجع إلى أصول عربية، صحيح وبالتأكيد، إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، ثم موسى وهارون، وكذا داود وسليمان، وغيرهم من المصطفين الأخيار، عليهم السلام، نادوا بالوحدانية المطلقة، وصحيح كذلك وبالتأكيد، أن اليهودية دين سماوي، نادى بوحداية الله، الواحد الأحد.

ولكنه صحيح كذلك، أن اليهودية السماوية شيء، واليهودية - كما تقدمها لنا توراة اليهود المتداولة اليوم - شيء آخر، وهي التي تعيننا حين نتحدث عن التأثير العربي في ديانة العبريين، حيث نجد الطقوس العربية القديمة المجردة من الصور عند العبرانيين - وإن كان تأثير ديانة إخناتون في هذه الجزئية أوضح - والأمر كذلك بالنسبة إلى التثليث العربي، فعند العبرانيين (يهوه وبعل وعشتارت)، وقد كان هذا الثالوث يقدر عند العبرانيين في عصر الملوك من جميع أفراد الشعب^(٢)، وإن كانت عبادة

(١) D.S. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924, p. 8, 10, 23, 25.

(٢) ديتلف نلسن وآخرون، التاريخ العربي القديم، ترجمه وزاد عليه: فؤاد حسنين، القاهرة ١٩٥٨،

«بعل» على أيام الملك الإسرائيلي «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م)، معاصر النبي اليهودي «إيليا» - وهو «إلياس» على ما نرجح - أوضح من غيرها (١).
والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ، فَكُذِّبُوا فَمَا يَأْمُرُكُمْ لِئَلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ» (٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أننا نجد عند العبرانيين، تلك الظاهرة العربية القديمة، أعنى «الشمس كإلهة أم ومؤنثة، كما فى زواج «يهوه» - رب يهود - بالشمس، وفى جميع الحالات التى ترد فيها الشمس فهى مؤنثة، وأما «الزهراء» (عشتر) فمذكر (٣).

وأما «يهوه» رأس الثالوث، فيظهر فى الهيئة العربية القديمة جداً، كما يرجح ورود الاسم فى النقوش اللحيانية (٤)، ولدينا الكثير من الأدلة التى تؤيد أن الإله العبرى «يهوه» إنما هو فى الأصل إله قمرى، كما أن الحصان عند العرب القدامى - وكذا العبرانيين - هو الحيوان المقدس التابع للشمس، تبعية الثور للقمر، كذلك كان «يهوه» فى العصور القديمة يرسم فى صورة «ثور» مقدس ويعبد، فضلاً عن أننا نجد قرنين فى مذبحة (٥)، إلى جانب أننا نفهم

(١) ملوك أول ١٦ : ٣٠-٣٤.

(٢) سورة الصافات، آية : ١٢٣-١٢٨؛ وانظر: تفسير البيضاوى، ٢/٢٩٩؛ تفسير روح المعاني، ٢٣/١٣٨-١٤٠؛ تفسير ابن كثير ٧/٣١-٣٢؛ تفسير القرطبي، ص ٥٥٥٩-٥٥٦٤؛ تفسير القاسمى ١٤/٥٠٥٩-٥٠٦١؛ تفسير الطبرى ٢٣/٩١-٩٥؛ تفسير الطبرسى ٢٣/٨٠-٨٢؛ تفسير الفخر الرازى ٢٦/١٦٠-١٦١.

(٣) ديتلف نلسن، المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٤) A.J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archeologique on Arabic, II, Paris, 1911, p. 250-91.

(٥) خروج ٣٢ : ٤؛ ملوك أول ١٢ : ٢٨؛ ملوك ثان ٢٣ : ١١؛ هوشع ٨ : ٥.

من العهد القديم (التوراة) أن الديانة العبرية قبل السبي البابلي، في القرن السادس قبل الميلاد، كانت توصف بأنها ديانة قمر وشمس وكواكب^(١).

على أن هناك ما يشير إلى أن الموطن الأصلي لرب يهود، إنما كان في سيناء، وربما قد احتفظت ذاكرة القوم بذلك في أغنية «دبورة»^(٢)، حيث يصور «يهوه» آتياً من جبل سعيير (على الجانب الشرقي من البرية العربية) عابراً أرض أدوم، ليقود المحاربين الإسرائيليين، لكي يصرعوا الكنعانيين، تقول التوراة: «يارب بخروجك من سعيير، بصعودك من صحراء أدوم، الأرض ارتعدت، السماء أيضاً فطرت، كذلك السحب قطرت ماء»^(٣)، فالإله «يهوه» إذن إنما قد أقبل من سعيير، ومن ثم فهذا يشير إلى أن موطنه لم يكن في كنعان، وإنما كان في سيناء، وأنه كان ما يزال إله البرية المحارب^(٤).

ولأنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن إله القمر، إنما كان ينظر إليه ككبير للآلهة، وكإله قومي، والأمر كذلك بالنسبة إلى «يهوه» عند العبرانيين، فقد كان إلهاً قومياً، بل إن القوم حتى لم يفكروا في أن يجعلوا «يهوه» - قبل عصر إشعيا النبي (٧٣٤-٦٨ ق.م) - إله العبريين جميعاً، أو حتى إله الأسباط جميعاً^(٥)، وحين فعلوا ذلك، فإنهم لم يصوروه أنه الإله الأوحد - أو حتى الوحيد - وإنما هو أكبر الآلهة فحسب، ومن ذلك ما جاء

(١) ملوك ثان ١٧: ١٦، ٢١: ٣، ٥، ٢٣: ٤-٥، ١٥: ٨، ٢: ٨.

(٢) ظهرت «دبورة» في عصر القضاة كشخصية من أقوى الشخصيات ذلك العصر دون منازع، وهي زوجة «فيدوت» من سبط أفرام، وقد نالت ولاء قومها وزعامتهم، حتى أنها أصبحت قاضية لإسرائيل - ونبيه كذلك - متخذة لها مركزاً عند «نخلة دبورة»، بين الرامة وبيت ليل في جبل أفرام. (قضاة ٤: ٤، ٩، قاموس الكتاب المقدس ٣٦٨/١).

(٣) قضاة ٥: ٤-٥.

(٤) A. Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, (٤) London, 1962, p. 404.

(٥) قضاة ١١: ٢٤، راهوت ١: ١٥، ديتلف نلسن، المرجع السابق، ص ٢٢٨.

فى التوراة «من مثلك بين الآلهة يا رب»^(١)، و«الربُّ إلهنا أعظم من جميع الآلهة»^(٢)، و«الربُّ أعظم من جميع الآلهة»^(٣).

وبدهى أن هذه النصوص التوراتية جميعاً، إنما تدل على أن «يهوه» لم يكن الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده، أو هو نفسه يعترف بوجوده وحده، وشاهد ذلك أن كل ما يطلبه فى الوصية الأولى من الوصايا العشر، هو أن يكون مقامه فوق سائر الأرباب جميعاً^(٤).

وهكذا كان للمؤابيين إلههم «شمس»، وكانت «نعمى» تظهر أنه لا ضمير من أن تظل «راعوث» على ولائها لآلهتها^(٥)، كما كان العبريون يتقبلون «كيموش» كإله القوم «وليس ما يملك إياه كيموش إلهك تمتلك»، وجميع الذين طردهم الربُّ إلهنا من أماننا، فإياهم نمتلك»^(٦).

هذا وقد كان الإسرائيليون يعظمون «بعل»، كما كان «بلزيوب» (بعل زيوب) إله «عقرون» - وهى قرية «بسيطة» جنوب يافا بـ ١٩ كيلاً - و«ملكوم» إله عمون، ذلك لأن النزعة الانفصالية التى كانت تتملك نفوس القوم من الناحيتين السياسية والاقتصادية، قد أدت بطبيعة الحال إلى ما نستطيع أن نسميه استقلالاً دينياً^(٧).

وانطلاقاً من هذا - وكما يقول إنجتل - أن الوجدانية التى كان يدركها الإسرائيليون فى ذلك الوقت لم تكن وجدانية تفكير، ولكنها وجدانية تغليب لربِّ من الأرباب على سائر الأرباب، ولم يخط اليهود غير

(١) خروج ١٥: ١١.

(٢) أخبار أيام ثان ٢: ٥.

(٣) خروج ٢٠: ١٣ عيسى العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١٢٢.

(٤) راعوث ١: ١٥.

(٥) قضاة ١١: ٢٤.

(٦) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى من المجلد الأول، ترجمة محمد بدران، القاهرة

١٩٦١، ص ٢٤٢.

هذه الخطوة، وهي أن لليهود، إلهًا يعلو على آلهة غيرهم من البشر^(١).

٢ - يهوه والآلهة الكنعانية

نعرف من التوراة - طبقًا لما جاء بها في سفر القضاة - أن الإسرائيليين إنما كانوا بعد غزو فلسطين، يتعبدون لربهم «يهوه»، إذا ما أحاطت بهم المصاعب من كل جانب، بينما كانوا يتعبدون لآلهة «البعول» الكنعانية، عندما تنفجر الأزمة ويعم الرخاء^(٢)، هذا وقد أقام سكان «أورشليم»^(٣) في القرن الثامن قبل الميلاد، طقوس عبادة يهوه في معبد حية النحاس (نحشتان)، التي ربما كانت معبود اليوسيين القديم^(٤)، وربما عبدوا كذلك في فترة ما الإلهة «عشتار»^(٥).

وهناك ما يشير إلى أن يهود «إيفانتين»^(٦)، إنما قد عبدوا في القرن

(١) عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 404.

(٣) انظر عن «أورشليم»: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الجزء الثاني: التاريخ، الباب الرابع، الفصل الخامس، ص ٨١٢-٨٦٦، ط ١٩٧٨.

(٤) انظر عن «اليوسيين»: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الجزء الثاني، التاريخ، الباب الخامس، الفصل الأول، ص ٥٦٢-٥٦٣.

(٥) انظر: ملوك أول ١٥؛ ملوك ثان ١٨؛ ٥، ٢٣، ٤، ٧، وكذا: A.Lods, op.cit., p. 404.

(٦) إيفانتين: تقع جزيرة إيفانتين Yeb والمعروفة الآن باسم «جزيرة أسوان» على مبعده ٩ كيلًا من الجدل الأول، في مقابل مدينة أسوان الحالية عبر النهر، ويعنى اسمها في اللغة المصرية القديمة «فيل» والذي انتقل إلى اليونان تحت اسم «إيفانتين» (أو إيفنتين)، وربما سميت كذلك لأن الأفيال قد وجدت فيها مكانًا لاستقرارها قبل هجرتها النهائية صوب الجنوب، ونظرًا لتحكم جزيرة «يب» و«أسوان» (والمعروفة عند الأغارقة باسم سين Syenc) في مدخل مصر الجنوبي فقد أقيمت في كل منهما قلعة، ومن ثم فإن البرديات الآرامية إنما تتحدث كثيرًا عن «يب القلعة» و«أسوان القلعة» (قلعة سينى أو سنى أو سونو)، هذا وقد ذكرت أسوان في التوراة كذلك (حزقيال ٢٩: ١٠، ٢٠: ٦؛ مصطفى عبد العليم، اليهود في عصر البطلمة والرومان، ص ٦؛ خالد الدسوقي، الجالية اليهودية في أسوان، ص ٤٩، وكذا:

H.Goedick, ZAS, 81; 1956, p. 81-124; E.G. Krealing, The Brooklyn Museum; Aramaic Papyri, New Haven, 1963, p. 21.

الخامس قبل الميلاد - إلى جانب ربهم يهوه - عديداً من أزواج الآلهة مثل «عنات بيت إيل» و«أشيم بيت إيل» و«عنات ياهو»^(١)، ولعل هذا إنما يشير إلى إحياء استقرار بني إسرائيل في فلسطين، كما يشير كذلك إلى أن القوم إنما بدأوا يتخلون عن دينهم القومي، وعبادة آلهة أخرى مع «يهوه» رب إسرائيل^(٢).

ويبدو أن «يهوه» - بعد غزو يهود فلسطين - أخذ أماكن عبادة الآلهة القديمة، وإن كان من النادر أن ذلك قد صاحبه عنف شديد^(٣)، ربما لأن الكنعانيين قد اقتنعوا أن ربهم «بعل» إنما قد رضى مختاراً، أن يكون لرب جيرانهم الجدد مكاناً في معبده^(٤)، وطبقاً لما جاء في النقوش، فإن «تيلما» Telma يستقبل الإله «سالم» Salm برهبة^(٥)، وبنفس الأسلوب فلقد استقبل «يهوه» Jahweh نفسه في عصر الملك «منسى» (٦٨٧-٦٤٢ ق.م) آلهة آشور في معبده بأورشليم، وإن لم يكن القوم يضعون يهوه في مكانة مساوية لهذه الآلهة، ذلك لأن بني إسرائيل إنما كانوا يعتبرون ربهم «يهوه» سيد البلاد الحقيقي، والوحيد كذلك^(٦).

ومع ذلك، فقد كانت معظم أماكن عبادة «يهوه» في فلسطين، إنما هي في الأصل أماكن مقدسة كنعانية، حتى إن لم يقدم لنا ذلك تفسيراً

A. Lods, op.cit., p. 404-405.

(١)

وكنا:

Guslav Hoelscher, Die Profeten Untersuchung Zur Religions Geschichte, Israels, Leipzig, 1914, p. 160.

(٢) ملوك أول ١٨ : ٢١، إرميا ٨ : ٩-١٠، ١٦-١٨، وكنا:

(٣) قضاة ٦ : ٢٥-٣٢.

A. Lods, op.cit., p. 405.

(٤)

M.J. Lagrange, Etudes Sur Les Religions Semitiques, 1905, p. 502-503.

(٥)

A. Lods, op.cit., p. 405.

(٦)

لأماكن العبادة المقدسة المسورة في «شكيم»^(١)، أو «عفرة»^(٢)، فإنه يمكن تعليل ذلك بأن أماكن عبادة يهوه، إنما كانت عادة تحتوى على يتبوع أو حفرة أو شجرة بلوط، أو تكون على قمة جبل، وهى - فى الواقع - إنما كانت مقدسة من قبل عند الكنعانيين، ورثها «يهوه» عن هذه الآلهة المحلية القديمة، وهو أمر جد شائع فى الديانات القديمة^(٣).

وهكذا أصبح «يهوه» - بعد أن تملك أماكن العبادة الكنعانية - إله البلاد واعتبر الإسرائيليون فلسطين أرض يهوه. (أرض الرب)، وتطلعوا إليه ليبارك زراعة الحقول، ذلك لأنه قد أصبح هو الذى يصيب أرض كنعان بالقحط، أو يهيا المطر، وربما قد ساعد على نقل هذه الوظائف إلى «يهوه»، أن كان فى الأصل رباً للعاصفة، كما كانت لديه وسائل الزراعة، تقول التوراة - على لسان «يهوه» - اصنعوا واسمعوا صوتى، انصتوا واسمعوا قولى، هل يحرق الحارث كل يوم، ليزرع ويشق أرضه ويمهد لها، أليس أنه إذا سوى وجهها يبذر الشونيز^(٤)، ويذرى الكمون، ويضع الحنطة فى أتلام، والشعير فى مكان معين، والقطنى^(٥) فى حدودها، فيرشده بالحق، يعلمه إلهه، إن الشونيز لا يدرس بالنورج، ولا تدار بكرة عجلته وخيله، لا يستحقه، هذا أيضاً خرج من قبل رب الجنود، عجيب الرأى، عظيم الفهم^(٦).

(١) قارن: قضاة ٩: ٦، ٣٧ - ب. تكوين ١٢: ٦ - ١: يشوع ٢٤: ٢٦.

(٢) قضاة ٦: ٢٥ - ٣٢.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 406.

(٤) الشونيز: نبات من الفصيلة الشقيقة، واسمه باللاتينى Nigella Sativa، وهو ذو أزهار خيمية شبيهة بنبات اليانسون، ويسمى بذرة «حبة البركة»، والشونيز لا يدرس بل يخبط بالمصا (قاموس الكتاب المقدس، ١/٥٣٠).

(٥) القطنى: كلمة عبرية بمعنى المزروعات، ويراد بالقطنى عند علماء العرب، جميع الحبوب التى تطبخ كالعدس والبقول واللوبيا والحمص (قاموس الكتاب المقدس، ٢/٧٣٨).

(٦) إشعيا ٢٨: ٢٣ - ٢٩.

وقد أدى ذلك كله إلى نوع من التغير في عبادة يهوه، إذ أصبح القوم يحملون إليه - كما كان يحدث مع آلهة البعول - قرابين الحب والفاكهة والزيت والنبيد، كما أقاموا له ثلاثة أعياد زراعية رئيسية، أكبرها عيد الكروم، وهو في الأصل عيد كنعاني، وكانوا يحتفلون به في «شكيم»^(١)، في معبد «بعل بريث»^(٢) Ball Berith، هذا إلى جانب أعياد الرعاة البدو اليهودية، و«عيد جز صوف الغنم» و«عيد الفصح»، وهي أعياد مفرقة في الغموض، كما أن «عيد الخلاص من مصر» (الفصح Passover)، إنما قد أعيد الاحتفال به في يهوذا في القرن السابع قبل الميلاد^(٣).

هذا وقد اتسمت أعياد يهوه - إله إسرائيل - بصفة المرح والابتهاج - شأنه في ذلك شأن أعياد البعول - وكانت «الدعارة المقدسة» Sacred Prostituiton تمارس تكريمًا ليهوه، ربّ يهود، وكان يصور أحيانًا مثل «حدد» Hadad على شكل «ثور»^(٤)، كما كان يعبد في كل مكان طبقًا لطقوس هذا المكان، كما كان يحمل لقبًا خاصًا بهذا المكان كذلك - كما كان الأمر مع آلهة البعول المحلية - ، وهكذا كان «يهوه» بلقب «إله الرؤيا» (إيلي رئي)^(٥) و«إله دان»^(٦) و«الإله السرمدي»^(٧) God of Eternity، و«محبوب بثر سبع» و«إله بيت إيل» و«رب العمود»^(٨).

(١) شكيم: مدينة كنعانية، يحمل أن يكون مكانها الأصلي «تل البلاطة» شرق مدينة نابلس الحالية، والتي تبعد عن أورشليم بحوالي ٥٠ كيلاً، و ٩ كيلاً إلى الجنوب الشرقي من «السامرة». (قاموس الكتاب المقدس ١/٥١٤-٥١٥ وكنا: J. Finegan, op.cit., p. 183.

(٢) قضاة ٩: ٢٧.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 407.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 457-458.

(٥) تكوين ١٦: ١٣.

(٦) عاموس ٨: ١٤.

(٧) تكوين ٢١: ٣٣.

(٨) تكوين ٣١: ١٣، ٣٥: ٧، وكنا: A. Lods, op.cit., p. 124, 261, 407.

ويدهى أن كل هذه الألقاب إنما تشير إلى أن وحدانية يهوه إنما قد أصبحت في خطر، ومن ثم فقد رأينا التوراة تقول «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد»^(١)، ويعلن «موسى بن ميمون» (١١٣٥-١٢٠٤ م) علامة اليهود، والذي تأثر بعلم التوحيد، وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين، أن هذه الشهادة إنما تعلن عن وحدانية لا شبهة فيها على الإطلاق، ثم يصف الرب بأنه ليس بجسم، ولا تحده بحدود الجسم، وأنه هو منذ الأزل وإلى الأبد، وأنه الأول والآخر ثم ينزه الرب عن الشريك.

وكل ذلك يبدو فيه بوضوح أثر الفكر الديني الإسلامي، الذي لم يكن معروفاً على عهد التوراة، يوم كان الرب الواحد لا يعنيه إلا شعبه المختار، ولا يفضيه أن تكون للأمم الأخرى آلهة أخرى، ولا يتحرج الراوية التوراتي - على لسان موسى نفسه - من أن يقارن بين رب يهوه، وغيره من الأرباب^(٢)، فيقول: «من مثلك بين الآلهة يارب، من مثلك جليل القدسية...»^(٣).

هذا فضلاً عن أن المصلحين على أيام «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا، قد استنوا سنة جديدة مؤداها: أن تكون العبادة ليهوه مقصورة على معبد واحد، هو معبد أورشليم^(٤).

هذا وقد حمل «يهوه» لقب «بعل» Baal في عصر القضاة والجزء الأكبر في عصر المملكة المتحدة، وهكذا رأينا «شاول» (١٠٢٠ -

W.F. Bade, ZATW, 1910, p. 80-90.

(١) تثنية ٦ : ٤ . وكذا:

S. Freud, op.cit., p. 27.

وكذا:

وكذا:

William Frederick Bade, The Old Testament in the Light of To-Day, N.Y., 1915, p. 187-217.

(٢) حسن ظاها، الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة، القاهرة ١٩٧١، ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) خروج ١٥ : ١١-١٨.

A. Lods, op.cit., p. 408.

(٤)

ويدهى أن كل هذه الألقاب إنما تشير إلى أن وحدانية يهوه إنما قد أصبحت في خطر، ومن ثم فقد رأينا التوراة تقول «اسمع يا إسرائيل، الربُّ إلهنا ربُّ واحد»^(١)، ويعلن «موسى بن ميمون» (١١٣٥-١٢٠٤م) علامة اليهود، والذي تأثر بعلم التوحيد، وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين، أن هذه الشهادة إنما تعلن عن وحدانية لا شبهة فيها على الإطلاق، ثم يصف الربُّ بأنه ليس بجسم، ولا تحده بحدود الجسم، وأنه هو هو منذ الأزل وإلى الأبد، وأنه الأول والآخر ثم ينزه الربُّ عن الشريك.

وكل ذلك يبدو فيه بوضوح أثر الفكر الديني الإسلامي، الذي لم يكن معروفاً على عهد التوراة، يوم كان الربُّ الواحد لا يعنيه إلا شعبة المختار، ولا يقضيه أن تكون للأمم الأخرى آلهة أخرى، ولا يتحرج الراوية التوراتي - على لسان موسى نفسه - من أن يقارن بين ربِّ يهود، وغيره من الأرباب^(٢)، فيقول: «من مثلك بين الآلهة يارب، من مثلك جليل القدسية...»^(٣).

هذا فضلا عن أن المصلحين على أيام «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا، قد استنوا سنة جديدة مؤداها: أن تكون العبادة ليهوه مقصورة على معبد واحد، هو معبد أورشليم^(٤).

هذا وقد حمل «يهوه» لقب «بعل» Baal في عصر القضاة والجزء الأكبر في عصر المملكة المتحدة، وهكذا رأينا «شاول» (١٠٢٠-

W.F. Bade, ZATW, 1910, p. 80-90.

(١) تسمية ٦ : ٤ . وكنا:

S. Freud, op.cit., p. 27.

وكنا:

وكنا:

William Frederick Bade, The Old Testament in the Light of To-Day, N.Y., 1915, p. 187-217.

(٢) حسن ظاها، الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة، القاهرة ١٩٧١، ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) خروج ١٥ : ١١-١٨.

A. Lods, op.cit., p. 408.

(٤)

وبمرور الزمن، أصبحت الملامح المستعارة من «البعول»، توجد تمامًا بهيئة «يهوه» حتى أن الأنبياء العبرانيين الذين كانوا معادين لكل شيء كنعاني، قد أجازوا هذه الملامح، وتروى التوراة أن النبي «إيليا» (حوالي عام ٨٥٠ ق.م) قد رتب سياتًا شعائريًا، ليبرهن على أن «يهوه» - وليس بعل - هو الذي ينزل المطر على فلسطين، وذلك حين طلب أن يدعى كل إسرائيل إلى جبال الكرمل بأمر ملكي، حيث يلتقى هناك مع «أنبياء البعل» الأربعمئة والخمسين، وأنبياء السواري الأربعمئة، الذين يأكلون على مائدة «إيزابل»، ويتغلب «يهوه» على «بعل» في هذه المبارزة، لأن «يهوه» هو الذي ينزل المطر^(١).

هذا، وقد أعلن النبي «هوشع» (٧٥٠-٧٢٢ ق.م)، أن إسرائيل إنما تدين بقمحها ونبیذها وزيتها إلى «يهوه»، وليس إلى «بعل»، كما تعود الكهان والأنبياء الحديث عن كنعان، على أنها «أرض يهوه»، وأن غيرها من البلاد غير طاهر^(٢)، وهكذا يبدو واضحًا، مدى الخليط العجيب الكبير، بين طقوس الكنعانيين ودين العبرانيين، ولكن يبدو أن الآلهة المحلية، مثل «داجون» و«عشتارت» و«اترجاتس»، قد نفدت شعائرها إلى دين الوافدين الجدد من يهود، ومن ثم فإن دين إسرائيل إنما كان خليطًا مركبًا من الطقوس، وأن هذا الدين القومي لليهود إنما قد اشتقت عناصره من العرف الكنعاني^(٣).

ولعل هذا كله، إنما يدل - دونما لبس أو غموض - أن البدو العبرانيين لم يأخذوا من جيرانهم الكنعانيين الحياة الزراعية فحسب، وإنما استحذوا كذلك على عبادة آلهة التعليم الكنعانية، ولم تكن آلهة التعليم

(١) ملوكأو: ١٨، ١٩، ٤٦.

(٢) هوشع ٩: ٣-٥، عاموس ٧: ٧ لم قارن: هوشع ٨: ١، ٩: ١٥، إرميا ١٢: ١٤.

A. Lods, op.cit., p. 409.

(٣)

على غرار «يهوه» آلهة حرب، ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين، تتمثل فيهم قوى الخصب، والحياة المنتجة، ويتألفون أزواجاً، ذكر وأنثى (بعل وعشتارت)، ولهم ديانات محلية متباينة، تصحبها الشهوة، ولو كانت عملية الامتزاج سليمة في جملتها، فربما كان دين العبريين قد هبط في يسر وسهولة إلى مستوى الدين الكنعاني، وكان «يهوه» قد اندمج مع «البعليم»، ولما ترك العبريون طابعاً على تاريخ البشر الروحي، ولكن كان على الغزاة الإسرائيليين أن يحاربوا لأجل ميراثهم، ولحفظ شخصيتهم الدينية والقومية، وظل يهوه - بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتارت أو العمود المقدسة - إله شعبه المختار، ولا تزال أغنية دبورة^(١)، وهي واحدة من أقدم شذرات أدب الشعر العبرى - باقية لتبين لنا كيف أن عقيدة يوه، قد ألهمت عشائر العبريين في تلك المعارك القديمة مع الشعوب المحيطة بها.

وقد عملت الحروب اليهودية ضد الفلسطينيين - في القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد^(٢) - على تقوية الشعور بقومية متميزة، وعلى الاستقلال الدينى والقومى فى نفس الوقت، ومن ذلك الوقت فصاعداً، أصبحت عبادة يهوه - على الرغم من طائفة عظيمة من إضافات كنعانية - الرمز المعترف به لمصير العبريين الذى تميزوا به^(٣).

وهكذا فقد احتفظ دين يهوه بكثير من عناصره الأساسية اليهودية، وتعزى هذه النتيجة - دون شك - جزئياً، إلى شعور المستوطنين العبريين القومى، وإلى تضامنهم العنصرى القوى، وإلى روح البدو المنتصرين البدائية،

(١) انظر: الإصحاح الخامس من سفر القضاة.

(٢) انظر عن هذه الحروب: محمد بيومى مهران، إسرائيل الكتاب الثانى، التاريخ، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٦٨٠-٦٩٠، ٧١٠-٧١٣.

(٣) وج. دى بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى سوسن، ومراجعة يحيى الخشاب، وصقر خفاجة، القاهرة ١٩٦٥، ص ٦٨-٦٩.

وإلى الحروب المستمرة، التي كانوا يسمونها «حروب يهوه» - والتي أبقت صلاتهم قوية بربهم القوي - وإلى ما يحيط باللاويين - عشيرة موسى - من امتياز ديني، وهم الغيورون على «يهوه» رب إسرائيل، وإن كان ذلك كله يجب أن يعزى إلى حقيقة هامة، وهي أن مؤسس التحالف العبري - كلیم الله عليه السلام - إنما قد غرس في نفوس شعبه، أن يهوه كان - وما يزال وسيظل - رب إسرائيل الوحيد، بل الأوحد.

وليس هناك من ريب في أنه كانت توجد طقوس مثل «الدعارة المقدسة» ما كانت تتفق وروح اليهودية، ومن ثم فقد كان أمر لا مفر منه، أن تقاوم وتستأصل، بمرور الزمن، هذا وقد كان «يهوه» دائماً بالنسبة إلى الإسرائيليين، هو «الإله القومي» National God، وعلاقته بشعبه ذات طبيعة أخلاقية بعكس آلهة «البعل» التي كان وجودها لا يختلف عملياً عن حياة الطبيعة، مثل «تموز - أدونيس» Tammuz - Adonis، الذي يموت ويولد ثانية مع النبات كل عام، ومن هذا يمكن تأييد ممارسة «الدعارة المقدسة»، التي يتحد بها الفرد بذاته بتصرف إحصائي إلهي، مفروض أنه يؤثر في إحياء سنوي للطبيعة، الأمر الذي لم يكن أبداً مقبولاً في اليهودية، طبقاً للقانون التثوي^(١)، وأن هذه الممارسة إنما قد منعت كقربان للرب، لأن المال الذي كان يؤخذ ثمناً لهذا القربان، إنما كان يدفع إلى الخزينة المقدسة^(٢).

أما بالنسبة للممارسات السحرية أو البربرية، مثل عبادة الأشجار والينابيع والأحجار المقدسة أو التضحية البشرية وغيرها، والتي وصفها المصلحون الدينيون في القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، بأنها استعارات كتعانية ضارة، فقد سبق أن مارست قبائل البدو العبرية مثلها في فترة مبكرة من ميلاد اليهودية.

(١) تثية ٢٣: ١٨-١٩.

A. Lods, op.cit., p. 409-410.

(٢)

على أننا يجب ألا نبالغ كثيراً في خطورة تأثير الطقوس الكنعانية على ديانة يهوه، هذا فضلاً عن أن هناك - من ناحية أخرى - ما يشير إلى أن قوة «يهوه» إنما قد ازدادت بدرجة كبيرة، وامتدت إلى كل بلاد كنعان، نتيجة تغلغل الطقوس البعلية في اليهودية، فقد اعتبر «يهوه» مصدر الحياة للبلاد الزراعية، كما أن قيام الإسرائيليين بأعمال اعتقدوا أنها تمت بمساعدة «يهوه» إنما قد جعلتهم يؤمنون أن قوة ربهم وعنايته سوف تشملهم أينما استقروا، ومهما كانت الظروف التي تحيط بهم، وبهذا التصرف الإيجابي من القوم، أصبح إيمان إسرائيل بربها «يهوه» أكثر ثقة، وأحسن تجهيزاً لغزوات جديدة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الطقوس البعلية إنما قد وجدت معارضة من اليهوديين، ومن ثم فقد قامت الجماعات القينية بالحفاظ على أسلوب الحياة البدوية، وجعلت من نفسها القوة الحفيظة على دين الآباء، نقياً من شوائب الأديان الزراعية، وكان رعاة الغنم في جنوب يهوذا - دون ريب - أقل تأثراً بدين كنعان، من أولئك المزارعين ومنتجي الكروم في الوسط والشمال^(٢).

هذا وقد قوبل استخدام النبيذ - وهو هبة خاصة لآلهة البعل - في الطقوس والأعياد الموسمية، بمقاومة عنيفة، وكان ممنوعاً تماماً على «التذيريين» Nazirites و«الركاييين»^(٣) Rechabites، كما حرم على

Ibid., p. 410. (١)

G. Hoelscher, op.cit., p. 163. (٢)

(٣) الركاييون: هم قوم من القينيين أو المديانيين، وقد صاحب سلفهم الكبير «يهو ناداب بن ركاب» القائد «يهوه» (الملك ياهو، فيما بعد ٨٤٢-٨١٥ ق.م) في حملته على ذرية «أخاب»، فيستولى على الحكم، ويظهر السامرة من الأوثان، وقد سن «يهو ناداب بن ركاب» لذريته (أى الركاييين) شريعة لكي يظلوا شعباً مستقلاً ممتازاً، وعشيرة معزولة، بعيدة عن عبادة الأصنام، وتلخص هذه الشريعة في: (١) أن يمتنعوا عن شرب الخمر، وكل شراب مسكر. (٢) ألا يسكنوا في بيوت. (٣) ألا يزعوا ولا يفرسوا كرمًا. (٤) أن يكون سكنهم في خيام، وكان القصد من ذلك أن

«الكاهن» أن يشارك في تناول النبيذ، أو الشراب المختمر قبل أن يؤدي الصلاة^(١)، وكان العرف شبه السائد في العالم القديم استخدام السوائل المسكرة لجلب ظاهرة الإلهام، الأمر الذي عارضه اليهوديون الأصلاء، رغم استخدام بعض أنبياء يهود لذلك من قبل، تقول التوراة: «هؤلاء أيضاً ضلوا بالخمير، وتاهوا بالمسكر، الكاهن والنبى ترنحا بالمسكر، ابتعلهما الخمر، تاهوا من المسكر، ضلوا في الرؤيا، قلقا في القضاء، فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً»^(٢)، وتقول: «لو كان أحد وهو سالك بالريح والكذب، يكذب قائلاً: أتنبأ لك عن الخمر والمسكر، لكان هو نبيّ هذا الشعب»^(٣)، وهكذا كان حب النبيذ في فترة مبكرة، إنما لتكريم الرب^(٤)، ومع ذلك فقد حاول النبيّ «حزقيال» (٥٩٣-٥٧٢ ق.م) حوالى عام ٥٧٣ ق.م، أن يستبعد النبيذ من قائمة القرابين التي تقدم ليهوه، ربّ إسرائيل، ولكنه لم ينجح في ذلك أيضاً^(٥).

يحتفظوا ببساطة عاداتهم البدائية، وقد أطاع الركاييون هذه الوصايا الأربعة، وظلوا شعباً مستقلاً، مجباً للسلام، وسكنوا الخيام.

وكانت أخطر النتائج لهذا كله، أن الركايين - وهم من أصول قينية، وليست عبرية - أن كانوا أشد الأقوام تمسكاً بالتعاليم اليهودية، حين تردت البلاد إلى درك أسفل من وثنية، ظلوا النواة الصلبة للديانة الحقّة في «أورشليم»، بل إنهم قبل كل شيء حماة العقيدة اليهودية، بالتضامن أو بالتداخل مع المديانيين، مما يدفع ترجيحاً وتقليباً، إلى الافتراض، بأن «يهوه» إنما هو أصلاً ربّهم، قبل أن يتخذ بنو إسرائيل إلهاً قومياً. (ملوك ١٥/١٠-٢٨؛ أخبار أيام أول ٢: ١٥؛ لرميا ٢٥: ٦-١١؛ حسين فو الفقار صبرى، إله موسى في تورا اليهود، المجلة، العدد ١٦٣، يوليو ١٩٧٠، ص ١٠، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 318-320.

(١) لاويون ١٠: ٩، حزقيال ٤٤: ٢١. (٢) إشعياء ٢٨: ٧-٨.

(٣) ميخا ٢: ١١. (٤) قضاة ٩: ١٣.

(٥) حزقيال ٤٥: ٢٤-٢٥، ٤٦: ٧، ١١، ١٤-١٥، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 411.

«الكاهن» أن يشارك في تناول النبيذ، أو الشراب المختمر قبل أن يؤدي الصلاة^(١)، وكان العرف شبه السائد في العالم القديم استخدام السوائل المسكرة لجلب ظاهرة الإلهام، الأمر الذي عارضه اليهوديون الأصلاء، رغم استخدام بعض أنبياء يهود لذلك من قبل، تقول التوراة: «هؤلاء أيضاً ضلوا بالخمير، وتاهوا بالمسكر، الكاهن والنبي ترنحا بالمسكر، ابتعلهما الخمر، تاهوا من المسكر، ضلوا في الرؤيا، قلقا في القضاء، فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً»^(٢)، وتقول: «لو كان أحد وهو سالك بالربح والكذب، يكذب قائلاً: أتتياً لك عن الخمر والمسكر، لكان هو نبيّ هذا الشعب»^(٣)، وهكذا كان حب النبيذ في فترة مبكرة، إنما لتكريم الرب^(٤)، ومع ذلك فقد حاول النبيّ ﷺ قائمة القرابين التي تقدم ليهوه، ربّ إسرائيل، ولكنه لم ينجح في ذلك أيضاً^(٥).

يحفظوا ببساطة عاداتهم البدائية، وقد أطاع الركاييون هذه الوصايا الأربعة، وظلوا شعباً مستقلاً، سعيًا للسلام، وسكنوا الخيام.

وكانت أخطر النتائج لهذا كله، أن الركايين - وهم من أصول قينية، وليست عبرية - أن كانوا أشد الأقوام تمسكًا بالتعاليم اليهودية، حين تردت البلاد إلى درك أسفل من وثنية، ظلوا النواة الصلبة للديانة الحقّة في «أورشليم»، بل إنهم قبل كل شيء حماة العقيدة اليهودية، بالتضامن أو بالتداخل مع المديتانيين، مما يدفع ترجيحًا وتغليبًا، إلى الافتراض، بأن «يهوه» إنما هو أصلًا ربّهم، قبل أن يتخلده بنو إسرائيل إلهًا قوميًا. (ملوك ١٥/١٠-٢٨؛ أخبار أيام أول ٢: ٢٥؛ إرميا ٢٥: ١١-٦؛ حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى في توراة اليهود، المجلة، العدد ١٦٢، يوليو ١٩٧٠، ص ١٠، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 318-320.

(١) لاويون ١٠: ٩، حزقيال ٤٤: ٢١. (٢) إنشياء ٢٨: ٧-٨.

(٣) ميخا ٢: ١١. (٤) قضاة ٩: ١٣.

(٥) حزقيال ٤٥: ٢٤-٢٥، ٤٦: ٧، ١١، ١٤-١٥، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 411.

لمساعدته^(١)، وتأكيدها لاعتقاد الإسرائيليين أن ربهم «يهوه» إنما كان يقيم هناك، نجد النبي اليهودي «إيليا» (إلياس)، يحج حيث يقيم «يهوه»^(٢).

ومن عجب أن يؤمن الإسرائيليون أن ربهم إنما يقيم في سيناء - وليس معهم في فلسطين - ويذكر العهد القديم أن من أتباع «يهوه» المديانيين، وأن كبير كهانهم «يشرو». إنما كان يرعى غنمه على مقربة من الجبل الذي يقيم فيه «يهوه»^(٣).

وفي هذا المكان المقدس للكهان «يشرو» تجلّى «يهوه» لموسى^(٤)، ومن

(ج) قادش قشيون: وربما كانت «أبو قديس» على مبعدة ميلين ونصف ميل جنوبى «مجدو»
(تل المتسلم)

(د) قادش الجليل: وهى مكان قرية «قديس» الحالية، على مبعدة عشرة أميال شمالى «صفد»، وأربعة أميال إلى الشمال الغربى من بحيرة الحولة، هذا وربما كانت قادش برنيع، هى المقصودة فى النص هنا. (انظر: تكوين ١٤: ٧؛ عدد ٢٠: ١٦-١٣٢١، ١٦: ٣٤، ٤: قاموس الكتاب المقدس ٧٠٨/٢-٧٠٩، وكذا:

A. H. Gardiner, Onum, I, p. 137-141; F. Unger, op.cit, p. 625.; J.H.

Breasted, The Battle of Kadesh, Chicago, 1903, p. 13.

(١) قضاة ٥: ٤. (٢) ملوك أول ١٩: ٨. (٣) خروج ٣: ١.

(٤) يعتقد بعض العلماء أن العبرانيين قد عبدوا يهوه قبل أيام موسى اعتماداً على المصدر اليهودى، ولكن المصدر الإلهيىمى والكنهوتى يذهبان إلى أن موسى هو الذى أدخل عبادة يهوه بين العبريين، ربما من مديان، وعلى أى حال، فقد كان النطق باسمه محظوراً إلا فى مقامات خاصة، وكانوا يكتبون اسم «يهوه» بالأحرف الأربعة (ي.ه.و.ها) (J.H.V.H) دون ذكر حروف العلة لخلو اللغة العبرية منها، وهكذا ورد اسمه فى «المسورة» (المسورت) ومن ثم كان من الممكن أن يقرأ الاسم «يهوه» أو «ياهو»، ولما ابتكرت علامات ضبط الحروف العبرية فى القرن السابع الميلادى كان رجال المقارئ فى المبدد يتورعون عن النطق باسم الله إذا كان ذلك محرماً على اليهود وعلى غيرهم، ومن ثم فقد استخدموا بدلا من «لفظ الجلالة» كلمة «أدوناي» أو «أدونا» (أى ربى)، وقد أثرت هذه الوسواس فى أصحاب الترجمة السبعينية فكانوا يتحاشون ذكر اسم الله إلا فيما ندر، وأدرجوا بدلا منه كلمة «هوكورپوس» أى الرب، وركب اليهود آخر الأمر لكلمة يهوه أحرف العلة التى بكلمة «أدونا» Edona فأصبح الاسم يكتب على

ثم فقد قدم يثرو وموسى وهارون، فيما بعد «القرايين ليهوه»، وعن يثرو، أخذ موسى تشريعاته القانونية.

وفى الواقع، إن وحدة العبادات، ووحدة المعبود، إنما تعنى أن الشبه قوى جداً بين الطقوس الدينية - ولو من الناحية الشكلية - وبتعبير آخر، إن العلاقة جد قوية بين المديانية المعينية، وبين عبادة «يهوه» وطقوسه، وهى اللبنة الأولى فى المقدسات الإسرائيلية^(١).

على أن فكرة إقامة «يهوه» فى صحراء الجنوب، سرعان ما اختفت بمرور الأيام، ولم يعد لها وجود إلا فى أذهان الشعراء المحافظين على التقاليد^(٢)، وكان لدى الإسرائيليين إدراك مركز جداً بالتدخل الإلهى فى كل حياتهم اليومية، وقد مرت فترة طويلة كان القوم يعتقدون فيها أن مكان ربهم إنما هو بعيد جداً عنهم^(٣).

وعلى أى حال، فما أن يمضى حين من الدهر، حتى يثبت الغزاة الجدد من بنى إسرائيل أقدامهم فى فلسطين، وهنا تبدأ فى الظهور عقيدة جديدة لدى القوم، مؤداها أن «يهوه» Jahweh إنما هو «رب أرض كنعان»، ثم سرعان ما نشأت رابطة وثيقة بين يهوه وبين هذه البلاد، لدرجة أن فلسطين إنما كانت تصور غالباً على أنها وحدها هى «مقر يهوه»، وأصبح السكان الذين كانوا يعيشون فى هذه الأرض المختارة بعيدون عن يهوه^(٤).

وزنها Je Ho Va H وينطق Jahweh (يهوه)، ومعنى هذا الاسم سر مجهول، وقد يكون معناه «أنا الذى هو أنا» أو «الخالد» وقد وصف يهوه نفسه لموسى أنه «أهيه الذى أهيه» (تكوين ٤: ٢٦، خروج ٣: ١١-١٤، ٤: ٢-٣، ١٧: ٢٠، وج.دى بورج، المرجع السابق، ص ٦٦، عصام الدين حفى ناصف، اليهودية فى العقيدة والتاريخ، القاهرة ١٩٧٧، ص ٩٦-٩٧).

(١) فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) تشبة ٣٢: ٢، حرق ٣: ٣، مزور ٦٨: ٨-٩.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 451.

(٤) لرميا ١٢: ١٤.

وأما المنفيون أو المطرودون من وجه يهوه^(١)، فإن الواحد منهم لا يستطيع أن يعبد في بلاد أخرى، أو في تربة غريبة، خاصة بألهة أخرى، وغير طاهرة في نظر رب إسرائيل^(٢)، ومن ثم، فإنه للحصول على مساعدة يهوه في بلد غريب، فمن الضروري القسم له بالوفاء بقربان، يمكن أن يتم بعد العودة إلى فلسطين، كما فعل أبشالوم بن داود^(٣)، وكما فعل «نعمان» القائد الآرامي، الذي شفاه «اليشع» النبي العبراني من برص حيث حمل إلى وطنه حمل بغلين من تراب كنعان، وهناك شيد مذبحاً على مثال ما كان ليهوه من مذابح في أرض كنعان^(٤).

ووفقاً لاعتقاد ثالث، وهو مرتبط دون شك بما سبق، فإن يهوه إنما يسكن في معابد كنعان، وعندما كان الإسرائيليون يذهبون إلى الحج في أحد هذه الأماكن المقدسة، إنما كان الواحد يفكر ويشعر ويتصرف كأن ربّه يهوه موجود حقاً، وباقياً، داخل هذا السياج المقدس، والذهاب إلى مكان العبادة إنما كان يعني في نظر القوم، البحث عن «يهوه» أو زيارته أو التطلع إلى وجهه، لأن المعبد هو «بيت الله»، وقد بقيت هذه المعتقدات حتى بين الأنبياء اليهود أنفسهم، على الرغم من أن معظم تعليماتهم كانت روحانية، وطبقاً لما جاء في سفر حزقيال، فإن تدمير معبد أورشليم في عام ٥٨٧ ق.م، إنما كان أمراً متوقعاً، لأن يهوه قد هجر معبده وأن التشريع الكهنوتي يصبح كله غير مفهوم، ما لم نعترف بأن يهود ما بعد السبي البابلي (٥٣٩-٥٨٧ ق.م) إنما قد اعتقدوا في فكرة غامضة، مؤداها: أن ربّ

(١) ملوك ثان ١٣: ٢٣، ١٧: ٢٠، ٢٤: ٢٠؛ لرميا ٧: ١٥؛ يونا ١: ٣، ١٠؛ لم قارن: تكوين

٤: ١٤؛ خروج ٢٠: ٣.

(٢) هوشع ٩: ٣-٦؛ عاموس ٧: ١٧؛ خروج ١: ٥-٢، ٧: ١٦، ٢٦: ٨، ١٦.

(٣) سموئيل ثان ١٥: ٧-٨.

(٤) ملوك ثان ٥: ١٧؛ وكذا:

السموات والأرض إنما هو موجود في قدس الأقداس في المعبد الثاني^(١)،
الذي نجح «زريابل» في إكمال بنائه في ١٠ مارس من عام ٥١٥ ق.م^(٢).

وأما مصدر هذا الاعتقاد الثالث، فيرجع إلى أن الإسرائيليين بعد
استيطانهم فلسطين، إنما قد نقلوا إلى دينهم تلك المعتقدات التي كانت
سائدة بين السكان القدامى، والخاصة بـ «البعل»، فضلا عن القدسية
الخاصة بالأماكن المرتفعة، وقد سهل من هذا التشابه أن العبريين كانت لهم
أفكار ماثلة عن الينابيع المقدسة، وعن جبال صحراواتهم^(٣).

وهناك وجه رابع للنظر فيما يختص بمسكن يهوه، مؤداه: أن رب يهود
إنما «يسكن في السماء»، ورغم أن هذا الأمر قد أثار جدلا طويلا، غير أن
النصوص - فيما يبدو - إنما تميل إلى تأكيده^(٤) ذلك أن الرواية التوراتية
إنما تذهب إلى أن «برج بابل» إنما كان يعلو إلى السماء - وهي من
الواضح مقر الأرباب - وأن «يهوه» دون شك، قد هبط من السماء مرة ليرى
هذا البرج، الذي أقامه الناس بغية غزوه في علياء سمائه^(٥)، وطبقا للمصدر
اليهوى فإن «يهوه»، إنما قد هبط مرة أخرى في سيناء، عندما تجمع
الإسرائيليون عند سفح الجبل^(٦)، هذا فضلا عن زائر «منوح» (والد
شمشون) الغامض، قد أتى «عند صعود اللهب من المذبح نحو السماء»^(٧).

وطبقا للمصدر الإلهيمي، فإن ملاك يهوه عندما يريد الاتصال بواحد
من البشر، فإنه يتأديه من السماء^(٨)، وهناك محاولة غريبة يتطابق فيها هذا

(١) A. Lods, op.cit., p. 452.

(٢) انظر: محمد يومي مهران، المرجع السابق، ص ١٠٣٦-١٠٤٩.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 452.

(٤) انظر: Bernhard Stade, Biblische Theologie des Alten Testaments, Tubingen, (٤)

1905, p. 104.

(٥) تكوين ١١: ٤-٥. (٦) خروج ١١: ٢٠. (٧) قضاة ١٢: ٢٠.

(٨) تكوين ٢١: ١٧، ٢٢: ١١، ١٥.

الاعتقاد مع سابقه، ذلك أن يعقوب عندما تلقى الحلم المشهور الخاص بـ «السلم الملائكي»^(١) في «بيت إيل»^(٢)، فإن يعقوب إنما يصيح قائلاً: «هذا باب السماء»^(٣)، وهكذا كان مسكن الرب (يهوه) في السماء، وكان المعبد الأرضي الذي أقيم في «بيت إيل» مميزاً، بأنه نقطة البداية للسلم الخفي الذي يؤدي إلى بوابة القصر المقدس، وهو المكان الذي كان يتقابل فيه يهوه مع رسله الربانيين^(٤).

وفي الواقع إن قصة الاعتقاد في السلم الملائكي بين الأرض والسماء، إنما هي موجودة عند شعوب وثنية قديمة كثيرة، وهي في الغالب إنما تتحد مع «قوس قزح» Rain Bow، أو مع صعود الأجسام السماوية يومياً من الأفق إلى كبد السماء، ثم هبوطها من السماء إلى الأرض، وإذا كان هذا الإيمان الفلسطيني يعكس في قصتنا هذه علاقته بالنجوم، فربما يشير ذلك إلى أنه من أصل بابلي، وعلى أي حال، إن كان نص القصة الأصلي قد نسي، فمن المؤكد أنه لم يدع أن النجوم إنما تملو وتتجمع عند «بيت إيل»^(٥).

(١) تروى التوراة أن يعقوب، وهو في الطريق من كنعان إلى ديار خاله لابان في حاران، أخذته سنة من النوم، فإذا به يرى - فيما يرى النائم - «وإذا سلم منصوبة على الأرض، ورأسها يمس السماء، وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها، فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك، وإله إسحاق، الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيتها لك ولنسلك» (تكوين ٢٨: ١٢-١٣).

(٢) بيت إيل: بمعنى بيت يهوه، أو بيت الله، وقد سماها يعقوب كذلك لأن الله ظهر له فيها. (تكوين ٢٨: ١١-١٩، ٣١: ٣٠) وتقع شمال أورشليم بحوالي ١٩ كيلاً.

(٣) تكوين ٢٨: ١٧.

A. Lods, op.cit., p. 453.

(٤)

(٥) سفر التكوين، إصحاح ٢٨، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 453; A. Jeremias, Das Alte Testament in Lichte des Alten Orients, Leipzig, 1904, p. 234.

وعلى أى حال، فإن هذه الفكرة إنما تشير إلى أن «يهوه» الذى يسكن السماء، لم يهجر بالضرورة الأرض، التى فرضها الاعتقاد الشعبى عليه، ومن ثم فإن رب إسرائيل اعتقد أنه كحاكم فى هذا الجزء من السماوات، وهو الجزء الذى يتطابق مع أرض كنعان فى «سماء يعقوب» - كما عبر عن ذلك فى سفر التثنية^(١)، ومع ذلك فسوف يفرض علينا هذا التصور أن نفترض وجود كائن علوى، له عقيدة أقل مادية من طبيعة «يهوه» رب إسرائيل^(٢).

٤ - يهوه والآلهة الأجنبية

ظل الإسرائيليون - حتى القرن الثامن قبل الميلاد - يعتقدون فى وجود عدة آلهة أخرى، إلى جانب ربهم القومى «يهوه» مما يشير إلى أن دين يهود لم يكن دين توحيد، فقد كان صراحة عبارة عن عبادة إله واحد، من بين آلهة كثيرين، ولقد أنفذ يهوه أمره إلى العبرانيين : «لا تعبد آلهة أخرى غيرى»، وبدهى أن عبادة إله من بين آلهة كثيرين Monolatry، إنما تعنى أنه : وإن كانت توجد آلهة كثيرة، فإن واحداً فقط منها، هو الذى يجب أن يعبد، أما التوحيد فمعناه أنه لا يوجد أبداً، سوى إله واحد، لا شريك له^(٣).

وهكذا كان عباد يهوه يعتقدون أنه الإله الواحد عندهم، ولكنهم لم يكونوا يعتقدون أنه الإله الوحيد فى العالم كله، وكانوا يتحدثون عنه بقولهم «ربنا» - أى رب بنى إسرائيل وحدهم - وكانوا يفاخرون به الشعوب والقبائل المتاخمة، التى تعبد آلهة يراها اليهود دون «يهوه» شأنًا^(٤)، وفى هذا تقول التوراة «لا مثل لك بين الآلهة يا رب»^(٥) و«من مثلك بين الآلهة يارب»^(٦)

(١) تثنية ٣٣: ٢٨.

A. Lods, op.cit., p. 454.

(٢)

(٣) و.ح.دى بروج، المرجع السابق، ص ٦٧-٦٨.

(٤) عصام الدين حفى ناصف، المرجع السابق، ص ٩٨-٩٩.

(٦) خروج ١٥: ١١.

(٥) مزمو ٨٦: ٨.

ولأننى عرفت أن الربَّ عظيم، وربنا فوق جميع الآلهة^(١)، والربُّ أعظم من جميع الآلهة^(٢)، وإلهنا أعظم من جميع الآلهة^(٣).

هذا ولم يدع «يهوه» - رب يهود - بدوره أنه إله البشر أجمعين، بل هو على النقيض من ذلك أقرَّ أن ثمة آلهة أخرى، وأبدى غيرته منها، فقد كانت السماء فى ذلك الوقت، إنما تغص - فى نظر يهود - بالآلهة ومنهم «عشتارت» إلهة الصيدونيين، و«كيموش» إله المؤابيين، و«ملكوم» إله العمونيين، وهلم جرا، ولم يكن إله العبرانيين إلا واحداً من أولئك الآلهة القبليين الذين كانوا يعبدون فى عهد البداوة^(٤)، وقد جعل «يهوه» أولى وصاياهم العشرة «لا يكن لك آلهة أخرى أمامى»^(٥)، وكرر هذا المعنى غير مرة: «فالآن اخشوا الربَّ واعبدوه بكل أمانة، وانزعوا الآلهة الذين عبدوهم أبائكم فى عبر النهر، وفى مصر، واعبدوا الربَّ»^(٦)، و«من ذبح لآلهة غير الربِّ وحده يهلك»^(٧).

وتدل هذه الحقيقة - التى أشرنا إليها من قبل كثيراً - على أن سلطة يهوه على فلسطين إنما كانت محدودة، وفى أثناء المباحثات الدبلوماسية بين «يفتاح» قاضى إسرائيل، وملك مؤاب، يقول يفتاح: «أليس ما يملك إياه كيموش إلهك تمتلك، وجميع الذين طردهم الربُّ إلهنا من أمامنا، فإياهم نمتلك»^(٨)، وهكذا يعترف كاتب نص التوراة هذا بأن «كيموش» - Che-mosh كان سيداً فى بلاده دون منازع، وأن غضبه إنما كان سبباً فى الهزيمة التى ألحقها شعبه بملوك إسرائيل ويهوذا فى منطقة المؤابيين^(٩).

(١) مزمو ١٣٥: ٥. (٢) خروج ١٨: ١١.

(٣) أخبار أيام ثان ٢: ٥.

(٤) عصام الدين حفى ناصف، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٥) خروج ٢٠: ٣. (٦) يشوع ٢٤: ١٤.

(٧) خروج ٢: ٢٠. (٨) قضاة ١١: ٢٤.

(٩) ملوك ثان ٣: ٢٧.

هذا فضلا عن أن هناك ما يشير إلى أن العبرانيين إنما قد آمنوا بهذه الآلهة الأجنبية وعبدوها، وهكذا رأينا الإسرائيليين يتعبدون لقوى الطبيعة كالشمس والقمر والكواكب والأشجار والأحجار، فضلا عن الآلهة ذوى الاختصاصات ولبثوا على ذلك دهرًا قبل أن يتجهوا صوب الإله الواحد.

وكان من أسماء آلهتهم القدامى «إيل»، ومن ثم فإن يعقوب إنما قد أقام هناك مذبحًا، ودعاه إيل إله إسرائيل^(١)، كما عبدو «عنان» ملكة السماوات، وهى إلهة سامية قديمة^(٢)، هذا إلى جانب عبادة «أشيماء» إله النار والأوبئة عند البابليين، وقد كان يهوه أيضًا إلهًا للنار، وذلك ما جعله يتراءى لموسى فى شجيرة مشتعلة^(٣)، كما كان كذلك إلهًا للأوبئة^(٤).

هذا ويعتقد بعض الباحثين أن «يهوه» هو «ملكوم» (ملك = Mo-leck، الذى كانوا يحرقون أطفالهم تضحية له)^(٥)، والذى بنى له سليمان - كما تقول التوراة - «مرتفعة» يعبدونه فيها «حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين، على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولملك رجس بنى عمون^(٦)»، و«ملك»، على أى حال، معناها «ملك»، وكان «ملك» من ألقاب يهوه المعروفة، هذا إلى جانب أن كلا من يهوه و«ملك» قد عبد فى صورة العجل.

وأيا ما كان الأمر، فلقد كان يهوه أول أمره إلهًا من الهة الطبيعة، كان إلهًا للجمال، ثم أصبح إلهًا قبليًا مقاتلًا، لأن رجال القبيلة التى عبدته كانوا مقاتلين مظفرين ذوى شوكة وبأس، وظل هذا شأنه حتى السبى البابلى، فى القرن السادس قبل الميلاد، ثم شملته حركة الترقيات، فأصبح

(٢) إرميا ٤٤: ١٧.

(٤) حبقوق ٣: ٥.

(٥) عصام الدين حفىنى ناصف، المرجع السابق، ص ٩٥.

(٦) ملوك أول ٧٠: ١١.

(١) تكوين ٢٣: ٢٠.

(٣) خروج ٣: ٢.

عميدا للآلهة في فلسطين، على مثال «مردوخ» في بابل، و«زيوس» في اليونان، ولهذا نرى سفرى التثنية ويشوع يصوران «يهوه» في صورة الطاغية الذى يهيمن على سائر الآلهة^(١)، «إله الآلهة الرب، هو يعلم»^(٢).

هذا وقد اعتبرت عبادة الآلهة الأجنبية - أو الغريبة كما كانوا يسمونها - ذات صفة شرعية فى داخل حدود مناطقها، وما زالت وجهة النظر التى تضع الرب الشرعى فى تعارض حاد مع الآلهة المزيفة غير مفهومة، وبالتالي فلقد كانت علاقة إسرائيل بالأجانب فى هذه الفترة غير ثابتة كذلك، وهكذا نرى «إيليا» النبىء، وبطل يهوه الحاد الطبع، يعيش فى منطقة الفينيقيين، وبالذات فى أحد منازل عباد «بعل»، حيث بقى هناك فى صرفه^(٣)، «عالة على إحدى الأرامل هناك، طوال فترة المجاعة التى كتب على المنطقة أن تعيشها»^(٤)، هذا إلى جانب أن الإسرائيليين لم يترددوا فى الزواج من آراميات ومؤابيات ومصريات، وفى نفس الوقت إنما كانوا فى دهشة غريبة لرفض المصريين مشاركتهم فى الطعام^(٥).

هذا وقد كان من العادات المألوفة فى الشرق القديم استشارة الوحي الأجنبى، وقد أرسل الفرعون «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م) فى طلب تمثال «عشتار نينوى» Jehtar Nineveh لمساعدته على الشفاء من

(١) عصام الدين حفى ناصف، المرجع السابق، ص ٩٥.

(٢) يشوع ٢٢: ٢٢.

(٣) صرفة: مدينة فينيقية تسمى الآن «صرفند»، وهى ضيعة قائمة على تل قرب البحر الأبيض المتوسط، وعلى مبعدة ٢٢ كيلا شمالى صور، ١٣ كيلا جنوبى صيدا، وأما المدينة القديمة فكانت عند البحر وعلى شواطئه وتمتد خرابها ميلا أو يزيد (قاموس الكتاب المقدس ٥٤١/٢).

(٤) ملوك أول ١٧: ٨-٢٤.

(٥) حدث هذا عندما أقام يوسف الصديق، وهو وزير مصر، فخصمت مائدة ليوسف، وأخرى لأهله، وثالثة لضيوفه المصريين، تقول التوراة: «وقال: قدموا الطعام، فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الأكلين عنده وحدهم، لأن المصريين لا يقدررون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين، لأنه رجس عند المصريين» (تكوين ٤٣: ٣١-٣٢).

أمراض أملت به في أخريات أيامه^(١)، كما أن ابنة ملك الحيشيين قد شفيت من مس ألم بها بناء على تدخل من الإله المصري «خونسو» بعد أن أرسلت لها صورة لهذا الإله^(٢)، وقد آمن المؤابيون والآراميون بكلمة «رجال الله» الإسرائيلييين^(٣).

ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى بني إسرائيل فقد كان شعب «يهوه» فخوراً ببركة «بلعام»، وهو متنى أجنبي مشهور من قرية «فتور» فيما بين النهرين، وطبقاً لرواية التوراة، فإن «بالاق» ملك مؤاب قد استعان ببلعام ضد شيوخ بني إسرائيل إبان خروجهم من مصر، ليبطل دعواهم باسم النبوة، ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها، فجاء بلعام ورفض طلب «بالاق»، بل وحكم بتفضيل عبادة يهوه على عبادة إله المؤابيين، وبارك الإسرائيلييين^(٤).

وتروى التقاليد الإسرائيلية القديمة، الكثير من الثقة في التكهن الذي كثيراً ما كان يديه الكهنة الفلسطينيون ورجال الرب^(٥)، وكان «أخزيا» (حوالي ٨٤٣ ق.م) ملك إسرائيل كثيراً ما يرسل لاستشارة «بعل زوب» إله «عقرون»^(٦) الفلسطينني، ومن ثم فقد كان من حق «إيليا» أن يلومه كثيراً على هذه الخطوة، أكثر من لومه إياه بسبب خرافة استشارة معبود لا يرد عليه، ونقض احترام إله بلاده، وهكذا نقرأ في التوراة: «وسقط أخزيا من الكوة التي في عليته التي في السامرة فمرض، وأرسل رسلاً وقال لهم: اذهبوا اسألوا بعل زوب إله عقرون، إن كنت أبرأ من هذا المرض، فقال

(١) S.A. B. Mercer, The Tell el Amarna Tablets, 1939, I, No. 28.

(٢) A. Moret et G. Davy, des Clans aux Empires, Paris, 1923, p. 384.

(٣) قضاة ١: ٢٠، ملوك ثان ٨، ٥: ٧-١٥.

(٤) عدد ٢٢: ١-٢٤: ٢٥.

(٥) صموئيل أول ٦: ٢-٩.

(٦) عقرون: هي أقصى مدن الفلسطينيين الخمس من ناحية الشمال، وربما كانت «عاقرة» الحالية،

وهي قرية بسيطة تقع إلى الجنوب من «يانا» بـ ١٩ كيلاً.

ملاك الرب لإيليا التشيبي: قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة^(١)، وقل لهم: أليس لأنه لا يوجد في إسرائيل إله تذهبون لتسألوا يعل زبوب إله عقرون، ولذلك هكذا قال الرب: إن السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه، بل موتاً تموت...^(٢)

هذا وقد شاركت إسرائيل الشعوب وقت ذاك في الاعتقاد بوجود قوى خارقة، فضلاً عن أرواح وكائنات وآلهة، لها القدرة على أن تهب الإنسان قدرًا من سلطتها أو علمها الخارق، وقد قر في نفوس الإسرائيليين في تلك الفترة أن النبوة الإسرائيلية لا تتميز عن غيرها من النبوات الأخرى، في أنها هي الصحيحة وغيرها الزائف، أو أنها النبوة الصادق وغيرها الكذب، ولكنها تمتاز بأن «يهوه» في هذه النبوة، إنما هو الرب الوحيد الملهم، والإله الذي تستشير به إسرائيل، بينما تعتمد النبوات الأخرى في الكشف والإيحاء على كل أنواع الآلهة المختلفة^(٣).

هذا فضلاً عن أنه على الرغم من اعتقاد الإسرائيليين بوجود اختلاف جوهرى بين طبيعة «يهوه» وبين الآلهة الأخرى الأجنبية، فقد كان القوم يعتقدون أن ربهم يهوه إنما هو أقوى بكثير في قوته من آلهة جيرانهم، وكانوا يفخرون بقصة الذل الذي نزل بالإله «داجون» الفلسطينى ومعبده، بعد أن استولى الفلسطينيون على تابوت العهد^(٤).

(١) السامرة: وهى سبسطية الحالية على مبعده ٩ كيلا إلى الشمال الغربى من شكيم، وقد بناها ملك إسرائيل «عمرى» (٨٧٦-٨٦٩ ق.م)، وسماها «السامرة» نسبة إلى «شامر» صاحب التل القديم الذى اشتراه منه وأقام عليه المدينة، وإن كان هناك من يرى أن الاسم يعنى «مركز المراقبة» أو «جبل المراقبة والحراسة»، وقد قامت عدة هيئات علمية بحفريات فى السامرة، لعل أهمها ما كان فى أعوام ١٩٠٨/١٩١٠م، ١٩٣١/١٩٣٣، ١٩٣٥. (جون إلدر، الأحجار تتكلم، ص ٨٦، وكذا:

W.F. Albright, BASOR, 150, 1958, p. 21-25; A. Lods, op.cit., p. 378;

J. Finegan, op.cit., p. 185; W. Keller, The Bible As History, 1967, p. 227.

(٢) ملوك ثان ١: ١-٤.

(٤) صموئيل أول، إصحاح ٥، ٤.

A. Lods, op.cit., p. 455. (٣)

وهكذا فقد رأينا الواحد من بني إسرائيل، إنما يعزى كل ما يحدث له من خير أو شر - حتى في بلاد الغربية - إلى حماية يهوه أو نقمته (١)، لأنه إنما كان يرى «يهوه» على نمط الملك القوي، الذي كان يقادر على أن يسبغ حمايته على رعاياه، حتى فيما وراء حدوده، وإن اضطر إلى نشر الخراب والدمار في أراضي أولئك الذين يضطهدون رعاياه، ومع أن هذه المعتقدات إنما كانت تحمل في طياتها عقائد قدامى الإسرائيليين في تعدد الالهة، إلا أنها مهدت الطريق إلى وجهة نظر أسمى من سلطة الرب القومي، وكان الرجل الورع الإسرائيلي إنما يحس دائماً بشعور متزايد نحو الاعتماد المستمر على «يهوه» حيثما يكون، ورغم ما كان لديه من تعدد العبادات في أفكاره وشعوره وطقوسه الدينية، إلا أنها كانت في أغلبها تميل أكثر إلى التوحيد (٢).

٥ - عقائد يهوه

اشتقت بعض المظاهر في عقائد «يهوه» منذ الأزمنة القديمة السابقة لعصر موسى، عليه السلام، حينما اتحد رب سيناء مع ظواهر الطبيعة، مثل البرق والعواصف والزلازل والنار، وربما كان السبب أن الجبل المقدس كان بركانياً، وتذهب الرواية التوراتية إلى أن يهوه قد ظهر للإسرائيليين قبل البركان على هيئة عمود من النار ليلاً، وعمود من السحاب نهاراً (٣).

وقد أبان نفسه لإبراهيم كشعلة متوهجة، وكمصباح نار (٤)، وقد امتلاً

(١) انظر: تكوين ١٢: ١٧، ٢٠: ٣-٧، ٢٤: ٢٧، ١٢: ٢٧، ٤٠: ٢٦، ١٢: ١٣-٢٨، ١٥: ٢٩، ٣١: ٣٠، ٢٢: ٢٤، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣-٧، ٤١: ٦١، ٥١: ٤٢، ٢١: ٤٤، ١٦: ٤٥، ٩-١٧، ٤٦: ٤؛ خروج ٣: ٧-٨؛ ملوك أول ١٧: ٢٠-٢؛ ملوك ثان ٥: ١٧.

(٢) انظر: ملوك أول ١٨: ٣٩، ملوك ثان ٥: ٥.

A. Lods, op.cit., p. 179, 456.

(٣)

(٤) تكوين ١٥: ٧.

معبد أورشليم بالدخان عندما أحضر إليه «تابوت العهد» The Ark Coven- ant إلى داخله على أيام سليمان^(١)، وعندما استقبل «إشعيا» الرؤيا التي أعلنت فيها نبوته «اهتزت أساسات العنب من صوت الصاروخ، وامتلاً البيت دخاناً»^(٢) وكان الرعد هو صوت يهوه^(٣)، وقد وصف الشعراء موكب يهوه تكتنفه السحب السوداء، وقد أفرغ حمولته من البرد، وبقايا النار من جمر^(٤).

وقد ظهر إله سيناء لموسى «لهيب نار في وسط عليقة تتوقد نارا»^(٥)، وكان مجد يهوه نارا إلهية ذات إشراقة مذهلة في فترات، من سحابة العاصفة التي تخفيه^(٦)، وأحياناً يبدو وكأن النار تحيط به^(٧)، وأحياناً تبدو النار، وكأنها تكون جسد الرب، وتظهر العربات الحربية والخيول الخاصة بالرب، وكأنها من النار كذلك^(٨).

هذا وقد استبدلت طبيعة عقيدة يهوه - بمرور الزمن - بعقيدة وثنية، كان من نتائجها تمثيل الرب بما يشبه الإنسان، وهكذا كان يهوه - في نظر الإسرائيليين - ذا أفكار وعواطف ومشاعر، كالتي لدى الإنسان، ومن ثم فمن الممكن إذن، أن يشور، وأن يهدأ، وأن يفرح، وأن يحزن، وبهذا يكون يهوه في جوهره روحاً، وهكذا مضى الإسرائيلي في تحديده للرب بالنسبة للإنسان، فنسب إليه الأعضاء الجسمانية، فجعل لربه يهوه عينيْن وأذنين وفم وأنف ويدين، فضلاً عن قلب وأمعاء، ونفس عميق أو قصير^(٩).

(١) ملوك أول ٨: ١٠-١١.

(٢) انظر: عاموس ١: ٢٢، مزمو ٢٩: ٣-٩.

(٣) انظر: قضاة ٥: ٤-١٥، مزمو ١٨: ٨-١٥، ٦٨: ٨-١٠، إشعيا ٢٩: ١١، حزقيال ١.

(٤) خروج ٣: ٢.

(٥) انظر: ملوك أول ٨: ١١، إشعيا ٦: ٣-٤، لم قارن: خروج ١٥: ١٥، ٢٤: ١٥-١٧.

(٦) انظر: خروج ٣٤-٢٩-٣٥. (٨) ملوك ثان ١٢، ١١، ٦: ١٧.

A. Lods, op.cit., p. 457.

(٩) و.ج. بوج، المرجع السابق، ص ١٦٧، وكذا:

وهكذا وصف «يهوه» بأنه مشاكل للإنسان في شكله وعواطفه، وأسلوب معاشه، فهو يسكن في «بيت»، «حينئذ تكلم سليمان، قال الرب إنه في الضباب، إننى قد بنيت لك بيت سكنى مكاناً لسكنائك إلى الأبد» (١)، وهو يفرض على عابديه فرائض من حيوانات «صحيحة لا عيب فيها» (٢)، ويطلب إليهم إتحافه بالبواكير من ثمار الموسم، ويسلط السباع الضارية، والحيات اللواذع والأويمة الفتاكة، على من يعصيه ويخالف عن أمره، وله مثل ما لنا من جوارح (٣)، «ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحى الشهادة، لوحى حجر مكتوبين بإصبع الله» (٤)، وله حواس كحواسنا، ومن ذلك أنه شم ريح القتر مما شواه له نوح من اللحم، بعدما رست به سفينته على البر، عند انحسار الطوفان، «وأخذ نوح من كل البهائم الطاهرة، ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذبح، فتنسم الرب رائحة الرضا» (٥).

وقد وصف «يهوه» بأنه تتابه انفعالات كانفعالاتنا، فهو يستشيط غضباً ثم يسكن غضبه، فيمسك عن الاسترسال فيه «فحمى غضب الرب على موسى» (٦)، «ويسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب عن الشر، وقال للملاك المهلك الشعب كفى، الآن رد يدك» (٧)، وهو يغار من الآلهة الآخرين، «فإنك لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور، إله غيور هو» (٨).

ويغار رب يهود من مخلوقاته، فقد طرد آدم من جنة عدن، لأنه هدى

(١) ملوك أول ٨: ١٢-١٣. (٢) عدد ١٩: ٢٠.

(٣) عصام الدين حفى ناصف، المرجع السابق، ص ١٠٤-١٠٦.

(٤) خروج ٣١: ١٨. (٥) تكوين ٨: ٢٠-٢١. (٦) خروج ٤: ١٤.

(٧) صموئيل ثان ٢٤: ١٦. انظر أسطورة هلاك البشر، وندم رع - الإله المصرى - على ذلك:

محمد بيومى مهرا، الحضارة المصرية القديمة، الجزء الأول، الآداب والعلوم، ص ٤٣-٤٩،

الإسكندرية ١٩٨٩م.

(٨) خروج ٢٤: ١٤.

التجددين، وميز بين السبيلين، سبيل الخير، وسبيل الشر، عندما أكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر، وكانت المعرفة بهما حتى ذلك العهد، مما انفرد به الآلهة، دون البشر^(١)، «وقال الربُّ الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفاً الخير والشر»^(٢).

وهكذا جعل بنو إسرائيل ربهم «يهوه» صورة منهم، وقد رسم الكهنة هذه الصورة بمداد من الدم، فإذا هو إله راهب يلتذ الأنين والتنهدات، يظل الإنسان ما عاش، يرتجف بين يديه من الهلع، غير السمع والطاعة فليس له، ولقد عزوا إلى هذا الإله أقوالاً من بنات أفكارهم، ونحلوه أعمالاً من تلفيق مخيلاتهم، ووصفوه بأنه وحش مفترس^(٣)، «فإني أنا أفترس، وأمضى آخذ، ولا منقذ»^(٤)، «أصدمهم كدبة مشكل وأشق شغاف قلبهم، وآكلهم هناك كلبوة، يمزقهم وحش البرية»^(٥).

وقد وصف «يهوه» بأنه غشاش مخادع، «فقلت آه: يا سيدي الربُّ، حقاً إنك خداعاً، خادعت هذا الشعب وأورشليم، قائلاً: يكون لكم سلام، وقد بلغ السيف النفس»^(٦)، وبأنه ولوع بالخمير^(٧)، وبأنه أكل منهوم^(٨).

وليست هذه مجرد تشبيهات - في نظر الإسرائيليين - إذ أنه استطاع، دون شك، أن يؤكد - بالمقارنة بين الإنسان والحيوان - أن الربُّ روح، وليس جسداً^(٩)، غير أنه لم يستطع أن يفهم عن طريق الروح - المبدأ غير المادى، ذلك لأن معظم الشعوب الوثنية كانت الروح بالنسبة إليها مادة خفيفة كالغمامة وكالسائل الأثيري، ومع ذلك فإنها مادة، لأنها يمكن أن تصب كالسائل^(١٠).

هذا وقد أخذ يهوه جزءاً من الروح التي كانت في موسى، ووزعها

(١) عصام الدين حنفى ناصف، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢) تكوين ٣: ٢٢. وانظر: سورة البقرة، آية: ٣٥-٣٨.

(٣) عصام الدين حنفى ناصف، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٤) هوشع ١٤: ٥.

(٥) هوشع ١٣: ٨.

(٦) لرميا ٧: ٢٠.

(٧) قضاة ٩: ١٢-١٣.

(٨) تكوين ٦: ٦.

(٩) إشعياء ٢٩: ١٠.

(١٠) تكوين ٨: ١٨.

على السبعين شيخاً، فلما حلت عليهم الروح تنبأوا^(١)، وقد طالب النبي
«اليشع» بنصيب مضاعف - نصيب الابن البكر - من روح النبي «إيليا»
مفترضاً أن إيليا يستطيع أن يقسم ما لديه من هذه الروح، كما لو كانت
ميران^(٢).

واعتقد الإسرائيلي أن روح الإنسان غير ملموسة، وربما ينصب له فخ
فتصاب وتقتل، كما أنه لم يستطع أن يعتقد أن ربه يهوه خفى بطبيعته، ولم
يكن يقادر على أن يقول «لا يستطيع الإنسان أن يرى الرب»^(٣)، وإنما كان
يقول «لا يستطيع إنسان أن يرى الرب ويعيش»، وهذا يعني أن الشخص
الذي يرى كائناً ربانياً إنما يحب أن يموت، ويدهى أن الرؤيا بالنسبة للذهن
البدائي إنما تعنى نفس الاتصال الجسدي^(٤).

وكان الإسرائيليون يؤمنون أن ربهم «يهوه» ذو روح من نوع أثيري
(جسد غير ملموس)، أو هو قادر على الظهور في أشكال متنوعة، كما أنه
قادر على الظهور على شكل نار أو حيوان، وبصفة خاصة على هيئة
«عجل»، ومن هنا كان تصوير إسرائيل لربها في شكل عجل، أى تصوير
«العجل الذهبي» في معابد «دان» و«بيت إيل»، ومن هنا جاء لقب «عجل
يعقوب»^(٥) أو «عجل إسرائيل»^(٦)، وهناك نصان ينسبان إلى يهوه قرون
(١) عدد ١١: ١٧، ٢٥. (٢) ملوك ثان ٢: ٩.

(٣) لعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم إنما يحدثنا أن بنى إسرائيل لم تقو
عقولهم في مبدأ الأمر، على فهم الذات العلية الفهم الصحيح، وظنوا أنه ثم الممكن رؤيتها، بل
علقوا إيمانهم بموسى ورسالته على رؤيتهم لله تعالى، وفي هذا يقول القرآن الكريم: «وإذا قلتهم
يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الساعة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد
موتكم لعلكم تشكرون» (سورة البقرة، آية: ٥٥، ٥٦).

(٤) تكوين ١٩: ٢٦؛ عدد ٢٢: ٤١، ٢٣: ٩، ٢٤: ٢.

(٥) انظر: تكوين ٤٩: ٢٤؛ إشعيا ٤٩: ٢٦، ٦٠: ١٦، مزمو ١٣٢: ٢، ٥ (مع ملاحظة أن
الترجمات العربية قد استخدمت جملة «عزيز يعقوب»، وليس عجل يعقوب، رغم أنها لا تتفق
مع المعنى، ولا تسامر النص، لم انظر: A. Lods, op.cit., p. 458.

(٦) إشعيا ١: ٢٤.

الجاموسة، ويفسر الاسم الشخصي Egel Yahu، والذي جاء على أوستراكا من السامرة، ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد «يهوه عجل صغير» Jahweh is a young Bull، ولم يكن العجل في أى مكان تصويراً ليهوه، ولكن إنما كان الحيوان المقدس لرب إسرائيل، ومن ثم فقد ظهر في زخارف المعبد، كما ظهر كذلك في ختم Shems Yahu^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القرون، إنما كانت عند البابليين تنسب إلى الكائنات الإلهية، وكان العجل بوجه خاص مقدساً عند الإله «حدد» Adad و«مردوخ» (Marduk = مردوك)^(٢)، وليس هناك من شك في أن طقوس «حدد» - كإله عاصفة - قد استعارها الإسرائيليون لربهم يهوه^(٣).

ولكن من المعتاد أن يهوه إنما كانت تقدمه التقاليد كإنسان، ومن ثم فهو يتنزه في جنات عدن عند هبوب النسيم، أو يلتصق بسفينة نوح، أو يهبط من عليائه ليشاهد مدينة بابل، أو ليوقف بناء البرج، أو يتقبل ضيافة إبراهيم وجدعون، أو يسمح لموسى أو إيليا برؤية ظهره، وطبقاً لهذا، فمن الواضح أن يهوه هو المصور على خاتم ابن «جد الياهو»، وهو يجلس على عرش محاط بأشجار النخيل في قارب مزين برؤوس من طير^(٤).

هذا ويصور «يهوه» أحياناً على شكل «قرص مجنح»^(٥)، ونقرأ في التوراة: «لكم أيها المتقون اسمى، تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها»^(٦)، ولعل هذا من تأثير الديانة المصرية في اليهودية، ذلك أن العدالة

(١) ملوك أول ٧: ٢٥، ٢٦، ٤٤، وكلنا:

A. Lods, op.cit., p. 458-459; I. Benzinger, HA, III, 1927, p. 228, Fig. 265.

(٢) H. Vincent, Canaan D' apres L'Exploration Recent, Paris, 1914, p. 164, 170, Fig. 107, 114, 116.

A. Lods, op.cit., p. 459.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 459.

(٥) قارن : I. Benzinger, HA, III, 1927, p. 229.

(٦) ملائكة ٤: ٢.

كانت ممثلة في شخص الإلهة «ماعت» التي كان يعتقد المصريون أنها بنت إله الشمس، وبما أن شمس العدالة (أو البر) العبرانية وصفت بأن لها أجنحة، فلا يمكن أن يكون المراد بذلك سوى الإشارة إلى إله الشمس ذي الأجنحة، لأنه لم يكن يوجد بين جميع التصورات العبرانية القديمة جداً للإله يهوه صورة تمثله بأجنحة^(١).

٦ - نشاط يهوه لمصلحة شعبه إسرائيل

لعل من أهم نقاط الضعف في دين يهوه، ذلك الاعتقاد السائد بين يهود، بأن الغرض الإلهي إنما يتركز في شعب واحد، اختير من بين شعوب الأرض جميعاً ليكون مستودع عطف يهوه الخاص، وأن كل مجرى الطبيعة وتاريخ البشر، يدور بإرادة يهوه حول حياة ومصير العبرانيين^(٢).

وهكذا لم تكن خلاصة الأفكار عن ماهية يهود أكثر من أهمية ثانوية في دينهم، وإنما كان موضع الاهتمام بالنسبة لعباد يهود مدى أهمية الربّ بالنسبة لإسرائيل، ومع ذلك فلا بد أن معظم العبرانيين القدامى قد تأثروا بأفكار فوق إدراكهم عن إرادة ربّهم «يهوه»، ولكنهم في كل الأحداث إنما كانوا على اقتناع تام بأن إرادة يهوه إنما هي موجهة تماماً لمصلحة شعبه إسرائيل.

هذا ولم يشغل الإسرائيليون أنفسهم بالتمنى فيما يتعلق بطبيعة العلاقة التي ربطت بين يهوه وإسرائيل، وتفترض الأوصاف المتعلقة بالعصر الموسوي إرجاع أصل هذه الرابطة إلى الميثاق الذي عقد في عصر الخروج من مصر، بينما وجد المؤرخ اليهودي أصلها في العلاقة المفرقة في القدم، والتي ترجع إلى الجيل الثالث من البشر، إلى أنوش بن شيث بن آدم، - أبي البشر - وإن كانت الحقيقة المؤكدة أن يهوه إنما هو مرتبط بشعبه إسرائيل^(٣).

(١) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, p. 306.

(٢) وج. دى بروج، المرجع السابق، ص ١٠١.

A.Lods, op.cit., p. 461.

(٣) تكوين ٤ : ٢٥-٢٦؛ وكذا:

وعلى أى حال، فإن علاقة يهوه بشعبه، إنما تشبه علاقة شيخ بقبيلة، وملك بأمة يحكمها، وهى علاقة يعبر عنها بالكلمة العبرية Hesed، وهى تقرب فى معناها من الكلمة اللاتينية Pietas، والتى ترجمت فى الكتاب المقدس العربى إلى كلمة «لطف» أو «إحسان» إلى غير ذلك مما يدخل فى هذا المعنى^(١).

وتظهر عناية يهوه بشعبه بوضوح فى الظروف التى كان لإسرائيل فيهما دور كأمة، وكانت دائماً تأخذ شكل التدخل الشخصى، والتفكير فى أكثر الأساليب حيوية ومنفعة لإسرائيل^(٢)، وكانت الحروب أكثر الأمثلة وضوحاً على ذلك حتى أطلق على صراعات إسرائيل الدينية اسم «حروب يهوه»، وكان المحاربون الإسرائيليون يدعون معاونو الرب^(٣)، وكان يهوه يحضر هذه الحروب فى وسط الجيش^(٤)، أو متخفياً، أو على هيئة مادية كالتابوت أو الإفود.

ولعل ما حدث فى عصر القضاة على أيام «عالى» الكاهن يظهر ذلك بوضوح، ذلك أن الإسرائيليين فى موقعة «أفيق» (ومكانها الآن تل المخمر الحديثة، قرب رأس العين، على مبعده ١٥ كيلو متراً إلى الشرق من حيفا)، قد بدا لهم هلعهم أن النصر ضد عدوهم الفلسطينى لن يتحقق إلا عن طريق عون خارق للعادة، ومن هنا فقد أحضروا معهم «تابوت العهد» من «شيلوه» ليضمنوا وجود ربهم بينهم^(٥)، تقول التوراة: «فأرسل الشعب إلى شيلوه^(٦)، وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود، الجالس على

(١) تكوين ٢٤: ٢٧، صموئيل ثان ٦: ٢.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 461-462.

(٤) ثنية ٢٣: ١٤.

(٣) قضاة ٥: ٢٣.

(٥) Cecil Roth, A Short History of the Jewish People, Lodon, 1969, p. 14.

(٦) شيلوه: تقع شمال «بيت إيل» بـ ١٤ كيلا، فى منتصف المسافة بين بيتين وشكيم، ويرجح أنها هى المسماة الآن «سيلون»، على مبعده ٢٧ كيلا شمال أورشليم. (قاموس الكتاب المقدس M.F. Unger, op.cit., p. 1015. وكذا: ٥٣٥/١)

الكروبيم^(١)، وكان هناك أبناء عالي، حفنى وفينحاس، مع تابوت عهد الله، وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً، حتى ارتجت الأرض، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف... وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة، فخاف الفلسطينيون، لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة، وقالوا: ويل لنا، لأنه لم يكن هذا منذ أمس ولا ما قبله، ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين، هؤلاء الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات^(٢).

٧ - عقيدة تقديس يهوه

من البدهى أن الثقة في الرب الذى كان يهتم بكل ما فيه صالح

(١) الكروبيم: Karubim جمع مفردة «كروب» Kerub وهى أصلاً، وبلا شك، سحابة عاصفة كان يمتطيها يهوه، وقد صورت ككائن مجنح، وعلاقة الكروبيم بالعاصفة ربما كانت أوضح فى سفر حزقيال، كما أن الشكل الطبيعي ربما كان من أصل عبرى قديم، هذا وقد كان الكروبيم حارساً على الأشياء المقدسة وعلى شجرة الحياة وعلى التابوت فى معبد أورشليم. ويذهب بعض الباحثين إلى أن الكروبيم ملائكة، بينما يرى آخرون أنهم مخلوقات، لأنهم لا يقومون بعمل الملائكة من حمل رسالة الله، وإنما يقومون بأعمال أخرى منها: أنها تظل تابوت العهد بتمثالين لها، ومنها أنها تزين بصورها ستائر الخيمة التى كان موسى يتخذها هيكلًا، وأنها تفصل بين التابوت وقدس الأقداس، ومنها أن تحمل الرب أو عرشه، ومنها أنها تزين بصورها المحفورة هيكل أورشليم، ويذهب بعض الباحثين إلى أنها تشبه تماثيل أبى الهول الممنحة فى مصر وفينيقيا والثيران الممنحة فى بابل وأشور، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها بالتأكيد تأثير قادم من الكنعانيين الفينيقيين، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن أشكالها المركبة من جسم أسد ورأس إنسان، إنما هو تأثير مصرى، أكثر من واضح. (تكوين ٣: ٤؛ مزمور ١٨: ١٠-١٢، ١٠٤: ١٣؛ حزقيال ١: ١٣، ٢٤، ٢٨، ١٠: ١٠، ١٣؛ قاموس الكتاب المقدس ٧٧٩/٢؛ سبنيو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ص ١٤٠، ٢٨٦-٢٩٧؛ وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 459-460; T. K. Cheyne, EB, I, 1899, Col. 741-743.; W.F. Albright, op.cit., p. 148, 216; O. Eissfeldt, CAH, II, Part II, 1975, p. 600-601.

(٢) صموئيل أول ٤: ٤-٨.

شعبه، يجب أن يكون مظهر سائداً في الدين القومي، غير أن هذه الإحساس بالثقة إنمما كان مختلطاً بشعور آخر، هو الرهبة والمعجز في وجود الرب، وعلى أى حال، فلم يكن هذا الشعور المختلط غريباً على الإسرائيليين، فقد كان شائعاً لدى الساميين جميعاً، وقد عبروا عنه في كل فكرة قديمة خاصة بالتقديس (١).

هذا وقد أطلق اصطلاح «مقدس» في الوثائق القديمة، وفي الأدب العبرى بعامة، على كل شيء يتصل بالرب أو الآلهة، ليشير إلى أن هذا الشيء، أو ذلك الكائن، إنما هو محاط بهالة من القداسة لا يجوز ابتذالها، كما أن الاتصال بها ليس في كل الأحيان خيراً للإنسان، رغم أن الاتصال بالأشياء المقدسة - بطبيعة الحال - مرغوب فيه، لأن العلاقة مع الرب قد تجلب للإنسان قوى، وربما حياة خارقة للعادة (٢).

وتروى التقاليد أن الإسرائيليين عندما استردوا تابوت العهد من بلاد الفلسطينيين، إنما قد مات سبعون (٣) إسرائيلي، لأنهم قد تجرأوا ونظروا إلى ذلك التابوت المقدس، أو وفقاً لتقاليد أكثر احتمالاً فإن الإسرائيليين لم يظهروا فرحاً كبيراً بعودة التابوت (٤)، وأن أهل «بيت شمس» قد صاحوا: «من يقدر أن يقف أمام الرب، الإله القدوس هذا، وإلى من يصعد عنا» (٥). والكلمة المرادفة لمقدس، إنما هي «رهبة» (٦) وأحياناً «غيور» (٧)، والمرادف لكلمة تقديس «مجده» (٨).

(١) A. Lods, op.cit., p. 248-249, 265-266; F. J. Leenhardt, La Notion de Saintete dans L'Ancien Testament, Paris, 1929.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 465.

(٣) نص التوراة يرى أنهم ٥٠٧٠ رجلاً، تقول التوراة «وضرب أهل بيت شمس، لأنهم نظروا إلى تابوت الرب، وضرب من الشعب خمسين ألف وسبعين رجلاً» (صموئيل أول ٦: ١٩) ثم انظر ما سبق أن ذكرناها هنا (ص ٢٩٨) عن الآراء المختلفة عن هذا الرقم.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 466. (٥) صموئيل أول ٦: ٢٠.

(٦) إشعياء ٨: ١٣. (٧) يشوع ٢٤: ١٩.

(٨) إشعياء ٦: ٣. (٩) خروج ٦: ٧.

هذا ويتميز «يهوه»، بأنه ليس فقط «رب الجنود»، ولكن «قدوس إسرائيل»، والعبرانيون شعب مقدس تخصص لخدمته، وهكذا خاطبهم في التوراة «واتخذكم لى شعباً، وأكون لكم إلهاً»^(١)، «أنتم تكونون لى مملكة كهنة، وأمة مقدسة»^(٢)، ولقد كانت قداسة يهوه على النقيض من نجاسته هو، ونجاسة إسرائيل، التى أوقعت على النبىء (إشعيا) الخزى والفرع فى الرؤيا^(٣) الرائعة التى دعتة إلى خدمة النبوة^(١٠)، وتتمثل شريعة القداسة - كما فى سفر عاموس فى مطلب العدالة الاجتماعية، وكما فى سفر هوشع فى مطلب الإخلاص الشخصى - وخطيئة الشعب هى أنهم «أذلوا شريعة رب الجنود، واستهانوا بكلام قدوس إسرائيل»^(٤).

٨ - غضب يهوه:

كان الإسرائيليون أكثر الشعوب ميلا إلى أن يصفوا ربهم بالتجهم، الذى يتفق مع شخصية يهوه كرب للعاصفة، وربما كذلك مع طبيعته البركانية المنحدرة إليه من سيناء، ومن ثم فليس هناك تردد من ناحية الفكرة القائلة، أن كل ما حل بالقوم من مصائب إنما كان سببها يهوه، وخاصة تلك التى كانوا يصابون بها، أو تحل عليهم فجأة، كالتحط وأسراب الجراد التى تسبب المجاعات، فضلا عن الوباء والهزيمة، وعدم فهم الحكام، وعدم الاستجابة لنبوءات الكهنة، ورؤيا الأنبياء.

(١) خروج ١٩: ٦.

(٢) فى هذه الرؤيا تصور التوراة الرب أو الله بصورة مادية صرفة، ولتقرأ هذا النص - كمشال - فى سنة وفاة عزيزا الملك، رأيت السيد (الرب) حالساً على كرسى عال ومرتفع، وأذنيه تملأ الهيكل، السرافيم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، وباتنين يغطى وجهه، وباتنين يغطى رجله، وباتنين يطير (إشعيا ٦: ١-٢).

(٣) انظر: إشعيا ٦: ١-١٣.

(٤) وج. دى بوج، المرجع السابق، ص ٧٨.

وكان من الضروري أن تبحث إسرائيل أسباب غضب ربها يهوه، حتى يكون العمل على تهدئة غضبه، وفي الواقع فإن إجابة إسرائيل عن أسباب غضب يهوه، لها مغزى كبير، لأنها تقدم لنا الكثير عن هذه العقيدة، فيما يتصل بالربط بين الدين والأخلاق^(١).

وفي الواقع فإنه لا يوجد في اليهودية وعى بالفرقة بين الواجب الديني والواجب الخلقى، وكل عمل سواء أكان صادراً عن الفرد أو المجتمع، يقع في مجال المسؤولية الخلقية، وكذلك ينطوي على طاعة أو عصيان الأمر الإلهي، لأن المجتمع (بيت إسرائيل) أيضاً كان يتألف برابطة شخصية يهوه «كشخص ذي جسد» واقعي، يتميز بأنه ينزع إلى آداب السلوك، عن وعى الجماعة الغريزي السابق للأخلاق، وكوحدة قائمة بذاتها عن المجتمع المصطنع الذي هو نتاج تعاقد من جانب الأفراد الذين يتنظمون أعضاء فيه^(٢).

ووفقاً لما جاء في روايات الأنبياء الإسرائيليين وحواريهم؛ فيما بعد عصر السبي البابلي، فإن غضب يهوه، إنما كان بسبب ظلم الإنسان، لأن الشعب أو الجيل أو الفرد الذي ارتكب الجريمة، إنما قد حل عليه بالتأكيد غضب يهوه، ومن ثم فيمكن الاستدلال على غضب الرب بتنفيذ العدالة.

واعتقد الإسرائيليون - كما اعتقدت الشعوب القديمة الأخرى - أن ربهم «يهوه» ينتقم من الجرائم التي ترتكب بين الناس، أو على الأرض التي تقع في دائرة اختصاصه، ومن ثم فقد عاقب المذنبين، كما كان حامياً للآرامل، واليتامى والمقيمين الغرباء، وموقعاً عقابه الصارم على من يخرق العرف القومي، كما أنه هو وحده القادر على أن يعفو عن بعض الذنوب^(٣).

ومن ناحية أخرى، فإن غضب يهوه سوف يشتمل بوحشية لا حد لها،

(٢) ر.ج. دى بورج، المرجع السابق، ص ٧١.

(١) A. Lods, op.cit., p. 466.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 467.

إن كان الأمر يتعلق بإساءة شخصية تتصل بذاته، ولا تصلح الكفارة في هذه الحالة، ويعبر الكاهن «عالي» (من عصر القضاة) عن هذا الأمر، لأحد أبنائه، بقوله : «إذا أخطأ إنسان إلى إنسان يدينه الله، فإن أخطأ إنسان إلى الرب فمَنْ يصلى من أجله»^(١)، وكانت جريمة أبناء عالي أنهم أخذوا نصيبهم من القرايين المقررة لهم ككهنة، قبل أن يتلقى ربهم يهوه نصيبه^(٢)، وطبقاً لرواية أخرى، فإن جريمتهم أنهم قد أكلوا قبل الزوار الآخرين من الوجبة المقدسة^(٣)، ومن أجل هذه الإساءة، فقد سحقهم يهوه، وحرّم المناصب الكهنوتية على «بيت عالي» إلى الأبد، تقول التوراة - على لسان يهوه - «ولذلك أقسمت لبيت عالي، أنه لا يكفر عن شرييت عالي بذبيحة، أو بتقدمة، إلى الأبد»^(٤).

ولعل هذا الأمر، إنما يظهر بوضوح مدى اهتمام يهوه بعلاقة شعبه بشخصه، وعدم عفوه لأيّة جريمة ترتكب ضد ذاته الشخصية، إذا ما علمنا أن أبناء عالي قد فعلوا كل دنىء وقذّر مع نساء إسرائيل، ومع ذلك لم يكن عقابهما يتناسب مع عقاب جريمتهما ضد التعدي على مقدسات يهوه، ذلك أن ولدى عالي - حفى وفينحاس - لم يكتفيا بطمعهما الجشع، بل كانا يرتكبان أقدر أنواع العبادة الوثنية وسط غابات وكروم شيلوه، ذلك أن الطقوس الشهوانية الدنسة، إنما كانت تمارس فى الأعياد الوثنية منذ القدم، ولكنها لم تكن تدنس الكهنة من نسل هارون، غير أن الشابين إنما قد تسفلا جداً، حتى أنهما - رغم أنهما كانا متزوجين - لم يترددا عن إفساد النسوة اللاتى كن يترددن على المعبد المقدس للقيام بالخدمات التى كانت تتطلب عملاً يليق بالنساء^(٥).

(١) صموئيل أول ٢: ٢٥.

(٢) صموئيل أول ٢: ١٥-١٦.

(٣) صموئيل أول ٢: ١٣-١٤.

(٤) صموئيل أول ٣: ١٤.

(٥) ف.ب.ماير، حياة صموئيل النبى، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢، ٣٥.

وسمع «عالي» بكل ما فعله بنوه بجميع بنى إسرائيل، وبأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات في خيمة الاجتماع^(١)، ولكنه بدلا من إعلان الغضب الشديد، والتهديد العنف، اكتفى بهذا التوبيخ اللطيف، «فقال: لماذا تعملون هذه الأمور؟ لأنى أسمع أموركم الخبيثة من جميع هذا الشعب، لا يا بنى، ليس حسنا الخبر الذى أسمع، تجعلون شعب الرب يتعدون»^(٢).

هذا وتقدم النصوص يهوه على أنه متعصب لشعبه إسرائيل، حتى أنه لم يرد أى نص فى النصوص القديمة ما يشير - مجرد إشارة إلى وقوف يهوه ضد إسرائيل فى شجارها مع الأمم الأخرى، وقد نراه - فى بعض الأحيان يوقع إسرائيل فى قبضة أعضائها، لا لأن الأعداء على حق، ولكن لأن يهوه غاضب على شعبه، وفى الواقع، إن هذه إنما كانت سنة الشعوب القديمة، فقد كان المؤاييون - مثلا - يفسرون الأحداث على نفس المنهج، إذ يرون أن هزائمهم إنما ترجع إلى غضب ربهم «كيموش» كما يبدو ذلك من نص الملك «ميشع» على الحجر المؤابى^(٣).

وطبقاً لروايات التوراة، فإن «يهوه» إنما يتحيز لشعبه إسرائيل، حتى وإن اضطر أن ينصحهم بخديعة الآخرين - كما فعل إبراهيم وإسحاق (وحاشاهما أن يكون كما صورتها توراة يهود) مع فرعون مصر، وأيمالك ملك جرار، وكما فعل يعقوب مع أبيه، عندما سرق أغنام خاله لابان

(١) صموئيل أول ٢: ٢٢.

(٢) صموئيل أول ٢: ٢٢-٢٤.

(٣) انظر عن ترجمة النص: محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الثانى: التاريخ، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٩١٩-٩٢١، نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٣/٣٩٧-٣٩٩، وكذا:

W.F. Albright, ANET, p. 320-321; S.A. Cook, CAH, III, 1965, p. 372-373;
J.B. Pritchard, ANEA, 1958, p. 209F; G.A. Cooke, The Text Book of North
Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, p. 1-14.

(وحاشا نبي الله أن يكون كذلك)، وذلك لأن هؤلاء الآباء إنما كانوا يمثلون إسرائيل في علاقاتها مع غيرها من الأمم الأخرى، بل إن «يهوه» نفسه، إنما قد أمر الإسرائيليين على أيام الخروج بسرقة المصريين وإفساد حياتهم^(١).

وهناك أمثلة مشابهة عند تنفيذ القانون في إسرائيل القديمة، حيث نرى «يهوه» ينزل صارم عقابه بالأطفال جزاء وفاقاً لما اقترفت أيدي آبائهم من أثم^(٢) إذ كان الأطفال يقومون بدور البديل عن الآباء، ذلك لأن «يهوه» إنما «يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع»^(٣)، «وأن الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون»^(٤).

وهكذا كان يهوه يقتص من جميع أفراد الشعب من أجل جريمة فرد واحد، وعلى الأخص إذا كان هذا الفرد ملكاً^(٥)، وفي الواقع فلقد كان هذا الإجراء واحداً من وسائل عدة، استخدمها «يهوه» للانتقام ممن يرتكبون الجرائم، وربما لجأ يهوه إلى القصاص من كل أفراد المجتمع، بغية أن يجبرهم على الإعلان عن الخطي، ومعاقبته^(٦)، ولعل كل هذا إنما يدل على أن العقاب الذي ينزله القضاة بالخطي لم يكن لإصلاح خطأ وقع على من اعتدى عليه، بقدر ما كان لرفع الشر عن الأمة حتى لا تتعرض آخر الأمر لغضب يهوه^(٧).

(١) تكوين ١٢: ١٠-٢٠-٢٠، ٢٠: ١٨-١٦، ١١-١، ٢٧، ١-٣٥، ٣٠: ٢٥-٣١: ٣١؛

خروج ٣: ٢١-٢٢.

(٢) عدد ١٦: ٢٢؛ صموئيل ثان ١٢: ١٢-٤.

(٣) خروج ٢٠: ٥.

(٤) حزقيال ١٨: ١٠.

(٥) صموئيل ثان : لإصحاح ٢٤ ك ثم قارن : سورة الأنفال، آية : ٢٥ .

(٦) يشوع ٧-١٨، صموئيل أول ١٤: ٣٧-٤٥؛ صموئيل ثان ٢١: ١-١٤.

A. Lods, op.cit., p. 468.

(٧)

هذا وقد كان القوم يعتقدون أن الطقوس الدينية قد تعبر عن شعور يهوه نحو المخطئين، وربما تهدئ من ثورة غضبه، وبخاصة عندما يشم رائحة القربان كما يبدو ذلك واضحاً من قصة الطوفان^(١)، ومع ذلك فقد كان ليهوه أهواؤه الخاصة، «أترأف على من أترأف، وأرحم من أرحم»^(٢).

ولم يقرر المصدر اليهودي للتوراة، أن يهوه كان لديه سبباً لقبول قربان «هايل» ورفض قربان «قايين» (قاييل)^(٣)، مما يدل على أن يهوه لم يكن في حاجة لتقديم تفسير عن أعماله، وهكذا كان الإسرائيليون، رغم أنهم كانوا يؤثرون إتهام ربهم يهوه بالتحيز، إلا أنهم كانوا ينحنون في رهبة وخشوع أمام أساليبه، واضحة كانت أم ملتوية، وربما قد أحسوا أن قوانين عدالة الرب، إنما تختلف عن تلك التي لبنى الإنسان، وهكذا لم يجد الإسرائيلي صعوبة في فهم نشاط الرب، ذلك لأنه إنما قد آمن من كل قلبه، بأن كل شيء ذو طبيعة خارقة العادة، إنما هو من عمل الرب^(٤).

هذا وقد وقر في قلوب بنى إسرائيل، أن يهوه عندما يشاء أن يحطم فرداً من أمته، فإنه إنما يجعل وسائل ارتكابه الخطايا سهلة ميسرة، وهكذا فقد أرسل روحاً شريراً لتشير رجال شكيم ضد أبيمالك^(٥)، ثم هو نفسه الذي «شدّد قلب فرعون، فلم يطلق بنى إسرائيل»^(٦)، وهو الذي شدّد قلوب أبناء عالي الكاهن «فلم يسمعوا صوت أيهم، لأن الرب شاء أن يميتهم»^(٧)، وهو الذي جعل «رحبعام بن سليمان» يرفض بتعال أن يمنح رعاياه حقوقهم، ويوافق على طلباتهم العادلة لأن يهوه إنما أراد أن يفى وعده، وينفذ وعيده، بانشقاق الوحدة القومية لشعبه إسرائيل، ويقسم مملكة سليمان

(١) تكوين ٨ : ٢١، وانظر: صموئيل أول ١٦ : ١٩، قضاة ٩ : ١٣.

(٢) خروج ٣٣ : ١٩.

(٣) قارن النص العربي الحالي، تكوين ٤ : ١-٢٦. ثم قارن: سورة المائدة، آية : ٢٧-٣٢.

(٤) قضاة ٩ : ٢٣.

A. Lods, op.cit., p. 468.

(٥) صموئيل أول ٢ : ٢٥.

(٦) خروج ١٠ : ٢٠.

بين ولده «رحبعام» وعبيده «يربعام»، «حتى يقيم الرب كلامه الذي تكلم به على يد أخيا الشيلوني» (١).

وقد فعل «صدقياء» (٥٩٧-٥٨٦ ق.م) ملك يهوذا، الشر، لأن يهوه إنما كان يبحث عن أسباب للإطاحة بدولة يهوذا (٢)، وعندما غضب يهوه على إسرائيل، فقد دفع «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) للقيام بتعداد عام للسكان، ومن ثم فقد كانت هذه الخطوة من جانب داود، سبباً في وقوع البلاء على إسرائيل (٣)، وبما له مغزى أن المحرر المتأخر لسفر أخبار الأيام الأول، إنما قد ذهب - عند إعادة صياغة هذا النص - إلى أن الشيطان - وليس الرب - هو الذي أغوى داود ليقوم بإجراء إحصاء عام لإسرائيل (٤).

وعلى الرغم من كل هذا، فإن الإسرائيلي القديم، إنا كان متأثراً بإدراك عام عند القوم، مؤداه: أن يهوه إنما كان راغباً في سعادة شعبه، وإن اعترم - بما له من قداسة - أن يكون الحكم العدل بينهم، وأن هناك إمكانية أن يخطئ شخص ما دون قصد، فيغضب يهوه، ولكن هذا الشخص إنما يظل بريئاً طاهرًا (٥).

٩ - يهوه والتضحية البشرية

عرفت بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم نظام الضحايا البشرية التي كانت تقدم على مذابح الآلهة، وعند دفن الملوك، وتدلنا حفائر «أور» السومرية على قدم تلك العادة (٦)، كما تشير التوراة إلى أن «السفروايميين»

(٢) ملوك ثان ٢٤: ١٣-٢٠.

(٤) أخبار أيام أول ٢١: ١.

(١) ملوك أول ١٢: ١٥.

(٣) صموئيل ثان ٢١: ١.

(٥) A. Lods, op.cit., p. 470.

(٦) انظر: عباس العقاد، المرجع السابق، ص ١٧٢، وكذا:

إنما كانوا يحرقون بنيتهم بالنار، كتقدمات لآلهتهم الوثنية^(١)، ولم يكن
 المصريون^(٢) والسودانيون^(٣) والكتنانيون والفينيقيون^(٤) والمؤابيون^(٥) - وكذا
 سكان الجزيرة العربية^(٦) - بمنأى عن هذه العادة الوحشية^(٧)

وفي القرن العشرين قبل الميلاد، يعث الله خليله إبراهيم نبياً ورسولاً،
 ولما كان الأنبياء هم الأسوة الحسنة التي يحتذى حذوها كافة الناس
 وخاصتهم، فقد أراد الله - جلت قدرته - أن يجعل من خليله قدوة حسنة،
 ومثلاً أعلى لأرفع صور الإيمان، وأجلها في تاريخ الإنسانية، وذلك حين
 تهباً لها أن تدنو إلى كمال، ومن ثم فقد شاءت إرادة الله تعالى لأبي
 الأنبياء، أن يحمل عبء الدعوة إلى إبطال هذه العادة، البالغة أبعد منازل
 القباحة، عادة التقرب إلى المعبود بدماء البشر - شذخاً بحجر، أو ذبحاً بمدية،
 أو حرقاً بنار - كما شاءت له إرادة الله أن يستبدل بهذه العادة القبيحة، عادة
 أجمل وأنفع وأكرم، فيجعل من دم الحيوان سلماً إلى فداء دم الإنسان^(٨).

وهكذا أعطى الله مثل حياً في إبراهيم وإسماعيل - صلوات الله
 وسلامه عليهما - في ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق، بين الهمجية

(١) ملوك ثان ١٧ : ٣١.

(٢) Walter B. Emery, Great Tombs of the First Dynsty, II, London, 1954, p. (٢)
 142-158.

(٣) أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٣٠، محمد بيومي مهران، مصر،
 ٤٠١/٢ - ٤٠٣.

(٤) ج. كوتنتو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة طه حسين، ص ١٤٥.

(٥) ملوك ثان ٣ : ٢٧، وكذا: S.A. cook, CAH, III, 1965, p. 372.

(٦) G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, p. 212.

K. Thorvildson, Kumal, 1962, p. 217-218. وكذا:

(٧) انظر: عن قصة التضحية البشرية بشيء من التفصيل، محمد بيومي مهران إسرائيل، الكتاب
 الأول: التاريخ، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ١٦٢-١٧٤.

(٨) أحمد حسن الباقوري، مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٢٠، محمد بيومي مهران، دراسات
 تاريخية من القرآن الكريم، ١٧٧/١ - ١٨٠، (الرياض ١٩٨٠ م).

التي كانت لا تتورع عن الذبائح البشرية، وبين الإنسانية المهتدية التي لا تأتي
الفداء بالحياة، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان^(١)، فيأمر الله خليله بذبح
ولده، ثم يفتديه بذبح عظيم.

وقارئ القرآن الكريم واجد فيه ما يشير إلى هذا المعنى، في قوله تعالى،
من سورة الصافات، حكاية عن إبراهيم في خطاب ولده إسماعيل، عليهما
السلام، «يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى، قَالَ يَا
أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمِرُ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ
لِلْجَبِينِ، وَنَادِيَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ»^(٢)

ولا ريب في أن انطلاق إبراهيم يدعو البشرية إلى إكرام نفسها،
والامتناع عن قربان البشري، والاستغناء عنه بالقربان الحيواني، إنما كان
انطلاقاً مستبسلاً لا تتكأده حدود، ولا تقيده قيود، ولا يبالي فيه أبو الأنبياء
عقبة تعترض ولا تلفاً يتوقع.

ومن هنا كان ارتباط هذه الحادثة ارتباطاً وثيقاً بظاهرة التضحية البشرية،
التي كانت تمارس في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم، والحث على
استبدال ذلك التقليد بالتضحية الحيوانية^(٣).

(١) عباس العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) سورة الصافات، آية: ١٠٢-١٠٧، وانظر: تفسير الطبري ٤٨/٢٣-٥٨، تفسير الطبرسي
٧٨-٧١/٥، تفسير أبي السعود ٥٤٣/٤-٥٤٦، تفسير روح المعاني ١٢٧/١٣-١٣٢، الجواهر
في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهرى، ١٩/١٨-٢٣، تفسير الفخر الرازي
١٥٢/٢٦-١٥٧، في ظلال القرآن ٦٢/٧-٦٦، أحكام القرآن للجصاص ٣٧٧/٣-٣٧٨،
تفسير القرآن الكريم للخطيب الشربيني ٣٨٤/٣-٣٨٧، تفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية
٣٤٨/٦-٣٥١، تفسير القرطبي، ص ٥٥٤٣-٥٥٥٨، تفسير النيسابوري ٧٢/٦٦/٢٣ (نسخة
على هامش الطبري، طبعة بولاق، ١٣٢٨هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي،
٢٧٩/٥-٢٨٤، تفسير ابن كثير ٢٢/٧-٣٠، تفسير النسفي ٢٧٢/٤-٢٧٤، تفسير الكشاف
٥٨-٥٣/٤.

(٣) رشيد الناضوري، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت ١٩٦٩، ص ١٧٤.

ومن عجب أن ذرية إبراهيم الخليل من ولده إسحاق - عليهما السلام - لم يكونوا على مستوى الدعوة، فبقيت فيهم عادة التضحية البشرية إلى ما بعد أيام موسى، ونزول التوراة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وهكذا تقدم لنا التوراة «يهوه» - رب يهود - لا يختلف عن غيره من آلهة الشعوب الوثنية، يتطلب من بنى الإنسان أضاحى بشرية «لا تؤخر ملء يدك، وقطر معصرتك، وأبكار بنيك تعطيني»^(١)، فإذا ما نذر امرؤ ابنه للرب في لحظة من لحظات الضعف النفسى والتهوس الدينى، لم يكن له أن يعدل عن ذلك، وأن يفترى ولده بالمال، وإنما عليه أن يسوق بنفسه فلذة كبده إلى حيث يجرع كأس المنون.

تقول التوراة: «كل محرم يحرمه إنسان للرب من كل ماله، من الناس والبهائم ومن حقول ملكه، فلا يباع، ولا يفك، إن كل محرم يحرم من الناس لا يفدى، يقتل قتلاً»^(٢)، وتقول: «كان جوع في أيام داود ثلاث سنين، سنة بعد سنة، فطلب داود وجه الرب، فقال الرب: هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء لأنه قتل الجبعونيين... فلنعت سبعة رجال من بنيه فتصلبهم للرب في جبعة شاول مختار الرب، فقال الملك: أنا أعطى، فأخذ الملك ابني رصفة واية اللذين ولدتهم لشاول، أمروني ومفيبوشت، وبني شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل ابن يرزلاى المحولى، وسلمهم إلى يد الجبعونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب»^(٣).

(١) خروج ٢٢: ٢٩، ويذهب بعض الباحثين إلى أن هذه الترجمة إنما تموزها بدقة، ومن ثم فالترجمة الصحيحة هي: «لا تتوان في تقديم باكورة ما ينضج من ثمرك، وما تعصر من خمرك، وهب لى البكر من ولدك» (عصام الدين حفى ناصف، اليهودية فى العقيدة والتاريخ، القاهرة ١٩٧٧، ص ١١٠).

(٢) لا يون، ٢٧: ٢٠-٢٩.

(٣) صموئيل ثان ٢١: ١-٩.

وتبلغ التضحية بالبشر ذروتها في قصة «يفتاح الجلعادي»، وهي قصة يرمز بها إلى التضحية بألهة عذراء، ذلك أن يفتاح هذا إنما قد نذر لربه يهوه: «إن دفعت بني عمون ليدي، فالخارج الذي يخرج من أبواب بيتي للقاءني عند رجوعي بالسلامة من عند بني عمون، يكون للرب، وأصعده محرقة» (١).

وهكذا ما أن يعود «يفتاح» من معركته ضد العمونيين منتصراً (٢)، ويصل إلى «المصفاة» - على مبعدة ٨ كيلا إلى الشمال الشرقي من أورشليم - حتى تكون ابنته هي أول من يهب «للقائه بدفوف ورقص، وهي وحيدة، ولم يكن له ابن ولا ابنة غيرها، وكان لما رآها أنه مزق ثيابه، وقال: آه يا ابنتي، قد أحزنتني حزناً، وصرت بين مكدري، لأنني فتحت فمي إلى الرب، ولا يمكنني الرجوع»، وهكذا اضطر يفتاح أن يفى بنذره، ويذبح ابنته قرباناً لربه يهوه، بعد شهرين من قدومه، ذلك لأن ابنته إنما طلبت منه «أن اتركني شهرين، فأذهب وأنزل علي الجبال، وأبكي عذراويتي أنا وصاحباتي»، ومن ثم فقد «صارت عادة في إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة، لينحن علي بنت يفتاح الجلعادي أربعة أيام في السنة» (٣).

وهكذا بقي الإسرائيليون، حتى عصر القضاة، يمارسون التضحية البشرية إرضاء لربهم يهوه، المتعطش إلى الدماء أبداً، ويبدو مما كتبه «ميخا» النبي (٧٤٠-٧٠١ ق.م)، وما كتبه النبي «إرمياء» (٦٢٦-٥٨٠ ق.م)، وما كتبه النبي «حزقيال» (٥٩٣-٥٧٢ ق.م)، أن اليهود لم ينفكوا يحرقون بنيهم وبناتهم قرابين لربهم يهوه، حتى عصر متأخر غدت فيه التضحية بين الإنسان أمراً يبعث على النفور، ويشير الحق، فاعتاض القوم عن الأضحيات البشرية أضحيات من الخراف.

(١) قضاة ١١: ٣٠-٣١.

(٢) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 157-158.

(٣) قضاة ١١: ٢٢-٤٠.

وهكذا رأينا النبي «إرميا» يؤنب قومه على أنهم «بنو مرتفعات توفة في وادى ابن هنوم»^(١) ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار^(٢)، بل إن الأمر إنما قد استمر كذلك على أيام السبي البابلي، وهكذا رأينا النبي «إشعيا» الثاني (عاش في بابل حوالي عا ٥٤٠ ق.م.)، يقول لهم: «يا بني الساحرة، نسل الفاسق والزانية... المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون الأولاد في الأودية، تحت شقوق المعازل»^(٣).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التوراة، إنما تشير في بعض نصوصها أنها تحرم على بني إسرائيل أن يعطوا أبنائهم قرباناً إلى الله تعالى^(٤)، كما تنص في سفر اللاويين على عقوبة الرجم لمن يعطى ولده قرباناً لإله العمونيين (مولك)، وقد كانوا يقدمون له ذبائح بشرية، ولاسيما من الأطفال^(٥).

غير أن «يهوه» - رب يهود، ومنزل التوراة على أنبيائهم - ليس بمستطيع أن يتصل مما أسلف من أوامر، وأن ييهت من خلو أنبيائه في وجوههم، ويجيبهم بالتكذيب، فكان عليه أن يلتمس لنفسه عذراً من إصداره تلك الأوامر التي جاء اليوم يفسخها، ويرر فرضها عليهم فيما مضى، «تمرد على بيت إسرائيل في البرية، لم يسلكوا في فرائضي ورفضوا

(١) وادى ابن هنوم: وهو في العبرية Ge-Hinnom، وانتقل هذا اللفظ إلى الميشية، فأصبح Ga-hannam - بالنجيم المصرية - ثم انتقل من الميشية إلى العربية فهو «جهنم»، وبعد أن كان علماً على الوادى الذى يمر إلى الجنوب والغرب من مدينة القدس، ويدعى الآن «وادى الربانى» أو «وادى الرابية»، ويسمى الجزء الشرقى منه «توفة» وكان الوثنيون يقربون صبيانهم في هذا الوادى، حتى أطلق عليه إرميا «وادى القتل» (قاموس الكتاب المقدس، ١٠٠٣/١-١٠٠٤، عصام الدين حنفى ناصف، المرجع السابق، ص ١١٢-١١٣).

(٢) إرميا ٧: ٣١. (٣) إشعيا ٥: ٣-٥.

(٤) خروج ٢٢: ٩.

(٥) لاويون ١٨: ٢١، ٢٠: ٢، قاموس الكتاب المقدس ٧٢١/٢.

أحكامى التى إن عملها إنسان يحيا بها، ونجسوا سبوتى كثيرا، فقلت أنى أسكب رجزى عليهم فى البرية لإفنائهم... ورفعت لهم يدى فى البرية لأفرقهم فى الأمم وأذريهم فى الأراضى... وأعطيتهم أيضا فرائض غير صالحة، وأحكاما لا يحيون بها، ونجستهم بعطاياهم، إذ أجازوا فى النار كل فاتح رحم لأبيدهم، حتى يعلموا أنى أنا الرب^(١).

وهذا يعنى أن يهوه إنما قد أنزل على شعبه إسرائيل هذه الشريعة الفاسدة عن عمد، وفرض عليهم التضحية بأفلاذ أكبادهم، بغية إيدائهم والتنكيل بهم، ليعلموا أنه الرب^(٢).

لقد كان يهوه دائما طلبويا للقرايين، ولطالما عمرت مائدته بألوان من لحوم الأطفال والرجال والأبقار والأغنام، فما أن ارتوى بدمائهم المسفوحة، حتى طابت نفسه، وأصبح يؤثر المال الصامت: الذهب والفضة، على صنوف اللحوم جمعاء، فمضى يحض بعض الخلق على افتداء بنبيهم، وأداء مال الفدية إليه^(٣)، تقول التوراة «وكل بكر إنسان من أولادك تفديه»^(٤)، وتقول «كل بكر من بنيك تفديه»^(٥) وتقول «غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان، وبكر البهيمة النجسة، تقبل فداءه»^(٦).

(١) حزقيال ٢٠: ١٣-٢٦.

(٢) عصام الدين حفى ناصف، المرجع السابق، ص ١١٣.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ١١٣. (٤) خروج ١٣: ١٢٠.

(٥) خروج ٣٤: ٢٠. (٦) عدد ١٨: ١٥.

الفصل الثالث

اليهود بين التوحيد والتعدد

١ - عصر ما قبل موسى:

لا ريب في أن يعقوب أو إسرائيل - جد بني إسرائيل الأكبر - إنما كان واحداً من تلك الصفوة المختارة من عباد الله، الذين اختارهم الله من بين خلقه، ليكونوا حملة رسالته إلى الناس، ولا ريب كذلك في أن يعقوب، إنما قد شارك أباه إسحاق - كما شارك أبوه جده إبراهيم من قبل - في الدعوة إلى الله، ونبذ الوثنية، ورفع علم التوحيد، وإقامة الملة السمحة الصحيحة، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿وَرُصِّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)

وهكذا كان يعقوب في نظر الإسلام - كما كان أبوه وجده من قبل - مسلماً، يعبد الله، ويدعو الناس إلى عبادته، ولم يشرك به أحداً، ذلك لأن الإسلام - في لغة القرآن العظيم^(٢) - ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء^(٣)، ومن ثم فإن الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر البعثة المحمدية^(٤).

غير أن تورا يهود تآبى إلا أن تخالط توحيد يعقوب - أو على الأقل أهل بيته - بشيء من ريبة، فإلى جانب أسطورة المصارعة المشهورة بين الله

(١) سورة البقرة، آية: ١٣٢؛ وانظر: تفسير الطبري ٩٢/٣-٩٦؛ معاني القرآن للفراء ٨٠/١-٨١؛ تفسير المنار ٣٩٠/١-٣٩٣؛ تفسير القرطبي، ص ٥١٩-٥٢٣؛ تفسير ابن كثير ٢٦٩/١-٢٧٠؛ وانظر: تكوين ٢٢/٢٢-٣٢.

(٢) انظر: سورة البقرة، آية: ١٣٢-١٣٣؛ سورة آل عمران، آية: ٦٧؛ سورة المائدة، آية: ١١١؛ سورة يونس، آية: ٧٢، ٨٤؛ سورة النمل، آية: ١٠-٣١.

(٣) محمد الراوي، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص ٥١.

(٤) محمود الشرفاوي، الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠، ص ٧٥-٧٦.

ويعقوب^(١)، نقرأ في التوراة أن يعقوب - عليه السلام - عندما أراد العودة بزوجاته وأولاده من ديار خاله «لابان» في «حازان»، إنما قد سرقت زوجه «راحيل» أصنام أبيها وأخذتها معها، مما اضطر «لابان» وبنوه إلى اللحاق بركب يعقوب، معاتبين إياهم على سرقة أصنامهم، جادين في طلبها، غير أن راحيل سرعان ما خادعتهم، عندما «أخذت الأصنام ووضعتها في حداجة الجمل، وجلست عليها»، ثم ادعت بعد ذلك أنها لا تستطيع القيام من مكانها، لأنها في الحيض^(٢).

ولست أدري : كيف قبل كتبة التوراة أن يصوروا لنا راحيل - وهي زوج نبي، وأم نبي - سارقة لأصنام أبيها، ثم وهي مخادعة له، وذلك حين خبأت الأصنام في حداجة (هودج) الجمل، وجلست عليها، بل وادعت كذباً على أبيها «لابان» أنها لا تستطيع النهوض من مكانها، لأن عليها «عادة النساء»؟ فهل كانت زوج نبي الله يعقوب - وأم ولده الصديق يوسف، عليهما السلام - ما تزال على الشرك؟ وقد مضى على زواجها من يعقوب سنين عدداً.

في الواقع، إنني لا أظن أن هناك باحثاً بقادر على أن يجد لذلك تبريراً مقبولاً لدى ذى عقل، فضلاً عن أن يتفق ذلك التبرير مع نبوة يعقوب، إلا إن كان يريد أن يؤمن بحرفية كل ما جاء في التوراة، أيًا كان هذا الذي جاء فيها^(٣).

بل إن التوراة إنما تذهب كذلك، إلى أن الله - جلّ وعلا - قد تراءى للابان في الحلم - مع أنه وثني، ولم يلحق بيعقوب إلا ليأخذ أصنامته التي سرقتها ابنته راحيل زوج يعقوب - وقال له : «احترز من أن تكلم يعقوب

(١) انظر التفصيلات في : محمد يومي مهرا، إسرائيل، الكتاب الأول : التاريخ، الإسكندرية،

١٩٧٨، ص ١٩٩-٢٠٥.

(٢) تكوين ٣١: ٩-٣٥.

(٣) انظر : محمد يومي مهرا، المرجع السابق، ص ١٩٦-١٩٩.

بخير أو شر»^(١)، وإن كان «لابان» لم يحترز، وكلم يعقوب، ولكنه جنح آخر الأمر إلى السلم، بل وقطع معه عهد سلام، على نصب هناك، في جبال جلعاد، شرقي نهر ييوق، ودعاها يعقوب، «جلعيد» (رجمة الشهادة)، وأشهد هذه الرجمة - فضلا عن الله نفسه - على هذا العهد، على أن يكون إله إبراهيم وآلهة ناحور (أخى إبراهيم وجد لابان) قاضية، فيما يشجر بين يعقوب ولابان من خلاف في تنفيذ هذا العهد^(٢).

ولست أدري: كيف جاز كل ذلك على كتبه التوراة، وكيف قبلوا أن يقيم يعقوب الأنصاب، وأن يشهدا على العهد بينه وبين خاله لابان؟ ثم كيف قبلوا أن يتراءى الله للوثنيين في المنام؟ بل كيف قبلوا أن يجمعوا بين إله إبراهيم وبين آلهة ناحور في القضاء في أى خصام يشجر بين لابان ويعقوب، وهل علم الذين يدعون لهذه النصوص، ما يدعون من قداسة، أن تلك كانت عادة الشعوب الوثنية القديمة، وعلى سبيل المثال، تلك المعاهدة التي عقدت بين «رعمسيس الثانى» (١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م) و«خاتوسيل الثالث» (١٢٧٥-١٢٥٠ ق.م) ملك الحيثيين، حوالى عام ١٢٨٥ ق.م، وأشهد كل منهما عليها أربابه، وأن ذلك إنما كان - فيما يرى المؤرخون - دليلا على استعداد كل من الدولتين للاعتراف بالهبة الدولة الأخرى، فهل كان الأمر كذلك بين لابان ويعقوب^(٣).

ويستمر الإسرائيليون - رغم ما جاء فى روايات التوراة - على إيمانهم بربهم الواحد الأحد، على أيام الصديق - كما كانوا على أيام يعقوب وإسحاق وإبراهيم - وينفرد القرآن الكريم بذكر دعوة يوسف، وهو فى

(٢) تكوين ٣١: ٤٥-٥٤.

(١) تكوين ٣١: ٢٤.

(٣) انظر: عبد العزيز صالح، مصر والعراق، ص ٢٢٤، وكذا: J.A. Wilson, op.cit., p. 248.

A.H. Gardiner, JEA, 6, 1920, p. 201-202.

وكذا:

ASAE, 15, p. 181F.

وكذا:

PM, II, p. 49F.

وكذا:

السجن، إلى توحيد الله، وبث العقيدة الصحيحة، ويظهر جلياً في هذه الدعوة لطف مدخله إلى النفوس، وسيره خطوة خطوة في رفق وتؤده، قال لصاحبيه في السجن: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانَهُ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١)، ثم يتوغل في قلوبهما أكثر، ويفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد اعتقاد قومهما، بعد ذلك التمهيد الطويل^(٢): ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ عَارِبَابٍ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٣).

وما أن يخرج يوسف من السجن، ويصبح على خزائن الأرض أميناً، بعد أن كان في زوايا الأرض سجيناً، حتى يستدعى أباه وإخوته من كنعان للإقامة معه في أرض الكنانة الطيبة، ثم تمضي الأيام، وتمر السنون، وتطول إقامة بنى إسرائيل في مصر إلى قرون - ربما تجاوزت الأربعة^(٤) - ينسى الإسرائيليون خلالها دعوة التوحيد، التي نادى بها الآباء من أنبياء الله الكرام، وينغمسون في وثنية مفرقة في التعدد، فيتعبدون إلى آلهة مصر، فضلاً عن آلهة سادتهم الهكسوس^(٥).

(١) سورة يوسف، آية: ٣٧-٣٨؛ وانظر: تفسير المنار ٢٥٠/١٢-٢٥٣؛ تفسير القرطبي، ص ٣٤١٧-٣٤٢٠؛ تفسير ابن كثير ٣١٤/٤-٣١٥؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ١٩/٤؛ تفسير

الطبري ١٠٠/١٦-١٠٤.

(٢) محمد رجب البيومي، البيان القرآني، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٢٥؛ التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، تونس ١٩٧٤، ص ٥٣٥.

(٣) سورة يوسف، آية: ٣٩.

(٤) خروج ١٢: ٤٠. ثم قارن: تكوين ١٥: ١٣.

(٥) يشوع ١٤: ١٤؛ حزقيال ٢٠: ٤-٨.

٢ - عصر موسى

قبل مولد موسى عليه السلام، بفترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين، تغير حال بني إسرائيل في مصر، من عز إلى ذل، ومن رخاء إلى فاقة، ومن حرية إلى عبودية، لأسباب سبق لنا مناقشتها في غير هذا المكان^(١)، وذلك حين «أمر فرعون جميع شعبه، قائلاً، كل ابن يولد (لبني إسرائيل) تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها»^(٢)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ»^(٣)، ويقول: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ، وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ»^(٤).

وفي فترة الاضطرابات العصبية هذه، التي سلط الله فيها فرعون على بني إسرائيل، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، في هذه الظروف القاسية، ولد موسى عليه السلام، والذي حمل دعوة الوحدةانية، والعودة إلى دين الآباء الأولين - دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، عليهم السلام - ورغم أن التوراة قد أشارت في وضوح إلى إيمان بني إسرائيل بموسى ودعوته، حيث «مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بني إسرائيل، فتكلم هارون

(١) محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الأول: التاريخ، ص ٢٦١-٢٨٢، (الإسكندرية ١٩٧٨).

(٢) خروج ١: ٢٢.

(٣) سورة القصص، آية: ٤؛ وانظر: تفسير ابن كثير ٣/٣٧٩-٢٨٠؛ تفسير روح المعاني ٢٠/٤٢-٤٤.

(٤) في ظلال القرآن ٢٠/٢٦٧٦؛ تفسير القرطبي، ص ٤٩٦٣-٤٩٦٥.

(٤) سورة البقرة، آية: ٤٩؛ وانظر: تفسير الطبرسي ٢/٢٣١-٢٣٥؛ تفسير الطبري ٢/٣٦٧-٣٩٩.

تفسير روح المعاني ١/٢٥٢-٢٥٤؛ تفسير القرطبي، ص ٢٢٥-٢٣٠؛ الدر المنثور في التفسير

بالمأثور ١/٦٨-٦٩؛ في ظلال القرآن ١/٧٠١-٧٣؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم

١/٥٩-٦١؛ تفسير الكشاف ١/١٣٧-١٣٨؛ تفسير ابن كثير ١/١٢٨-١٣٠؛ تفسير البحر

المحيط ١/١٨٧-١٨٨؛ تفسير المنار ١/٣٠٨-٣١٣.

بجميع الكلام الذي كلم الرب موسى به، وصنع الآيات أمام عيون الشعب، فأمن الشعب^(١).

غير أن التوراة سرعان ما تعود مرة ثانية، فتقول إنهم «لم يسمعوا لموسى من صغر النفس، ومن العبودية القاسية»، رغم ما وعدهم به موسى من إنقاذ لهم من استعباد المصريين لهم، ومن اتخاذهم شعباً مختاراً لرب إسرائيل (يهوه)، وإدخالهم إلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، وبمعنى آخر رغم ما يزعمون من دعوة موسى إياهم بأنهم «شعب الله المختار»، وبأنهم سيرثون كنعان - أو أرض الميعاد، كما يسمونها - وبأن نجأتهم من عذاب المصريين واستعبادهم إياهم، إنما سوف تكون عن قريب، رغم ذلك كله، فإنهم لم يؤمنوا بموسى، وبدعوة التوحيد التي جاء بها، بسبب صغار في نفوسهم من جراء العبودية القاسية^(٢)، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى «فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعالٍ في الأرض، وإنه لمن السرفين»^(٣).

وهكذا يبدو واضحاً إلى أى مدى قد أذل الاستعباد قوم موسى، وأفسد طباعهم، فأعرضوا عن الحق، وأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً، فلقى منهم نبيهم العنت الشديد، فضلاً عن التهم الكذوب.

ثم صراحة ودون مواربة، إذ تعزى إليه شوائب من وثنية، فهو صاحب «حياة النحاس» «نحشْتَان»، صنعها بيديه ورفعها أمام القوم على سارية، هي من أسباب غواية بنى إسرائيل، يقدمون لها القرايين متعبدين، فيسحقها «حزقيا» ملك يهوذا (٧١٥-٦٨٧ ق.م) ضمن ما كان قد حطم من أصنام^(٤).

(١) خروج ٤: ٢٩-٣١. (٢) خروج ٦: ٦-٩.

(٣) سورة يونس، آية: ٨٣؛ وانظر: تفسير الطبري ١٦٣/١٥-١٦٧؛ تفسير ابن كثير

٤/٢٢٢-٢٢٣؛ تفسير القرطبي، ص ٣٢٠٨؛ تفسير المنار ١/٢٨٣-٣٨٤.

(٤) عدد ٢١: ٩؛ ملوك ثان ١٨: ٤؛ حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى في توراة اليهود، ص ٦.

ومن عجب أن هذا يحدث من بنى إسرائيل مع نبيهم الكريم - موسى عليه السلام - في الوقت الذي يؤمن به السحرة المصريون - الذين جاء بهم فرعون ليواجه بهم معجزات موسى، بعد أن اعتقد أنها نوع من السحر الذي تعلمه في مصر - الأمر الذي فوجئ به فرعون، وكاد أن يتميز غيظاً، وقال: «أمنتُم له قبل أن آذن لكم، إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبناكم في جذوع النخل، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبى، قالوا لن نؤثرَكَ على ما جاءنا من البينات، والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمننا بربنا كيغفر لنا خطايانا، وما أكرهتُنَّا عليه من السحر، والله خير وأبى» (١).

وما إن يكتب الله لموسى النصر على فرعون، وينجح في الخروج بقومه من قبضته، حتى يعود الإسرائيليون، مرة أخرى إلى الوثنية، وعبادة الأصنام، وفي الواقع فإن التراث الديني اليهودي ليزخر بأدلة لا تقبل الشك، على أن اليهود الذين رافقوا موسى لم يكونوا أكفأ لحمل عبء التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية، بل إنه لا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصاً على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية في مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها، ويعيدونها منسوخة ممسوخة في الصحراء (٢).

ومن ثم فلم يكذب بنو إسرائيل يمضون مع موسى بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من آل فرعون، حتى رأوا قوماً يعبدون أصناماً لهم، فنسوا كل ما كانوا يذكرونه من آيات الله، ونجاتهم مع موسى، وقالوا ما حكاه القرآن، حيث يقول: «وجاوزنا بينى إسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكفون

(١) سورة طه، آية: ٧١-٧٣.

(٢) عباس العقاد، مطلع النور - أو طوابع البعثة المحمدية، دار الهلال، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٠٧.

على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون، إن هؤلاء متبر ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون»^(١)، و«الفاء» في قوله تعالى «فأتوا» تفيد - كما هو معروف - الترتيب والتعقيب، ومعنى ذلك أنه لم يمض وقت بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من الهلاك، حتى عادوا إلى الوثنية التي ألفوها، وألقوا الذل معها، وهذا يدل على أن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوبهم، ولم يتمكن من ضمائرهم ومشاعرهم، ولم يثمر فيهم الثمرة الطيبة لكل شجرة طيبة، وإنما كان إيمانهم بموسى إيمانًا بإمامته وزعامته، لا إيمانًا بالله الذي خلقه وسواه^(٢).

وهكذا لم يمض طويل وقت، حتى كانت الردة الثانية - بعد فشل الأولى - مثلة في قصة «العجل»، والتي جاءت في التوراة^(٣) والقرآن الكريم^(٤)، حيث يقول سبحانه وتعالى «وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا، قَالُوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسْفًا، قَالَ بِمَسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي، أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَأَلْقَيْتُمُ الْأَوْحَادَ وَأَخَذْتُمْ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي، فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِنَّ الَّذِينَ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٣٨-١٣٩، وانظر: تفسير المنار ٩/٩١، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٢١٥/٤-٢١٦، تفسير الطبري ١٣/٨٠-٨٤، تفسير القرطبي، ص ٢٧٠٩-٢٧١٠، تفسير

الجلالين، ص ١٥٤، تفسير ابن كثير ٣/٤٦٤-٤٦٥.

(٢) عبد الرحيم فوده، من معاني القرآن، ص ١٩٣-١٩٤.

(٣) خروج ٣٢: ١-٢٨.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٥١، ٥٤، ٩٢-٩٣، سورة النساء، آية: ١٥٣، سورة الأعراف، آية:

١٤٨-١٥٢، سورة طه، آية: ٨٣-٩٨.

اتخذوا العجلَ سينالهم غضبٌ من ربهم وذلك في الحياة الدنيا، وكذلك
 نجزي المفتريين^(١).

وليس هناك من ريب في أن هذا، إنما كان - مرة أخرى - من تأثير
 الديانة المصرية على بنى إسرائيل، ذلك أن عبادة العجل في مصر، إنما هي
 جد عميقة الجذور، إذ ترجع إلى ما قبل عصر موسى بكثير - إلى أيام الأسرة
 الأولى المصرية^(٢)، حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م - ثم استمرت حتى ظهور
 المسيحية وغلبتها عليها.

وهكذا بقيت الوثنية راسخة في قلوب بنى إسرائيل، حتى بعد انفلاق
 البحر لهم، وحتى بعد أن جاوزوه على ييس، وحتى بعد أن من الله عليهم
 بالمن والسلوى، وحتى بعد أن استسقوا موسى فضرب الحجر بعصاه،
 فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من الأسباط مشربهم، وحتى بعد
 أن نزلت عليهم شريعة تحذرهم من اتخاذ آلهة أخرى غير الله، حتى بعد هذا
 كله، فإن الإسرائيليين سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم، وكفروا بالله
 الواحد الأحد، «وصنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا، وقالوا: هذه
 آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر»^(٣)، وهو ما سوف يفعلون -
 كما سنرى - في دويلة إسرائيل على أيام «يربعام الأول» (٩٢٢-
 ٩٠١ ق.م)، وبعد موت سليمان، عليه السلام، مباشرة.

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٨-١٥٢؛ وانظر: تفسير أبي السعود ٤٠٦/٢-٤٠٩؛ تفسير روح
 المعاني ٦٧/٩-٧٠؛ تفسير الطبري ١١٧/١٣-١٣٦؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم
 ٢١٩/٤-٢٢١؛ تفسير الجلالين، ص ١٥٥؛ تفسير القرطبي، ص ٢٧٢٠-٢٧٢٨؛ تفسير
 الكشاف ١١٨/٢-١٢٠؛ تفسير الطبرسي ٢٦/٩-٣٢؛ تفسير الفخر الرازي ١٠٨/١٥-١١١؛
 تفسير ابن كثير ٤٧٣/٣-٤٧٥؛ تفسير القاسمي ٢٨٥٩/٧-٢٨٦٤؛ تفسير المنار
 ١٧٢/٩-١٧٣.

(٢) Walter B. Emery, Archaic Egypt, (Penguin Books), 1963, p. 124.

(٣) خروج ٣٢: ٨.

ولعل من الأهمية بكان الإشارة هنا إلى أن الإسرائيليين جميعاً - فيما يرى باروخ سبينوز^(١) - قد عبدوا العجل الذهبي، باستثناء اللاويين، فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان اللاويون - فيما يرى سيجموند فرويد^(٢) - هم بطانة موسى من كهنوت مصرى، فإن المصريين وحدهم هم الذين لم يعبدوا العجل، أو قل هم وحدهم الذين عبدوا رب موسى عن عقيدة، لم تضعف حتى أمام وعيد فرعون وتهديده^(٣).

٣ - عصر القضاة

عندما خرج البدو الإسرائيليون، الذين لا ثقافة لهم، من صحراء التيه، ليستقروا بفلسطين، وجدوا أنفسهم أمام أم قوية متمدنة منذ زمن طويل، فكان أمرهم كأمر جميع العروق الدنيا التي تكون في أحوال مماثلة، فلم يقتبسوا من تلك الأمم سوى أحسن ما في حضارتها - أى لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة، ودعاراتها وخرافاتنا - فقرَّبوا القرابين للآلهة، عشتارت وبعل ومولك، بل إنهم قرَّبوا لهذه الآلهة الأجنبية أكثر مما قرَّبوا لربهم «يهوه»، كما كانوا يعبدون آلهة على هيئة عجول، ويضعون أبناءهم في ذرعان محمرة من نار «مولك» ويحملون نساءهم على البغاء المقدس في المشارف^(٤).

وعلى أى حال، فلقد كانت السمة الدينية العامة التي يتميز بها عصر القضاة هو الردة عن عبادة «يهوه» - رب يهود - وعبادة الآلهة الأجنبية، وفي مقدمتها بعل وعشتارت، وهكذا نقرأ في سفر القضاة من التوراة أنه

(١) باروخ سبينوز، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، القاهرة ١٩٧١، ص ٤١٥.

(٢) Sigmund Freud, Moses and Monotheism, New York, 1939.

(٣) انظر عن «قصة العجل الذهبي» بالتفصيل: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الأول:

التاريخ، ص ٤٦٢-٤٧٩، ط ١٩٧٨.

(٤) جوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٢٠.

أعقب موت «يشوع» - فتى موسى وخليفته - فترة زاع فيها بنو إسرائيل عن عبادة الواحد القهار، واتجهوا نحو عبادة «بعل» و«عشتارت»، فسلط الرب عليهم من أذلهم وهنا عادت خراف بيت إسرائيل الضالة إلى ربها تدعوه أن يكشف عنها الغمة، «فأقام لهم قضاة، كان الرب مع القاضى، وخلصهم من يد أعدائهم كل أيام القاضى لأن الرب ندم من أجل أنينهم بسبب مضايقيهم وزاحميهم، وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آباؤهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها، لم يكفوا عن أفعالهم، وطريقتهم القاسية، وفحمى غضب الرب على بنى إسرائيل وسلط عليهم أعداءهم، ليمتحنهم ربهم»^(١).

وهكذا تقدم لنا التوراة صورة بشعة لما كان من ارتكاس بنى إسرائيل، وانحرافهم الدينى والخلقى بسرعة عجيبة، الأمر الذى تكرر منهم من قبل مع موسى الكليم، عليه السلام، والذى ظل طابعهم المميز، بل هو كذلك التعليل التقليدى الذى تقدمه التوراة دائماً وأبداً، حين تحل بينى إسرائيل النوائب، وتقف فى طريقهم العقبات، أو ترفضهم القبائل، أو تشن الأمم عليهم الحروب، وذلك نتيجة الطبع الملتوى، والخلق النهاز للقرص، ذلك التعليل هو أن رب إسرائيل قد غضب على شعبه إسرائيل، بسبب عصيانهم إياه، وإشراكهم به ولكن رب إسرائيل - ويا للعجب - فإنه سرعان ما يعود، فيغفر لبنى إسرائيل ذلتهم، حين يريد بنو إسرائيل ذلك الغفران، مستغلين علاقتهم به، فيحارب عنهم وبهم، حتى يحقق لهم ما ييغون من نصر، وتلك لعمري، فرية لا يقبلهما إلا بنو إسرائيل.

على أن هناك من عصر القضاة، ما يشير إلى أن الإسرائيليين لم يكفوا بعبادة الآلهة الأجنبية فحسب، وإنما كانوا يقيمون لها «المذابح» - شأنها، فى ذلك شأن يهوه، إله يهود - ذلك أن التوراة إنما تحدثنا أن القوم إنما قد

عادوا إلى ردتهم القديمة، فسلط الله عليهم المديانيين، الذين استذلوهم سنوات سبع، اضطروا في آخرياتها إلى أن يتركوا قراهم ومدنهم، وأن يلتجئوا إلى الكهوف والمغاور والحصون^(١).

ويصرخ الإسرائيليون إلى ربهم «يهوه»، وكالعادة يرسل رب إسرائيل إلى شعبه إسرائيل رجلاً نبيلاً منهم، هو «جدعون» من سبط منسى، والذي يأمره «يهوه»، أن «اهدم مذبح البعل الذي لأبيك، واقطع السارية التي عنده، وابن مذبحاً للرب إلهك على رأس هذا الحصن بترتيب، وخذ الثور الثاني، واصعد محرقة على حطب السارية التي تقطعها»^(٢)، على أن «يهوه»، إنما ينصح «جدعون» إن كان يخاف من بيت أبيه، ومن أهل المدينة، إن قام بذلك العمل في وضح النهار، فليقم به ليلاً، وليساعده في ذلك عشرة من عبيده^(٣).

ويصدع «جدعون» بأمر ربه «يهوه»، ويكر أهل مدينته «عفرة» في الغد، فإذا «بمذبح البعل قد هدم، والسارية التي عنده قد قطعت، والثورة الثانية قد أصعد على المذبح الذي بنى»، وهنا يشور أهل «عفرة»، ولا يقبلون لتهدئة ثورتهم، أقل من رأس جدعون، جزاءً وفاقاً على ما قدمت يداه^(٤).

وهكذا أعاد جدعون عباد «يهوه» مرة أخرى إلى إسرائيل، غير أن الرجل إنما قد أقام في آخريات حياته «أفودا»، وذلك عندما جمع من الإسرائيلين أقراب الذهب التي جمعوها من المديانيين، وصنع منها «أفودا»،

(١) قضاة ٦: ١-٦.

(٢) قضاة ٦: ٢٥-١٧.

(٣) قضاة ٦: ٢٥-٢٧.

(٤) قضاة ٦: ٢٤-٤٠؛ وكذا: O. Eissfeldt, in CAH, Part II, Cambridge, 1975, p. 556.

ثم قارن: قضاة (٦: ٢٨-٣٢)، حيث ظن الإسرائيليون أن البعل سوف ينتقم من جدعون، لأنه هدم مذبحه.

وجعله في مدينته (عفرة)، وزنى كل إسرائيل وراءه هناك، فكان ذلك لجدعون وبيته فخاً^(١).

٤ - عصر الملكية

من أسف أن التوراة لم تقتصر في رواياتها لإظهار شرك بنى إسرائيل، في أدوار تاريخ بنى إسرائيل السابقة، ولا على الأشخاص السابقين، وإنما تعدت ذلك كله إلى الأنبياء أنفسهم، وهكذا تروى التوراة أن سليمان، عليه السلام، إنما قد ختم حياته، وغضب الربُّ قد حلَّ عليه - والعياذ بالله - لأن قلب النبيِّ الكريم - فيما تروى توراة يهود - قد مال عن الربِّ «إله إسرائيل»، ولم يحفظ ما أوصى به الربُّ، ومن هنا، ولأن سليمان لم ينفذ وصايا ربِّ إسرائيل، فقد تحول من موحد إلى مشرك، وهو يدرك تمام الإدراك، أن «الربَّ إله غيور، يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه» لهذا فقد شاءت إرادة ربِّ إسرائيل أن يمزق مملكة سليمان^(٢)، ليفوز عبده «يربعام» منها بنصيب الأسد، ولا يبقى منها لولده «رحبعام» سوى القليل^(٣).

ولعل سؤال البداهة الآن: ماذا فعل سليمان ليكون، هذا نصيبه من ربِّ إسرائيل؟

تروى التوراة أن سليمان كان يذبح ويوقد في المرتفعات، وأنه قد «أحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيات وعمونيات وصيدونيات وحيثيات، من الأمم التي قال عنهم الربُّ لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء

(١) قضاة ٨: ٢٤-٢٧.

(٢) انظر عن الأسباب الحقيقية لانقسام مملكة سليمان بعد موته: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص ٨٦٩-٨٨٩، ط ١٩٧٨ م.

I. Epstein, op.cit., p. 37.

(٣) خروج ٢٠: ٢٥، ملوك أول ١١: ١٣، وكذا:

بالمحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري، فأملت نساؤه قلبه، وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه مع الرب إلهه، كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشرفى عينى الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حيثلذ بنى سليمان مرتفعة لكيموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون، وهكذا فعل سليمان لجميع نساءه الغربيات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل، الذى تراءى له مرتين، وأوصاه فى هذا الأمر، أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها، فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقاً، وأعطيها لعبدك^(١).

وهكذا - وطبقاً لرواية التوراة - فإن سليمان قد بنى هيكلًا، ولكنه لم يظفر منه إلا بالقليل من الاهتمام، بينما الجانب الأكبر من الأموال إنما قد خصص لمبان أخرى، استغرق بناؤها ثلاثة عشر عامًا، بينما بنى الهيكل فى عام واحد^(٢) منها القصر الملكى لسليمان، وقصر زوجته ابنة فرعون، والصروح البديعة والفيالات الأنيقة التى أعدها لنساءه الكثيرات جدًا، والأبنية الحكومية المختلفة، وحتى المعابد الوثنية التى أقيمت خصيصًا لمن رفض اليهود من النساء الأجنبية اللاتى أحبهن سليمان^(٣).

ويبدو أن هذه الوثنية، إنما كانت فى الهضبة الغربية من أورشليم، ذلك أن التوراة إنما تروى فى سفر الأخبار الثانى أنه من غير اللائق أن يقيم

(١) ملوك أول ١١: ١-١١.

(٢) ملوك أول ٦: ١، ٧: ١.

(٣) حسن ظاظا، القدس، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ٣٦-٣٨.

سليمان بيوت زوجاته الوثنيات على مقربة من «بيت يهوه» (هيكل سليمان)، ومن ثم فإن الهضبة الغربية تصبح هي المكان المناسب لهيئة وسائل الإقامة لهؤلاء الزوجات، وهكذا أقيم قصر سليمان الكبير على المنطقة الصخرية التي تدعى «تل موريا»^(١).

وفي عام ٩٢٢ قبل ميلاد السيد المسيح - عليه السلام - ينتقل سليمان إلى جوار ربّه - راضياً مرضياً عنه، ولو كرهت يهود - ولكنه في اللحظة التي دفن فيها إنما دفن معه حلم إسرائيل، في أن تكون قوة لها كيان بين جيرانها من دويلات فلسطين وسورية، إذ سرعان ما تفشى الشقاق القبلي القديم بين الإسرائيليين ومن ثم فقد انقسمت دولتهم إلى دويلتين، الواحدة في الشمال، وتدعى «إسرائيل»، والأخرى في الجنوب وتدعى «يهودا»، وجلس على عرش الأولى عبد سليمان «يربعام»، بينما جلس على عرش الثانية ولده «رحبعام».

هذا وقد كانت أورشليم بتابوتها المقدس، ومعبدها الرئيسي (هيكل سليمان) تقع ضمن مملكة يهوذا، ومن ثم فقد استمر المعبد الملكي الرئيسي في أورشليم، يجذب إليه أبناء القبائل التي كانت تعيش في مملكة إسرائيل، للحج إليه، وتقديم القرابين هناك، على أساس أن هذا المعبد الرئيسي - أو هيكل سليمان كما يسمونه - المحراب الرئيسي للقبائل الإسرائيلية، حتى وإن نبذت سلطة آل داود الملكية.

ويدهى أن «يربعام الأول» (٩٢٢-٩٠١ ق.م) ملك إسرائيل الجديدة (المملكة الشمالية) لم يكن ينظر إلى كل هذا بعين الرضا، ذلك لأن وجود المعبد الرئيسي في أورشليم، إنما يعنى أن هناك رابطة غير مباشرة تربط

(١) أخبار أيام ثان ٣: ١٨، ١١: ١١، وكذا:

القبائل الإسرائيلية الشمالية بأسرة داود، وخشى يربعام أن «ترجع الملكية إلى بيت داود، إن صعد هذا الشعب، ليقربوا ذبائح في بيت الرب في أورشليم، فيرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلونني»^(١).

وفكر «يربعام» في وسيلة يحتفظ بها بولاء شعبه في الشمال، وفي نفس الوقت يوجد نوعاً من التوازن الديني بين مقدسات قبائل إسرائيل الشمالية، وبين هيكل سليمان في أورشليم، وهكذا هداه تفكيره إلى أن يعيد للمكانين المقدسين القديمين مكاتهما، وكان الواحد منهما في «بيت إيل» وهي برج بيتين، على مقربة من بيتين الحالية، على مبعده ١٦ كيلا شمالى أورشليم - وكان المكان الآخر في «دان» (وهي تل القاضى الحالية، على مبعده ٥ كيلا غربى بانياس)، عند منابع الأردن، فى أقصى شمال المملكة الشمالية، وزود كل من المكانين بـ «العجل الذهبى»، ثم أعلن لشعبه أنه «كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتك با إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر»، ثم «بنى بيت المرتفعات، وصير كهنة من أطراف الشعب، لم يكونوا من بنى لاوى، وعمل يربعام عيداً فى الشهر الثامن فى اليوم الخامس عشر من الشهر، كالعيد الذى فى يهوذا، وأصعد على المذبح... وأوقف فى بيت إيل كهنة المرتفعات التى عملها»^(٢).

وهناك ما يشير إلى أن مدينة «السامرة» إنما قد زودت فيما بعد بمحراب ملكى، وربما بعجل ذهبى، وعلى أى حال، فإن التوراة إنما تشير بوضوح إلى عجل السامرة^(٣)، وهكذا قام يربعام بكل إجراءات الانفصال عن يهوذا، فاختار كهنة من غير اللاويين، كما اعتنى عناية شديدة بالأماكن المقدسة المقامة على المرتفعات، مما دفع كثيراً من اللاويين وغيرهم

(١) ملوك أول ١٢: ٢٥-٢٧.

(٢) ملوك أول ١٢: ٢٧-٣٣.

(٣) هوشع ٨: ٥-٦.

من المتدينين، إلى مغادرة البلاد، والهجرة إلى دويلة يهوذا، هذا فضلا عن التغيير الذي أحدثه في «عيد المظال»، واحتفالات الحصاد الدينية من الشهر السابع إلى الشهر الثامن^(١).

وعلى أى حال، فلقد كانت مقاومة التأثيرات الكنعانية في ديانة يهوه، أمراً مسلماً به منذ بداية استيطان اليهود في فلسطين، إلا أنه - دون شك - إنما قد أصبح أشد إصراراً، وأقوى عزمًا على أيام الملكية - وبخاصة في القرن التاسع قبل الميلاد - حيث بدأت حركة «الركابيين» حوالي عام ٨٥٠ ق.م^(٢)، ومن ناحية أخرى، فلقد اتجهت القوى المختلفة العاملة في هذا المجال، إلى تأييد التقاليد القومية، وبخاصة تلك التي تقف ضد إدخال أى عنصر أجنبي في الدين، بغية أن تحتفظ، بل وتؤكد حق يهوه، بملامحه وصفاته، هذا ورغم أن كتاب العهد قد أقر تحويل عبادة يهوه إلى عبادة زراعية، إلا أنه قد حدد في أماكن العبادة، بحيث تتفق وبساطة الدين القديمة.

هذا وقد أقر رواية القصص الذين صنفوا التقاليد المحلية في المصدرين «اليهوى» Jahwist و«الإلوهيمي» Elohist في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، أن يثيروا بين الإسرائيليين شعور الكبرياء بأصلهم الطيب، وبالإيمان بربهم «يهوه» Jahweh، والذي تدين له إسرائيل بكل شيء في الماضي، وتضع فيه كل أملها في الحاضر والمستقبل، وقد نجحت هذه التقاليد حقيقة في توحيد تاريخ الأمة المقدسة، على أساس أن «يهوه» قد صمم منذ البداية - رغم كل العقبات - على خلق شعب غنى وقوى، وإن كانت مرت قرون طويلة قبل أن يقدر لأرض كنعان أن تكون ملكاً له دون منازع.

(١) ملوك أول ١٢ : ٣١-٣٣.

(٢) Adolphe Lods, Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eight Century, Translated by S.H. Hooke, London, 1962, p. 399-400, 410-411.

ولعل الأسباب الرئيسية لمعارضة دين «بعل» إنما كانت بسبب تبني ملوك إسرائيل ديانات الشرك، بالإضافة إلى دين «يهوه»، وأقاموا عجولا من الذهب، وضعوها في مبان كالمعابد، واختلط الحابل بالنابل، وأمسى الكهنة يقدمون الأضاحي ليهوه وبعل على السواء، ويعد دين «بعل» نموذجا للأديان الزراعية في بلاد تجود حقولها بالكروم والغلال، إذ اشتهر هذا الدين بشرب الخمر، والانغماس في الجنس، وتسربت هذه العدوى إلى دين يهوه، حتى ساد الانحلال الجنسي خلال عصر الملكية، لقد سكر رعاة الأغنام، ولانت طباعهم الخشنة، تقول التوراة: «ويل للمبكرين صباحا يتبعون المسكر، للمتأخرين في العتمة تلهيهم الخمر، وصار العود والرياب والدف والنأي والخمر ولائمهم»^(١).

وقارف بنو إسرائيل ألوانا مختلفة من الشذوذ مثل اللواط والاتصال بالحيوان من الذكور والإناث، ومارس الرجال والنساء - زوجات وبنات - الدعارة المقدسة على أبواب المعابد فوق التلال^(٢).

وكان رد الفعل الطبيعي أن تكونت في إسرائيل جماعات الأنبياء، وقفت وجها لوجه أمام أنبياء «بعل»، وكان الأنبياء: إيليا وميخا واليشع، هم الذين حملوا لواء المعارضة العنيفة ضد بيت عمري - أخاب وأولاده - ومن سوء الحظ أن الروايات التي وصلت إلينا من بداية هذه المعارضة، إنما هي تقاليد شعبية، أكثر منها حقائق تاريخية^(٣).

(١) إشعيا ٥: ١١-١٢.

(٢) يدل على ذلك تحريم هذه الأمور في التشريع. انظر عن اللواط: (لاويون ٢٠: ٢٣)؛ وعن الاتصال بالحيوان: (ثنية ٢٧: ٢١؛ لاويون ٢٠: ١٥-١٥)؛ وعن الدعارة المقدسة: (ثنية ٢٣: ١٧-١٨؛ ملوك ثان ٢٣: ٧؛ هوشع: ٧)؛ وانظر: ثروت الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية، بنو إسرائيل، ص ١٧٤.

A. Lods, op.cit., p. 419-420.

(٣)

وكلنا: Ernest, Renan, Histoire, du Peuple d' Israel, II, Paris, 1887, p. 267F.

وتقرأ في التوراة أن «أخاب» (٨٢٩-٨٥٠ ق.م) قد اقتترف من الشرور أكثر من كل لك التي اقتترفها أسلافه من قبل، ولعل السبب في ذلك أن «أخاب» Ahab قد تزوج من «إيزابيل» Jezebel ابنة «إشبعل» ملك صور، والتي كانت ذات شخصية قوية، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها اليهودي تماماً، وقد أثار هذا الزواج معارضة قوية في إسرائيل نفسها، تزعمها النبي «إيليا»، ذلك لأن «إيزابيل»، لم تأت إلى إسرائيل بأفكار الحكم المطلق الغربية عن التصور العبري التقليدي عن الملكية فحسب^(١)، وإنما حاولت كذلك إحلال آلهة الفينيقيين شيئاً فشيئاً، محل عبادة الله (يهوه) في مملكة إسرائيل^(٢)، وليس هناك من شك في أن «إيزابيل» وحاشيتها الصورية، إنما كانوا يمارسون ديانتهم الوثنية في معبد أنشئ في السامرة نفسها من أجل هذا الغرض^(٣).

وعلى أي حال، فلم تكن هذه طقوس الدولة الرسمية، ذلك لأن «يهوه» إنما ظل بالتأكيد ربّ إسرائيل بالنسبة لأخاب ومملكة إسرائيل، وإن كان الملك أخاب نفسه - فيما تروى التوراة - «قد عبد البعل وسجد له»^(٤)، بل إنه إنما «أقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة، وعمل أخاب سوارى، وزاد أخاب في العمل لإغاية الربّ، إله إسرائيل، أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله»^(٥).

غير أن وجود هذه الديانة الأجنبية، وعبادتها في السامرة، إنما قد أثار مقاومة التقاليد القديمة الصارمة للقبائل الإسرائيلية، والتي كانت دمة «يهوه»

(١) Cecil Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 25.

(٢) ج. كوتتو، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٣) ملوك أول ١٦: ٣٠-٢٤.

(٤) ملوك أول ١٦: ٣١.

(٥) ملوك أول ١٦: ٣٢-٣٣.

هو هدفها النهائي^(١)، وقد تزعم «إيليا» النبيّ الشورة ضد أخاب وزوجه إيزابيل، اللذين جهدا لإلغاء عبادة «يهوه»، وإحلال عبادة «البعل» في مكانها، فهما مذابح ربّ إسرائيل، وقتلا أنبياءه، فاندفع إيليا في طول البلاد وعرضها كالإعصار، مهدداً متوعداً، بأنه لا ظل ولا مطر في هذه السنين، وفي السنة الثالثة يقول الربّ لإيليا «اذهب وتراه لآخاب، فأعطى مطر على وجه الأرض»^(٢).

ومع أن المجاعة كانت شديدة إلا أنها كانت في «السامرة» - عاصمة إسرائيل - أشد قوة، وأعنف ضراوة، وأخيراً يطلب إيليا النبيّ من أخاب أن يدعو كل إسرائيل إلى «جبل الكرمل»، حيث يلتقى هناك بأنبياء البعل وعددهم ٤٥٠ نبياً - وكذا أنبياء السواري الذين كانوا يأكلون على مائدة إيزبيل، وعددهم ٤٠٠ نبياً - وأصدر أخاب أمره الملكي باستدعاء «جميع بنى إسرائيل، وجميع الأنبياء إلى الكرمل»، ويعقد إيليا - نبى يهوه - مباراة بينه وبين أنبياء البعل، ليعرف الناس أى الآلهة الذى يستطيع أن ينزل المطر، ويمنّ على الحقول بالخضر.

وحاول أنبياء البعل، دون جدوى، على مدى يوم كامل، أن يأتوا بنار من السماء، ليستنقذوا أضحياتهم، ولكن إيليا بمجرد أن قدم صلواته، حدثت المعجزة، وإلى هذا تشير التوراة في سفر الملوك الأول، حيث تقول: «فتقدم إيليا إلى الشعب، وقال: حتى متى تعرجون بين الفرقتين، إن كان الربّ هو الله فاتبعوه، وإن كان البعل فاتبعوه، فلم يجبه الشعب بكلمة، ثم قال إيليا للشعب: أنا بقيت نبياً للربّ وحدى، وأنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلاً، فليعطونا ثورين، فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه

M. Noth, op.cit., p. 241-242.

(١)

(٢) انظر: التوراة (ملوك أول ١٧: ١-١٨: ١، ١٩: ١٢)؛ الإنجيل (لوقا ٤: ٢٥)؛ رسالة يعقوب

.(١٧: ٥)

ويضعوه على الحطب، ولكن لا تضعوا ناراً، وأنا أقرب الشور الآخر، وأجعله على الحطب، ولكن لا أضع ناراً، ثم تدعون باسم آلهتكم، وأنا أدعو باسم الرب، والإله الذي يجيب بنار، فهو الله، فأجاب جميع الشعب، وقالوا: الكلام حسن».

«فقال إيليا لأنبياء البعل: اختاروا لأنفسكم ثوراً واحداً، وقربوا أولاً، لأنكم أنتم الأكثر وادعوا باسم آلهتكم ولكن لا تضعوا ناراً، فأخذ الشور الذي أعطى لهم وقربوه، ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر، قائلين: يا بعل أجبننا، فلم يكن صوت ولا مجيب، وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عمل، وعند الظهر سخر منهم إيليا، وقال: ادعوا بصوت عال لأنه إله، لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر لعله نائم فينتبه، فصرخوا بصوت وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم، ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ» (١).

«قال إيليا لجميع الشعب: تقدموا إليّ، فتقدم جميع الشعب إليه، فرم مذبح الرب المتهدم، ثم أخذ إيليا اثني عشر حجراً بعدد أسباط بني يعقوب، الذي كان كلام الرب إليه قائلاً: إسرائيل يكون اسمك، وبني الحجارة مذبحاً باسم الرب، وعمل قناة حول المذبح تسع كيليتين من البر، ثم رتب الحجر، وقطع الشور ووضعها على الحطب، وقال: املأوا أربع جراب ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب، ثم قال: ثنوا فثنوا، وقال: ثلثوا فثلثوا، فجرى الماء حول المذبح وامتلات القناة أيضاً ماء، وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبي تقدم، وقال: أيها الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل، ليعلم اليوم إنك أنت الله في إسرائيل، وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور، استجبني يا رب، استجبني ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله، وأنت أنت حولت قلوبهم رجوعاً، فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة في

الحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة، فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم، وقالوا: الربُّ هو الله، الربُّ هو الله» (١).

وهنا يأمر «إيليا» النبيُّ قومه أن «امسكوا أنبياء بعل، ولا يفلت منهم رجل، فأمسكوهم، فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم» (٢)، وهكذا استأصل إيليا أنبياء البعل في إسرائيل، ولم يحل بهم القحط، حيث دعا إيليا لقومه بوفرة المطر، واستجاب يهوه لدعاء نبيه (٣).

وتسمع «إيزابيل» بما حدث لأنبياء ربها «بعل»، وفي غضب مرير، تذرقتل «إيليا» النبي، انتقاماً منه لقتله أنبياء البعل، وفي يأس قاتل يهرب «إيليا» إلى «حوريب» (٤)، ثم يعهد إلى حواريه «اليشع» لي مسح - باسم يهوه، رب إسرائيل - «حزائيل» ملك دمشق (٥) «رغم، أن حزائيل، هذا، لم يكن إسرائيلياً، ولا عابداً ليهوه، ذلك لأن ربَّ إسرائيل - فيما يرى الحاخام أبشتين - إنما أراد أن يجعل ملك دمشق الآرامي، صوت عذاب على شعبه إسرائيل، الأثم الشرير» (٦)، والذي لم يبق منه سوى سبعة آلاف رجل، لم يركعوا للإله بعل، ولم تقبله شفاهم (٧).

على أن هناك - من ناحية أخرى - بعضاً من الباحثين، إنما يذهب إلى أن هذه الصفحات التي وردت في التوراة عن «قصة إيليا»، ربما كانت تقاليد شعبية، أكثر منها حقائق تاريخية، وذلك لأسباب منها (أولاً) أننا

(١) ملوك أول ١٨ : ٣٠-٣٩.

(٢) ملوك أول ١٨ : ٤٠.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 421.

(٤) حوريب: هو جبل سريال في وادي فيران، على رأي، وهو جبل يقع في أدم على رأي آخر، وهو جبل موسى (في سيناء) على رأي ثالث. (قاموس الكتاب المقدس ١/٤٩٨).

(٥) ملوك أول ١٨ : ١-١٩ : ١٧.

(٦) Isidore Epstein, Judaism, 1970, p. 41.

(٧) A. Lods, op.cit., p. 421.

نستطيع أن نستخلص من التوراة نفسها، أن «أخاب» و«إيزابيل» إنما كان أول حاكمين إسرائيليين - بعد داود عليه السلام - أعطياه أبناءهما أسماء بها مقاطع من اسم الرب القومى (أخزيا ويهورام وعثيا)، ومنها (ثانياً) أن «الأوستراكا» التى اكتشفت فى قصر «أخاب» فى السامرة تبين أن هناك أسماء من هذا القبيل، كانت شائعة بين موظفى الملك «أخاب»^(١).

ومنها (ثالثاً) أن الزوجين الملكيين لم يقوما باغتتيال كل أنبياء يهوه، ذلك لأن هناك نصوصاً تشير إلى أن أخاب قد استمع إلى بعض أنبياء يهوه بعد ذلك تقول التوراة: «وكان يحيط به عشية وفاته أربعمائة نبيّ تنبأوا له بالنصر، إلا واحداً، ومنها (رابعاً) أن «إيليا» النبيّ، لم يبلغ عبادة «بعل» فى عهد «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م.)، وإنما كان الملك «ياهو» (٨٤٢-٨١٥ ق.م) هو الذى فعل ذلك، بعد سنين عدداً، وطبقاً لتقاليد أخرى، فإن الذى ألغى عبادة «بعل» إنما كان «حزائيل» ملك دمشق، وعلى أى حال، فإن الذى مسح «ياهو» إنما كان النبيّ اليشع وليس «إيليا»^(٢).

وأياً ما كان الأمر، فهناك من يذهب إلى أن الملك الإسرائيلى «أخاب»، إنما قد أقام فى السامرة معبداً لإله صور (بعل)، و«ملقارت» إله حليفه «إيشبعل» لأهداف سياسية، وأنه بهذا التعدى على ربه «يهوه»، لم يقم إلا بما قام به سليمان من قبل «عندما أقام أماكن لعبادة زوجاته الوثنيات فى أورشليم، والتى ظلت قائمة حتى عهد الإصلاح الدينى فى عام ٦٢٢ ق.م، والذى قام به «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) ملك يهوذا^(٣)، غير أن ما فعله

G. A. Reinsner, Israelite, Ostraka from Samaria, p. 20-27. (١)

H. Gressmann, ZATW, 1925, p. 148. وكذا:

G.R. Driver, ZATW, 1928, p. وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 421. وكذا: (٢) ملوك أول ٢٠-٢٢؛ ملوك ثان ٨: ٧-١٥، ١٩: ١٦؛ وكذا:

(٣) ملوك أول ١١: ٧-٨؛ ملوك ثان ٢٣: ١٣.

«أخاب» إنما كان جديداً وخطيراً في مظهره، لأن الملك الإسرائيلي ورجال حاشيته إنما قد قاموا بتقديم القرابين للإله الأجنبي، ولم يعد «يهوه» هو ربّ البلاد الوحيد، الذي يعبده الإسرائيليون في فلسطين، حيث انتهك مسيح يهوه حرّمات ربّه، وأخلّ بواجباته الأساسية، وكان لمنافسه «بعل» معبد في بلاده، ولعل هذا هو سبب غيرة النبي إيليا، وقيامه بالدعوة لربّه «يهوه»^(١).

وأياً ما كان الأمر، فلقد أرسل النبي «اليشع» واحداً من بنى الأنبياء، ليمسح القائد الإسرائيلي «ياهو» ملكاً على إسرائيل ومبيداً لبيت «أخاب» ونجح الرجل في مهمته، بعد أن قام بعدة مذابح وحشية^(٢)، ثم اتجه إلى السامرة وبصحبته - وفي عربته الحربية ذاتها - «ياهو ناداب بن ركاب» القيني، المتحمس ليهوه ضد البعل، وهناك «قتل جميع الذين بقوا لأخاب في السامرة»، ثم ادعى أنه أكثر إيماناً بالبعل من أخاب، «ليجمع إليه، كل أنبياء البعل، وكل عابديه، وكل كهنته»، وفي لحظة من التعصب الديني البغيض، ذبح «ياهو» كل من اتخذ البعل رباً، ودمّر معبده^(٣)، وهكذا أبيض أتباع البعل في مذبحه بقيت في ذاكرة القوم مروعة، ولفترة طويلة بعد ذلك^(٤).

وتمضى الأيام، ويجلس «يربعام الثاني» على عرش إسرائيل، حيث تمتاز أيامه (٧٨٦-٧٤٦ ق.م) بقوة ورخاء، مصحوبتين بانتعاش ديني، وبدت روح الورع، وكأنها تسود في كل مكان، واحتشدت المحارِب، وتدفقت القرابين وحفوظ على الأعياد بدقة، ولكن كل هذه المظاهر الخارجية للديانة قد لوّث بالوثنية، فلم تتجه إلى عبادة «يهوه» النقية، وإنما

A. Lods, op.cit., p. 422.

(١)

A. Lods, op.cit., p. 388.

(٢) ملوك ثان ٩: ١-٣٧، ١٠: ١-١٧، وكذا:

(٣) ملوك ثان ١٥: ١٥-٢٨.

C. Roth, op.cit., p. 26.

(٤) هوشع ١: ٤، وكذا:

للتوفيق بينها وبين عبادة العجول الذهبية^(١)، ومن هنا نرى النبي «عاموس» (٧٦٠-٧٤٦ ق.م) يقول - على لسان ربه يهوه - «بغضت، كرهت أعيادكم، ولست ألتذ باعتكافاتكم، إلى إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى، وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها، ابعده عن ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع، وليجر الحق كالمياه، والبر كنتهز دائم»^(٢).

وإذا ما تركنا دويلة إسرائيل (٩٢٢-٧٢٢ ق.م)، واتجهنا إلى دويلة يهوذا (٩٢٢-٥٨٧ ق.م)، لرأينا أن الملك اليهودي «أسا» (٩١٣-٨٧٣ ق.م) يقوم بحركة إصلاح ديني، لا بأس بها على أية حال، فقد كان الرجل «يهويًا» مخلصًا، ومن ثم فقد أخرج من معبد سليمان الآلهة الأثني التي كانت تقطن بجوار «يهوه»، وطرد العاهرات المقدسات، وأزال المأبوتين من أرض يهوذا وسحب من أمه «معكة» ابنة أبشالوم^(٣)، لقب «الملكة الأم» لأنها كانت تؤيد الوثنية^(٤) تقول التوراة: «وعمل أسا ما هو مستقيم في عيني الرب كداود أبيه، وأزال المأبوتين من الأرض، ونزع جميع الأصنام التي عملها أبوه، حتى أن معكة أمه خلعها من أن تكون ملكة، لأنها عملت تماثلا لسارية، وقطع أسا تماثلا وأحرقه في وادي قدرون»^(٥).

ومن المعروف أن هذه الأمور إنما قد انتقلت إلى الإسرائيليين من ديانة «بعل»، الذي اشتهر بشرب الخمر، والانغماس في الجنس^(٦)، وأما المرتفعات التي كانت قد أسست على نمط كنعاني، بأعمدة وسواري مقدسة، فقد

I. Epstein, op.cit., p. 42.

(١)

(٢) عاموس ٥ : ٢١-٢٤.

(٣) تضطرب التوراة في «معكة ابنة أبشالوم» هذه، وصلتها بالملك «أسا»، فهي مرة أم أبيه «أبيام» وهي مرة أخرى أمه هو، أي «أسا». (انظر: ملوك أول ١٥ : ٢٢، ثم قارن ملوك أول ١٥ : ١٠).

(٤) باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

(٥) ملوك أول ١٥ : ١١-١٣.

(٦) ثروت أنيس الأسبوطي، المرجع السابق، ص ١٧٤.

بقيت كما كانت، لأنهم إنما كانوا يظنون أن ذلك إنما كان مجرد عادة، ولا يحمل بين طياته أية أهداف وثنية^(١).

وجاء بعد «أسا» ولده «يهو شافط» (٨٧٣-٨٠٩ ق.م.)، الذي نهج نهجه، وأكمل بعض مشروعاته، ونقرأ في التوراة أنه «أزال المأبوسيين، الذين بقوا في أيام أبيه أسا»، «إلا أن المرتفعات لم تنزع، بل كان الشعب لا يزال يذبح ويوقد على المرتفعات»^(٢).

وفي عام ٨٤٣ ق.م، تجلس «عشليا» على عرش أورشليم، بعد موت ولدها «أخزيا» (٨٤٢ ق.م.)، وتعلن عبادة «بعل» الصورية كديانة رسمية لدولة يهوذا^(٣)، غير أن «يهو ياداع» - الكاهن الأكبر، وصهر البيت المالكي، قد استطاع بعد ست سنوات، من أن يقتل «عشليا» في عام (٨٢٧ ق.م.)، وأن يدخل جميع الشعب، إلى بيت البعل، وهدموا مذابحه، وكسروا تماثيله تماما، وقتلوا «متان» كاهن البعل، أمام المذابح^(٤)، غير أن عبادة البعل سرعان ما تعود ثانية في عهد «يهو آش» (٨٢٧-٨٠٠ ق.م.) - خليفة عشليا - وبعد قتل الكاهن الأكبر «يهو ياداع» مباشرة، فترك القوم «بيت الرب» إله آبائهم، وعبدوا السوراري والأصنام، فكان غضب يهوه على يهوذا وأورشليم لأجل إثمهم هذا، وأرسل إليهم أنبياء لإرجاعهم إلى الرب، وأشهدوا عليهم، فلم يصغوه^(٥).

وجاء «أمصيا» (٨٠٠-٧٨٣ ق.م.)، الذي تذهب التوراة إلى أنه قد «عمل المستقيم في عيني الرب»، وإن ظلت المرتفعات كما كانت، يذبح

(١) I. Epstein, op.cit., p. 46

(٢) ملوك أول ٢٢: ٤٢-٤٦.

(٣) Cecil Roth, A Short History of The Jewish People, London, 1969, p. 32.

(٤) ملوك ثان ١١: ١-٢؛ أخبار أيام ثان ٢٢: ١-٢٣.

I. Epstein, op.cit., p. 47-48.

(٥) أخبار أيام ثان ٢٤: ٨-٩؛ وكذا:

القوم لها، ويوقدون عليها^(١)، وطبقا لرواية التوراة، فقد قام أمصيا بحملة ناجحة ضد أدوم، نجح فيها في الاستيلاء على «سالع» (البتراء)، وأطلق عليها اسم «يفنثيل» بمعنى «الخاضع لله»، ولكنه في نفس الوقت، فقد أحضر معه آلهة أدوم الوثنية وسجد أمامها، وأوقد لها^(٢).

وفي عهد «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ ق.م) يقود النبي «إشعيا» (٧٣٤-٦٨٠ ق.م) حركة المقاومة ضد الحلف الذي كانت تتزعمه مصر، وتنضم له ولايات سورية وفلسطين ضد آشور، ويطلب من قومه اليهود بأن يضعوا ثقتهم في ربهم «يهوه»، الذي اتخذ من أورشليم مقراً دائماً له، ومن ثم فإنه لا يرضى بأن تكون مدينته المقدسة فريسة للغازي الأجنبي، فلتثق يهوذا بربها يهوه، فلا يستطيع أحد لها ضراً ولا تفعلاً^(٣).

ومع ذلك كله، فلقد رفض «أحاز» أن يسمع لتحذيرات النبي إشعيا وتأكيداته، أو يشاطره ثقته في «يهوه» رب إسرائيل، فقدم جزيته إلى آشور بل إنه إنما قد ذهب بنفسه إلى دمشق ليقدم فروض الولاء، للعاهل الآشوري «بجتلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ ق.م)، ونقرأ في التوراة أن «أحاز» قد ضحى لآلهة دمشق، وطلب عونها، لأنها في رأيه الأقوى، بل إنه قد شيد مذبحاً في أورشليم على النمط الوثني الذي رآه هناك، كما أدخل في يهوذا طقوس التضحية بالطفل الذي كان يمارسها الآشوريون، حتى أنه قدم ابنه الوحيد لنيران «مردوخ»^(٤). وفي نفس الوقت، فلقد أدخل في نطاق المعبد صوراً للخيول المقدسة، تكريماً لإله الشمس، وتعبيراً لولائه لمعبودات آشور

(١) ملوك ثان ١٤ : ١-٧؛ أخبار أيام ثان ٢٥ : ١-١٦.

(٢) أخبار أيام ثان ٢٥ : ١٤؛ وكذا: J. Hastings, A Dictionary of the Bible, p. 853.

وكذا: A.B.W. Kennedy, Petra, History and Monuments, London, 1925, p.78.

(٣) إشعيا ٧ : ١-١٧؛ تيودور روينسون، تاريخ العالم : إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، القاهرة، ص ١٤٢.

(٤) ملوك ثان ١٦ : ٧-٢٠؛ أخبار أيام ثان ٢٨ : ١-٢٥؛ وكذا: I. Epstein, op.cit., p. 48-49.

القديمة، فضلا عن التعبير لملك الملوك نفسه - أي لملك آشور - (١).

وخلف «حزقيا» (٧١٥-٦٨٨ ق.م) أباه «أحاز» على عرش يهوذا ولكنه كان مختلفا عنه، ومن ثم فلم ينهج نهجه، ولم يتبع سياسته في الدين والسياسة ذلك لأن العاهل الجديد - فيما تروى التوراة - إنما كان مصححا دينيا، ولهذا فقد أمر بإخراج النجاسة من بيت الرب وتطهيره، فضلا عن تقديم الذبائح والقربان والمحرقات، هذا إلى جانب إزالة المرتفعات، وكسر التماثيل، وقطع السواري، وهي أمور حاول أسلافه القيام بها دون جدوى، بل لقد ذهب «حزقيا» إلى حد الإعلان بأنه لن يدمر ما هو أقل قداسة من «تمثال حية النحاس» (نحشتان)، والذي كان محفوظا داخل معبد أورشليم (هيكل سليمان) ومحسوبا على أنه من صنع موسى نفسه، كما أنه قد «عصى على ملك آشور، ولم يتعبد له» (٢).

غير أن خليفته وولده «منسى» (٦٨٧-٦٠٢ ق.م) إنما كانت له شهرة سيئة من الناحية الدينية، ذلك لأن «منسى» هذا، إنما كان كافرا يدين «يهوه» متبنيا لطقوس سادته الوثنية، بما فيها من عبادة الكواكب والتضحية بالأطفال، ومن هنا فقد اعتبرت فترة حكمه أسوأ وأقسى ردة وثنية في تاريخ يهوذا، وأما ما هو أكثر دهشة في هذه المرحلة، فإن هذه الأحوال الوثنية إنما كان يمارسها القوم الذين ادعوا أنهم عباد يهوه - رب إسرائيل - وهم يعتقدون بممارستهم مثل هذه الأعمال يصبحون جديرين برعاية رب إسرائيل (٣).

ونقرأ في التوراة أن «منسى» قد «بنى المرتفعات التي أبادها حزقيا أبوه، وأقام مذابح البعل، وعمل سارية، كما عمل أخاب ملك إسرائيل، وسجد

C. Roth, op.cit., p. 34.

(١)

(٢) ملوك ثان ١٨ : ١-٧، أخبار أيام ثان ٣٩ : ١-٢٦.

Isidore Epstein, Judaism, A Historical Presentation, (Penguin Books), 1970, p. 51. (٣)

لكل جند السماء وعيها، وبنى مذابح في بيت الرب، الذي قال الرب عنه :
في أورشليم أضع اسمي، وبنى مذابح لكل جند السماء في داري بيت
الرب، وعبر ابنه في النار، وعاف وتفاعل واستخدم جانا وتوابع، وأكثر عمل
الشر في عيني الرب لإغاظته، ووضع تمثال السارية التي عملت في البيت،
الذي قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه، في هذا البيت، وفي أورشليم التي
اخترت من جميع أسباط إسرائيل، أضع اسمي إلى الأبد^(١).

وهكذا وجدت المحارِب المحلية القديمة، كما أدخل منسى عبادة
الشمس في يهوذا، على نظام عبادتها في آشور، ودشن - وكذا فعل خليفته
- نخيلا وعجلات للشمس، وأحرقوا لها بخوراً على السطوح، كما مارس
القوم كذلك عادة الضحايا البشرية، وقدموا الطقوس الأجنبية المألوفة حول
معبد أورشليم نفسه^(٢)، واعترفوا بعبادة «البعل»، وممارسة العرافة والسحر،
ولعل هذا كله مما دعا بعض الكتاب المتأخرين إلى أن يروا في «منسى» وما
تم في عهده من وثنية، سبباً في سقوط أورشليم، ونفى يهوذا^(٣).

وتميز عهد الملك «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م) بعدة إصلاحات دينية،
كان أساسها الحصول على نسخة من «سفر الشريعة» في العام الثامن عشر
من حكم هذا الرجل (أى عام ٦٢٢ ق.م)، على يد الكاهن «حلقيا» في
معبد أورشليم^(٤)، وقد قام جدل طويل حول هذا الكشف، وسواء أكان
«حلقيا» أوجد نسخة «سفر الشريعة» هذه أم أنه وجدها حقيقة، وسواء

(١) ملوك ثان ٢١: ٣-٧.

(٢) ملوك ثان ٢١: ٣، ٥، ٢٣، ١١، ٥، قاموس الكتاب المقدس ١٥١٩/١، وكلنا:

C. Roth, op.cit., p. 35.

(٣) ملوك ثان ٢٣: ٢٦-٢٧؛ إرمياء ١٥: ٤، وكلنا:

W.F. Albright, The Biblical Period, From Abraham to Ezra, New York,
1963, p. 79.

(٤) ملوك ثان ٢٢: ٣-١٣؛ أخبار أيام ثان ٣٤: ٨-٣٣.

أكانت هي النسخة الأصلية، أم أنها لم تكتب إلا قبيل اكتشافها المزعوم، بما لا يتعدى عشرات السنين^(١) - الأمر الذي ناقشناه من قبل بالتفصيل في هذا الكتاب^(٢) - فالذي يهمنا هنا أن النصوص إنما تنسب إلى «يوشيا» أنه قد أصلح المعبد، وطهره من الطقوس الأجنبية، وأزال المحارِب من المرتفعات، ودمر مذبح «بيت إيل» المنافس لمذبح أورشليم، منذ أيام «يربعام الأول» (٩٢٢-٩٠١ ق.م.)، واحتفل بعيد الفصح، الذي يذكر القوم بالخلاص من مصر^(٣).

وفي عام ٥٨٧ ق.م، ثم السبي البابلي المشهور، والذي ينسبه القوم في توراتهم إلى الانحلال الداخلي، وانتشار الفساد الخلقي والاجتماعي بين القوم، فضلا عن الانحراف عن عبادة «يهوه»، والاتجاه إلى عبادة الآلهة الأجنبية - وبخاصة بعل صور - في الفترة التي سبقت هذا السبي^(٤).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن وجود البابليين في اليهودية - كحكام وكحامية - قد أدى إلى قيام المعبودات البابلية والاعتراف بها، حتى لنرى «إرميا» يحتج - وهو في مصر - على عبادة ملكة السماوات «عشتار»^(٥)، ويشير «حزقيال» - وهو أحد أفراد سبي يهوياكين في عام (١) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٦٥، وكذا:

W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, 1949, p. 225.

A.P. Davies, The Ten Commandment, N.Y., 1956, p. 35. وكذا:

(٢) انظر: محمد يوسى مهران، إسرائيل، الكتاب الثالث «الحضارة»، الإسكندرية ١٩٧٩، ص ٢٧-٣٠.

(٣) ملوك ثان ٢٢: ٢٣، وكذا: C. Roth, op.cit., p. 35-36.

(٤) إرميا ١: ١٥-١٦، ٢: ٢-٨، ٥: ١-١٩، وكذا: S.A. Cook, CAH, 1965, p. 400.

(٥) هناك من يذهب إلى أن الإلهة الكبرى الشهوانية «عشتار» التي كان العبرانيون يعبدونها في الأماكن المرتفعة بين الفياض، والتي كانوا يأتون بالدعارات المقدسة تكريماً لها، لم تكن سوى زهراء بابل «عشتار»، وكان لعشتار هذه حظوة لدى شعب إسرائيل الشبق، وذلك لما كان لها من شعائر شهوانية، وكانت لها هياكل على التلال، وتخط بفتاب الزيتون، حيث يسمح للحمام =

٥٩٧ ق.م - إلى مجرى سير الأمور في المعبد قبل عام ٥٨٧ ق.م، فيحدثنا عن «تمثال الغيرة» (وربما كان لعشتار)، هذا فضلا عن عبادة الحيوان التي كانت تمارس في قاعة سرية، وفي نفس الوقت كانت السامرة تشجع عبادة بعل الكنعاني^(١).

وهناك قصص انتحله الإسرائيليون طوعاً عن «تموز» الذي ذهبت الآلهة لتبحث عنه حتى سواء الجحيم، وكان يمثل موت تموز، الذي غدا «أدونيس» الإغريق نهاية الخريف، وكان ذلك الإله الجميل يموت في كل سنة، ليبعث بعد كل شتاء، فإذا دلَّ حر الصيف على فقدته بكى باحتفال، فكانت النساء تقوم بالشعائر المأتمية نادبات باكيات، ومما رواه «حزقيال» (٥٩٣-٥٧٢ ق.م) أنه كان في زمانه نساء تبكى تموز في معبد الرب^(٢)، تقول التوراة: «وقال لي الرب... تعال انظر رجاسات أعظم هم عاملوها، فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال، وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز، فقال لي: رأيت هذا يا ابن آدم، بعد تنظر رجاسات أعظم من هذه»^(٣).

العاشقات سجع وهديل، وحيث تجلس الفتيات اللاتي يقضين نهارهن في تطريز الخيام للغياض ولياليهن في قضاء أوطار المؤمنين الذين يتقاطرون إلى هناك، وسرعان ما غدت الدعارة المقدسة تأخذ شكلاً أشد كراهية، وأكثر اشمئزازاً، عندما أصبح الخصيان - لا الفتيات - يبيعون أنفسهم في ليل الغاب الكثيف، وعلى ما كان من نعت الأنبياء لهؤلاء الفتيات بـ «الكلاب»، وعلى ما كان من حظر نذر أجور هؤلاء الفاسقين - أو المأبوتين، كما تسميهم التوراة - لم ينفك بنى إسرائيل عن مضاجعتهم. (انظر: ملوك أول ١٥: ١١، ٢٢، ٤٦؛ ملوك ثان ٢٣: ٧؛ جوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٦٢، ٦٧).

(١) إرميا ٤٤: ١٧-١٩؛ حزقيال ٨: ٣، ١٤؛ إشعيا ٥٧: ٣-٨، ٦٥-٣، ٦٦: ٣، ١٧؛ نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، ٤٥٧/٣.

(٢) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٦٤-٦٥.

(٣) حزقيال ٨: ١٣-١٥.

وظلت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمة طويلاً زمن، لدى جميع أم سورية، ولدى بنى إسرائيل على وجه الخصوص، وفي زمن حزقيال كان يمكن أن نرى - حتى في هيكل أورشليم - يهوداً كانوا يسجدون أمام الشمس، مولين وجوههم شطر المشرق^(١)، تقول التوراة - على لسان حزقيال - فجاء بي إلى دار بيت الرب الداخلية «وإذا عند باب هيكل الرب، بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً، ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق، وهم ساجدون للشمس نحو الشرق، وقال لي: أرايت يا ابن آدم، أقليل لبيت يهوذا عمل الرجاسات التي عملوها هنا، لأنهم قد ملأوا الأرض ظلماً، ويعودون لإغاظتي»^(٢).

على أن هذا كله، لا يعني - بحال من الأحوال - أن القوم قد انصرفوا عن عبادة ربهم «يهوه» وإنما ربما يعني أن هناك محاولة للربط بين رب إسرائيل، وبين مختلف معبودات الشعوب الأخرى، وبدعى أن الاحتجاجات التي أثيرت ضد محاولات التوفيق هذه، وإنما توحى بأن أولئك الذين كانوا يعبدون «يهوه» إنما ظلوا في اليهودية - بعد السبي - كما يشير إلى ذلك الوصف الذي يقدمه الثمانون حاجاً القادمون من شكيم وشيلوه والسامرة، إنما كانوا قادمين إلى أورشليم، لتقديم القرابين إلى بيت الرب الذي خرب، وفي هذا دليل على أن عبادة «يهوه» إنما قد استمرت في مكان المعبد، حتى بعد عام ٥٨٧ قبل الميلاد^(٣).

عصر السبي وما بعده

استمر اليهود على أيام السبي البابلي (٥٨٧-٥٣٩ ق.م) مذذبين بين عبادة يهوه، وعبادة الآلهة الأجنبية، ورغم أنهم لم يكونوا - طبقاً لرواية

(١) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٦٥. (٢) حزقيال ٨: ١٦-١٨

(٣) لرمياء ٤١: ٤-٨؛ نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٥٧؛ وكذا:

التوراة - مرغمين على عبادة أى نوع من المعبودات البابلية^(١)، فإن طائفة منهم مطردة الزيادة أخذت تتعبد إلى الآلهة البابلية، وتآلف الأساليب الشهبانية الشائعة فى العاصمة القديمة، على الرغم مما بذله حزقيال من جهد جبار فى إبقاء القوم على عقيدتهم فى عناية يهوه بمدينةته ووطنه وشعبه، ومع ذلك فإن الجيل الثانى من المنفيين كانت ذكرى أورشليم قد محيت - أو كادت - من أذهانهم^(٢).

ورغم ذلك فقد ظل الكثيرون من المنفيين ينظرون إلى المكان المقدس فى أورشليم - حيث كان التابوت محفوظاً - وكأنه يمثل المركز الدينى للقبائل الإسرائيلية، ومن ثم فقد أصبح المكان المختار لسكنى «يهوه»^(٣)، والمكان الذى اختاره ليحمل اسمه^(٤)، ورغم أن المعبد الذى بناه سليمان فى هذا المكان قد أتت عليه النيران، إلا أن قدسية المكان لم ترتبط ببناء المعبد فحسب، ومن ثم فإنه كخرائب مايزال مكاناً مقدساً، وسكناً لرب إسرائيل «يهوه»^(٥).

وفى فترة ما بعد السبى، والعودة إلى فلسطين، كانت مهمة «عزرا» الكاتب الأساسية - بعد مشكلة الزواج المختلط بين يهود وجيرانهم - هى «إعلان الشريعة» التى أحضرها معه من بابل فى اجتماع وقور وخطير، ومن ثم فقد شرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصف «سفر شريعة موسى»، وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرأون عليهم ما تحتويه ملفات هذا السفر، ولما فرغوا من قراءتها، أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن

(١) M. Noth, op.cit., p. 296.

(٢) ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٢٦٨؛ وكذا:

C. Roth, op.cit., p. 51-52 وكذا:

(٣) إشعياء ٨: ١٨.

(٤) تثنية ١٢: ١١.

(٥) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 291.

يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه، ومبادئ خلقية يسيرون على هديها، ويطيعونها إلى أبد الأبدين^(١).

وسرعان ما بدأ القوم في ممارسة الطقوس على النظام القديم، ومراعاة «السبت» والعبادة والختان، التي غدت جميعاً بعد هذه المرحلة أموراً يجب اتباعها، كما عملت في الوقت نفسه على ربط ما كان قد انفردت من عقدهم، ونأت بهم عما كانوا يتردون فيه من ضباب الوثنية، الآخذ بخناقهم، والمحيط بهم من كل ناحية، وقربتهم إلى فكرة التوحيد، وباعدت ما بينهم وبين الشرك، وأعطتهم الأمل في بعث ونشور، وحساب من ثواب أو عقاب^(٢).

(١) نعمياً ٨: ١-١٨، ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٤٧٠.

الفصل الرابع المقدسات الإسرائيلية

١ - السواري

وهي السواري المقدسة عند الكنعانيين، وقد أصبحت الآن إحدى الملامح المنتظمة لأماكن إسرائيلية مقدسة^(١)، وقد شيدت هذه السواري (أشيرة The Asherah) على امتداد مذابح «يهوه» في كل من السامرة وأورشليم^(٢)، وعلى الرغم من تحريمها بنص التوراة «لا تنصب لنفسك سارية من شجرة ما، بجانب مذبح الرب إلهك، الذي تصنعه لك، ولا تقم لك نصباً، الشيء الذي يغيضه الرب إلهك»^(٣)، فقد أصبح للسواري، على أيام الملك «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م)، أربعمئة نبي يأكلون على مائدة زوجه إيزابيل^(٤).

وعلى أي حال، فلقد أثبتت الآثار التي وصلتنا أن الطقوس الدينية الإسرائيلية ترجع في كثيرها إلى أصول كنعانية، حتى أصبح من العسير على الباحث في العقائد الإسرائيلية أن يعزلها عن الأصول الكنعانية، فنحن نجد طقوس عبادة يهوه ما هي في الواقع إلا طقوس الإله الكنعاني، بل وأصبحت قدسية المكان هي بعينها القديمة لم تتغير^(٥).

وهناك ما يشير إلى أن الإسرائيليين لم يكونوا يعرفون «السواري» قبل دخولهم فلسطين، ذلك لأن المرادف لها لم يكن معروفاً عند الوثنيين العرب، وأن عباد يهوه لم ينسبوا إلى الأحياء - سواء أكان ذلك في الروايات اليهودية أو الإلهيمية - بناء السواري، وربما يفسر ذلك بدرجة أفضل، افتراض أن السواري لم تكن جزءاً من تراث الأحبار الديني القديم^(٦).

(١) ميخا ٥: ١٤. (٢) ملوك ثان ١٣: ٦، ١٨: ٤، ٢١: ٧، ٢٣: ٦.

(٣) تثنية ١٦: ٢١. (٤) ملوك أول ١٨: ١٩.

(٥) فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ٢١٦-٢١٧.

A. Lods, op.cit., p. 425-426.

(٦)

وأياً ما كان الأمر، فإن عمود السوارى هذا، أو «أشيرة» Asherah إنما كان يرمز للإلهة «عشتارت»، ثم نقله الإسرائيليون عن جيرانهم، وهكذا وجدت «أشيرة» بجانب «بعل»^(١)، كما وجدت إلى جانب يهوه، وأما كنه المقدسة^(٢)، كما في السامرة وأورشليم^(٣) - أي في العاصمتين الشمالية والجنوبية - وظل الحال كذلك، حتى جاء حين من الدهر، اعتبرت هذه المقدسات وثنية، لأن التوراة قد اعتبرت عمود السوارى (تمثال السارية) - كما في سفر التثنية - مسبة لأشير - والتي هي عشتارت - وكان تكريمها وتقديسها مرتبطاً بعبادة بعل^(٤).

٢ - تابوت العهد

يطلق على «تابوت العهد» The Ark of Covenant كذلك «التابوت المقدس»، أو كما عرف قديماً باسم «تابوت إلهوهم»^(٥)، وأحياناً «تابوت إله إسرائيل»^(٦) أو «تابوت يهوه»^(٧) أو «تابوت يهوه قائد الجيوش»^(٨) أو «التابوت»^(٩)، أما تسمية «تابوت العهد»، فأول ما ظهرت في سفر التثنية^(١٠)، ثم هناك تسمية أخرى، وهي «تابوت الشهادة»^(١١)

وعلى أى حال، فتابوت العهد عبارة عن صندوق صنعه موسى، بأمر ربّه يهوه الذي حدّد أوصافه ومقاييسه ونوع الخشب الذي يتخذ منه، وصور التماثيل التي يحلّى بها عطاؤه، وأسهب في ذلك غاية الإسهاب، وفي ذلك

(١) تثنية ٥: ٧؛ قضاة ٦: ٢٥. (٢) هوشع ٣: ٤؛ ميخا ٥: ١٢-١٣.

(٣) ملوك ثان ١٣: ٦، ١٨، ٤، ٢١، ٧: ٢٣، ٦.

(٤) تثنية ١٢: ٣، ١٦، ٢١؛ قضاة ٣: ٧؛ ملوك أول ١٥: ١٢، ١٨، ١٩؛ فؤاد حسنين، المرجع

السابق، ص ٢٢١.

(٥) صموئيل أول ٤: ١٣، ١٧، ٥، ١٠: ٢-١٠.

(٦) صموئيل أول ٥: ٧-٨، ١٠-١١، ٦. (٧) صموئيل أول ٤: ٦، ٥: ٣-٤.

(٨) صموئيل أول ٤: ٤، ٦: ٣. (٩) عدد ١٠: ٣٥؛ يشوع ٤: ١٠.

(١٠) تثنية ١٠: ٨؛ لرميا ٣: ١٠. (١١) خروج ٢٥: ٢٢.

تقول التوراة : «فتصنعون تابوتاً من خشب السنط، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، وتغشيه بذهب نقي، من داخل ومن خارج تغشيه، وتصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه، وتسبك له أربع حلقات من ذهب، وتجعلها على قوائم الأربعة، على جانبه الواحد حلقتان، وعلى جانبه الثاني حلقتان، وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب، وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ليحمل التابوت بهما، تبقى العصوان في حلقات التابوت، لا تنزعان منها، وتضع في التابوت الشهادة التي أعطيك»^(١).

وأما غطاء التابوت، فقد حدده «يهوه» - رب يهود - كالتالي «وتصنع غطاء من ذهب نقي، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وتصنع كرويين من ذهب، صنعة خراطة تصنعهما على طرفي الغطاء، فاصنع كروباً واحداً على الطرف من هنا، وكروباً آخر على الطرف من هناك، من الغطاء تصنعون الكرويين على طرفيه، ويكون الكروبان باسطان أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء، ووجهاهما كل واحد إلى الآخر، نحو الغطاء يكون الكرويين، وتجعل الغطاء على التابوت من فوق، وفي التابوت تصنع الشهادة التي أعطيك»^(٢).

وأما الغرض من التابوت، فهو المكان الذي يجتمع فيه يهوه مع موسى، ويتكلم معه من بين الكرويين اللذين على تابوت الشهادة^(٣)، وأما حراسة التابوت فقد أسندت إلى «بنى قهات» من سبط اللاويين، رهط موسى^(٤).

هذا ويرجح بعض الباحثين أن فكرة التابوت إنما هي مستعارة من المصريين، ذلك أن فرعون مصر - وهو المساوي للآلهة - هو الذي كان يحق له وحده أن يفتح الناؤوس، وأن يرى الشعار المرهوب الحافل بالأسرار، وفي

(٢) خروج ٢٥: ١٧-٢١.

(٤) عدد ٣: ٢٩-٣١.

(١) خروج ٢٥: ١٠-١٦.

(٣) خروج ٢٥: ٢٢.

اليهودية كان يحق للحبر الأعظم وحده، أن يدخل مرة واحدة في العام الواحد، إلى قدس الأقداس، حيث تابوت العهد^(١)، على أن هناك من يذهب إلى أن الكثير من أماكن العبادة الكنعانية، إنما كان لها صناديق أو توابيت صخرية مقدسة، وربما افترض الإسرائيليون الغزاة أن واحداً من هذه التوابيت المقدسة، إنما يصلح ليكون مقراً ليهوه ربّ إسرائيل^(٢)، ومرة ثالثة فهناك من يفترض أن التابوت إنما كان تابوتاً صخرياً يشبه تابوت «أوزير»^(٣)، وفي هذه الحالة، فإن التابوت يصبح مصدراً غريباً تماماً عن دين يهوه، ذلك لأن ربّ إسرائيل لم ينظر إليه أحد أبداً، على أنه مماثل للإله المصري «أوزير» أو حتى «أودنيس» الذي يموت ويحيا سنوياً^(٤).

وأياً ما كان الأمر، فلقد احتل التابوت مكانة ممتازة عند المؤمنين من بني إسرائيل، وظل كذلك فترة طويلة بعد اختفائه من معبد أورشليم، وطبقاً للتقاليد الإسرائيلية، فقد كان القوم يحملون «التابوت» معهم أثناء المعارك الحربية (حتى عصر داود على الأقل)، ويستقبل بالتهليل والتكبير ليتحقق النصر، ويقع الذعر في قلوب الأعداء، الذين كانوا يقولون «جاء الله إلى المحلة»، «ويل لنا من ينقذنا من هؤلاء الآلهة القادرين»^(٥)، وفي فترات الهدنة كان التابوت يودع في أحد أماكن العبادة أو في خيمة، وهكذا وجد «تابوت الله» في بيت إيل وشيلوه وبيت شمس وقرية يعاريم، وفي نفس الوقت في خيمة «شاؤل» حيث كان يقوم على خدمته كاهن نوب، وأخيراً في أورشليم^(٦).

(١) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٦١.

A. Lods, op.cit., p. 429.

(٢)

A. Lods, La Religion d' Israel, p. 110-111.

(٣)

Adolphe Lods, Israel From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 428.

(٤)

(٥) صموئيل أول ٤: ٣-٨.

A. Lods, op.cit., p. 425.

(٦)

وطبقاً لوجهة النظر الثنوية (أى بعد عام ٦٢٢ ق.م) فإن قدسية التابوت إنما قد أصبحت فى كونه يحتوى على ألواح الشريعة، ومن ثم فلم يعد اسمه «تابوت العهد» The Ark of Covenant أو «تابوت الشهادة» Ark of Testimony ، وإنما «تابوت الشريعة» Ark of the Law^(١) .

وهناك ما يشير إلى أن «يهوه» إنما كان يخاطب كما لو كان إلهاً فى هيئة إنسان، وهكذا تروى التوراة أن موسى كان «عند ارتحال التابوت يقول: قم يا رب فليتبدد أعداؤك، ويهرب مبغضوك من أمامك، وعند حلوله كان يقول: ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل»^(٢)، وكان البشر يعلو وجوه المحاربين الإسرائيليين، عندما يحضر التابوت إليهم، بينما يملأ الهلع قلوب أعداء إسرائيل - شعب يهوه - ذلك لأن «يهوه»^(٣)، إنما كان يوقع نعمته على أعداء عابديه عن طريق التابوت^(٤) .

هذا وتشير التوراة إلى أن التوراة إنما كان يوجه الأبقار التى تقود العربية التى تحمله «فالآن خذوا واعملوا عجلة واحدة جديدة، وبقرتين مرضعتين لم يعلمهما نير، واربطوا البقرتين إلى العجلة، وارجعوا ولديهما عنهما إلى البيت، وخذوا تابوت الرب واجعلوه على العجلة، واصنعوا أمتعة الذهب التى تردونها له قربان إثم فى صندوق بجانبه، وأطلقوه فيذهب، وانظروا فإن صعد فى طريق تخمة إلى بيت شمس^(٥) فإنه هو الذى فعل بنا هذا الشر العظيم، وإلا فنعلم أن يده لم تضربنا، كان ذلك علينا عرضاً، ففعل الرجال كذلك وأخذوا بقرتين مرضعتين وربطوهما إلى العجلة وحبسوا ولديهما فى البيت، ووضعوا تابوت الرب على العجلة، مع الصندوق وفيران الذهب وتمائيل بواسيرهم، فاستقامت البقرتان إلى بيت شمس، وكانتا تسيران فى سكة

(١) A. Lods, op.cit., p. 425. (٢) عدد ١٠ : ٣٥-٣٦ .

(٣) صموئيل أول ٤ : ٤-٨ . (٤) صموئيل أول ٤-٦ ، صموئيل ثان ١/٦-٢٣ .

(٥) بيت شمس: وتقع فى أرض يهوذا وكانت تخص بنى هارون (يشوع ١٥/١٥، ١٩/١٩، ١٦/٢١ ؛ قضاة ١/٣٥، صموئيل أول ٩/٦-٢٠) .

واحدة، ولم تميلًا يمينًا ولا شمالًا، وأقطاب الفلسطينيين يسرون وراءهما إلى تخم بيت شمس^(١).

ومن أسف أن ما يحيط بالتابوت من معتقدات، وما له من تاريخ، ما يزال غامضًا حتى الآن، على الرغم من كل ما يحايط به من تخمينات، وطبقًا لرواية التوراة، فإن التابوت إنما هو عرش يهوه الذي يجلس عليه^(٢)، أو على الأقل فقد نقش عليه اسم يهوه قائد الجيوش أو رب الجنود^(٣)، ومن ثم فإن التابوت إنما هو عرش يهوه الذي يجلس عليه كإله أعظم، وهكذا كان التابوت عند بني إسرائيل امتدادًا لفكرة المركبة التي ينتقل عليها الإله، فهو المركب عند قدماء المصريين التي كان يسافر فيها إله الشمس في المحيطات السماوية، وفي كل مسيرة دينية نجد هذه المركبة تسير، وقد ركبت على عجل، وفكرة المركب أو المركبة كوسيلة من وسائل النقل أو الإنقاذ، نجدها متمثلة في قصة موسى^(٤).

على أن هناك من الباحثين من يذهب إلى أن التابوت إنما كان بمثابة عرش، ومن الواضح أنه كان خاليًا، وأن هوه هو الذي يجلس فيه مختفيًا، وبالمثل فقد كان في جيش الملك الفارسي «أكزر كسيس» عربة حربية مقدسة للإله «زيوس» (إله الفرس المسيطر) تجرها ثمانية خيول بيضاء، ويتبع السائق العربة ممسكًا بأعنة الخيل، وماشياً على قدميه، ذلك لأنه ليس هناك إنسان بقادر على أن يعتلى العرش^(٥).

ولعل مما يؤيد وجهة النظر هذه، أن هناك فقرة في التوراة يفهم منها أن الرب قد يأتي ويقف «فجاء الرب ووقف، ودعا كالمرات الأولى: صموئيل صموئيل، فقال صموئيل: تكلم لأن عبدك سامع»^(٦)، وفي سفر المزامير

(١) صموئيل أول ٦: ٧-١٢.

(٢) صموئيل أول ٤: ٤.

(٣) صموئيل ثان ٦: ٢.

(٤) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٥) Herodotus, VII, 40. وكذا: A. Lods, op.cit., p. 426.

(٦) صموئيل أول ٣: ١٠.

تؤمر أبواب المعبد بأن ترفع رؤوسها ليدخل ملك المجد: «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارفعن أيتها الأبواب الدهريات، فيدخل ملك المجد، ومن هو هذا ملك المجد، الربُّ القدير الجبار، الربُّ الجبار في القتال، ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات، فيدخل ملك المجد، من هو هذا ملك المجد، رب الجنود هو ملك المجد»^(١)، وعندما وصل التابوت لكى يودع فى المعبد، فقد أعطى إله التابوت لقب «الجالس فوق الكرويم».

وانطلاقاً من هذا كله، فإن يهوه إنما كان يسكن فى التابوت، وطبقاً لرواية سفر حزقيال، فقد كان عرش يهوه باقياً فى مكانه الشرعى فوق الملاكين (الكرويم) - اللذين يصوتانه - وليس تحتها، ومن هنا فإن الفكرة الأصلية هى: أن يهوه إنما قد سكن فى التابوت، وأن هذا لم يمنعه أبداً من أن ينشر سلطانه من خلال جدرانه، شأنه فى ذلك شأن هؤلاء الموتى المقدسين، الذين كان الكنعانيون يعتقدون أنهم إنما كانوا يوجهون توابيت نعوشهم بالإسراع أو الوقوف أو الدوران نحو اليمين أو نحو اليسار، ومن ثم فالتابوت إذن إنما هو صندوق مقدس، مثله فى ذلك مثل غيره من التوابيت التى كانت لآلهة المصريين، والتى كانت تحمل بصفة خاصة فى المواكب الدينية، أو تلك التى فى أضرحة القديسين الكاثوليك^(٢).

وأما محتويات التابوت، فهناك وجه للنظر يفترض وجود حجارة مقدسة بداخله، وأنها ربما كانت من سيناء، ومن ثم فهو يفسر وجود النظر التثنوى الخاص بألواح الشريعة، ومع ذلك فلا توجد أمثلة بين الإسرائيليين من هذه الأحجار المقدسة^(٣).

(١) مزمو ٢٤: ٧-١٠.

(٢) قارن: ملوك أول ٨: ٦-٨.

Sigmund Mowinkel, Le Decalogue, Paris, 1927, p. 67-68.

(٣)

A. Lods, op.cit., p. 427.

وكذا:

على أن هناك وجهًا آخر للنظر، يفترض أن التابوت يحمل صورة يمكن أن يراها المؤمنون بيهوه، وتمثل رب إسرائيل، إما على هيئة نور، وإما على هيئة إنسان، وهو الأكثر احتمالاً^(١).

وليس مؤكداً أن المؤمنين بيهوه إنما كانوا يأتون إلى معبده ليروا وجهه، ويشاهدوا جماله^(٢)، على أن النصوص القديمة إنما تفترض إلى حد كبير أن التابوت إنما كان خزينة يتداولها الكهنة ويفتحونها في الأفراح^(٣).

وهناك أساس للاعتقاد بأن يهوه لم يكن له تابوت واحد في فلسطين، وإنما كان له عدة توابيت، وأن هناك كثيراً من الإشارات في التوراة تفترض أن الهدف من التابوت إنما هو حضور الاحتفالات ومصاحبة الجنود إلى ميادين القتال، ومن هنا كان لا بد أن يتبع التابوت معبداً بعينه، وطبقاً للتقاليد العبرية، فإن التابوت الذي وجد له آخر الأمر ملجأ في معبد أورشليم، إنما هو تابوت موسى^(٤).

وكان التابوت على رأس الإسرائيليين، عندما دخلوا كنعان، بقيادة يشوع ابن نون، وتذهب التوراة إلى أن القوم عندما عبروا الأردن، حملوا التابوت أمامهم، فانشق تيار النهر فوق المياه المنحدرة، وعبر الشعب على اليابسة^(٥)، ثم بقي مدة في الخيمة في الجلجال، وبعد ذلك نقل إلى شيلوه^(٦)، حيث بقي هناك ما بين ثلاثة قرون وأربعة قرون^(٧)، ثم سقط في

(١) A. Loisy, La Religion d'Israel, 1908, p. 109; A. Lods, op.cit., p. 427;

B. Stade, Bibliache Theologie des Alten Testaments, 1905, p. 117.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 328; S. Mowinckel, RHP, 1929, p. 198-199, 209.

(٣) صموئيل ثان ٦: ٦-١٠. (٤) A. Lods, op.cit., p. 428.

(٥) يشوع ٣: ١٤-١٧.

(٦) شيلوه: وتقع شمال بيت إيل بـ ١٤ كيلاً، في منتصف المسافة بين بيتن وشكيم، ويرجح أنها هي المسماة الآن «سيلون»، على مبعده ٢٧ كيلاً شمال أورشليم (قاموس الكتاب المقدس ٥٣٥/١).

(٧) إرميا ٧: ١٢-٥.

أيدى الفلسطينيين في موقعة «أفيق»^(١)، وعندما أعاده الفلسطينيون^(٢) وضع في «قرية يعاريم»^(٣)، ثم نقل إلى أورشليم على أيام الملك داود، حتى بنى سليمان هيكله المشهور، فوضعه فيه^(٤)، وبقي هناك حتى أزاله «منسى» عن مكانه ليضع بدلا منه تمثالا^(٥)، غير أن «يوشيا» أعاده مرة أخرى وسمّاه «تابوت القدس»^(٦)، ومن المؤكد أن التابوت لم يكن موجوداً في الهيكل الثاني، الذي بنى بعد السبي البابلي، ولا يعلم أحد مصيره، وهل أخذه البابليون عندما دمروا أورشليم وهيكلها في عام ٥٨٧ ق.م، أم أنه أخفى ثم فقد بعد ذلك، وعلى أى حال، فهناك تقاليد أثيوبية غير مؤكدة تذهب إلى أن التابوت موجود بأكسوم في أثيوبيا^(٧).

٣ - الصور والتماثيل

يقول «جوستاف لوبون»: «إنك لا تجد شعباً عطل من الذوق الفنى، كما عطل اليهود، والشريعة التى حرمت عليهم منحوت الصور، لم تحرم العالم آثار نفيسة بذلك، وما وقع من مخالفة اليهود للوصية الثانية غير مرة، لم يؤد إلى غير العجول النحاسية أو الذهبية، التى هى أصنام اليهود المفضلة، صباً رديماً على أوتاد غليظة عدت رموزاً للرجولة، والمنصوبة تحت غياض عشتار^(٨).

(١) أفيق: ومكانها الآن «تل المخمر» الحديثة، قرب رأس العين، وعلى مبعده ١٥ كيلو متراً شرق مدينة حيفا.

(٢) صموئيل أول ٤: ١١، ٥: ٢، ٦، ١-٧: ١٧.

(٣) قرية يعاريم: ويرجح أنها قرية العنب الحالية، والتي تسمى كذلك «أباغوش» على مبعده ١٤ كيلاً غربى القدس. (قاموس الكتاب المقدس، ٧٢٩/٢).

(٤) صموئيل ثان ٦: ١-١٥، أخبار أيام أول ١٥: ٢٥-٢٩؛ أخبار أيام ثان ٥: ٢-١٠.

(٥) أخبار أيام ثان ٣٣: ٧. (٦) أخبار أيام ثان ٣٥: ٢.

(٧) قاموس الكتاب المقدس ١/٢١٠؛ محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الثالث: «الحضارة»، ص ١٨-٢٧؛ وانظر: مجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٧٨-٣٨٥؛ وكذا:

E.A.W. Budge, A History of Ethiopia, Nubia and A Byssinia, I, London, 1928, p. 193.

(٨) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٥-٤٦.

وهكذا بدأ اليهود بعد استيطانهم فلسطين يقلدون سكان البلاد في عمل صور لآلهتهم، والتي اعتبرت مظهرًا من مظاهر القوة الإلهية، وعرفت عند القوم باسم «مسكاة»، أي الصور المصبوبة من المعادن^(١)، أو «فسيل» بمعنى صناعة الصور، أو نحتها من الخشب^(٢)، كما عثر الأثريون على نوع منها مصنوع من الطين أو الحجر، وتستخدم التوراة أحيانًا أحد اللفظين، أعني «مسكاة» أو «فسيل» للتعبير عن صورة الله^(٣).

هذا فضلًا عن أن الإسرائيليين إنما قد صنع بعضًا من هذه الصور من الذهب أو الفضة^(٤)، ولا يخلو عند الإسرائيليين معبد من وجود صور لهذه المقدسات التي تمثل المعبود، وأحب هذه الصور إليه صورة «العجل الذهبي»، ولو أن سفر التثنية، وبعض الإسرائيليين المتأخرين يعتبرون تقديس مثل هذه الصورة وثنية، كما أنه لم يخل معبد ملكي في إسرائيل، إلا وفيه صور الثور^(٥).

وعلى أي حال، فلقد كشفت الحفريات في فلسطين عن تماثيلين للإلهتين «عشتار» و«إيزة» ترجع إلى أيام العصر الإسرائيلي^(٦)، والتي يبدو أن نساءه إنما كن يفضلن هذه الآلهة الغربية^(٧)، وطبقًا لرواية التوراة، فقد كان في منزل داود تماثلاً «ترافيم» Teraphim، وربما كان خاصًا بيهوه^(٨) - رب إسرائيل - وقد وضعت زوجته «ميكال» على فراشه، ليقتله جنود داود، بطريق

(١) تثنية ٩: ١٢، ٢٧: ١٥، قضاة ١٧: ٣-٤. (٢) قضاة ١٧: ٣، إشعيا ٤٤: ١٥، ٤٥: ٢٠.

(٣) خروج ٢٠: ٤، ٢٤: ١٧، إشعيا ٤٠: ١٩، ٤٢: ٨.

(٤) خروج ٢٠: ٢٣، ٣٢: ٣١.

(٥) ملوك أول ١٢: ٢٨-٢٩، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٦) A. Bertholet, Histoire de la civilisation d'Israel, Paris, 1929, p. 383, No. 8.

وانظر عن «عشتار»: فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، بغداد ١٩٨٦م؛ وعن «إيزة»:

محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة، ٤١١/٢-٤١٤، الإسكندرية ١٩٨٩م.

A. Lods, op.cit., p. 429.

(٧) تكوين ٢١: ١٩، ٣٠، ٢٥، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 429. (٨)

العوض، تقول التوراة «فأخذت ميكال الترافيم ووضعت في الفراش، ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب، وأرسل شاول رسلا لأخذ داود، فقالت: هو مريض، ثم أرسل شاول الرسل ليردوا داود قائلاً: اصعدوا به إلى على الفراش لكي أقتله، فجاء الرسل، وإذا في الفراش الترافيم ولبدة المعزى تحت رأسه، فقال شاول لميكال: لماذا خدعتني فأطلقت عدوى حتى ينجا، فقالت ميكال لشاول: هو قال لي اطلقني، لماذا أقتلك»^(١).

هذا فضلاً عن أن الإسرائيلي إنما كان يستخدم «الترافيم» للتعبير عن آلهة أجنبية لم يعبدها قومه من قبل، وإن وجدت عند نساء يعقوب^(٢).

وأياً ما كان الأمر، فلقد أقام بنو إسرائيل صوراً للمعبود في المعابد الرئيسية للإله القومي، وكانت القرابين تقدم إلى حية النحاس (نحشتان Nehushtan) في معبد أورشليم، حتى أيام «حزقيال»^(٣) (٥٩٣-٥٧٣ ق.م) - أي في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد - وقد كانت «نحشتان» - فيما يرى بعض الباحثين - تمثل الإله «يهوه» وترمز إليه، وإن رفض بعض آخر وجهة النظر هذه^(٤)، واعتبرها كمعبود ثانوي، تعزى إليه قوى الشفاء، وإلى هذا تشير التوراة، حيث تقول: «فقال الرب لموسى: اصنع لك حية محرقة، وضعها على راية، فكل من لدغ ونظر إليها يحيا، فصنع موسى حية من نحاس، ووضعها على الراية، فكانت متى لدغت حية إنساناً، ونظر إلى حية النحاس يحيا»^(٥).

(١) صموئيل أول ١٩: ١٣-١٧.

(٢) تكوين ٣١: ١٩، ٣٥: ٢، ٤٤: ١٧؛ قضاة ١٥: ١٧؛ هوشع ٤: ٣.

(٣) ملوك ثان ١٨: ٤.

(٤) I. Benzinger, Hebroelsche Arhcaologie, 1927, p. 327; A. Loisy, La Relig- ion d'Israel, 1908, p. 81-82; A. Lods, op.cit., p. 429.

(٥) عدد ٢١: ٨-٩.

وكان «يهوه هو نفسه - دون شك - في الصورة الفضية التي أقامها الأفرامى «ميخا» في بيته على هيئة تمثالين، الواحد مسبوك، والآخر منحوت، «وكان للرجل ميخا بيت للآلهة، فعمل أفودا وترافيم، وملاً يد واحد من بنيه فصار له كاهناً»^(١)، وقد أصبحت له مكانة ممتازة، بعد أن اغتصبها الدانيون^(٢).

والأمر كذلك بالنسبة لارتباط «العجل الذهبي» بالإله «يهوه»، عندما أقام «يربعام الأول» (٩٢٢-٩٠١ ق.م) عجولين، الواحد في مكان عال في «دان»، وقد أصبح بعد ذلك معبداً ملكياً، والآخر في مكان عال كذلك في «بيت إيل»^(٣)، وقد كانت هذه الصور والتماثيل مقبولة من المؤمنين بيهوه^(٤).

بقي أن نشير هنا إلى أن هناك من يشك في أن كلمة «ترافيم» إنما تشير إلى شيء مقدس لشكل معين، أو ذى مغزى محدد، كما أنه من الصعب أن نعطي معنى واحداً للكلمة في كل النصوص، فهي أحياناً تشير إلى رب البيت^(٥)، وأحياناً استخدمت كهدف في عبادة يهوه^(٦)، وأحياناً كوسيلة للتنجيم، أدانها اليهوديون المتعصبون^(٧)، وعلى أى حال، فإن كثيراً من النصوص التي جاءت فيها كلمة «ترافيم» كإشارة إلى عبادة الصورة، إنما قد اعتبرت مباحة بتشريع عمل به لفترة طويلة^(٨).

وقد ظهرت أول حركة ضد هذه العبادة، قبل حركة الأنبياء في القرن الثامن قبل الميلاد، وفي دوائر معينة، ودون شك بدرجة أساسية بين القبائل

(١) قضاة ١٧: ٥٠، وانظر عن الأفود والترافيم: قاموس الكتاب المقدس، ٩٦/١، ٢١٤.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 429-430. (٣) ملوك أول ١٢: ٢٨-٢٩.

(٤) هوشع ١٣: ٢.

(٥) تكوين ٣١: ١٩، ٣٠، ٣٥، صموئيل أول ١٩: ١٣-١٦.

(٦) قضاة ١٧-١٨، هوشع ٣: ٤. (٧) حزقيال ٢١: ٢٦-٢٧، صغنيا ١٠: ٢.

(٨) A. Lods, op.cit., p. 431.

الجنوبية، التي بقيت متمسكة بالتقاليد البدوية، وكان هناك شعور عام بين القوم، على أن الصور لم تكن جزءاً من عبادة يهوه الحقنة، ولم تنسب الروايات اليهودية أو الإلوهيمية للأحبار الأوائل، إقامة تصويرات للإله «يهوه».

ومع ذلك فقد كان الهدف الأول من المنع، خاصاً بتلك الصور التي صنعت من المعدن، تقول التوراة: «لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة»^(١)، وهو إلزام جاء في المصدر اليهودي - والذي يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد - وجاء في المصدر الإلوهيمي في الوصايا العشر: «لا تصنعوا معي آلهة فضة، ولا تصنعوا معي آلهة ذهب»^(٢).

ولم يكن هناك في البداءة اتجاه للمنع التام لعمل صور للرب، فقد كان ما يزال مسموحاً بعمل صور للرب من الخشب أو الحجر، أما المنع التام فقد كان المراد به هو الطرز الأجنبية للتماثيل المصنوعة من المعادن الثمينة، والتي تتعارض - بترفها وغناها - مع بساطة التقاليد الإسرائيلية، وحتى هذه الصراحة فقد كانت تبدو غير مهمة نسبياً، بالنسبة إلى المدافعين عن حقوق يهوه، حتى أن النبيين «إيليا» و«عاموس» لم يدعوا عبادة العجول الإلهية في دان وبيت إيل^(٣)، وعلى قدر ما نعرف، فإن النبي «هوشع» (٧٥٠-٧٢٢ ق.م) إنما كان أول من اعترض على تمثيل «يهوه» - رب يهود - وقد أدان أي شكل لتصوير الإله، ينتمي إلى أي عصر مضى^(٤).

٤ - المذبح

لم يكن المذبح The Altar - طبقاً للتقاليد الإسرائيلية القديمة - بالتأكد مرتبطاً بتلك الأشياء المقدسة، والتي منها على سبيل المثال - صرة

(٢) خروج ٢٠: ٢٣.

(١) خروج ٣٤: ١٧.

(٣) A. Lods, op.cit., p. 431-432.

(٤) انظر: خروج ٢٠: ٢-٦، تثنية ٤: ١٥-٢٤، إشعيا ٤٠: ١٨، ٤٨.

يعلوها خشب أو حجر مرتفع أو قائم، أو شجرة أو ينبوع، وإنما كان مجرد كومة من التراب أو الحجارة غير المنحوتة، مقامة على الأرض، وتوضع عليها الضحايا أو تحرق، ونقرأ في التوراة قول «يهوه» رب إسرائيل «مذبحاً من تراب تصنع لي، وتذبح عليه محرقاتك، وذبائح سلامتك، غنمك وبقرتك، في كل الأماكن، التي فيها أصنع لاسمى ذكراً أتى إليك وأباركك، وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة، فلا تبني منها منحوتة، إذ رفعت عليها إزميلك تدنسها، ولا تصعد بدرج إلى مذبحي، كيلا تنكشف عورتك عليه»^(١).

وليس هناك من شك في أن هذه العادة، إنما قد بقيت بعد استيطان الإسرائيليين فلسطين، ومعايشتهم لتلك المجتمعات المتمسكة بصفة خاصة بالوسائل القديمة، أو أماكن عبادة معينة، حيث احتفظ الكنعانيون بذلك النوع من المذابح، وهكذا بقي الصخر ذو العتب، مستخدماً عند الإسرائيليين في «عفرة»^(٢)، وفي «بيت شمس»^(٣)، بل وحتى في أورشليم»^(٤)، و«عجلون»^(٥)، وربما في «جبعون»^(٦).

هذا وقد استخدم الحجر الكبير في إقامة المذابح، وكان معبد الكرمل من الحجارة غير المنحوتة^(٧)، وكان على مثال المعبد الذي بناه «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م)، ويعتقد «P. Tonneau» أنه قد اكتشف موقعه - طبقاً للنص الماسوري The Masoretic Text - على «جبل عيبال»^(٨)، وإن كان الأكثر احتمالاً - طبقاً للبتاتوك السامرية - أنه على «جبل جرزيم»^(٩).

(٢) قضاة ٦: ١٩-٢٤.

(٤) ملوك أول ٨: ٦٤.

(٦) صموئيل ثان ٢٠: ٨.

(١) خروج ٢٠: ٢٤-٢٦.

(٣) صموئيل أول ٦: ١٤-١٥.

(٥) صموئيل أول ١٤: ٢٣-٢٥.

(٧) ملوك أول ١٨: ٣١-٢٢.

(٨) تثية ٢٧: ٤-٧، وكناء:

(٩) تثية ٢٧: ٤.

ومع ذلك فإن المكان العالي عند الإسرائيليين، إنما كانت له طبيعة بدائية، ذلك لأن المذبح الذي أقامه داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) في قلعة اورشليم، أمام الخيمة التي أودع فيها التابوت، كانت له في كل ركن قرون على شكل كورنيش، ويقبض عليها أذرع متضرعة، تبحث لها عن مأوى لها في حضرة يهوه^(١)، وأنه قد ارتفع بعد ذلك، لأن «أدونيا» قد أنزل من فوقه على أيام سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)^(٢).

وكان المذبح الذي أقامه سليمان في معبد اورشليم من النحاس^(٣)، وطبقاً لما جاء في التوراة^(٤)، فإن معبد بيت إيل، قد أقيم على شكل مثلث، وله قرون^(٥)، على مثال شبيهه الأكبر، الذي أقامه الملك «أحاز» (٧٣٥-٧١٥ ق.م) في معبد اورشليم في القرن الثامن قبل الميلاد^(٦) وقد وصفه «حزقيال» في سفره، بقوله: «هذه أقيسة المذبح بالأذرع، والذراع هي ذراع وفترة، الحوض ذراع، والعرض ذراع، وحاشيته إلى شفته حواليه شبر واحد، هذا ظهر المذبح، ومن الحوض عند الأرض إلى الخصم الأسفل ذراعان، والعرض ذراع، ومن الخصم الأصغر إلى الخصم الأكبر أربع أذرع والعرض ذراع، والموقد أربع أذرع، ومن الموقد إلى فوق أربع قرون، والموقد اثنتا عشرة عرضاً، مربعاً على جوانبه الأربعة، والخصم أربع عشرة طولاً، بأربع عشرة عرضاً على جوانبه الأربعة، والحاشية حواليه نصف ذراع حواليه، ودرجاته تجاه المشرق»^(٧).

وأما أعظم المذابح فقد أقيمت في «المعبد الثاني»، وفي معبد

(١) ملوك أول : ١-٥٠، ٥١-٢، ٢٨-٣٤.

(٢) ملوك أول : ١، ٥٣، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 433.

(٣) ملوك أول : ٨، ٦٤، ملوك ثان : ١٦، ١٤-١٥، حزقيال : ٩، ٢.

(٤) ملوك أول : ١٢، ٣٣.

(٥) عاموس : ٣، ١٤.

(٦) حزقيال : ٤٣، ١٣-١٧.

(٧) ملوك ثان : ١٦، ١٠-١٦.

«هيروودوس» (٣٧-٤٤ ق.م.)، وكان مذبحه مبنياً من حجارة مبيضة بالكلس، وفيه ثقب ليسيل منها دم الذبائح، ثم غطى وجه المذبح بالذهب^(١)، ويبدو أن هذا النوع من المذابح هو الذي ساد على أيام المنفى، لأن كتاب ذلك العصر قد صوروا الكليم، عليه السلام، وقد شيد مذبحاً على هذا الطراز، ورفع بالقرن البرونزية، والتحلّيات الغالية التكاليف، وكان التجديد الآخر، هو وضع «موقد» يمكن إزالته بعد ذلك، ثم سرعان ما أدخل تعديل جديد، هو الصعود إلى رصيف المذبح الأعلى بواسطة سطح منحدر، الأمر الذي تم في معابد جيران إسرائيل، كما في «بيت شان» و«بيلوس»، ثم في البتراء و«بعلبك»^(٢).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك ما يشار حول أصل القرون، فليس هناك مثال واحد من المذابح الكنعانية، التي ترجع إلى ما قبل أيام الإسرائيليين، يماثل هذا الشكل، والمعبدان اللذان اكتشفا من هذا النوع في «شكيم»، يبدو أنهما يعودان إلى العصر الإسرائيلي، والأمر كذلك بالنسبة إلى المعبد الذي اكتشف في «جازر»، والذي يرجع إلى حوالي عام ٦٠٠ ق.م.، ومن ناحية أخرى، فقد كان استخدام المذابح ذات القرون يجري في العبادات غير السورية الإسرائيلية المنتمية إلى عصور أقدم، وربما استعارها القوم من الإيجيين، لأن قرون التكريس هذه إنما كانت ذات طابع ديني عام بينهم، وكانت تلحق على الدوام بمذابحهم.

هذا وقد افترض بعض الباحثين أن هذه القرون، إنما كانت تصور أركان الهلال القمري، غير أن هناك وجهاً آخر للنظر، يذهب إلى أن الغرض من هذه القرون، إنما هو تشابه المذبح مع العجل الإلهي، وكانت الممارسات الأقدم تعليق قرون الضحايا في أركان المذبح، وتأييداً لوجهة النظر

A. Lods, op.cit., p. 433.

(١) قاموس الكتاب المقدس، ١٠١٤/٢-١٠١٥، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 433-434.

(٢)

هذه فقد اكتشف في تعنك (تاعاناخ) مذبحًا، يعتقد البعض أنه مذبح للبخور، وقد حلى بعناصر مخروطة على شكل قرون الكباش.

وكانت توجد في بعض المعابد الإسرائيلية - كما في أورشليم ونوب - موائد توضع عليها أرغفة الخبز أمام يهوه، كما كانت تتجدد في فترات منتظمة.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا، أن الإسرائيليين لم يعرفوا - قبل القرن الخامس قبل الميلاد - عادة تخصيص معبد لحرق البخور، ولم يعترف أقدم أجزاء القانون الكهنوتي - وكذا حزقيال - بهذه العادة، فقد كانوا يعرفون مذبحًا واحدًا ليهوه، هو مذبح القربان المقدس، أما حرق البخور، فقد كان يتم - كما كان الأمر في مصر وسورية - في أوان صغيرة، على شكل ملعقة تمسك باليد، وطبقًا للأجزاء المتأخرة من القانون الكهنوتي، كان يوجد - بالإضافة إلى الأساس المقدس - مذبحًا لحرق البخور، ومن هنا فربما من المحتمل أن نصوص سفر الملوك التي تنسب إدخال مذبح البخور إلى سليمان قد عدلت أو أدخلت فيما بعد، ومن المحتمل كذلك أن هذا الشيء الغريب الذي اكتشف في «تعنك» غير إسرائيلي، هذا فضلًا عن أنه ليس من المؤكد، إن كان له استعمال مقدس أم لا، وربما كان ببساطة مبخرة أو وعاء (منقذ) لجميع الفحم لواحد من أثرياء المدينة^(١).

٥ - الأشخاص المقدسون

(أ) الكهنة

الكهنة - في اصطلاح الكتاب المقدس - هم الذين يتولون تقديم الذبائح، ويتنبأون عن طريق الاستقسام بالأزلام، وشخصية الكاهن معروفة عند عرب الجاهلية، ولها ما يقابلها عند الجماعات البدائية، كما في شخصية «صانع المطر» Rain Maker^(٢).

(١) ملوك أول ٦: ٢٠-٢٢، ملوك ثان ٧: ٤٨، وكذا: A Lods, op.cit., p. 434-435.

(٢) ثروت الأسبوطي، المرجع السابق، ص ١٤٩.

وعلى أى حال، فلقد كان الأفراد جميعاً فى بنى إسرائيل - قبل النظام الموسوى - يقدمون الذبائح^(١)، ومن ثم لم يصل الكاهن فى هذه المرحلة إلى مكان الصدارة الاجتماعية، ولم يصبح محور النفوذ السياسى^(٢)، ثم صار رؤساء البيوت والقبائل الإسرائيلية، هم الذين يتولون أعمال الكهنت^(٣)، وبعد خروج بنى إسرائيل من مصر فى أخريات القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان الكهنت مقصوراً على عائلة هارون^(٤)، وبذا أصبحت الخدمات الدينية احتكاراً لسدنة وراثيين من سبط اللاويين^(٥)، وهى القبيلة التى ينتسب إليها موسى وهارون^(٦)، ولم يحدث ذلك التطور فى هدوء، بل صحبته اضطرابات دامية وعصيان من القبائل، وتروى التوراة أن أتباع موسى قتلوا فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل من بنى إسرائيل^(٧).

ولعل من اللافت للنظر، أن التوراة إنما تذكر الكهنة قبل الأنبياء، فيما عدا المواضع التى يدور السياق فيها عن النبوة، لأن الحديث فيها أكثر اتصالاً بالنبيّ منه بالكاهن^(٨)، وذلك لأن الكهنة إنما كانوا أكثر أهمية فى المعبد، وكان الأنبياء تبعاً لهم، وملحقين بهم، ومن أجل هذا تقول التوراة: إنه عندما يتعثر الكاهن يتعثر النبيّ تبعاً له^(٩)، وتتهم الأنبياء الذين تنبأوا كذباً، بأنهم آلهة فى أيدي الكهنة، ليمدوا سلطانهم على الشعب^(١٠)، كما أن تبعية النبيّ للكاهن، وكونه دونه منزلة، يظهران فى نص التوراة، جاء فى سفر إرميا، حيث يقول: «لأنهم من صغيروهم إلى كبيرهم، كل منهم مولع

(٢) A. Lods, op.cit., p. 342.

(١) تكوين ٤: ٤.

(٤) خروج ٢٨: ١، ٤١-٢٩-٤٥.

(٣) تكوين ٢٠: ٨، ١٢: ٨.

(٦) خروج ٢: ١، ٤، ١٤.

(٥) عدد ١: ٤٧-٥٤.

(٧) خروج ٣: ٢٨؛ ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٩) هوشع ٤: ٥.

(٨) إرميا ٢٣: ٢٣-٣٤، ٢٦: ٧.

(١٠) إرميا ٥: ٣١.

بالريح، ومن النبيّ إلى الكاهن، كل منهم يعمل بالكذب^(١)، فجاء النص «بالنبي» في مقابل «صغيرهم»، و«بالكاهن» في مقابل «كبيرهم»^(٢).

هذا فضلا عن أن بعض الأنبياء، كانوا في بادئ أمرهم من الكهنة^(٣)، بل إن واحداً من كبار أنبياء بني إسرائيل إنما كان كاهناً قبل أن يكون نبياً، بل إن الارتباط الوثيق بين الكاهن والنبيّ في معابد إسرائيل، معناه أن «الأنبياء الكهنة» لم يوجهوا أى نقد للعقيدة الكهنوتية^(٤)، كما أن التوراة إنما تربط بينهما في الانحراف^(٥).

وكان الكهنة الإسرائيليون على ثلاث درجات : رؤساء كهنة، وكهنة، ولاويين، وكان رئيس الكهنة أعظم الأشراف بين الإسرائيليين، أن ربّ إسرائيل إنما كان يعلن إرادته لشعبه إسرائيل عن طريقه، وكان البكر - إذا خلا من العيوب الجسمانية - هو الذى يتولى هذا المنصب، وكان رئيس الكهنة يعين فى حفل كبير، ويقوم بتقديم الذبيحة يومياً، وكان يلبس الملابس الفاخرة، ولاسيما فى «يوم الكفارة»، وكان يضع فى هذا اليوم صدره مرصعة بالجواهر، وقد نقشت على الجواهر أسماء أسباط بني إسرائيل الاثنى عشر، وذلك يرمز إلى أن رئيس الكهنة يحمل مسؤولية كل الشعب، وهذه الزينة هى تذكار للشعب أمام الله^(٦).

(١) لزميا ٦: ١٣ ثم قارن: إشعيا ٩: ١٤.

(٢) م. ص. سيجال، حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمة حسن غاظا، بيروت ١٩٦٧، ص ٣١.

(٣) C. Sauerbrei, The Holy Man in Israel, A Study in the Development of the Prophecy, JNES, 6, 1947, p. 217.

(٤) E.W. Heaton, The Old Testament Prophets, (Penguin Books), 1969, p. 40.

(٥) إشعيا ٢٨: ٧-٩.

(٦) لاويون ٢١: ١٦-٢٤، قاموس الكتاب المقدس ١٧٩١/٢، مراد كامل، الكتب المقدسة فى العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠-٢١.

وطبقاً لرواية التوراة، فإن هارون كان أول من تقلد منصب الكهانة، ثم خلفه فيه ولده^(١) «العازار» ثم بقيت رئاسة الكهنوت في بيته حتى أيام «عالي» في عصر القضاة، هذا وقد كانت وظيفة رئيس الكهنة تدوم مدة حياة صاحبها، إلا أن سليمان قد عزل الكاهن «أبياثار»، وأقام بدلا عنه «صادوق»^(٢)، وعلى أي حال، فلقد أصبحت وظيفة رئيس الكهنة، قبل ميلاد المسيح، آلة في أيدي حكام البلاد، ولاسيما «هيرودوس» (٣٧-٤٤ ق.م) وخلفاؤه، حتى أن «هيرودوس» هذا، قد عين خمسة رؤساء كهنة، منهم «سيمون» الذي أعطاه ابنته، ثمناً لوظيفته^(٣).

وكانت ملابس الكاهن قميصاً من كتان أبيض يمتد من العنق إلى الكاهلين منه، أكمام ضيقة، وسروال من كتان، ومنطقة مطرزة، وكان يضع على رأسه عمامة، ويرجح أن الكاهن كان يقوم بوظيفته الكهنوتية وهو حافي القدمين، وكان يلبس فوق القميص رداء مطرزاً بذهب وألوان، وكان يشده الكاهن حول خصره بزئار من نفس الألوان والنقوش، ولم يكن يسمح للكاهن أن يحلق شعره، أو أن يحز لحيته، أو أن يتزوج بمطلقة، وبما أن وظيفته كانت التقرب إلى الله بالنيابة عن شعب إسرائيل، كان مطلوباً منه أن يبقى طاهراً في داخله، وفي مظاهره الخارجية^(٤).

وكانت الاحتفالات عند تنصيب الكاهن الأكبر، تطول لمدة أيام سبعة، تذبج فيها الذبائح، ويدهن الكاهن الأكبر بدهن المسحة، ويرتدى ملابسه الرسمية، التي يرتديها دائماً، إلا في يوم الكفارة، حيث يلبس ثياباً بسيطة من كتان أبيض لا نقوش عليها^(٥).

(١) خروج ٢٨: ١، عدد ٣: ٣٢، ٢٠: ٢٨، تثنية ١٠: ٦.

(٢) ملوك أول ٢: ٣٥.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٧٩٤/٢، (بيروت ١٩٦٧).

(٤) خروج ٢٨: ٤٠-٤٢، ٢٩: ٥-٩.

(٥) خروج ٢٩: ٣٥، ٣٠: ٢٢-٣٣، لاويون ٢١: ١٠، قاموس الكتاب المقدس ٧٩٤/٢.

وكانت وظائف الكهنوت الرئيسية رعاية المعبد، واستشارة الرب الذي يسكن فيه بوسائل المعرفة التي يقبضون على زمامها^(١)، هذا فضلا عن أنهم كانوا يخدمون في الاحتفالات والتطهير، ويعتنون بالآنية المقدسة والنار المقدسة، والمنارة الذهبية والأثاث المقدس، وكانوا يطلقون الصوت في الأبواق المقدسة، ويحملون تابوت العهد، ويقضون في دعاوى الغيرة، ويقدرون المال للافتداء، وينظرون في شأن البرص، ويفسرون الناموس للشعب^(٢)، غير أن التوراة تقول عنهم بأنهم كثيراً ما كانوا يهملون في واجباتهم الكهنوتية^(٣).

ومن هنا يمكن استنباط الأهمية المتزايدة التي كانت للأسرة الكهنوتية من نسل لاوى (وكانت رتبته الكهنوتية أقل من أولئك الذين هم من نسل هارون) وقبل القرن السابع قبل الميلاد، لم يكن من الضروري أن نسل لاوى هم وحدهم الذين كانوا يمارسون وظيفة الكاهن ذلك لأن أولاد داود، و«زابود بن ناتان» و«ابن ميخا» و«العازار بن أيينا داب»، و«صموئيل ويشوع (من أفرايم) و«عير البائيري» كانوا جميعاً كهنة^(٤)، بل إن هذا الوضع إنما قد استمر حتى نهاية الدولة الشمالية في عام ٧٢٢ ق.م^(٥).

ورغم ذلك، فقد كان للكهنة اللاويين - رهط موسى الأدنين - امتياز خاص، حتى أن الأفرامى «ميخا» إنما قد عد نفسه محظوظاً، حيث كان لديه واحد من هؤلاء اللاويين - من نسل جرشوم بن موسى، عليه السلام -

A. Lods, op.cit., p. 440.

(١)

(٣) (٢٠٤) خروج ٢٨ : ٣٠، حزقيال ٧ : ٢٦، عدد ١٦ : ٤٠، ١٨ : ٥، أخبار أيام ثان ١٥ : ٣، إرميا ١٨ :

١٨

(٣) أخبار أيام ثان ١٧ : ٧-١٠، ١٩ : ٨-١٠، حزقيال ٤٤ : ٢٤، قاموس الكتاب المقدس

٧٩١/٢

(٤) انظر: خروج ٣٣ : ١١، قضاة ١٧ : ٥، صموئيل أول ٧ : ١، صموئيل ثان ٨ : ١٨، ٢٠ : ٢٦،

ملوك أول ٤ : ٥.

A. Lods, op.cit., p. 414-415.

(٥) ملوك أول ١٢ : ٣١، وكلا:

للقيام بطقوس معبده الخاص، إذ أن هذا اللاوى إنما كان في نظر القوم يمثل أسرة الكهانة ذات المكانة الرفيعة في «دان» حتى أن «ميخا» إنما يصرح - فيما تروى التوراة - «الآن علمت أن الرب محسن إليّ، لأنه صار لي هذا اللاوى كاهناً»^(١)، ولا بد أن كهانة شيلوه كانت من اللاويين، فقد كان أحدهم يحمل الاسم المعين «فينحاس» وكان حفيداً لهارون^(٢).

وفي منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، أصبحت رئاسة الكهنوت من نصيب اللاويين دون غيرهم من بنى إسرائيل، ويطالب شعر من هذه الفترة «رجال الرب المخلصين ليهوه»، أي أن رجال موسى لهم وحدهم امتياز جمع النصوص المقدسة، وحق تعليم التوراة لبنى إسرائيل، وجعل دخان القربان يرتفع أمام يهوه^(٣)، ومع ذلك نستطيع أن نعرف أن ادعاءات «اللاويين» قد قوبلت بمعارضة شديدة، لأن الشعر إنما يختم بهذا الدعاء «حطم متون مقاوميه ومبغضيه حتى لا يقوموا»، وليس هناك من شك في أن الروايات إنما تحمل صدقاً لهذه المنافسات، إذ هي تصور لنا داثان وأبيرام - بل وحتى مريم وهارون - المنكرين على موسى حقه وامتيازاته الخاصة^(٤).

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين أسرة اللاويين الكهنوتية وقبيلة «لاوى» القديمة المحاربة، فليست لدينا معلومات مؤكدة، وإن كانت هناك أسباب لنظن - وليس كل الظن إثماً - بأن كلمة «لاوى» إنما كانت في السابق اسماً شائعاً بمعنى «كاهن» وقد استخدمت بهذا المعنى في نص سفر التكوين (٤: ١٤)، وربما أمكن القول أن قبيلة لاوى القديمة المحاربة، قد

(١) قضاة ١٧: ٧-١٣؛ وانظر: نص القضاة ١٨: ٣. حيث يذكر «جرشوم بن منسى»، الصحيح أنه

«ابن موسى»

(٢) صموئيل أول ١: ٣، ٢: ٣٤؛ وانظر: خروج ٦: ٢٥؛ عدد ٢٥: ٧، ١١؛ وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 44.

(٣) تثنية ٣٣: ٨-١١.

A. Lods, op.cit., p. 441.

(٤) عدد ١٢، ١٦؛ وانظر:

اتخذت هذا الاسم، لأنها كانت تمتلك أماكن قادش المقدسة، وتزودت من هذه المعابد بعدد مستمر من الكهنة، ونتيجة لهجومها المنكوب على «شكيم»، فقد اندثرت هذه القبيلة، وبقي الأحياء منهم كأثر لعظمتهم السابقة، الأمر الذي أسبغ عليهم امتيازاً مقدساً، بسبب إدراك القوم بأن آباء اللاويين إنما يرتبط وجودهم بمهد دين «يهوه»^(١).

٢ - الأنبياء

كان لدى الإسرائيليين - إلى جانب الكهنة الملحقين بالمعبد الخاص منذ استيطانهم فلسطين - كما كان لأسلافهم البدو، أفراد ذوى قوة خاصة من التأثير، والتنبؤ بالمستقبل، كالسحرة، ورجال الله والدرأويش، وكان من بين هذه الأنواع المختلفة لرجال الله، نوع كان له - على الأقل منذ عهد الملوك الأولين - السيادة على كل ما عداه من رجال الدين اليهودي، وكان هذا النوع هم «الأنبياء»، وقد قدمنا دراسة مستقلة عن الأنبياء، تحت عنوان «النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل» صدرت فى عام ١٩٧٨م وتمثل الجزء الخامس من هذه الدراسة.

٣ - الأشخاص المكرسون

اتجهت الأماكن العالية، والمعابد الملكية الكبرى، إلى اجتذاب عدد كبير من الرجال - وربما النساء كذلك - والذين أطلق عليهم جميعاً لقب «مقدس عند يهوه»، ومنهم:

(أ) النذيريون

كانت المرأة اليهودية المقلات تنذر لربها يهوه، إن رزقت أطفالاً وعاشوا، فإنها إنما تهب أكبرهم للإله «يهوه»، ومن ثم يصبح هذا الطفل

(١) Godefroy Demombynes, Contribution a L'Etude du Pelerinage de la Mekke, Paris, 1923, p. 171; A. Lods, op.cit., p. 154, 188, 331, 441-442.

خادمًا للكهنة، وحارسًا للمعبد، وربما يصبح كاهنًا، كما يمكن اقتداء الطفل بدفع مبلغ من المال للمعبد، تقول التوراة: «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بنى إسرائيل وقل لهم: إذا أفرز إنسان نذرًا حسب تقويمك نفوسًا للرب، فإن كان لتقويمك لذكر من ابن عشرين سنة إلى ابن ستين سنة، يكون تقويمك خمسين شاقل فضة على شاقل المقدس، وإن كان أنثى يكون تقويم ثلاثين شاقلا، وإن كان من ابن خمس سنين إلى ابن عشرين سنة يكون تقويمك لذكر عشرين شاقلا، وللأنثى عشرة شواقل، وإن كان من ابن شهر إلى ابن خمس سنين، يكون تقويمك للذكر خمسة شواقل فضة، وللأنثى يكون تقويمك ثلاثة شواقل فضة، وإن كان من ابن ستين سنة فصاعدًا، فإن كان ذكرًا يكون تقويمك خمسة عشر شاقلا، وأما الأنثى فعشرة شواقل، وإن كان فقيرًا عن تقويمك، يوقفه أمام الكاهن فيقومه الكاهن، على قدر ما تنال يد الناذر يقومه الكاهن»^(١).

وطبقًا لرواية التوراة - في سفرى الخروج وصموئيل الأول - فقد جندت بعض النساء للخدمة عند باب خيمة الاجتماع، غير أن هذين النصين إنما هما تعديل لاحق، كما أنهما ليسا واضحين، وإن كانت روايتها عن خدم المعبد والأشخاص المتدينين الذين يعيشون في داخله، أو النساء المتدينات المشتركات فى الأعياد^(٢).

(ب) العبيد

وهم الملحقون بالمعبد، سواء أكانوا من الأجانب أو الوثنيين، ويقومون بأعمال الخدمة فى المعبد^(٣)، ولا بد أن معظمهم كانوا من أسرى الحرب

(١) لا يون ٢٧: ١-٨.

(٢) A. Lods, op.cit., p. 448-449.

وكنّا: Alfred Bertholes, Histoire de la Civilisation d'Israel, Paris, 1929, p. 356.

(٣) حزقيال ٤٤: ٧-١٤.

الذين وهبهم الملوك للمعبد، وقد كانوا يعدون - حتى بعد العودة من المنفى، وانتقال وظائفهم إلى اللاويين - من هيئة المعبد، ويعطون لقب «التشينيم» و«عميد سليمان»^(١).

(ج) الرجال المقدسون والنساء المقدسات

وهم الرجال والنساء الذين كرسوا أنفسهم للدعارة المقدسة، وكانوا يعرفون بلقب يحط من شأنهم كثيراً، وهو «الكلاب»، وقد رأينا من قبل، أن هذه الممارسات قد استعيرت من الكنعانيين، وكانت منتشرة بينهم بدرجة كبيرة^(٢).

وعلى الرغم من أن الدعارة المقدسة هذه لم تزل في إسرائيل، حتى إصلاح الملك «يوشيا» (٦٤٠-٦٠٩ ق.م)^(٣) فقد هاجمها الملكان «أسا» (٩١٣-٨٧٣ ق.م) و«يهوشافط» (٨٧٣-٨٤٩ ق.م)^(٤)، ثم الأنبياء «عاموس»^(٥) (٧٦٠-٧٤٦ ق.م) و«هوشع»^(٦) (٧٥٠-٧٢٢ ق.م).

(د) الرقيق المقدس

وهم السكان الكنعانيون في مدن معينة مثل «جبعون» و«قرية يعاريم»^(٧) وغيرهما، وكانوا يجبرون على تزويد مذبح بيت الله بكتل الخشب والمياه في أورشليم، وربما لمكان يهوه العالی في جبعون^(٨). وتعرف الآن بـ «قرية الجيب» على مبعدة ٨ كيلا شمالي القدس.

(١) عزرا ٢: ٤٣-٥٨، ٧٠، ٨، ٢٠؛ نحميا ٧: ٤٦-٦٠، ٧٢، ١١، ٢٠.

(٢) ملوك ثان ٢٣: ٧، ٢٣؛ تثنية ٢٣: ١٨-١٩. A. Lods, op.cit., p. 449-450.

(٣) ملوك أول ١٥: ٢٢، ٢٢، ٤٦. (٤) عاموس ٢: ٧.

(٥) هوشع ٤: ١٤.

(٦) قرية يعاريم؛ يرجح أنها قرية العنب على مبعدة ١٥ كيلا غربي القدس وتسمى أيضاً «أبا غورش».

(٧) يشوع ٩: ٢٣، ٢٧، وكذا: A. Lods, op.cit., p.



الفصل الخامس

الأعياد اليهودية

(أ) التقويم العبري

لعل من الأفضل - قبل الحديث عن الأعياد اليهودية - أن نشير -
بادئ ذي بدء - إلى التقويم العبري لارتباط الأعياد اليهودية به.

كان اليهود يتبعون دورة القمر في حساب الشهور، ودورة الشمس في حساب السنين، ولذلك فقد كان لزاماً على اليهود، حتى يتطابق الحسابان - القمري والشمسي - أن يكون هناك نسيء يكمل الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية، التي تقل بنحو عشرة أيام، وذلك بإضافة شهر كل ثلاث سنين، بحيث تكون سنتهم الكبيسة التي تأتي مرة كل ثلاثة أعوام، مؤلفة من ثلاثة عشر شهراً، وشهر النسيء يقحم عندهم بعد شهر «آذار» اليهودي، الذي يأتي في فصل الربيع، جزء منه في أواخر فبراير، وبقيته في شهر مارس، وهكذا يكون في السنة الكبيسة شهران، هما «آذار»، و«آذار الثاني».

وأما شهور السنة العبرية فهي:

- ١ - تشرى = ٣٠ يوماً (أكتوبر)
- ٢ - حشوان = ٢٩ أو ٣٠ يوماً (آخر أكتوبر - نوفمبر)
- ٣ - كسلو = ٢٩ أو ٣٠ يوماً (آخر نوفمبر - ديسمبر)
- ٤ - طبيت = ٢٩ يوماً (آخر ديسمبر - يناير)
- ٥ - شباط = ٣٠ يوماً (آخر يناير - فبراير)
- ٦ - آذار = ٢٩ يوماً (آخر فبراير - مارس)
- ٧ - نيسان = ٣٠ يوماً (آخر مارس - أبريل)
- ٨ - آيار = ٢٩ يوماً (آخر أبريل - مايو)
- ٩ - سيوان = ٣٠ يوماً (آخر مايو - يونيو)

- ١٠ - تموز = ٢٩ يوماً (آخر يونيو - يولييه)
 ١١ - اب = ٣٠ يوماً (آخر يولييه - أغسطس)
 ١٢ - أيلول = ٢٩ يوماً (آخر أغسطس - سبتمبر)

وكانت الطريقة القديمة للتقويم العبرى - فيما يبدو - تجعل بدء السنة فى فصل الربيع، بل ربما كان بدء التاريخ إذ ذاك هو: قصة خروج بنى إسرائيل من مصر، فى الفترة التى تقع فيها «عيد الفصح»، وهو شهر «نيسان» (أبريل)، ومن ثم فعادة اليهود حتى اليوم، عندما يسردون شهور السنة، أن يبدأوا بشهر «نيسان»، وليس شهر «تشرى» أى يقولون: (نيسان - أيار - سيوان - تموز آب - أيلول - تشرى - حشوان - كسلو - طبيت - شباط - آذار).

وتنقسم السنة اليهودية إلى أربعة فصول كل فصل منها طوله، واحد وتسعون يوماً، وسبع ساعات ونصف ساعة، وهى:

- ١ - فصل الخريف (تقوت تشرى) ، ويبدأ فى ٢٤ أو ٢٥ سبتمبر.
- ٢ - فصل الشتاء (تقوت طبيت) ، ويبدأ فى ٢٤ أو ٢٥ ديسمبر.
- ٣ - فصل الربيع (تقوت نيسان) ، ويبدأ فى ٢٤ أو ٢٥ مارس.
- ٤ - فصل الصيف (تقوت تموز) ، ويبدأ فى ٢٤ أو ٢٥ يونيو^(١).

الأعياد اليهودية وأهمها:

(١) عيد الحصاد

وتطلق التوراة على هذا العيد اليهودى، «عيد الحصاد» مرة^(٢)، وهو «عيد الأسابيع» (شبعوت) مرة أخرى^(٣)، و«يوم الباكورة» أو «البواكير»

(١) انظر: حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٩٤-١٩٧، مراد كامل، المرجع السابق، ص ٣١-٣٢.

(٢) خروج ٢٣: ١٦.

(٣) خروج ٣٤: ٢٢؛ تثنية ١٦: ١٠، ١٦؛ أخبار أيام ٨: ١٣.

(بكوريم) مرة ثالثة^(١)، وعلى أى حال، فهو يقع فى نهاية الحصاد، كما أن «عيد الفطير» هو بداية الحصاد، أو «ابتداء المنجل فى العيدان» على حد تعبير التوراة^(٢).

ومن هنا سمي «عيد الحصاد»، ويقع بعد خمسين يوماً من «عيد الفطير»، الذى يبدأ فى ١٥ نيسان (أبريل) - أى أن عيد الحصاد إنما يقع فى السادس من شهر «سيوان» (آخر مايو - يونيه)، ومن هنا فقد سمي باليوم «الخمسين».

وأما سبب تسميته «بعيد الأسابيع»، فذلك لأنه يقع بعد يوم «عيد الفطير»، (ثانى يوم عيد الفصح) بسبعة أسابيع، وهى مدة حصاد الشعير، ومن ثم فقد كان عيد الفطير احتفالاً يبدأ حصاد الشعير، وكان عيد الأسابيع احتفالاً بختام حصاد الحنطة.

وأما مدة هذا العيد، فهى يومان - أى السادس والسابع من شهر سيوان - وأهم ما يتميز به عند يهود، أنهم يجعلون وصول بنى إسرائيل إلى جبل سيناء بعد خروجهم من مصر ونزول الوصايا العشر على موسى، فى هذا التاريخ، ومن ثم يقومون بحفلة زفاف التوراة فى داخل المعبد، كأنها عروس، ويالغ بعضهم فيتمون قراءتها فى يومى هذا العيد^(٣).

(٢) عيد الفصح

يطلق بعض المستعربين من علماء اليهود على «عيد الفصح»، هذا، اسم «الفَسْح»، وأصل معنى الكلمة القديمة، الخطو والمرور والعبور، وطبقاً

(١) عدد ٢٨ : ٢٦ .

(٢) تثنية ١٦ : ٩ .

(٣) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٢٨، وكذا:

لما جاء في سفر الخروج، فإن اليهود إنما يحتفلون بفصحهم هذا في الرابع عشر من شهر نيسان (أبريل) بين العشاءين (أى بين المغرب والعتمة)، وفي اليوم التالي (أى الخامس عشر) يبدأ «عيد الفطير» (أى الخبز بدون خميرة)، ويمتد سبعة أيام، وفي هذه الصورة نجد أن عيد الفصح والفطير، منفصلين بعضهما عن البعض الآخر، يأتى ثانيهما في أعقاب الأول^(١).

وإذا تأملنا الإصحاح الثانى عشر من سفر الخروج، لوجدنا أن الآيات التى تتناول الفصح «عيد الفطير»، وإنما ترجع إلى مصدرين مستقلين - الواحد هو المصدر اليهودى، والآخر هو المصدر الإلهيمى - فالآيات التى تتناول الفصح (١٢: ١ - ١٣، ٤٣-٥٠)، والتى تتناول عيد الفطير (١٢: ١٤-٢٠) إنما ترجع إلى مصدر قديم، لعله أقدم المصادر، ومصدر متأخر، هو قطعاً أحدث المصادر.

ويشترك المصدران - اليهودى والإلهيمى - فى أمرين جوهريين، الواحد: أن الفصح احتفال عائلى، تقيمه كل أسرة داخل بيتها، ويشرف عليه ربُّ هذه الأسرة، والثانى: الفصح وعيد الفطير منفصلان، ومدة عيد الفطير سبعة أيام تعقب ليلة الفصح.

غير أن المصدر القديم إنما يهتم كثيراً بما يعقب الذبح من تلطيف الباب بدمها، بواسطة حزمة من نبات الزوفاء، تغمس فى الدم الذى فى الطست، كما ينفرد بالنص على تحريم الخروج من البيت حتى الصباح، وأما المصدر المتأخر (أو الأحدث)، فيهتم بالتحديد الزمنى للذبح (فى الرابع عشر بين العشاءين)، ويتحدد قواعد الأكل، حيث يحرم أكل اللحم نيئاً أو مطبوخاً بالماء، ولكن مشوياً بالنار، كما يفرض شوى الحمل بأكمله، دون أن تزال رأسه وأكارعه أو أحشاؤه، ولا يكسر العظم أثناء الأكل، وعلى أن

(١) لا يون ٢٣: ٥-٦؛ عدد ٢٨: ١٦-١٧؛ سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٣٠٩، وكذا:

O. Eissfeldt, Eingleitung in das Alte Testamen, Tubingen, 1956, p. 343, 346.

يؤكل اللحم من فطير وأعشاب مرة، ولا يبق من اللحم شيء إلى الصباح، فإن بقي شيء، فليحرق بالنار، وأن يلبس الآكلون لباس السفر، وأن يكون الأكل على عجل، وفي داخل البيت، كما اشترط هذا المصدر أن تكون الذبيحة حمل سليم ابن سنة، وأن يكون ذكراً من الخراف أو الماعز^(١).

وهناك مصدر ثالث، هو سفر التثنية (١٢-٢٦)، يتحدث عن عيد الفصح، كذلك، ويختلف عن المصدر الأولين - اليهودي والإلهيمي - في عدة أمور، منها (أولاً) أن عيد الفصح لا ينفصل عن عيد الفطير في التثنية، فهما معاً سبعة أيام، أولها الفصح، ولكنهما في المصدرين الآخرين مستقلان بعضهما عن بعض، وهما معاً ثمانية أيام، يوم الفصح، وسبعة أيام تليه لعيد الفطير، ومنها (ثانياً) أن عيد الفصح في التثنية يحتفل به في معبد أورشليم، لا في بيوت الأسر المختلفة، كما في المصدرين الآخرين، وتذهب الأسرة بقرابينها إلى المعبد، فيتولى الكهنة هناك ذبحها مساءً، وتأكل كل أسرة ذبيحتها، ثم تعود إلى بيتها في صباح اليوم التالي، لتكمل الاحتفال بعيد الفطير.

ومنها (ثالثاً) أن الذبيحة في سفر التثنية من الغنم أو البقر، ولكنها في المصدر القديم من الغنم، وفي المصدر المتأخر (الأحدث) حمل صحيح ذكر، ابن سنة من الغنم أو المعز، ومنها (رابعاً) أن الذبيحة في مصدر التثنية تؤكل مطبوخة، أي مسلوقة في الماء، ولكنها في المصدر المتأخر، إنما تؤكل مشوية، ويحرم أكلها نيئة أو مسلوقة، تقول التوراة: «لا يؤكل اللحم نيئاً اجتناباً لما فيه من دم، فأكل الدم حرام، وعقاب أكل الدم هو القطع من شعب إسرائيل»، وأما سبب تحريم الدم هو الاعتقاد بأن نفس كل جسد هي دمه،

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٣١٤-٣١٦، وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 224, 231, 237;

S. R. Driver, An Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinburgh, 1959, p. 28-29.

تقول التوراة: «غير أن لحماً بحياته دمه لا تأكلوه»، أما المصدر القديم فهو لا يشير إلى طريقة الأكل^(١).

وأيّ ما كان الأمر، فالفصح احتفال ليلي، تنفرد ذبيحته بين كافة القرايين، بأنها تذبح مساءً، ويقع هذا الاحتفال بين الغروب والشروق، من ليلة البدر من الشهر التالي للاعتدال الربيعي (وهو الوقت الذي يتساوى فيه الليل والنهار في ٢١ مارس)، أي في ليلة الرابع عشر من شهر أبريل، فهو إذن احتفال يقام في مستهل الربيع، وله علاقة بالقمر، لا ريب فيها لأنه يقام في ليلة البدر حين يكون القمر في تمامه، حيث تجتمع الأسرة العبرية حول ذبيحة من الغنم أو المعز، سليمة من العيوب، مضى عليها حول، تؤخذ في العاشر من الشهر، وتحفظ في البيت حتى الرابع عشر، فيذبحها رب الأسرة بين العشاءين عند باب البيت، ويوضع الدم في طست، وتؤخذ حزمة من «الزوافا»، وتغمس في الدم لتلطخ به عتبة الباب العليا وقائمته، ثم تشوى الذبيحة بتمامها، ويأكلها أفراد الأسرة ومن ينزل عندهم (أي العبد المشتري، والغريب المقيم، إذا اختتتا) دون أن يكسروا منها عظمًا، يأكلونها داخل البيت، فلا يخرج شيء من اللحم إلى الخارج، بل لا يخرج أحد من البيت حتى الصباح، وأكلهم على عجل، لكي يأتوا على الذبيحة قبل أن يشرق الصباح، فإن بقي منها شيء فليحرق بالنار، ويؤكل اللحم مع فطير وأعشاب مرة.

(١) تكوين ٩: ١٤ خروج ١١: ٨-٩، ٢١، لاويون ٣: ١٧، ٧: ٢٦-٢٧، ١٧: ١٢: ١٦،

٢٣، ١٥، ٢٣، سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٣١٦-٣١٩، وكذا:

I. Benzinger, Passover and Feast of Unleavened Bread, EB, III, 1902, Col. 3597-3598.

وكذا:

W. J. Moulton, Passover, in Hasting's Dictionary of The Bible, III, p. 685-686.

وتمثل ذبيحة الفصح باكورة قطع الراعي من الغنم والمعز، يقدمها الراعي قرباناً إلى القمر، وهو من آلهة الخصب، ليبارك قطيعه، ويكفل تكاثره في العام التالي، يقدمها الراعي إلى إله القمر، ليلة البدر، حين يكون في أوج مجده، فوليمة الفصح وليمة قربان مقدم إلى إله القمر، والمشاركون فيها من أهل البيت ضيوف على الإله صاحب القربان، يشاركونه في طعامه، ويجددون بذلك ما بينه وبينهم من عهد وميثاق، وماداموا يأكلون في حضرة القمر، فلا بد أن يفرغوا قبل أن يحتجب، ولهذا يأكلون على عجل، لكي يأتوا على الذبيحة قبل أن يشرق الصبح، فإن بقي منها شيء فليحرق بالنار، لأنه طعام مقدس لا يجوز أن يصيبه الفساد، ولا يجوز كسر عظم من عظام الذبيحة عند أكلها، حتى لا يكون ذلك نذيراً بكسر أو ضرر يصيب القطيع خلال العام الجديد، وإنما يجب أن يبقى هيكل الذبيحة سليمة عند الأكل، كما حفظ سليماً حين شوى بتمامه في النار، ويؤكل مع اللحم فطير، أي لا يؤكل خمير، لأن الاختمار ضرب من التعفن والفساد، لا يجوز في هذه الوليمة المقدسة، هذا فضلاً عن أن خبز الرعاة هو في العادة بدون خمير لتقلهم الدائم من مرعى إلى مرعى، وتؤكل مع اللحم أيضاً أعشاب مرة، لطرد الأرواح الشريرة من البسيت، هذا إلى أن الأعشاب المرة نبات الصحراء^(١).

والخلاصة - فيما يرى الدكتور السيد يعقوب بكر - أن الفصح عيد بدوي قديم من أعياد الرعاة، كانت كل أسرة من أسر العبريين، تحتفل به
 (١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٣٢٠-٣٢٢ وانظر:

I. Benzinger, op.cit., Col. 3598.

وكذا:

W.O.E. Oesterly and T. H. Robinson, Hebrew Religion, London, 1937, p. 129-132.

W. J. Moulton, op.cit., p. 689-690.

وكذا:

T.H. Gaster, op.cit., p. 33-35.

ثم قارن:

A. Lods, op.cit., p. 292-294.

وكذا:

ليلاً في بيتها، فتقدم باكورة قطيعها ويكفل تكاثره، وكان موعد الفصح في مستهل الربيع (١٤ أبريل)، ولهذا ارتبط به عيد آخر من أعياد الربيع، هو «عيد الفطير» (بداية الحصاد) وجسده العبريون في كنعان، فجعلوه لاحقاً للفصح، وكان الغرض من خروج العبريين من مصر - كما يفهم من التوراة - الاحتفال بعيد الفصح في الصحراء، ولهذا ارتبط عيد الفصح بقصة الخروج، مع أنه أقدم منها، ففسرت بعض أحكامه ببعض أحداثها، بل عدّ «عيد الفصح» ذكرى ليوم الخروج، ولما كان عيد الفطير لاحقاً للفصح، فقد ارتبط هو أيضاً بقصة الخروج، مع أن العبريين لم يعرفوه إلا بعد استقرارهم في كنعان^(١).

وعلى أي حال، فعيد الفصح عند اليهود، إنما هو عيد الضحية، كما أنه عيد خبز الفطير، ولا يستطيع باحث في الفكر الإسرائيلي أن يذكر عجينة الفطير المقروضة في عيد الفصح، دون أن يقف عند تهمة توجه إلى اليهود من كثير من أعدائهم في هذا العيد بالذات، هي التي اشتهرت في العالم باسم «تهمة الدم»، وخلاصتها أن خبز الفطير المفروض على اليهود في فصحهم قد جرت العادة أن يدخلوا في عجنته دماً بشرياً يأخذونه من ضحية يقتلونهم من أمة أخرى غير اليهود، ويستحسن أن تكون الضحية من المسيحيين أو المسلمين، والظاهر أن هذه التهمة التي يوصم بها اليهود بدأت منذ عهد مبكر في التاريخ، ويبدو أنها جلبت على أماكن التجمع اليهودي في الشرق والغرب مشاكل كثيرة، فقد كان الحي الذي يسكنون فيه يهاجم وينتشر فيه القتل والتنكيل، بمجرد اختفاء طفل أو شخص، من مجتمع غير يهودي مجاور في فترة عيد الفصح، ونحن نحس بذلك في المرسوم البابوي الذي أصدره البابا «أنوسنت الرابع» في الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٥٣م، وفيه يحرم اتهام اليهود باستخدام الدم البشري في طقوسهم^(٢).

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٢٢-٢٢٣، وكذا:

ومع ذلك، فقد بقيت هذه التهمة تلاحق اليهود في كل زمان ومكان، ومن ذلك حادث دمشق المشهور في ١٥ فبراير عام ١٨٤٠م، والذي راح ضحيته الأب «توما» الكيوشي، وخادمه إبراهيم عمارة، وقد اتهم اليهود بذبح الأب توما بقصد استنزاف دمه، لكي يستخدم دم الضحية البشرية في صنع خبز الفطير اليهودي، بدلا من تضحية خروف الفصح، واستعمال دمه للأغراض الدينية.

وفي الواقع أن حادث دمشق هذا، لم يكن هو الوحيد من نوعه، فهناك حادث طفل في مدينة الإسكندرية ذبحه اليهود في نفس العام، وقد وجدت جثته في اسطبل مجاور لحارة اليهود، بعد أن استنزف اليهود دمه، وهناك حادث ذبح امرأة نصرانية في حلب في نفس العام (أى عام ١٨٤٠م)، وهناك ذبح ولدين في جزيرة كورفو عام ١٨١٢م، وهناك ذبح المدعو «فتح الله الصائغ» في بيروت عام ١٨٢٤م، وهناك حادث حماة في عام ١٨٢٩م، وخلاصته استنزاف دم فتاة مسلمة وجدت جثتها مطروحة في حديقة بجانب نهر العاصي، وقد قطعت أجزاء من جسمها آلات حادة.

وهناك ما ذكرته الفتاة اليهودية «بنود» من حوادث ذبح لبعض الغلمان في حلب في عامي ١٨٢٠، ١٨٢٤م، وتروى هذه الفتاة اليهودية أن اليهود في «حلب» كانوا يصنعون نوعين من الفطير، الواحد ممزوجا بالدم، والآخر لا دم فيه، أما الممزوج بالدم فهو ما يصنع قبل عيد الفصح، فإذا بذل اليهود جهدهم، ولم يتمكنوا من الحصول على دم بشري، يأتون بديك أبيض ويصلبونه ويوخزونه بالمسامير والمناخس حتى يسيل دمه، وأن أحد الخامات الذي جاء إلى اللاذقية سنة ١٨٣٩م، صنع بمثل ذلك أمام عينيها^(١).

(١) انظر: حبيب فارس، صراخ البرئ في بوق الحرية والذبايح البشرية، مصر ١٨٩١م؛ الذبايح البشرية التلمودية، تحقيق وشرح عبد العاطي جلال، القاهرة ١٩٦٢؛ أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، بيروت ١٩٧٠.

(٣) عيد المظال

وكان يسمى في الأصل «عيد الجمع»^(١) (أسيف)، ثم غلب عليه اسم «عيد المظال»^(٢) (سكوت)، فقد كان القوم يقيمون في بساتين العنب أثناء جمع المحصول، «مظال» من فروع الأشجار المورقة، ليستظلوا بها من الشمس أو يأووا إليها في الليل. هذا ولا تحدد التوراة في سفر التثنية بداية عيد المظال (إذ المعول في ذلك أصلاً على موعد نضج محصول العنب)، ولكنها في سفر اللاويين تحدد بدايته باليوم الخامس عشر من شهر «تشرين» (أكتوبر)، ويكون الاحتفال به منذ غروب شمس اليوم الرابع عشر، بحيث تكون هذه ليلة العيد، ومدته التقليدية - في سفرى التثنية واللاويين - سبعة أيام، وإن أضاف سفر اللاويين يوماً ثامناً، يعقدون فيه اجتماع عبادة، لا يعملون فيه شيئاً، على أن هناك من يرى أن المدة التقليدية لعيد المظال تسعة أيام، منها سبعة أيام هي عيد المظال بذاته، ويومان آخران - هما الثانى والعشرون والثالث والعشرون من تشرى - ولهما لون خاص، فالأول منهما يسمى «الثامن الختامى» (شمينى عصيرت) لأنه يختم عيد المظال بأيامه السبعة، بل يختم كل الأعياد المكدسة في الشهر الأول من السنة العبرية، وهو شهر «تشرى»، وأما اليوم الثانى من هذين اليومين الأخيرين، فإنه يفتتح دورة جديدة من قراءة التوراة، ولذا يسمى عيد فرحة التوراة (سمعت توراة)^(٣).

هذا ولا تحدد التوراة في سفر التثنية القرايين التى تقدم للرب في هذا العيد، وإنما تترك هذا للناس، كل حسب قدرته واختياره، وأما سفر اللاويين فإنه، وإن لم يحدد هذه القرايين، فإنه يقضى بأن يقدم قرباناً في كل يوم من

(١) خروج ١٦: ١٦، ٣٤: ٢٢.

(٢) تثنية ١٦: ٣، ١٦: ٤٣، لاويون ٢٣: ٤٣.

(٣) لاويون ٢٣: ٢٣-٢٣، ٣٦-٣٩، ٤٣: ٤٣، تثنية ١٦: ١٣-١٧، حسن ظاظا، المرجع السابق، ص

٢٠٤ سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٣٣٠-٣٣١.

الأيام السبعة، فضلاً عن قربان في اليوم الثامن، وأما سفر العدد، فهو يقضى بقرايين كثيرة للأيام الثمانية كلها^(١).

هذا وقد أحدث «يربعام الأول» (٩٢٣-٩٠١ ق.م) تغييراً في عيد المظال، واحتفالات الحصاد الدينية، من الشهر السابع إلى الشهر الثامن، وإن كان هناك من يرى أن هذا التغيير إنما قد حدث في يهوذا - وليس في إسرائيل - ذلك لأن عيد المظال إنما كان يتم بمجرد أن تجمع آخر ثمرة من محصول العام في إسرائيل ويهوذا، على أيام الوحدة بينهما، وعندما تم الانفصال، فقد كان من الطبيعي أن يعقد هذا الاحتفال في يهوذا قبله في إسرائيل، لأن الشمار إنما تنضج في يهوذا، قبل أن تنضج في إسرائيل، أي في الجنوب قبل الشمال^(٢).

وكان المحتفلون بعيد المظال يأوون إلى مظال تقيهم حرارة الشمس أو برودة الليل - كما أشرنا آنفاً - ولكن التوراة سرعان ما تحاول في سفر اللاويين أن تفسر هذه العادة تفسيراً تاريخياً، ومن ثم فإنها تذهب إلى أن المحتفلين يجب أن يسكنوا في المظال، الأمر الذي فعله أسلافهم من قبل على أيام التيه، تقول التوراة: «لكي تعلم أجيالكم أني في مظال أسكنت بني إسرائيل، عندما أخرجتهم من أرض مصر، أنا الرب إلهكم»^(٣)، غير أن هذا - فيما يرى بعض الباحثين - إنما هو تفسير خيالي، ذلك لأن الذين يجوبون الصحراء، إنما يعيشون في خيام، وليس في مظال، فإن الخشب والأغصان الخضراء، لا تتأني إلا في حالات قليلة متناثرة^(٤).

(١) لاويون ٢٣: ٢٦؛ عدد ٢٩: ١٢-١٣؛ وكذا: T.H. Gaster, op.cit., p. 80-98.

I. Benzinger, Feast of Tabernacles, Encyclopaedia, Biblica 4, 1904, Col. 4875-4881.

(٢) ملوك أول ١٢: ٣١-٢٣؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 416.

(٣) لاويون ٢٣: ٤٣.

(٤) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٢٣٠؛ وكذا: Theodor H. Gaster, op.cit., p. 84

وعلى أى حال، فالتقليد عند اليهود فى هذا العيد أن يقيموا فى أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر، التى لا تحجب عنهم رؤية السماء تماماً، وهذه الأكواخ النباتية التى تشبه ما نسميه فى مصر «الخص»، أو ما يسمى فى الأقطار الشامية «العريشة»، لا بد أن ترجع إلى أعياد زراعية ورعوية بدائية، إذ بعد موسم الجفاف الطويل، طوال مدة شهور الصيف، ينتظر الفلاحون والرعاة مع الخريف بواكير المطر، ويحتفلون به احتفالاً خاصاً، ولذلك فإن اليوم السابع والأخير من عيد المظال (عيد الظلل) يسمى عند اليهود «اليوم الكبير لطلب النجد» (هوشمناريا)، ويبدو أنها فى الأصل كانت صلاة استسقاء عندما يتأخر المطر، وقد جرى عرف اليهود على أنهم فى هذا اليوم يدخلون المعبد لهذه الصلاة، وفى يد كل واحد منهم غصن من الأغصان التى تستعمل فى تهيئة هذه الظل، فيضربون على الكراسى بهذه الأغصان حتى تساقط أوراقها كلها، ويعتقدون أنه مع سقوط الأوراق تسقط عنهم ذنوبهم التى ارتكبوها فى هذه السنة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن عيد المظال هذا، إنما يعتبر أهم الأعياد الزراعية الثلاثة التى عرفها بنو إسرائيل فى كنعان «عيد الفطير» The Feast of Unleavened Bread، و«عيد الحصاد» The Feast of Harvest، و«عيد المظال» The Feast of Ingathering or Tabernacle حتى أصبح «عيد يهوه» Feast of Jahweh، وسمى «العيد» إطلاقاً^(٢)، و«عيد الرب»^(٣) ولا بد أنه كان «عيد رأس السنة الجديدة»، لأنه كان يعقد فى الدورة السنوية^(٤)، والتى تقع فى الخريف وقت ذاك، وفى الواقع أن «عيد بداية السنة» لم يذكر بهذا التعبير حتى عصر السبى البابلى، وكان يقام فى

(١) حسن ظا، المرجع السابق، ص ٢٠٤-٢٠٤.

(٢) ملوك أول ٨: ٢، ٦٥؛ أخبار زبام ثان ٥: ٣، ٧، ٨؛ نحيا ٨: ١٤؛ حزقيال ٤٥: ٢٥.

(٣) لاويون ٢٣: ٣٩؛ قضاة ٢١: ١٩.

(٤) خروج ٢٢: ٣٤.

بداية الأمر لمدة خمسة أيام، ثم أصبح فيما بعد خمسة عشر يوماً^(١).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن عيد السنة الجديدة، إنما كان يقام - على الأقل في معبد أورشليم - على هيئة احتفالات رسمية يصعدون «يهوه» إلى العرش، وبابتهالات جديدة لافتتاح حكم رب إسرائيل (حكم يهوه)، وقد كان «عيد المظال» The Feast of Tabernacles - شأنه في ذلك شأن احتفالات التتويج - يتميز بموكب عظيم، وبهتافات الفرج، بينما كان «عيد رأس السنة الجديدة» The New Year Feast يصحبه صوت الآلات النحاسية^(٢).

وما زالت حتى اليوم تشير شعائر اليهودية، بقراءة النصوص الخاصة بسيادة وحكم يهوه في رأس السنة الجديدة، فضلاً عن تلاوة دعاء «يا والدنا وملكننا»، وربما كان يحمل التابوت (أى يهوه) أثناء الموكب، وهو يأخذ طريقه إلى قصره الملكي^(٣)، والأمر كذلك في «بابل» حيث كان يحمل تمثال الرب في عيد رأس السنة إلى معبده بموكب عظيم، أما في مصر، فقد كان ينفذ في عيد الرب في أبيدوس، ما سبقت الإشارة إليه من طقوس، وهناك أساس للافتراض بأن الإسرائيليين حينما اقتبسوا هذه العادات على غرار معابد الشرق الكبيرة، فإنهم قد اقتفوا أثر الكنعانيين في هذا المجال، وعلى أى حال، فإن هذا قد تم بعد دخولهم فلسطين، ذلك لأن العبريين الذين كان يحكمهم المشايخ أو كبار السن، قد أسبغوا على ربهم لقب «الملك» وغيره من الألقاب التي كان تضى على العواهل من حكام الشرق الأدنى القديم^(٤).

A. Lods, op.cit., p. 436.

(١)

Otto Eissfeldt, ZAWT, 1928, p. 81-105.

(٢)

A. Lods, op.cit., p. 436.

وكذا:

(٣) مزموور ٢٤.

A. Lods, op.cit., p. 436-437.

(٤)

(٤) عيد السبت

هو العيد الأسبوعي عند اليهود، ومدته من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت، وأهم شعائره الكف عن أى عمل، طبقاً لنصوص التوراة، التى تقول: «ستة أيام تعمل، وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمنتك ونزيلك الذى داخل أبوابك، لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح فى اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقَدَّسه»^(١).

على أن هناك تعارضاً فى التوراة فى أسباب راحة يوم «السبت» (وأصل الكلمة سباتو أو شباط، وهى كلمة عبرية ربما بمعنى راحة)، فهى فى سفر الخروج لسبب كهنتى، إذ فيه «سبُّ للرب إلهك»^(٢)، وهى فى سفر التثنية «لراحة الناس من المجهود الذى يبذلونه طوال أيام ستة»^(٣)، وهذا يعنى أن سفر الخروج إنما يجعل «راحة السبت» لأن الله (يهوه) نفسه، قد استراح فى هذا اليوم، بعد انتهائه من تكوين الخليقة، وأما سفر التثنية، فيذهب إلى أن الحكمة فى تقديس يوم السبت، هى بكل بساطة تمكين الإنسان والحيوان من الراحة بعد أسبوع من العناء، ولا يرتبط هنا بأن الله استراح فى اليوم السابع، بل ربما كان المفهوم من السياق هو ربط هذه الراحة بالتححرر من السخرة والعبودية، عندما كان قوم موسى مايزالون فى مصر عبيداً لفرعون يعملون بأمره، ولا يحق لهم أن يستريحوا يوماً واحداً فى الأسبوع^(٤)، وهكذا نقرأ فى سفر التثنية: «أحفظ يوم السبت لتقدسه، كما أوصاك الرب إلهك، لا تعمل فيه عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذى فى أبوابك لكى يستريح

(١) خروج ٢٠: ٩-١١.

(٢) خروج ٢٠: ١٠.

(٣) تثنية ٥: ١٤.

(٤) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ١٩٩.

عبدك وأمتك مثلك وأذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر، فأخرجك الرب^١ إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة، لأجل ذلك أوصاك الرب^١ إلهك أن تحفظ يوم السبت^(١).

على أن هناك وجهًا ثالثًا للنظر، يذهب إلى أن راحة يوم السبت، إنما ترجع إلى الزمن الذي كان الإسرائيليون فيه بدوا، وأن هذا اليوم إنما كان يوم راحة عند «القينيين» الحدادين، خوفاً من تأثيرات خطيرة غير مضمونة العواقب، ومن هنا كان تحريم إشعال نيران في ذلك اليوم^(٢)، واستعمار الإسرائيليون هذا الأمر المقدس من القيين، غير أنه من المشكوك فيه أن الإسرائيليين كان لهم في حياتهم البدوية يوماً للراحة، ذلك لأن عمل الرعاة إنما يتم يومياً لرعى وإرواء قطعانهم، كما أن العلاقة بين أيام الأسبوع والكواكب لم تظهر إلا في فترة لاحقة^(٣).

ولكن - من ناحية أخرى - فإنه من المؤكد أن الإسرائيليين قد احتفظوا بيوم السبت (The Sabbath) في فلسطين حتى القرن الثامن قبل الميلاد، غير أن معنى هذا الاصطلاح القديم، إنما يبدو مختلفاً عما أضافه الإسرائيليون فيما بعد على هذا الاسم، فكلمة «شباط» Shabbath مشتقة بجلاء من الكلمة البابلية «شباطو» Shabattu or Shapattu، التي تشير إلى «عيد تكامل القمر»، ويبدو أن المعنى الأصلي للكلمة العبرية، هو نفس معناها البابلي، ولا بد أن الإسرائيليين قد اقتبسوا هذا الاصطلاح عند قدومهم إلى كنعان، ليشيروا إلى احتفال رأوه دون شك منذ أيام البداوة^(٤) عند تكريم الكوكب (القمر)، ويفسر هذا التقارب الوثيق الذي نجده في النصوص القديمة بين

(١) تثنية ٥: ١٢-١٥.

(٢) خروج ٣٥: ٢، عدد ١٥: ٣٢.

A. Lods, op.cit., p. 437-438.

(٣)

(٤) ملوك ثان ٤: ٢٣، عاموس ٧: ١٥، هوشع ٢: ١٣، إشعيا ١: ١٣.

السبت والقمر الجديد، واختفاء هذا الاصطلاح من التشريع اليهودي القديم، وما قام به بعض الأنبياء من عدااء تجاه هذا العيد^(١).

ومن ناحية أخرى، فلقد اعتاد الإسرائيليون - حوالي القرن التاسع قبل الميلاد - أن يطلبوا يوماً للراحة كل سبعة أيام من عمل الحرث والحصاد «سنة أيام تعمل، وأما اليوم السابع فتستريح فيه، في الفلاحة وفي الحصاد تستريح»^(٢) ومن هنا كان «عيد الأسابيع» يرمز إلى الأفراح التي يختم بها جمع المحاصيل، وهكذا تعرفوا على كل الأسابيع، كما يبدو ذلك واضحاً، في أيام الحداد السبعة، وفي أيام احتفالات الزواج السبعة^(٣)، ولكن ليس هناك ما يدل على أن الفترات الأسبوعية في هذا الزمن، قد شكلت ترتيب متحد للشهور والسنوات.

أضف إلى ذلك أن أيام الأسبوع التي لا عمل فيها، والتي تطلع إليها الإسرائيليون، إنما كانت مرتبطة مع أيام النحس، التي كانت سائدة بين البابليين - وهي السابع والرابع عشر والحادي والعشرون والثامن والعشرون من شهر أيلول الثاني وماشون - وربما في كل الشهور - وهي أيام كان الملك والكاهن والطبيب يجبرون فيها على الامتناع عن أعمال معينة، كما اعتبرت أوجه القمر السبعة بوضوح، أياماً خطيرة مقرونة بشئٍ مستطير^(٤).

ومن هذا يبدو أن أنظمة «يوم السبت» من ناحية، وأيام الأسبوع من ناحية أخرى، لها علاقة بالنجوم، وأنها من أصل أجنبي، ولكنها تحملت جميعاً تغييرات عميقة، يبدو أنها كانت غريبة على بني إسرائيل، وتعزى دون شك إلى حقيقة أنها كانت مثل كثير من عادات الشعوب الأخرى التي

(٢) خروج ٣٤: ٢١.

(١) هوشع ٢: ١٣؛ إشعيا ١: ١٣.

(٣) تكوين ٢٩: ٢٧.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 439; A. Jeremias, op.cit., p. 90; Paul Dhorme, Choix de Textes Religieux Assyro, Babyloaiens, Paris, 1907, p. 380-381.

صاغها وحددها الدين القومي، في أمور كثيرة^(١)، منها (أولاً) أصبحت أيام شباط (عيد تكامل القمر) من ناحية، وأيام السبت من ناحية أخرى، أيام راحة، فضلاً عن أنها «أيام يهوه»، التي يذهب فيها القوم إلى «رجل الله» لاستشارته^(٢)، بل ربما كان اجتماع المعبد يتم في يوم السبت^(٣)، وقد فرضت أوامر يهوه الكف عن العمل في هذا اليوم^(٤).

ومنها (ثانياً) أن الكهنة إنما قد فسروا الامتناع عن العمل في اليوم السابع، وفقاً لاتجاه معين في الدين القومي، ولم يعد يصور كعمل طارئ، ضد أخطار القوى الخارقة للطبيعة، والمتصلة بأيام النحس، وإنما بهدف السماح للعبيد والماشية بيوم راحة من عناء العمل الشاق^(٥).

ومنها (ثالثاً) أن أيام الراحة الأسبوعية إنما اقتبست من أوجه القمر، ثم أتت الأسابيع لتؤلف التلاحق المستمر طوال العام، ولا بد أن ملامح العرف القديم قد ساهمت في هذا التغيير، حيث كان البابليون يعتبرون أن يوم التاسع عشر من شهور معينة إنما هو يوم نحس، أي اليوم التاسع والأربعين من بداية الشهر السابق، بينما حسب الإسرائيليين من جانبهم، أن سبعة أسابيع الحصاد فترة مستمرة، فقد كان يوجد منذ فترة مبكرة جداً، فترات لمدة شهرين، تعتبر أيام الراحة في الثاني منهما مقرر، ومستقلة عن الدورة القمرية، وتنتمي أقدم النصوص - التي نجد فيها إشارات عن الاستعارة الوقتية لسابع يوم للراحة باسم شباط - إلى نهاية فترة ما قبل السبي، أو إلى بداية عصر السبي البابلي، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد أصبح هذا اليوم أكثر الأيام أهمية وتميزاً في الفصول المقدسة في دين يهوه^(٦).

(٢) ملوك ثان ٤: ٢٣.

(١) A. Lods, op.cit., p. 439.

(٤) خروج ٣٤: ٢١، ٢٣: ١٢.

(٣) ملوك ثان ١١: ٥-٨.

(٥) خروج ٢٣: ١٢؛ تثنية ٥: ١٤.

(٦) لاويون ٢٣: ١٣؛ حزقيال ٤٦: ١١؛ وكذا:

وعلى أى حال، فلقد تفنن فقهاء اليهود فى تفسير الكف عن العمل «يوم السبت»، فحرموا فيه كل ما من شأنه أن يشعر بالسعى فى الرزق، أو الانشغال بحرفة أو صناعة أو بذل جهد فى تحقيق هدف معين، لذلك حرموا إيقاد نار فى يوم السبت، وإن كان أكثرهم أباح بقاء النار التى أشعلت قبل الدخول فى السبت، والانتفاع بها يوم السبت نفسه، كأن توقد النيران والشموع والقناديل والأفران ونيران المطابخ والمدافع والمواقد بعد ظهر الجمعة لاستخدامها ليلة السبت، كذلك حرموا السفر يوم السبت لتحريم ركوب الدواب قديماً، وتحريم إيقاد النار التى تنطبق الوصية بها على وسائل المواصلات الحديثة، كالقطار والسيارة والباخرة والطائرة، التى تعتمد كلها فى سيرها على النار، وجعلوا من السفر عبور الجداول والأنهار أو الانتقال بحراً، كذلك يحرم السبت إنفاق النقود أو تسلمها، فهذا كله عمل أساسه البيع والشراء، أو أنواع مشابهة من الاكتساب والأخذ والعطاء بين الناس.

هذا وقد حرم فقهاء اليهود كذلك الكتابة فى يوم السبت، لأنها فى عرفهم تكون لإبرام العقود، وعقد الاتفاقيات ونحوها، مما يدخل فى مفهوم الشغل، لذلك جرى العرف على ألا يخرج اليهودى المتمسك بتعاليم السبت من بيته، إلا وقد تأكد أن جيوبه خالية من الأقلام والأوراق والنقود والكبريت، وأكثرهم يخرج إلى المعبد، وليس معه إلا التوراة أو كتاب الصلوات (السدور)، وبطبيعة الحال، يحرم عقد الزواج يوم السبت، لاحتياج ذلك إلى الكتابة، ودفع الأموال وقبضها، والعمل فى إعداد الزفاف ونحو ذلك^(١).

وحرم فقهاء اليهود الحرب الهجومية يوم السبت، ومن ثم فإننا نقرأ فى سفر المكابيين أن القوم على أيام حروبهم ضد الملك «أنطيوخس الرابع أيفانس» (١٧٥-١٦٤ ق.م) - إبان الثورة المكابية (١٦٦-١٦٠ ق.م) -

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٠٠.

نادى فريق من الأتقياء (حاسيديم) بعدم تدنيس يوم السبت والقيام بأعمال حربية، مما سبب لهم هزيمة منكرة، اضطروا بعدها إلى التخلي عن السبت والقتال فيه^(١).

وعلى أى حال، فلقد أباح اليهود بعد ذلك الحرب فى يوم السبت، حتى الهجومية منها، وذلك إذا ما أعلن الكاهن اليهودى أن العسكر الإسرائيلى، أو أن أهل هذه الملة، فى خطر، اعتبرت الحرب دفاعية، وجاز دورانها يوم السبت، ولذلك نلاحظ أن قادة إسرائيل فى الوقت الحاضر حريصون جداً على إظهار حروبهم - أمام الرأى العام اليهودى والعالمى - بشكل حروب دفاعية، حتى يتخلصوا من مشاكل السبت وغيرها من مشاكل الحرب الهجومية، كضرورة الحصول فى حالة التعيئة للحرب الهجومية، على إذن باستنفار من يصلحون للقتال من المجلس الدينى الأعلى^(٢).

(٥) أعياد رؤوس الشهور والأهلة

يحتفل اليهود ببداية الشهور القمرية، ويقوم الكهنة بالنفخ فى أبواق من فضة^(٣)، وعلى القوم أن يقوموا بذبائح معينة، تقول التوراة: «وفى رؤوس شهوركم تقرّبون محرقة للرب، ثورين ابني بقر، وكبشاً واحداً، وسبعة خراف حولية صحيحة، وثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت مقدمة لكل ثور، وعشرين من دقيق ملتوت بزيت مقدمة للكبش الواحد، وعشراً واحداً من دقيق ملتوت بزيت مقدمة لكل خروف، محرقة، رائحة سرور وقوداً للرب، وسكائبهن تكون نصف إلهين للشور، وثلث إلهين للكبش، وربع إلهين للخروف من خمر، هذه محرقة كل شهر من أشهر السنة، وتيساً واحداً من المعزى ذبيحة خطية للرب فضلاً عن المحرقة الدائمة يقرب مع سكبية^(٤).

(١) سفر المكابيين الأول ١: ٦٢-٦٣، ٢: ١-٤٨.

(٢) حسن ظاها، المرجع السابق، ص ٢٠١.

(٤) عدد ٢٨: ١١-١٥.

(٣) عدد ١٠: ١.

(٦) عيد رأس السنة العبرية

يسمى هذا العيد عند اليهود «روش هشانا»، وتستغرق طقوسه ثلاثة أيام، منها اليوم الأول والثاني من شهر تشرى (فى أوائل أكتوبر)، ثم يستمر الاحتفال فى اليوم الثالث بطريقة شعبية، أما اليوم الرابع من تشرى فهو يوم صيام اسمه «صوم جداليا» وهو يوم حزن وحداد - ككل أيام الصوم عند اليهود - ومناسبته هو ذكرى قتل «جداليا»، ذلك أن الملك البابلى «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) بعد أن استولى على أورشليم وأحرق القصر الملكى والمعبد، وأدمج دويلة يهوذا فى التنظيم الإدارى للإمبراطورية البابلية، وأبعد الطبقة العليا الحاكمة من اليهودية، ترك الإدارة لواحد من يهود، وهكذا عين «جداليا بن أحيقاص بن شاقان» حاكماً على يهوذا من قبل البابليين.

غير أن الآمال الكاذبة سرعان ما داعت بعضاً من أفراد البيت الملكى القديم، وعلى رأسهم «إسماعيل بن نثيا»، فقاموا بقتل «جداليا» أثناء وليمة عامة، وأصبح هذا اليوم كارثة قومية رئيسية، واعتبر من أيام الصيام الرئيسية عند اليهود^(١).

(٧) عيد الغفران

يقع عيد الغفران (يوم الكفارة) هذا فى اليوم العاشر من شهر «تشرى»^(٢) (أكتوبر)، ويبدأ هذا العيد قبيل غروب الشمس من اليوم التاسع من تشرى، ويستمر إلى ما بعد غروب شمس اليوم التالى، فمدته ٢٧ ساعة يجب فيه الصيام ليلاً ونهاراً، وعدم الاشتغال بأى شىء، ما خلا العبادة، واسمه بالعبرية «يوم كبور».

(١) لرميا ٤٠: ٧-١٦-٤١: ١٨، زكريا ٧: ١٥، وكنا:

Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 288.

S.A. Cook, in CAH, III, Cambridge, 1965, p. 403.

وكنا:

(٢) سُمى العبريون المتأخرون هذا الشهر «تشرى» (بكسرة فسكون فكسرة طويلة) نقلا عن اسمه البابلى «تشريت» Tashritu.

وتتحدث التوراة عن يوم الكفارة Day of Atonement بالتفصيل في الإصحاح السادس عشر من سفر اللاويين، ومنه يتضح أن الهدف من طقوس التكفير تطهر الشعب والهيكل تطهيراً كاملاً، فذبائح الخطيئة التي تقدم طول العام قد تترك خطايا مجهولة أو خفية، والخطيئة نجس للشعب والأرض وللهيكل قبل كل شيء، ولهذا أقيم يوماً للكفارة، حتى يكفر بنو إسرائيل عن خطاياهم مرة كل عام تكفيراً كاملاً^(١)، فضلاً عن تطهير المعبد نفسه^(٢).

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن بداية شعائر الكفارة، إنما ترجع إلى عصور العبريين الأولى، بل إن صاحب هذا الاتجاه إنما يرجع أن الشريعة الموسوية نفسها قد قررت يوماً في السنة لحساب النفس، والندم على ما بدر من المؤمن من خطايا، والتفكير عنها لا بالصوم فقط، بل بالذبائح والصلوات والأموال ورد المظالم إلى أهلها، وطلب الصفح من المعتدى عليهم، وكان اسمه قديماً «يوم هكبوريم» (أي يوم الكفارات)، ولكن حدث صدفة أن اقترن هذا اليوم بتدمير «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) لمدينة أورشليم ومعبدها، فأصبح عندهم أكبر أيام الحداد^(٣).

على أن هناك اتجاهًا آخر يذهب إلى أن يوم الكفارة (يوم الغفران)

(١) لاويون ١٥ : ١٣١ عدد ١٩ : ١٣ - ٢٠ : ٢٠ سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٢٣٢ وكنا:

S.R. Driver and H. A. White, Day of Atonement, in Hasting's Dictionary of the Bible, I, p. 201.

وكنا:

I. Benzinger and T.K. Cheyne, Day of Atonement, in E.B.I, 1899, Cal. 384-384;

A. Lods, The Prophets and the Rise of Judaism, London, 1937, p. 314.

(٢) دعا حزقيال إلى تطهير المعبد في اليومين الأول والسابع من الشهر الأول . (حزقيال ٤٥ : ١٨-٢٠).

(٣) حسن ظاطاء، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

هذا، لم يكن موجوداً عند اليهود على أيام «عزرا» الكاتب ذلك لأن سفر نحemia يذكر في الإصحاح الثامن تلاوة عزرا للتوراة على الشعب في اليوم الأول من الشهر السابع (أكتوبر = تشرين)، واحتفال الشعب بعيد رأس السنة في ذلك اليوم نفسه، ثم بعيد المظال في اليوم الخامس عشر، ولكنه لا يشير إلى أي عيد في اليوم العاشر، ومن ثم فهناك احتمالان، الواحد: أن يوم التكفير لم يكن قد قرر بعد، والثاني: أنه كان موجوداً، دون أن يكون له تاريخ معين، ثم وضع له موعد محدد، بعد أيام «عزرا»^(١).

وأياً ما كان الأمر، فلعل مما تجدر الإشارة إليه هنا، أن اليهود قد جعلوا من يوم الغفران أو الكفارة هذا، يوماً يعلنون فيه نقضهم للعهد والمواثيق التي قطعوها لغير اليهود، وأفتى فقهاؤهم بأن الداعي إلى ذلك كان إكراه اليهود على تغيير دينهم، وشاع بين عوام اليهود أن يوم الغفران هذا، يجوز فيه أكل الديون التي على اليهودي وعدم أدائها، كما يجوز فيه الرجوع في كل عهد أو تعهد قطعه على نفسه طوال العام، معتمدين في ذلك على نص آرامي يتعبدون به، وينتهي بأن النذور والتحريمات والأيمان ملغاة، وبلغ من انتشار ذلك أن كثيراً من رجال الدين اليهودي المعاصرين قاموا في وجه هذه البدعة منادين، بأن هذا النص التعبدى لا يمكن أن يلغى قول التوراة: «وأما ما خرج من شفئك فحافظ عليه»^(٢).

(٨) عيد التدشين

وعيد التدشين (أو الحانوكه) له طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية، ويقع في الخامس والعشرين من شهر «كسلو» (ديسمبر)، ومن ثم فهو يمكن أطفال اليهود من الاحتفال بعيد إسرائيل، في نفس الفترة التي

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ٣٣٢، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 313-314.

(٢) حسن ظاظة، المرجع السابق، ص ٢٠٣، ثنية ٢٣: ٢٤، وكذا:

يحتفل فيها المسيحيون بعيد الميلاد، وأما مناسبة هذا العيد، فترجع إلى عام ١٦٥ قبل الميلاد، حيث كانت فلسطين، وكل البلاد الشامية تحت الحكم اليوناني، وكان «أنطيوخس الرابع أيفانيس» (١٧٥-١٦٤ ق.م) هو المتصرف في الأقطار الشامية، وقد حاول إرغام اليهود - بعد استيلائه على أورشليم - على ترك التقاليد الدينية والاجتماعية اليهودية إلى التقاليد اليونانية، وقد وجد تجاوباً لآرائه هذه من الأرستقراطية اليهودية، فضلاً عن الأغنياء والطبقة المتطورة بين اليهود في أورشليم، والذين تبنوا العادات واللغة اليونانية، ومن ثم فقد أصبح اللباس اليوناني شائعاً بين اليهود بل إن القوم حتى لم يعترضوا على تسميتهم «أنطاكيين»، مما دفع أنطيوخس إلى التماهي في سياسته ضد اليهود واليهودية، فأمر بأن ينصب تمثالا للإله «زفس» في معبد أورشليم، وأن يقام له مذبح هناك - على أساس أنه مساو ليهوه رب إسرائيل - بل إن الملك السلوقي إنما أمر كذلك بأن تقدم للإله اليوناني القرابين وأن يدعى اليهود إلى المشاركة في الطقوس اليونانية، وأن يشتد ضد المتمردين على دعوته هذه (١).

وقد أدى ذلك كله إلى انفجار الثورة المكابية (١٦٦-١٦٠ ق.م)، والتي انتهت بانتصار «يهوذا» المكابي (١٦٥-١٦٠ ق.م)، واحتلال أورشليم، وتطهير الهيكل من الأوثان، وإعادة الذبائح اليومية، وإقامة «عيد هنوكة» (حنوكة) والذي يسمى كذلك «عيد التدشين» (٢)، ويتميز الاحتفال بهذا العيد بإشعال الشموع الكثيرة والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل، وبقراءة قصائد وأناشيد كثيرة تفاخر بالأعمال الجليلة التي تمت في هذه الفترة.

(١) دانيال ١: ٢١، مكابيون ثان ٤: ١٩، فيلب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨، ص ٢٦٧.

(٢) مكابيون أول ١: ٢١-٢٣، مكابيون ثان ٤: ٩، ١٠٥-٦٣، محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص ١١١٧-١١٢٦، ط ١٩٧٨ م.

يطلق الكتاب العرب على «عيد البوريم» (عيد الفوريم أو عيد النصيب) هذا، «عيد المسخرة» أو «عيد المساخر» بسبب ما جرت عليه التقاليد اليهودية الشعبية في هذا العيد من إسراف في شرب الخمر والسكر، ولبس الأقنعة والملابس التنكرية على طريقة المهرجان الكرنفال، كما يسمى هذا العيد في سفر المكابيين الثاني «يوم مردخاي»^(١).

ويبدأ الاحتفال بهذا العيد من ليلة الثالث عشر من شهر «آذار» (مارس) على أن يكون نفس هذا اليوم (١٣ آذار) يوم صيام يسمى «صيام أستير»، أما اليوم الرابع عشر، فهو العيد الذي يستمر طيلة هذا اليوم، ويطلق عليه «يوم بوريم»، وفي مساء اليوم يجتمع اليهود في المجمع، وبعد الصلاة المسائية تبدأ قراءة سفر أستير، وعند ذكر اسم «هامان» كان جمهرة المصلين يصرخون «ليمح اسمه» أو «سيبلى اسم الشرير»، بينما يخشخش الأحداث بالخشخشات، وكانت أسماء أبناء هامان تتلى بسرعة وعلى نفس واحد، إشارة إلى أنهم صلبوا في وقت واحد، وفي اليوم التالي كان الشعب يعود إلى المجمع لإتمام فرائض العيد الدينية، ثم يصرفون النهار بالابتهاج والأفراح أمام الرب، ذلك لأن هذا اليوم - وهو الخامس عشر من شهر آذار - هو اليوم الصاخب (يوم الكرنفال)، ويسمونه «بوريم شوشان» نسبة إلى مدينة «شوشان» أو «سوسة» الإيرانية، وبالرغم من وضوح مناسبة هذا العيد من الناحية السياسية والتاريخية، فإن التلمود يزعم أنه كان معروفاً ومحتفلاً به منذ أيام «يشوع بن نون» لأسباب - مماثلة كما يقول - للأحداث التي وقعت لليهود في السبي البابلي (٥٨٧-٥٣٩ ق.م)^(٢).

(١) سفر المكابيين الثاني، ١٥: ٣٧.

(٢) أستير ٩: ٢٠-٣٢؛ قاموس الكتاب المقدس، ٦٩٩/٢، (بيروت ١٩٦٧)، حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

وخلاصة هذه الأحداث - طبقاً لرواية سفر أستير - أنه كان في بلاد
الفرس وزير يدعى «هامان» اشتهر باضطهاد اليهود، فآتمر اليهود بالوزير
الفارسي وأرسلوا إلى ملكه «أكزر كسيس الأول» (٤٦٥-٤٢٤ ق.م) فتاة
لعوباً من بناتهم اسمها «أستير» سلبته ليه، فاستخذى لها وفتك بوزيره
«هامان» ابتغاء مرضاتها، وخفّ اليهود إلى العمل ففتكوا به، وبأبنائه العشرة
والألوف من أنصاره (٧٥ ألفاً، فيما يقال)، ذبحوا ذبحوا الشياه، ثم
«استراحوا في اليوم الرابع عشر (من شهر آذار) وجعلوه يوم شرب وفرح»،
وما يزال يوم الشرب والفرح حتى هذا اليوم^(١).

(١٠) عيد صوم تموز

وهو يوم واحد يصومه اليهود في الثامن عشر من شهر تموز اليهودي
(يوليه)، ويجعلون هذا الصيام حداداً من أجل حوادث مختلفة أهمها: تحطيم
ألواح التوراة، وإبطال القران اليومي صباحاً ومساءً، وإحراق التوراة في
أورشليم على يد القائد الروماني «بوستهرموس» - كما جاء في التلمود -
وأخيراً فهو ذكرى بداية هجوم «تيتوس» الروماني على أورشليم، ثم دخولها
في سبتمبر من عام ٧٠م، وإضرار النار فيها، ثم هدم المعبد وإشعال النار في
«قدس الأقداس» بقصد إبادة اليهود في فلسطين^(٢).

(١١) صوم التاسع من آب

وهو ذكرى سقوط أورشليم في يد «تيتوس»، وتخريب الهيكل الثاني
(هيكل هيرودوس)، الذي كان قد أقيم بعد العودة من السبي البابلي،
تخريباً بلغ من جسامة وقسوة تهدمه، أن ضاعت آثاره تماماً، حتى أن الناس

(١) أستير ٦٩: ١-١٧، وكذا:

Isidore Epstein, Judaism, A Historical Presentation, (Penguin Books), 1970, p. 176.

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٠٩، محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص

- ٥٥٠ -

قد نسوا فيما بعد إن كان المعبد قد بنى على التل الشرقى أو الغرب يمن
أورشليم.

(١٢) عيد اليوبيل

هو عيد السنة السابعة التي حرم فيها على اليهود الزرع والحصاد، ذلك
أنه كان فى كل سبع سنين، تكون السنة السابعة سبتاً (أى راحة) كما أن
اليوم السابع من الأسبوع العبرى (أى يوم السبت) راحة، وبعد كل سبع
سنين سبع مرات (٧ × ٧)، أى بعد كل ٤٩ سنة، تكون السنة الخمسون
يوبيلاً^(١)، وتقضى بأن يعتق فيها العبيد من العبريين، وألا يزرع فيها أحد أو
يحصد، وأن تعود فيها كل أرض إلى صاحبها الأصلي.

على أن قوانين اليوبيل - فيما يرى بعض الباحثين - يبدو أنها لم تطبق
قط، وما كان يمكن أن تطبق، وإلا لكان من نتائجها مثلاً ألا يجنى العبريون
محصولاً سنتين متعاقبتين : السنة التاسعة والأربعين (لأنها سنة سابعة)
والسنة الخمسين (سنة اليوبيل)^(٢).

(١) كلمة «يوبيل» فى العبرية معناها «الكبش» ، وقد سمت السنة الخمسون سنة اليوبيل، لأن إعلان
بدئها كان بالنفخ فى بوق مصنوع من قرن الكبش، ويوبيل الكبش فى العبرية على زنة اسم
الفاعل من مادة «وبل» فهى مرتبطة اشتقاقاً ومعنى بالوابلة فى العربية «نسل الإبل والغنم»
(لايون، ٢٥: ١٩، سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٣٤٠، الفيروز آبادى، القاموس المحيط،
٦٤/٤، القاهرة ١٩٥٢).

(٢) لايون، ٢٥: ١-٥٥، سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ٣٤٠، وكذا:

S. R. Driver, An Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinbu-
rgh, 1950, p. 457.

A. Lods, The Prophets and the Rise of Judaism, London, 1937, p. 289.

الفصل السادس الهيئات والفرق اليهودية (١) الهيئات اليهودية

(أ) السنهدرين :

هو المجلس الأعلى أو الهيئة الحاكمة لليهود، وكان له سلطان كامل على الشؤون الدينية، وإلى حد ما على الأمور المدنية، ولفظ «سنهدرين» Sanhedrin منقول عن اللفظ اليوناني «سوندريون» Synedrion - أى مجلس - وتتحدث مصادر الأحبار عن «سنهدرين» كبير، من واحد وسبعين عضواً، وعن «سنهدرينات» صغيرة، أو محاكم، يضم الواحد منها ٢٣ عضواً، وتنظر فى القضايا الجنائية أو قضايا انتهاك الشريعة اليهودية، وكانت اجتماعات السنهدرين الكبير تعقد على جبل المعبد فى قاعة الحجارة المنحوتة أو قاعة القرارات (لشكت هجازيت)، وتصور الرواية التلمودية السنهدرين الكبير، على أنه أعلى محكمة تشريعية قضائية تعمل بقانون الأحبار (هلاكا)، ويرأسه اثنان: «ناسى» (رئيس) و«أب بيت دين» (أبو المحكمة)، ولكن مصادر غير الأحبار تصف السنهدرين بأنه مجلس سياسى تنفيذى وقضائى يرأسه كبير الكهنة - واختلاف المصادر يمكن تفسيره فى يسر، إذا سلمنا بوجود مجلسين متعاصرين، أحدهما دينى على وجه قاطع، والآخر دنيوى تماماً يمثل السلطة المدنية.

والسنهدرين - كما تصوره المشنا - يتكون من كتبة (سوفريم - Sofe-rim) يفسرون قانون الأحبار، أما السنهدرين الذى يصفه المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» - وكذا الأناجيل - فإنه يتكون من الطبقة الأرستقراطية فى الدولة، ومنهم «الفريسيون» و«الصدوقيون»، وتنحصر مهمته فى أنه مجلس الدولة الدنيوى الذى يرأسه كبير الكهنة^(١).

(١) سبتينوموسكاتى، المرجع السابق، ص ٣٤١.

وأياً ما كان الأمر، فيبدو أن السنهدرين إنما هو المجلس الذي حلّ في عصر المكابيين (١٦٨-٦٣ ق.م)، محل الهيئة التي كان قد أنشأها «نحميا» (٤٤٥-٤٣٣ ق.م) و«عزرا» (الذي وصل إلى أورشليم حوالي عام ٣٩٨ ق.م)^(١)، اللذان وضعاً نظاماً لحكومة منظمة تتمتع بالحكم الذاتي في فلسطين، ولها رئيس يتولى السلطة الإدارية العليا في البلاد، ويساعده مجلس مكون من الكهنة ومجلس للشيخوخ (جروسيا Gerousia)^(٢).

وفي عام ١٤١ ق.م، عين «سمعان المكابي» (١٤١-١٣٥ ق.م) ملكاً على اليهود، وبدأت به - فيما يرى البعض - جمهورية يهودية، دامت حتى مجيء الرومان بعد حوالي ثمانين عاماً^(٣)، فأنشئ «السنهدرين» الكبير، لتفسير الشريعة اليهودية، وتركت أمور الطقوس الخاصة بالمعبد لمجلس الكهنة، وهكذا كانت من وظائف السنهدرين الكبير تشريع القوانين الخاصة بالعبادات، ومحاكمة من ينتهك هذه القوانين والنظر في قضايا الاستئناف، والإشراف على المحاكم الصغير، والهيمنة على الاحتفالات الكهنوتية في المعبد، والمحافظة على قداسة الشريعة المتوارثة وتفسيراتها الشفوية المبنية على الشريعة المكتوبة في التوراة^(٤).

وفي عام ٥٧ قبل الميلاد، عين «أولوس جايننيوس» حاكماً على سورية (٥٧-٥٥ ق.م) فأعاد تنظيم الأمور في اليهودية، وقسم الدولة إلى خمسة أقسام صغيرة، يحكم كل منها «سنهدرين»، وذلك عقب ثورة فاشلة قام بها «الكسندر أرسطوبولس» ابن «أرسطوبولس» (٦٧-٦٣ ق.م)، الذي كان يحكم اليهودية حتى الفتح الروماني في عام ٦٣ قبل الميلاد^(٥).

(١) انظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٠٥٩-١٦١.

(٢) انظر: نحميا ٨: ٩، ١١: ٣٠، وكنا:

J. Finegan, Light From the Ancient Past, I, 1969, p. 238.

(٣) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩. (٤) سبتينوموسكاني، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٠، وكنا:

Josephus, Antiquities, XIV, 5, 3; M. Noth, op.cit., p. 405; C. Roth, op.cit.,

(٢) المجمع

تعذر على اليهود الذين كانوا في الشتات أن يقيموا العبادة في هيكل
أورشليم، ودرجوا على الاجتماع في أماكن معينة للصلاة، حيث كانوا
يقرأون الأسفار المقدسة، وأدت هذه الظروف إلى إقامة «مجمع» في كل
مدينة، وكانت أمكنة الاجتماع تبني على نمط بسيط، عبارة عن قاعة
قبلتها أورشليم، وكانت القاعة تشتمل على تابوت بداخلها، وفيه نسخة من
أسفار العهد القديم، وخلت عبادة المجمع من الطقوس والمراسم، وكان
القارئ يتلو الأسفار المقدسة على مسامع الشعب، ثم يترك المجال لأي حبر
من الأخبار الحاضرين ليتولى شرح ما قرئ، ثم يعلق عليه^(١).

(١) مراد كامل، المرجع السابق، ص ٢٩-٣٠.

(٢) الفرق اليهودية

قامت بين اليهود بعد رجوعهم من السبي البابلي فرق ثلاث كبيرة (الفريسيون والصدوقيون والسامريون)، وفرق أخرى صغيرة، تدعى كل فرقة منها أنها أمثل طريقة، وأشد تمسكاً بأصول الدين اليهودي وروحه من الفرق الأخرى، وقد ظهرت هذه الفرق بعد ختام أسفار العهد القديم وتقنينها - أى فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد - ومن هنا كان أهم موضوع يدور حوله اختلاف هذه الفرق، هو الاعتراف بأسفار العهد القديم، والأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وأسفار التلمود، أو إنكار بعض هذه الأصول، ورفض الأخذ بما جاء فيها من أحكام وتعاليم، وقد انقرضت معظم فرقهم، ولم يبق منها فى الوقت الحاضر إلا القليل، وأما أهم هذه الفرق فهى:

(١) الفريسيون

الفريسيون Pharisees هم طائفة من علماء الشريعة من الريانيين قديماً، وأوسع الفرق اليهودية انتشاراً، وأكثرها عدداً، وأقدمها نشأة واسمها بالعبرية «فروشيم» يعنى «المفروزين»، أى الذين امتازوا عن الجمهور، وعزلوا عنه، وأصبحوا لورعهم واتصالهم بأسرار الشريعة، من الصفوة المختارة، فالعامة من اليهود الريانيين كانوا يوصفون على ألسنة زعمائهم الروحيين بالصفة العبرية «عام ها أرض» (أى عوام الأرض)، وهى صفة ذم، تتضمن الجهل والبهيمية والحاجة المستمرة إلى رقابة المتشددين والمتزمتين من رجال الدين، وهم «الفيريزيون» (الفريسيون).

وكانوا يلقبون أنفسهم فيما بينهم بلقب «حاسيديم» (أى الأتقياء)، وكذلك «حبيريم» أى الرفقاء والزملاء، ولعلها أصل استعمال العرب لكلمة «أخبار» أى علماء اليهود، ومفردها فى اللغة العربية «حبر» (بفتح الحاء)،

والفريسيون - فيما يرى بعض الباحثين - لم يكونوا طائفة أوفركة دينية متفصلة، وإنما جماعة تدعى لنفسها معرفة أدق من أى إنسان آخر بشرية الله فى نصوصها المقدسة ومآثوراتها، وهى بهذه الصفة تنظم نفسها بما يتفق مع تطبيق فى منتهى الدقة لأحكام الشريعة، يسمح لها بأن تفرض كلمتها فى ذلك على الآخرين^(١).

وكان للفريسيين الكلمة العليا فى توجيه المجتمع اليهودى على أيام المسيح، عليه السلام، كما كانوا من أشد خصوم المسيح حظراً عليه، لتبحرهم فى العلم، وزعامتهم بين الناس، ومنزلتهم عند الولاة الرومان التى اكتسبوها من تعاونهم مع الظلم والطغيان والاستعمار، وتذهب أناجيل النصارى إلى أنهم هم الذين حاولوا أن يظهروا المسيح بمظهر الداعى إلى شق عصا الطاعة على «قيصر»، وكانوا على رأس المتآمرين به، ولم ينفكوا يدبرون له الكيد حتى حكم عليه بالصلب^(٢).

وتتضمن هذه الأناجيل فصولاً طويلة يوجه فيها المسيح، عليه السلام، تقريباً شديداً إلى الفريسيين، ويكشف عن كفرهم ونفاقهم والتوائهم، وابتداعهم تعاليم وأحكام فاسدة، ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا كان المسيح يصفهم بالرياء، ويدلل على أنهم أبعد عن الجنة من العشار والزناة، لأنهم «يعفون عن البعوضة، ويلعنون الجمل»، و«ينقون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوآن اختطافاً ودعارة»، ولذا فهم «من خارج يظهرون للناس أبراراً، وهم من الداخل مشحونون وباءً وإثمًا»^(٣).

وانطلاقاً من هذا، فإن المراجع الأوربية إنما تميل إلى كثير من التنديد

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣؛ وكذا انظر:

C. Guignebert, Le Monde Juif au Temps Jesus, Paris, 1935, p. 213.

وكلنا: P.M.J. Lagrange, Le Judaisme avant Jesus-Christ, Paris, 1931, p. 267.

(٢) انظر على سبيل المثال: إنجيل متى ٢٣-٢٨.

(٣) انظر: متى ٢٣-٢٩.

بهؤلاء الناس، والتشنيح عليهم، بسبب الأوصاف التي وصفوا بها في الإنجيل، نتيجة لما أشرنا إليه من مناهضتهم للمسيح، ووقوفهم في وجهه بصلاية وعناد، لقد وصفوا بأنهم متزمتون عن جهل وتنطع في الدين، وبأنهم يفرقون النصوص في تفاصيل تافهة، ويخرجون منها بنتائج جافة وتافهة أيضاً، وبأنهم حرفيون شكليون، وبأنهم جدليون كذابون منافقون، وبأنهم يمثلون انحطاطاً بالنسبة لأسلافهم، ومسخاً وتشويهاً، لما كان لهؤلاء الأسلاف من فضائل^(١).

على أن هذا كله، لا يمنع من القول، بأن هناك - من وجهة النظر المسيحية نفسها - من كان منهم يبحث مخلصاً عن الحقائق الدينية، بدليل أن الإنجيل إنما يشير في الرسالة إلى أهل فيلبى، أن «بولس»^(٢) الرسول، إنما كان يهودياً فريسياً، فقد جاء في الرسالة: «من جهة الختان مختون في اليوم الثامن، من جنس إسرائيل، من سبط بنيامين، عبراني من العبرانيين، من جهة الناموس فريسي»^(٣)، وجاء في محاكمة بولس الرسول - طبقاً لما جاء في سفر أعمال الرسل - «ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون، والآخر فريسيون، صرخ في المجمع: أيها الرجال الأخوة: أنا فريسي ابن فريسي، على رجاء قيامة الأموات، أنا أحاكم، ولما قال هذا حدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين، وانشقت الجماعة لأن الصدوقيين يقولون: إنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح، وأما الفريسيون فيقولون بكل ذلك، فحدث صياح

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) بولس الرسول: كان يهودياً فريسياً قبل أن ينتصر، وكان اسمه «شاول» (أعمال الرسل ١٣/٩)، وقد ولد في «طرسوس» في ولاية كلبيكية الرومانية، ونال حقوق المواطن الروماني (الجنسية الرومانية)، كما كان ذا مكانة في «السهدرين» وبين القادة اليهود، كما كان أبوه فريسيا من سبط بنيامين، وقد ربي على الناموس الضيق (أعمال الرسل ٢٣/٦)، وقد تلقى بولس تعليمه في أورشليم، ثم اشتهر بعد ذلك باضطهاد المسيحيين، ولكنه انضم إليهم بعد ذلك، وأصبح من أخلص دعائهم، ومن كبار مبشريهم. (قاموس الكتاب المقدس ١/١٩٥).

(٣) الرسالة إلى أهل فيلبى ٣: ٥.

عظيم، ونهض كتبة قسم الفريسيين وطفقوا يخاصمون قائلين : لسنا نجد شيئاً ردياً في هذا الإنسان، وإن كان روح وأملاك قد كلمه فلا تخاربن الله» (١).

وهكذا رأينا الباحث الفرنسي «شارل جنبير» يذهب إلى أن الفريسيين الذين آمنوا بالتوراة، ثم بكل الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى، وبجميع الأسفار اليهودية المقدسة، ثم بالمشنا والتلمود والمدراش، إنما كانوا عن غير عمد - وربما عن غير معرفة أيضاً - يؤكدون مسلكهم هذا يقيناً عفويًا عميقًا بضرورة الاستمرار مع التطور، إذ بذلك - وبذلك فقط - تستطيع الأديان أن تعيش وأن تستمر.

لكن يبدو من جهة أخرى أن هذه التطورية التي يؤمن بها الفريسيون كانت في حساباتهم أيضاً محدودة بسياج من التقاليد والمقدسات التي لا يسمحون باقتحامها لأحد، ولو كان السيد المسيح نفسه، فمن مظاهر تطور الفكر الديني عندهم بروز فكرة الإيمان بالله مع الاعتقاد الواضح في وجود الشيطان، وهي عقيدة لم يكن العبرانيون القدامى قد أدخلوها في نصوص التوراة، وتبعاً لذلك توسع الفريسيون في الكلام عن الملائكة، على أنهم المؤتمرون بأمر الله القائمون في خدمته، كما توسعوا في الكلام عن الأبالسة والجن والعفاريت، على أنهم المؤتمرون بأمر الشيطان القائمون في خدمته، وكان هذا أمراً جديداً، بالإضافة إلى الوضوح في الاعتقاد في مجيء المسيح، وإقامة مملكة الله على الأرض، وفي اليوم الآخر (٢).

(٢) الصدوقيون:

يكون الصدوقيون Sadducees الفرقة التي كانت تالية في الأهمية

(١) أعمال الرسل ٢٣: ٦-٩.

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٣٥٥، وكذا:

لفرقة الفريسيين طوال القرنين السابقين لميلاد المسيح عليه السلام، وفي المرحلة الأولى اللاحقة للميلاد، وكان الصدوقيون أقل عدداً من الفريسيين، ولكنهم كانوا أكثر منهم ثراءً وأعظم جاهاً، وقد امتلأت صفحات التاريخ اليهودي في هاتين المرحلتين بحوادث الخلاف والمشادات بين الفريسيين والصدوقيين، والتي تدور حول أمور، لعل أهمها (أولاً) أن الصدوقيين لا يعترفون بغير العهد القديم، وبالتالي فهم ينكرون الأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى، عليه السلام، و(ثانياً) أن الصدوقيين لا يؤمنون ببعث ولا نشور، وإنما يعتقدون أن عقاب العصاة وإثابة المحسنين، إنما يحصلان في حياتهم، بينما يعتقد الفريسيون في البعث، وأن الصالحين من الأموات سينشرون في هذه الأرض، ليشتركوا في ملك المسيح المنتظر، الذي يزعمون أنه سيأتي لينقذ الناس، ويدخلهم في ديانة موسى، عليه السلام^(١).

هذا وينكر الصدوقيون كذلك الشواب والعقاب في الآخرة، كما ينكرون وجود الملائكة والشياطين، والقضاء والقدر، وما كتب للإنسان أو عليه في اللوح المحفوظ، ومن ثم فهم يقولون أن الإنسان خالق أفعال نفسه، حر التصرف، وبذلك فهو مسئول عن أعماله، وأنهم يخدمون الله بدافع المحبة والشكر لله لا ابتغاء مثوبة مرجوة، ولا اتقاء عقوبة متوقعة.

واعتنق الصدوقيون بعض الآراء الفلسفية القديمة مثل مذهب «أبيقور»^(٢)، والتي تنادى بأن أسمى أهداف الحياة هي «اللذة»، واللذة - في رأيهم - لا تقتصر على الشهوة الجسدية، بل تشمل أيضاً لذة الحياة

(١) علي عبد الواحد وافي، اليهودية واليهود، القاهرة ١٩٧٠، ص ٨٤، ٨٦.

(٢) أبيقور (٣٤١-٢٧٠ ق.م) فيلسوف يوناني، عرف الفسلفة بأنها فن إسعاد الذات بالمتعة العقلية، وهي الخير الأوحده، استقر في أثينا حيث اشترى الحديقة التي ارتبطت في تاريخ الفلسفة بأكاديمية أفلاطون ولوقيون وأرسطو، فلسفته أخلاقية أساسها لذة التأمل التي لا يعقبها ألم، وقد أسىء فهمه، فقيل إنه يدعو إلى الملاذ، على نقيض مذهبه. (الموسوعة العربية الميسرة، ص ٤٣).

الاجتماعية والاجتهاد العقلي، ويقول الأبيقوريون: إن الإنسان إذا وجه جهده نحو بلوغ اللذة والابتعاد عن الألم، فقد جعل اللذة أسمى الأهداف، واعتبر الألم شر الأمور، وقد جذبت تعاليم أبيقور الكثير من الشعب اليهودي ومن المثقفين فيه، واتخذها الشعب وسيلة للانغماس في حياة الفسق والفجور^(١).

ونقرأ في الإنجيل أن الصدوقيين حاولوا أن يستدرجوا المسيح، عليه السلام، حتى يوافقهم على إنكار البعث واليوم الآخر، وينضم إليهم في ذلك ضد الفريسيين، ولكنهم أخفقوا في ذلك، وبين لهم المسيح فساد ما يعتمدون عليه من أدلة في هذا الموضوع، يقول إنجيل متى: «في ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون الذين يقولون ليس قيامة فسألوه: يا معلم، قال موسى: إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويقم نسلا لأخيه، فكان عندنا سبعة أخوة، وتزوج الأول ومات، وإذا لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه، وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة، وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً، ففي القيامة لمن من السبعة تكون زوجة، فإنها كانت للجميع، فأجاب يسوع وقال لهم: تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله، لأنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء، وأما من جهة قيامة الأموات، أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل، الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، ليس الله إله أموات، بل إله أحياء، فلما سمع الجميع بهتوا من تعليمه»^(٢)، وسر الفريسيون بذلك.

ويذهب العلامة «ابن حزم» (٣٨٤-٤٥٦هـ/٩٩٤-١٠٦٤م) إلى أن الصدوقيين هم الذين كانوا ينادون بأن «عزيراً» هو «ابن الله»^(٣)، و«عزير» (أو العزير) هو الذي تسميه أسفار التوراة «عزرا» وله سفر باسمه في العهد

(١) مراد كامل، المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) متى ٢٢: ٢٣-٢٣.

(٣) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الجزء الأول، ص ٨٢، القاهرة ١٩٦٤.

القديم، ولعل هذه الفرقة هي التي يعنيها القرآن الكريم بقوله «وقالت اليهود عزير ابن الله»^(١).

وعلى أي حال، فرغم شهرة الصدوقيين، فإن أمرهم لا يخلو من غموض، بل إن الغموض إنما وصل إلى اسم فرقتهم نفسه، ذلك أن الروايات الفريسية القديمة إنما تذهب إلى أن «انطيوخس السوخي» الذي كان من كبار كهنة الهيكل الثاني^(٢)، وعاش حوالي عام ٣٠٠ ق.م، كان له تلميذان أحدهما «صدوق»، والآخر «بيتوس» وإلى الأول منهما تنسب هذه الفرقة، على أن الصدوقيين أنفسهم إنما ينسبون أنفسهم إلى «صدوق» أقدم من هذا بكثير هو - فيما يقال - الكاهن الأعظم لداود (١٠٠٠ - ٩٦٠ ق.م)، الذي تولى أخذ البيعة لابنه سليمان وتنصيبه على العرش، فعينه سليمان كاهناً أعظم لهيكله^(٣).

(٣) السامريون

ظهر السامريون كقوة لها تأثير خطير في الديانة اليهودية، ومعادية لسكان أورشليم، بعد العودة من السبي البابلي في عام ٥٣٩ ق.م حتى انتهى الأمر إلى انفصال ديني تام بينهم وبين مجتمع أورشليم، بعد قيام شعائر عبادة سامرية على جبل «جرزيم» المقدس، على مقربة من شكيم، في أثناء حكم «انطيوخس الرابع» (١٧٥-١٠٤ ق.م) ومنفصلة عن معبد أورشليم^(٤).

(١) سورة التوبة، آية : ٣٠، وانظر: تفسير المنار، ٢٨٢/١٠-٢٨٨، تفسير الطبري ٢٠١/١٤-٢٠٦؛ معاني القرآن للقرآني، ٤٣١/١-٤٣٣؛ تفسير القرطبي، ص ٢٩٥٠-٢٩٥٨؛ تفسير ابن كثير ٧٦/٤-٧٧.

(٢) انظر عن الهيكل الثاني: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص ١٠٣٦-١٠٥٩.

(٣) ملوك ثان ١: ٣٢-٣٥؛ محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٧٤٤-٧٤٧؛ حسن ظاها، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٤) قدمنا دراسة مفصلة عن «السامريين» في كتابنا «إسرائيل»، الكتاب الثاني: «التاريخ»، ص ١٠٦٨-١٠٧٥، ط ١٩٧٨.

(٤) الآسسينيون

كانت هذه الفرقة على أيام المسيح، عليه السلام، من أهم الفرق اليهودية، وأكثرها نشاطاً، وأشدّها احتراماً، ومع ذلك لم يرد لها ذكر في أقوال المسيح، ربما لأنها كانت بعيدة عن أورشليم، فلم يأتوا إلى الهيكل ليقربوا الذبائح، ويسجدوا للرب، وعلى أى حال، فالمعلومات عن هذه الفرقة نادرة، إذ لا تعدو فقرات قليلة في كتب المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» (٣٧-٩٨ أو ١٠٠ م) والمؤرخ الروماني «بليسي الأكبر» (٣٢-٧٩ ق.م)، والفيلسوف اليهودي السكندري «فيلون»، وأما أقدم ما عرف عنها، فيرجع إلى عصر المكابيين، وطبقاً لرواية «يوسف بن متى» فقد كانوا موجودين على أيام الأمير المكابي «يونان» (١٦٠-١٤٢ ق.م)، ولم تعمر فرقة الآسسينيين طويلاً، فقد انقرضت في آخريات القرن الأول الميلادي، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن «يوحنا المعمدان» (سيدنا يحيى عليه السلام) كان من هذه الفرقة، إلا أن أصحاب هذا الاتجاه لم يقدموا دليلاً يعتمد عليه في إثبات رأيهم هذا^(١).

وكانت فلسفة الآسسينيين خليطاً من اليهودية وغيرها، ذلك لأن القوم إنما كانوا يعتقدون فلسفة دينية وأخلاقية، عملت فيها تيارات أجنبية كثيرة، منها الفلسفة الفيثاغورية اليونانية، ومنها التنظيم الديني المجوسي القائم على تقديس النور وربطه بالخير، ومنها روايب وبقايا من العقائد المصرية الفرعونية، لاسيما ما يتصل منها بتقديس الشمس، إلى جانب المعتقدات النابعة من كتب اليهود المقدسة بطبيعة الحال^(٢).

وكان الآسسينيون يؤمنون بالسعادة بعد الموت، ولكنهم كانوا يشكون في قيامة الجسد، وكانوا يمتنعون عن الزواج - بتأثير من الفلسفة الفيثاغورية،

(١) علي عبد الواحد وافى، المرجع السابق، ص ٩٣

(٢) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

وربما بتأثير من نصوص معينة في التوراة^(١)، وهم في هذا يخالفون الفرق اليهودية الأخرى التي ترى أن الزواج واجب ديني لكل قادر عليه، وأن من يحجم عن الزواج - مع القدرة عليه - لا يقل جرمه عن جرم القاتل، لأن كليهما «يطفىء نور الله»، وينتقص ظله في أرضه، ويبعد رحمته عن إسرائيل، ومن هنا ذهب بعض فقهاءهم أن من بلغ العشرين، وهو أعزب، يجوز للقضاء أن يرغمه على الزواج^(٢).

على أن الآسنيين إنما كانوا في نفس الوقت الذي يمتنعون فيه عن الزواج، يتبنون أولاد الفقراء ليعلموهم عقائدهم ويفقهوهم في مذهبهم، وإذا أراد أحدهم أن ينضم إلى مذهبهم وضعوه ثلاث سنين تحت التجربة، فإذا أمضى التجربة بنجاح، قبلوه في جماعتهم، بعد أن يتعهد بعبادة الله، وأن يعامل الناس بالعدل، ولا يخفي أسراره عن الجماعة، ولا ييوح بها لغيرهم، ولو عرض نفسه بذلك للقتل^(٣).

وكان للآسنيين تنظيم دقيق، ففي كل دار من دورهم التي يعيشون فيها حياتهم الجماعية، رئيس يعظموه ويطيعونه، ومن تحت كان كل فرد من أفراد الطائفة له مكان في الترتيب الهرمي لمجتمعهم، لا يجوز له أن يتعداه، حتى بالكلام، فعند المحادثات والمناقشات تعطى الأولوية لكل فرد منهم بحسب منزلته في هذا الترتيب.

وكانوا يعيشون على طريقة المعيشة الجماعية في دار عامة للطائفة بعيدة عن الناس، يتولى كل واحد منهم فيها مهمة من مهام الحياة اليومية من زراعة أو صناعة أو طبخ أو تنظيف أو تعليم أو تأليف، وكانوا في هذه الدار يعيشون حياة شبيهة بحياة الأديرة المسيحية.

(١) خروج ٩: ١٥، صموئيل أول ٢١: ٤-٥.

(٢) علي عبد الواحد وافي، قصة الزواج والعزوبة في العالم، ص ٥-٦، ٥٠.

(٣) مراد كامل، المرجع السابق، ص ٢٥.

وكانوا يحتقرون المال، ومن ثم فقد حرموا الاشتغال بالتجارة، لما تبعث في النفوس من جشع وحرص على جمع المال، وجنوح إلى ابتزاز الناس، كما حرموا صناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التي تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم، وهو أن يعيش الناس في سلام دائم، كما كانوا يميلون إلى التقشف، ومن ثم فقد حرموا استخدام الذهب والفضة والتعامل بهما، لما يبعثانه في النفوس من زهو، وما يحملان عليه من جشع وشح، ولذلك اقتصررت أعمالهم على الزراعة والصيد وما يحتاجان إليه، وما يتصل بهما من صناعات، وهم في ذلك يختلفون اختلافاً جوهرياً، عن بقية فرق اليهود، فقد كان من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي لهذه الفرق شئون التجارة وصناعة السلاح والتعامل بالذهب والفضة، بل لقد كانت هذه الفرق تنظر إلى هذين المعدنين نظرة تقرب من التقديس.

وكانوا يلبسون ملابس بيضاء، يحرصون على نظافتها ونظافة أجسامهم، والظهور بمظهر طيب وقور، ويهتمون بتهديب شعر الرأس واللحية، وكان القسم الوحيد في حياتهم عند دخول الجماعة، ثم لا يحلفون يمينا بعده أبداً، وكانت «لا» أو «نعم» تغنيان عن اليمين، وكانوا يهتمون بشروق الشمس، فيقومون من نومهم قبل الفجر، ويقفون جماعة في لحظة الشروق حيث يؤدون صلاة معينة يسمونها «صلاة الأسلاف»، وقد لمس بعض الباحثين في هذه النقطة اقترباً من الشرائع القديمة المصرية والمجوسية.

وقد عرف الآسينيون بين اليهود بالعمل الشاق والإحسان إلى الفقراء، والابتعاد عن الشر، والصدق في القول، وطاعة الحكام، وعدم الالتجاء إلى العنف، وكانوا يحرمون الأضحية والقربان، مع أنهما عند الفرق الأخرى من أهم العبادات، بل إن هناك من يذهب إلى أنهم لم يحرموا ذبيحة القربان فقط، بل كانوا يمتنعون بتاتا عن أكل اللحم، وعن إسالة الدماء، وكانوا

نباتيين ملتزمين بذلك في حياتهم اليومية، كما كانوا يمتنعون عن متع الجسم ويحرمون شرب الخمر^(١).

(٥) الهيروديون

الهيروديون طائفة سياسية، أكثر منهم فرقة دينية، وقد اتخذوا كثيراً من العادات الوثنية، إرضاء للملك «هيرودوس» (٣٧-٤ ق.م) والحكام الرومان، فقد كان الرومان يبغون نشر مبادئهم في اليهودية. فوجدوا ضالتهم في «هيرودوس» الذي حكم أورشليم لمدة ثلاث وثلاثين سنة، كان أثناءها أداة طيعة في أيدي الرومان، حتى جعل اليهودية بالقوة أشبه بمملكة هليستية.

وكان الهيروديون يناصرون الأسرة الهيرودية ويتزلفون إلى الرومان، وقد اتفقوا مع الفريسيين في عدائهم للمسيح، عليه السلام، وفي هذا يقول الإنجيل «فخرج الفريسيون مع الهيروديين، وتشاوروا عليه لكي يهلكوه»^(٢)، ويقول «حيث ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة» فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين : يا معلم، نعلم أنك صادق، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا: ماذا تظن، أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا، فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربونني يا مراؤون، أروني معاملة الجزية، فقدموا له ديناراً، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة، فقالوا له: لقيصر، فقال لهم: اعطوا إذا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»^(٣).

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٦٩-٢٧٣، علي عبد الواحد وافي، اليهودية واليهود، ص

٩٠-٩٢، وكذا:

V.L.G. Rylands, Evolution of Christianity, p. 55; C. Guignebest, op.cit., p. 213F.

(٢) مرقس ٣: ٦.

(٣) متى ٢٢/١٨-٢٢.

وتظهر خطورة حركة القرائين - في نظر اليهود - في أن صاحبها - وهو يهودي - قد نادى بأن «عيسى بن مريم» ليس زنديقاً - كما يدعى الفريسيون - وأنه لم يشوه التوراة، ولم يكذبها أو ينسخها، وأنه كان رجلاً من البشر، من بنى إسرائيل، تقياً صالحاً، لم يفكر قط في النبوة أو الألوهية، بل كان مصلحاً يريد أن يخلص شريعة موسى من المفاهيم المنحرفة التي ألصقتها الناس بها، كما نادى كذلك بأن محمداً ﷺ نبيٌ حقاً، وأنه كعيسى بن مريم، لم يفكر قط في مخالفة التوراة، أو التحدى عليها، أو نسخ شرائعها، وقد أدى هذا كله إلى أن يشتد الصراع بين الربانيين والقرائين، فأعلن رؤساء كل طائفة تكفير الطائفة الأخرى ونجاستها وحرمانها من رحمة الله، ومنعوا الصلاة، كل منهم في معابد الطائفة الأخرى، وحرّموا كل مشاركة دينية أو شعبية، من قبل أى طائفة من الطائفتين مع الأخرى، من الأكل على مائدة السبت أو الأعياد، أو الزواج الذي حرّم نصاً بين الطائفتين، وإذا حدث زواج، فإنه إنما يعتبر زناً، ويعتبر الأولاد المولودين منه غير شرعيين، ولا ينتمون إلى شعب الله المختار^(١).

(٧) الجليليون

الجليليون فرقة دينية وسياسية عند اليهود، كان رائدهم الأول «يهوذا الجليلي» الذي ظهر حوالي عام ١١م، وخالف أوامر «أغسطس قيصر» (٢٧ق.م - ١٤م) في إحصاء اليهود، ونادى بأنه ليس لليهود ملك إلا الله، وتقرأ في الإنجيل: «بعد هذا قام يهوذا الجليلي في أيام الاكتتاب، وأزاع وراءه شعباً غفيراً، فذلك أيضاً هلك، وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا»^(٢).

(١) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٩٥-٣٠٦، علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق،

ص ٩٤-١٠٠.

(٢) أعمال الرسل ٥: ٢٧.

(٨) الليبرتيون:

يظن أنهم كانوا طائفة قوامها أرقاء اليهود، الذين أعتقهم سادتهم الرومان، وكان لهم - فيما يبدو - مجمع خاص بهم في أورشليم، ونقرأ عنهم في الإنجيل «فنهض قوم من المجمع الذي يقال له مجمع الليبرتيين والفروانيين والإسكندريين، ومن الذين من كيليكيا وآسيا، يحاورون استفانوس» (١).

(٩) الغيورون

وقد عدّهم المؤرخ اليهودي «يوسف بن متى» فرقة رابعة مكتملة للفريسيين والصدوقيين والآسينيين، وكانوا حزبا سياسيا، هدفه مقاومة سياسة هيرودوس والرومان، فقاموا بثورة مسلحة، لم يكتب لها النصر، ويفهم من أناجيل النصارى أن «سمعان» أحد حوارى المسيح، إنما كان منهم (٢).

وأخيرا، فليست هذه كل فرق اليهود الدينية، وإنما هناك غيرها الكثير، فهناك القنائون والأيوثيين والغنوصية (الصابئة) واليودجانية والمارنوس والدونمة (الدومنة) والإصلاحيون أو المجددون والفلاشة وبنو إسرائيل (٣).

(١) أعمال الرسل ٦ : ٩ .

(٢) متى ١٠ : ٤ (حيث يسمى بالقانونى، وهو اللفظ العبرى المقابل للفظ غيور)؛ لوقا ٦ : ١٥ ،

أعمال الرسل ١ : ١٢؛ مراد كامل : المرجع السابق، ص ٢٨ .

(٣) انظر عن هذه الفرق: حسن ظا، المرجع السابق، ص ٢٦٠-٢٩٤ ، ٢٨٣-٢٩٤ ، ٣٠٦-٣٢٢ .



اليهود بين الانغلاق والتبشير

تمتلء صفحات الكتب بزعم كذب مؤداه، أن اليهود ما كانوا يميلون إلى نشر دينهم بين الأمم، ذلك لأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود^(١)، هذا فضلا عن أن القوم إنما كانوا يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار»^(٢)، ذلك لأنهم - فيما يزعمون - شعب مقدس اختاره ربهم «يهوه» ليكون شعبه المصطفى دون سائر بقية شعوب الأرض، ومن ثم فقد خاطبهم في التوراة «واتخذكم لى شعباً وأكون لكم إلهاً»^(٣)، «وأنت تكونون لى مملكة كهنة، وأمة مقدسة»^(٤)، بل إنه يقول لهم «إنك شعب مقدس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لى تكون له شعباً خاصاً، فوق جميع الشعوب التى على وجه الأرض»^(٥).

وهكذا نظر الإسرائيليون إلى أنفسهم على أنهم الشعب الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين، وأن من عداهم من الشعوب أقل منهم مكانة فى سلم الإنسانية ومن ثم فلا تسمح نفوسهم أن تكون هذه الميزة لغيرهم من الشعوب الأخرى، بل إن «يهوه» - رب يهود - لم يكن إلهاً عالمياً، وإنما كان إلهاً قومياً، وربما لليهود دون سواهم من العالمين^(٦)، إلا أن ذلك شىء، وما قام به اليهود من نشر دينهم بين الشعوب الأخرى شىء آخر.

هذا فضلا عن أننا نرى فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، النبيين «عاموس» (٧٦٠-٧٤٦ ق.م) و«إشعياى الأول» (٧٢٤-٦٨٠ ق.م) يعتقان

(١) إسرائيل ولفنسون، المرجع السابق، ص ٧٢. (٢) خروج ١٩: ٦، عدد ١٤: ٢٢، تثنية ١٠: ١٥.

(٣) خروج ٦: ٧. (٤) خروج ١٩: ٦.

(٥) تثنية ١٤: ٢٢، وانظر: تثنية ١٠: ١٥.

(٦) خروج ٦: ٧، ١٥: ١١، ١٨، ١١: ١١، أخبار أيام ثان ٣: ٥.

فكرة جديدة خلاصتها، أن «يهوه» إنما هو إله للعالم كله، والديان العادل لكل شعوب الأرض، وإن كان هذا التطور في اليهودية لم يكن دائماً يسير إلى الأمام في كافة الأحوال، بل كانت هناك الردة تارة، والقهقري إلى الوراء تارة أخرى، حتى أن أسفار التوراة الأخيرة، حين تخرج من دائرة بنى إسرائيل إلى غيرهم من الشعوب، فقد ظل المعنى المتضمن لمفهوم «الله» في التوراة على أنه إله إسرائيل في المقام الأول.

وهكذا يبدو بوضوح أن إله إسرائيل - كما تصوره التوراة - لم يكن الله، كما تفهمه البشرية في الديانات المعاصرة^(١)، وهذه الفكرة تتناسق تناسقاً كاملاً مع سياق النظام الإسرائيلي عامة، لأن الدين الخاص لشعب خاص، لا بد أن يكون له إله خاص، وهذه الخصوصية مهمة جداً في عقيدة هذا الشعب اليهودي^(٢).

وعوداً على بدء، على موقف اليهود إزاء التبشير بدينهم.

يحدثنا التاريخ الديني أن يهود قد اتبعت كل ما أمكنها اتباعه من وسائل لتنتشر دينها بين الأقاليم من غير اليهود، والأدلة على ذلك كثيرة، منها (أولاً) أن هناك من غير اليهود من اعتنق اليهودية، منذ مرحلتها الأولى، وعلى رأس هؤلاء جميعاً، السحرة المصريون، والذين تكاد تجمع الكتب المقدسة من قبل - والمؤرخون من بعد - على أنهم هم الذين آمنوا بدعوة موسى الكليم، عليه السلام، عن عقيدة وإيمان، ولعمري إن الذين هددهم فرعون، «فَلَا تَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ، وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ»^(٣)، فكان ردُّهم «لَنْ نُوْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ، وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا

(١) صبرى جرجس، المرجع السابق، ص ٥٢.

(٢) عبده الراجحي، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٤٧.

(٣) سورة طه، آية : ٧١.

ليغفرَ لنا خطايانا، وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقى»^(١)، إن هؤلاء لأشد إيمانًا من بنى إسرائيل أنفسهم، الذين ما أن رأوا فرعون وجنوده، حتى تملكهم الذعر والخوف، وصاحوا بموسى قائلين «أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا»^(٢) أو كما تقول توراتهم: «ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر، أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر، قائلين: كف عنا فتخدم المصريين، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية»^(٣).

ومن هنا فإن العلماء - ومنهم يهود، كالحاخام الدكتور أبشتين^(٤)، والدكتور سيسل روث^(٥) - يكادون يجمعون على أن أتباع موسى الخارجين في ركابه من مصر، لم يكونوا كلهم من سلالة بنى إسرائيل، وإنما كانوا خليطًا من الإسرائيليين وغير الإسرائيليين، ينتمون إلى فكرة وعقيدة، لا إلى جنس وعنصر بعينه، كما يزعم اليهود، بل إن التوراة نفسها إنما تصرح في وضوح - لا لبس فيه ولا غموض - بذلك كله، وذلك حيث تقول: «وصعد معهم لقيف كثير أيضًا»^(٦) يتكونون - فيما يرى جوستاف لوبون^(٧) - من المصريين الساخطين، ومن العبيد المتمردين، فضلًا عن السحرة المصريين، الذين آمنوا بديانة الكليم عن عقيدة وإيمان.

(١) سورة طه، آية: ٧٢-٧٣، وانظر: تفسير القرطبي، ص ٤٢٦-٤٢٦٦.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٢٩؛ وانظر: تفسير ابن كثير ٤٥٦/٣-٤٥٧، (دار الشعب، القاهرة ١٩٧١)؛ تفسير القرطبي، ص ٢٦٩٩، (دار الشعب، القاهرة ١٩٨٠)؛ تفسير الطبري ٤٣/١٢-٤٤، (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٨)؛ تفسير المنار، ٦٩/٩-٧٢، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤).

(٣) خروج ١٤: ٨-١٢.

(٤) Isidose Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, p. 16.

(٥) C. Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 6.

L. Woolley, The Beginning of Civilisation, N.Y., 1965, p. 496. وكذا:

(٦) خروج ١٢: ٣٨.

(٧) جوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧،

ومنها (ثانياً) أن التوراة تمتلئ بالنصوص التي تتحدث عن تهويد أناس من غير اليهود، كما في أسفار الخروج والقضاة وراعوث وسموئيل الثاني، وأخبار الأيام الأول وغيرها^(١)، ومنها (ثالثاً) أن التوراة تقدم لنا اليهود في عصر القضاة - وعلى أيام دبورة بالذات - على أنهم أربعون ألفاً من المحاربين^(٢)، ثم هم على أيام «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) مليون وثلاثمائة ألف^(٣)، مما يدل على أنهم كانوا أيام الملك، خليطاً من الإسرائيليين والكنعانيين، وإن كانت الأرقام تدل على أن الغالبية العظمى، إنما كانت من الكنعانيين^(٤).

ومنها (رابعاً) أن السبي البابلي - والآشوري من قبل - كانا سبباً في تهجير الآلاف من اليهود إلى العراق، واستبدالهم بآخرين، فضلاً عما حدث أثناء ذلك من اختلاط جنسي بين الغزاة واليهود - راضين كانوا أم مكرهين - حتى أن سفر «عزرا»، الذي كتب أثناء السبي البابلي، لا يتحدث إلا عن هذا الاختلاط^(٥)، ويدهى أن من نتيجة ذلك أن نشأ جيل يعتنق اليهودية، ولكنه ليس يهودياً من ناحية الجنس، أو على الأقل، ليس يهودياً نقياً.

ومنها (خامساً) أن الملك اليهودي «يوحنا هيركانوس الأول» (١٣٥-١٠٤ ق.م)، كان قد أجبر الأدوميين في حوالي عام ١٢٦ ق.م، على الاختتان واعتناق اليهودية، رغبة منه في إزالة الفوارق الدينية بين يهود وآدوم، وحباً في نشر اليهودية بينهم، ومن ثم فقد انضم بنو عيسو إلى الإسرائيليين^(٦).

(١) خروج ١٢: ٢٨؛ قضاة ١: ١٦، ١١: ١١، ١٤: ١-٢٠؛ راعوث ١: ٤-٤، ١٢: ١٣؛ سموئيل ثان ١١: ٢-٢٤؛ أخبار أيام أول ٢: ٩، ١٨: ٢٠، ٢٥-٢٧، ٣٣، ٤٢، ٥٥، ١١:

٢٧، ٣٠؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 391. وكذا: J. Hastings, op.cit., p. 3.

(٢) قضاة ٥: ٨. (٣) سموئيل ثان ٢٤: ٩. (٤) A. Lods, op.cit., p. 333.

(٥) عزرا ٩: ١-١٠: ٤٤؛ ثروت الأسبوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين، الجماعات البدائية،

بنو إسرائيل، ص ١٨٠.

(٦) سفر المكابيين الأول ٤: ٢٩، ٥، ٦٥؛ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة

ومنها (سادساً) ما حدث في اليمن على أيام الدولة الحميرية (حوالي ٣٠٠ - ٥٢٥م) وتهود العرب هناك، ذلك أن اليهودية إنما كانت قد بدأت تأخذ طريقها إلى اليمن منذ فترة طويلة، وإن ازدادت منذ تدمير بيت المقدس على يد القائد الروماني «تيتوس» في عام ٧٠م، ومن ثم فإن أصحاب هذا الاتجاه الأخير يرون أننا لو تفحصنا أسماء اليهود المقيمين في بلاد العرب، لرأينا، أن معظمهم آراميون، وعرب متهودون، وليسوا من ذرية إبراهيم الخليل من ولده إسحاق - عليهما السلام^(١) - أو منذ تهود «أب كرب أسعد» (٤٠٠-٤١٥م)^(٢)، وفرضها على الحميرين بالقوة - فيما ترى المصادر العربية^(٣) - أو منذ تهود «ذى نواس»^(٤) (٥١٥-٥٢٥م)، سواء أكان ذلك

١٩٢٧، ص ٧٣؛ تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩، ص ١٠٥؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩؛ وكذا: Josephus, Antiquities of the the Jews, XIII, q.1
(١) R.K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, p. 61.

(٢) يختلف الباحثون في فترة حكم «أب كرب أسعد»، فذهب فريق إلى أنها في الفترة (٤٠٠-٤١٥ أو ٤٢٠م)، وذهب آخرون إلى أنها في الفترة (٣٨٥-٤٢٠م) واتجه فريق ثالث إلى أنها في الفترة (٣٧٨-٤١٥م)؛ بينما اتجه فريق رابع إلى أنها استمرت حتى عام ٤٣٠م. (انظر: فريتر هول، التاريخ العربي القديم، ص ١٠٨؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، ص ٥٧١؛ وكذا:

J.B. Philby, Note on The Last Kings of Saba, in Le Museon, LXIII, 1950, p. 269.

وكذا: J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 116, 143.

(٣) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ١٦٤/٢-١٦٧؛ تاريخ اليعقوبي ١٩٨/١؛ تاريخ ابن خلدون ٥٣/٢-٥٤؛ تاريخ الطبري ١٠٧/٢-١١١؛ ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ٢٧/١-٣٠؛ الأزرقى، أخبار مكة ٢٤٩/١؛ السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، ١٣٤/١؛ الفاسي، العقد الثمين ٧١/١؛ تفسير الطبري ١٥٤/٢٧؛ تفسير الخازن ١١٥/٤؛ ثم قارن: ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ المسعودي، مروج الذهب ٥١/٢؛ نشوان بن سعيد الحميري، ملوك حمير وأقيال اليمن، ص ١٢٢.

(٤) ذو نواس: هو زرة ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب، وقد سمي «يوسف» بعد تهوده، وإن ذهب البعض إلى أنه من غير الأسرة المالكة، وأن السبب في تسميته بذى نواس، أن كانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقه. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٤٢٥/١؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٣١١، ٣٧٧؛ المسعودي، مروج الذهب ٥٢/٢؛ تاريخ اليعقوبي، ١٩٩/١).

بناء على رغبة من الملك الحميري في أن يقاوم دين سماوى بدين سماوى آخر، ومن ثم فهو يمثل الروح القومية في اليمن، حين رأى في النصرارى من مواطنيه ما يذكره بحكم الأحباش المسيحيين البغيض^(١)، بخاصة وأن المسيحية قد أصبحت وقت ذلك تستند إلى قوة الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في غزو اليمن^(٢)، أو لأنه كان في الأصل - طبقاً لرواية ابن العبرى - من أهل الحيرة، وأن أمة يهودية من «نصيبين» وقعت في الأسر، فتزوجها والد «يوسف» هذا، فأولده منها، ومن ثم فهو يهودى وفد على اليمن من الحيرة^(٣).

ومنها (سابعاً) أننا نرى في القرن الثامن الميلادى شعباً بأسره يعتقد اليهودية، وذلك حين اعتنق «بولان» ملك قبائل «الخزر المنغولية» في ٧٤٠م اليهودية، ثم اتخذها ديناً رسمياً لقبائل الخزر، ذلك أن هذه القبائل قد طبعها طبائع القسوة المتعطشة إلى إراقة الدماء، التي كانت تتميز بها القبائل المنغولية، وقد رغب مسلمو الشرق في أن يرشدوا هؤلاء «الخزر» إلى سماحة الدين الإسلامى، كما رغب مسيحيو الغرب بدورهم، في أن ينشروا السلام في أرجاء هذه المملكة الدموية، فكان ذلك ترغيباً لحاكم هذه القبائل فى الاطلاع على الدين اليهودى، وصادف هذا الدين من نفس «بولان» هوى، إذ وجد فيه - بما يحتويه من طقوس دموية، وبما يشتمل عليه من شرائع تبيح كل أنواع القسوة تفسيراً لأصول دينه الوثنى، فاعتنق اليهودية ديناً فى عام ٧٤٠م، ثم تبعته حاشيته، فشعبه، ثم أعلنه ديناً رسمياً لقبائل الخزر^(٤).

P.K. Hitti, op.cit., p. 62.

(١)

وكذا:

Bont- Maury, L'Islamisme et le Christianisme en Afrique, Paris, 1906, p. 47.

(٢) عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة ١٩٤٧، ص ٤٥.

(٣) حواد علي، المرجع السابق، ص ٥٩٣، ثم قارن: الهمداني، الإكليل ٦٣١٢، وانظر:

F. Althein and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, I, 1964, p. 360.

(٤) أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٤٩.

ومنها (ثامناً) أن القرآن الكريم يكذب هذا الادعاء - الذي تسرب للأسف حتى إلى كتابات المؤرخين الإسلاميين - وذلك حين يشير صراحة إلى انتشار اليهودية في اليمن في القرن العاشر قبل الميلاد، وعلى أيام «سليمان» (٩٦٠-٩٢٢ ق.م)، حيث يروى في سورة النمل قصة ملكة سبأ مع سليمان، وكيف بدأت بدعوة النبي الكريم ملكة سبأ إلى الإسلام، ثم انتهت - بعد أن تأكدت الملكة العربية أن سليمان إنما يطلب لها ولقومها الهداية إلى سواء السبيل - إلى أن قالت: «ربُّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»^(١).

ومنها (تاسعاً) أن هناك فريقاً من المؤرخين، إنما يذهب إلى أن «بنى النضير» و«بنى قريظة» - وهما فرعان من قبيلة جذام العربية - قد تهودوا، وسموا بالمكان الذي نزلوا فيه^(٢)، وطبقاً لرواية الإخباريين، فإن «جبل بن جوال» من «بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان» قد تهود هو وقومه، وعاش مع بنى قريظة، حتى ظهور الإسلام، ثم هداه الله إلى الدين الحق، فأسلم وحسن إسلامه^(٣)، ثم هناك «كعب بن الأشرف» اليهودي، وكان من بنى طيء، ثم أحد بنى نبهان، ولكن أمه من «بنى النضير»، وقد قتله المسلمون بسبب تشبيهه بنساء المسلمين، وشعره في التحريض على الرسول - ﷺ - فضلاً عن

(١) انظر: سورة النمل، آية: ٢٠-٤٤، وكذا: تفسير الطبري ١٩/١٤٣-١٧٠، تفسى الطبرسي ١٩/٢٠٨-٢٣٠، تفسير القرطبي ١٣/١٧٦-٢١٣، تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠-٣٦٦، تفسير الكشاف ٣/١٤٢-١٥١، تفسير روح المعاني ١٩/١٨٢-٢١٠، في ظلال القرآن ١٩/٢٦٣١-٢٦٤٣، تفسير البيضاوي ٢/١٧٢-١٧٨، تفسير أبو السعود ٤/١٢٧-١٣٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/٢٣٤-٢٣٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢/١، قصص الأنبياء ١/٣٣٣-٣٣٦، محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني: «التاريخ»، ص ٧٦٢-٧٨٠.

(٢) اليعقوبى (أحمد ابن أبى يعقوب بن جعفر)، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٦، ٣٩.

(٣) ابن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، ١/٢٢٣، (رقم ١٠٧١)، القاهرة ١٩٣٩.

تحريض قريش على محاربة المسلمين في المدينة، والثأر لقتلها في بدر^(٤).

ومنها (عاشراً) هناك الكثير من العرب المتهودين، ولاسيما القبائل اليهودية المسماة بأسماء عربية أصيلة، لها صلة بالوثنية، مما يدل على أنها إنما كانت وثنية قبل أن تتهود، ومن ثم فهناك الكثير من البطون العربية التي تهودت^(١)، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بنى الحارث بن كعب، وقوم من «غسان» وقوم من «بلي»^(٢).

ومنها (حادى عشر) أن هناك ما يشير إلى أن المرأة المقلات في الجاهلية، كانت تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، ومن ثم فقد تهود بعض منهم، فلما جاء الإسلام أراد الإنصار إكراه أبنائهم عليه، فنهاهم الله عن ذلك^(٣)، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٤).

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية، ٩/٣-١٥، (القاهرة ١٩٦٥)؛ ابن هشام، سيرة النبي ﷺ، ٥١٧-٥٨، (القاهرة ١٩٥٥)؛ عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، القاهرة ١٩٧٤، ص ٣٣٦-٣٣٨؛ تاريخ الطبري، ٤٨٧/٢-٤٩١؛ صحيح البخاري ٧٩/٢-٨٠؛ ابن حزم، جوامع السيرة، ص ١٥٤-١٥٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٤٣/٢-١٤٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٢١/١-٢٣.

D. Noldeke, EB, 24, 1911; D.S. Margoliouth, The Relations Between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924, p. 60.

(٢) تاريخ يعقوبى ٢٥٧/١؛ جواد علي، ٥٢٥/٦؛ وكذا:

H. Graetz, History of the Jews, II, Philadelphia, 1956, p. 408; Islamic Culture, III, 2, p. 177.

(٣) سنن أبي داود ٧٨/٣-٧٩؛ البيهقي، السنن الكبرى ١٨٦/٩؛ إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٨٨؛ أديان العرب في الجاهلية، ص ٢٠١.

(٤) سورة البقرة، آية: ٢٥٦؛ وانظر: تفسير المنار ٣٥/٣-٤٠؛ تفسير أبو السعود ١٨٩/١-١٩٠؛ تفسير ابن كثير ٤٥٩/١-٤٦٢؛ مسند الإمام أحمد ١٨١/٣، ٤٦/٥، ٤٥٢، ١٦٠/٧؛ تفسير القرطبي ٢٧٩/٣-٢٨٢؛ تفسير الطبرسي ٣٠٤/٣-٣٠٧؛ تفسير الطبري ٤٠٧/٥-٤٢٤؛ تفسير روح المعاني ١٣/٣-١٥؛ في ظلال القرآن ٢٩٣/٢-٢٩٦؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٢٩/١-٣٣١؛ تفسير النسفي ١٢٩/١؛ تفسير الكشاف ٣٨٧/١.

وعلى أى حال ، فإن فريقاً من المؤرخين إنما يذهب إلى أن يهود بلاد العرب ، إنما هم عرب تهودوا ، وإن لم يكونوا مزودن بمعلومات كافية عن التوحيد ، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله ، حتى أن بعضاً من يهود دمشق وحلب ، فى القرن الثالث الميلادى ، أنكروا عليهم يهوديتهم ، وإن كانوا مع ذلك شديدي التمسك بدينهم^(١) .

وهكذا يبدو بوضوح أن اعتناق اليهودية لم يكن أمراً مقصوداً على اليهود ، فحسب ، وإنما اعتنقها آخرون من غير اليهود ، وأن هؤلاء اليهود من غير بنى إسرائيل - أو هؤلاء المتهودون من غير أبناء يعقوب - إنما كان منهم من اعتنق اليهودية إيماناً بها - كدين سماوى - كما أشار القرآن الكريم إلى السحرة المصريين على أيام موسى^(٢) ، وإلى ملكة سبأ على أيام سليمان ، ومنهم من سار فى ركابها ، كما فعل العبيد والأسارى ، الذين لحقوا بموكب الخروج من مصر ، فى أخريات القرن الثالث عشر قبل الميلاد - كما تشير التوراة إلى ذلك^(٣) .

هذا إلى جانب من فرضت عليهم اليهودية بقوة الدولة وسلطانها ، على أيام دولة بنى إسرائيل فى فلسطين ، كما حدث بالنسبة إلى الكنعانيين على

(١) إسرائيل ولفنسون ، المرجع السابق ، ص ١٣ ، ٧٣ ، وكذا : D.S. Margoliouth, op.cit., p. 60.
وكذا : H. Graetz, op.cit., III, p. 51, 75.

(٢) انظر : سورة الأعراف ، آية : ١٠٩ - ١٢٦ ، وكذا : تفسير المحيط ٣٥٥/٤ - ٣٦٨ ، تفسير روح المعانى ٢١١/٩ - ٢٨ ، تفسير المنار ٤٥/٩ - ٧٨ ، فى ظلال القرآن ١٣٤٢/٩ - ١٣٥٣ ، تفسير القرطبي ٢٥٦/٧ - ٢٦٢ ، تفسير الطبري ١٨/١٣ - ١٣٦ ، تفسير ابن كثير ٢٠٥/٣ - ٢٠٩ .
وانظر : سورة طه ، آية : ٥٧ - ٧٦ ، وكذا : تفسير البيضاوى ٥٢/٢ - ٥٦ ، فى ظلال القرآن ٢٣٤٠/١٦ - ٢٣٤٤ ، تفسير الطبري ١٧٥/١٦ - ١٩٢ ، تفسير الطبري ١٦٩/١٦ - ١٢٤ ، تفسير ابن كثير ٥٢٢/٤ ، تفسير الكشاف ٥٤٢/٢ - ٥٤٦ ، تفسير القرطبي ٢١١/١١ - ٢٢٧ ، تفسير أبى السعود ٣١١/٣ - ٣١٦ .

L. Woolley, op.cit., p. 49.

(٣) خروج ١٢ : ٣٨ ، وكذا :

C. Roth, op.cit., p. 6.

وكذا :

أيام الملكية، ومنهم من فرضت اليهودية عليه بحد السيف، كما حدث بالنسبة إلى الأدوميين في القرن الثاني قبل الميلاد، ومنهم من ولدوا من أمهات يهوديات تزوجن من جنود الرومان، بعد قضاء الإمبراطورية الرومانية على ثورة «باركوخيا» (١٣٢-١٣٥م)، في أغسطس من عام ١٣٥م، وتدمير مدينة أورشليم، والقيام بمذبحة مروعة ختمت حياة اليهود في فلسطين - كدولة وكقومية - وتشريد البقية الباقية من يهود في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ثم زواج كثير من بنات يهود من جنود الرومان، الذين تركوهم بعد حين من الدهر، فشب أبنائهم يهوداً كأمهاتهم^(١).

وهناك من اعتنقوا اليهودية لأن طقوسها الدموية، تتفق وطباعهم المتعطشة إلى الدماء، كقبائل الخزر المنغولية، وهناك من اعتنقوا اليهودية لأسباب قومية، ونكاية في المسيحية كالحميرين، الذين كانوا يخشون على بلادهم من أطماع الرومان، وحكم الأحباش البغيض، وهناك من اعتنقوا اليهودية لأن الأمهات المقلات في الجاهلية العربية وهبتهم لليهودية - إن عاشوا - كما حدث في «يثرب» العربية، حتى أن الأنصار حين أرادوا إكراه هؤلاء الأبناء على ترك اليهودية واعتناق الإسلام، نهاهم الله - سبحانه وتعالى عن ذلك.

وهناك من اعتنقوا اليهودية تبشيراً بها من يهود، أو لأنهم كانوا مطالبين بثأر، فهجروا مواطن قبائلهم إلى مواطن أخرى تسكنها يهود، أبت عليهم مجاوراتها إلا أن يتهودوا، كما حدث مع «بنى حسنة بن عكارمة»، وهم بطن من قبيلة «بلى» العربية.

(١) جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة ١٩٦٧، ص ٧٨، وكذا:

Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 453-454.

H. Strathmann, PJB, 23, 1927, p. 92F.

وكذا:

A. Schulten, ZOPV, 56, 1933, p. 180.

وأخيراً لا أريد أن أتحدث عن اليهود في العصر الحديث، حيث تتوافر الأدلة في أمريكا الوسطى والجنوبية على تحول كثير من الهنود الحمر إلى اليهودية ولا علاقة لهم جنسياً ودموياً باليهود أصلاً، وكل هذا يمنع أى شك فى أن اليهودية لم تكن مقصورة على بنى إسرائيل وحدهم، بل إن هناك شعوباً أخرى قد اعتنقت الدين اليهودي^(١).

ولست أدري بعد هذا كله، أية وسيلة بقيت لم يتبعها اليهود لتشر دينهم، ومن ثم فإن انتشار الدين اليهودي قد أوجد أجيالاً وطوائف من اليهود لا تمت إلى بنى إسرائيل بشيء، سوى صلة الدين، أو بعبارة أخرى، فإن انتشار اليهودية قد قضى على بنى إسرائيل كسلالة بشرية متميزة^(٢).

(١) انظر: محمد عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، القاهرة ١٩٥٧، ص

١٢٨-١٥٥؛ جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٧٧-٧٨؛ وكذا:

E.Pittard, Les Races et L'Histoire , p. 313, 330.

وكذا: W. Z. Ripley, Races of Europe, London, 1900, p. 392.

(٢) جمال حمدان، المرجع السابق، ص ٨٠-٩٣.



الباب الرابع الحياة الاجتماعية



الفصل الأول

التطور الاجتماعي في المجتمع الإسرائيلي

(١) طبقات المجتمع الإسرائيلي

إن التمييز بين الأشراف والعامّة الذي يتميز به مجتمع الرافدين - مثلاً - يتفق وأحوالاً اجتماعية أكثر تطوراً إلى حد بعيد، من أحوال العبرانيين، الذين لا نجد عندهم في الواقع أي تمييز بين المدنيين الأحرار، فهؤلاء جميعاً كانوا ينعمون بنفس الحقوق بعد وصولهم إلى سن البلوغ، التي حددتها التوراة بالعشرين، وكانت أيضاً أدنى سن للانخراط في الجيش^(١)، ومن ثم، فطبقاً لعادات البدو، فإن أراضي المرعى والينابيع - وهي أساس الحياة البدوية - إنما هي ملكية شائعة بين القوم جميعاً^(٢).

وإلى جانب المدنيين الأحرار، كان هناك العبيد من أجناب وإسرائيليين، وكان أغلب العبيد من الأجناب، وأكثر هؤلاء أسرى حرب، ولكن كان يمكن أيضاً شراء العبيد، وقد كانت تجارة الرقيق في أيدي الفينيقيين، وقد كان العبرانيون ينظرون إلى العبد على أنه مجرد ملك منقول لسيدته، وإن كانت قوانين التوراة تحمي العبد - في أحوال معينة - من سيده، ومن ثم فالسيد الذي يتلف عين عبده أو سنه، عليه فك رقبتة، والسبت يوم راحة للعبيد، كما هو للمدنيين الأحرار، والعبد الأبقي يحب إيواؤه وحمايته، ولا يصح رده إلى سيده، باعتبار أن الفرار إنما هو دليل سوء معاملة السيد لعبده^(٣).

هذا وقد كانت معاملة العبيد العبرانيين تختلف عن معاملة أمثالهم من

(١) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٦٧.

A. Lods, Israel From its Beginning to the Middle of The Eighth Century, (٢)
London, 1962, p. 396.

(٣) خروج ٢١: ٢٦-٢٧، تثنية ٢٣: ١٥-١٦.

الأجانب، فقد كان لهم حق استعادة حريتهم بعد سبع سنين من الخدمة، كما كان صاحب الدين يقادر على استرقاق أخيه العبري إن لم يدفع دينه في الموعد المعلوم، بل إن آباء الأسر، إنما كان في استطاعتهم بيع أبنائهم كرقائق، بل إنه إنما كان يملك عليهم حق الحياة والموت، فيقتلهم إذا شاء^(١).

وهناك طبقة ثالثة في المجتمع، هي طبقة الأجانب، وهم قسمان: الواحد: يرتبط بالقبائل العبرية، وهم «الجيريم» أو الجيران، الذين يستجبرون بأحد أعضاء العشيرة، ويلوذون بحمايته، ولم يكن لهم حقوق، وكانوا يلتزمون بعبادة آلهة العشيرة، وأما القسم الآخر من الأجانب، فلم يكن يتمتع بهذا الحق^(٢).

(٢) التطور الاجتماعي في إسرائيل

في الواقع، إن حياة البداوة لا تعرف فوارق اجتماعية، فالثروة لا تعنى جاهاً أو قوة - وإن كانت تمكن الغنى من أن يكون أكثر كرمًا من الآخرين - لأن الأفقر بين البدو، هو فعلاً مساو للأغنى، والكل يشترك بدون تمييز في نفس الطعام البسيط، ويرتدى نفس الملابس الخشنة، ويقوم بنفس العمل، ويمتطي صهوة الجواد، ويسكن نفس الخيمة البدائية في أنائها، هذا فضلاً عن أن الغنى قد يفقد ثروته، حين تستولى قبيلة معادية على كل قطعة، وبالعكس، فقد يجد الفقير نفسه قد اغتنى من تجارة المقايضة^(٣).

وعندما نزع العبرانيون إلى كنعان، فوجدوا أنفسهم أمام بلد ذي حضارة رفيعة، وثقافة عالية، ومفارقات اجتماعية، وسواء نزلوا فاتحين، أو

(١) خروج ٢١: ١-٧، تكوين ٤٢: ١٣٧، سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) L.G. Levy, La Famille dans L'Antiquite Israelite, Paris, 1905, p. 83F.

A. Lods, op.cit., p. 221F.

وكذا:

(٣) Alfred Bertholet, Histoire de la Civilisation d'Israel, Paris, 1929, p. 138.

مأجورين لأمير من أمراء البلاد، أو متلصصين، فالنتيجة واحدة، وهي أن الحضارة الكنعانية ظلت هي المنتصرة، واستعمرت العقلية الإسرائيلية استعماراً لم تتحرر منه^(١)، رغم محاولة بنى إسرائيل الاحتفاظ بعاداتهم البدوية، ولكن لم يبق منها - بمرور الزمن - إلا آثاراً، كادت أن تختفى تماماً.

وكانت هنا في فلسطين أرض شاسعة خصصت لأسباط معينة، تقرر بعد العودة من السبي البابلي أن تعود إلى أصحابها الأصليين، وكان من حق أقرب الأقارب أن يخلص ملكية قريبه الأجير، الذي اضطر إلى أن يبيع إرث الجدود، والأمر كذلك بالنسبة إلى العرف الذي يتطلب من الوارثة أن تتزوج في إطار عشيرتها الخاصة، والهدف من ذلك كله هو منع الأرض من الانتقال إلى خارج دائرة الأقارب^(٢)، ولكن الحقائق التي أثارت الاستياء الشديد من اغتصاب بساتين كروم «تابوت» اليزرعيلي^(٣)، تبين كيف تأصل مبدأ الملكية الفردية بعمق في أذهان الناس، ذلك لأن مالك الأرض وحده، هو الذي كان له الحق في أن يكون مواطناً^(٤).

وأصبح الإسرائيليون - بمرور الزمن - مزارعين مستقلين، يفضل أمان الحياة الذي ساد في البلاد، كما كان المزارعون المهرة قادرين على توفير أرباحهم، واستخدامها في توسيع ملكيتهم، ومن ناحية أخرى، فلقد نمت - بعد نظام الملكية - أرستقراطية عسكرية، أثرت كثيراً من غنائم الحرب، أو عن طريق الرعاية الملكية، وكانت ممارسة السلطة مصدر ربح للشيوخ والموظفين الملكيين، لأن الشخص الذي يبحث عن رعاية، لا يجب أن يظهر أمام من هو أدنى منه خاوي الوفاض^(٥).

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١١٨.

(٢) لا يون ٢٥-٢٣: ٢٥، عدد ١٣٦، راعوث ٤: ٣-١٢، لرميا ٣٢: ٧-١٦، ٣٧: ١٢.

(٣) ملوك أول ٢١: ١-١٦. (٤) A. Lods, op.cit., p. 397.

(٥) انظر: تكوين ٣٢: ١٤-٢٢، ٣٣: ٨-١١، صموئيل أول ١٠: ٢٧، ١٧: ١٨، ٢٥: ١٩.

هذا وقد وضح تشبع الإسرائيليين بالحضارة الكنعانية في تقسيم المجتمع الإسرائيلي إلى درجات أو طبقات، وفي اقتباس قصر سليمان لأسلوب من الحياة يتزايد تدريجياً في الابتعاد عن البساطة البدوية، وفي تطلع الأغنياء إلى قصور تشبه تلك التي كان يسكنها الملوك، فضلاً عن منازل للصيف، وأخرى للشتاء، وهذا نوع من الترف يبدو أنه بدأ في القرن الثامن قبل الميلاد^(١)، ونقرأ في التوراة عن المقر الملكي - الشتوي والصيفي - في منازل من عاج، وأخرى من أبنوس، وعن قصور فخمة، جاورتها أحصاص خشنة^(٢).

وكانت اللحوم هي الطبق الرئيسي في المآدب، كما كان القوم يشربون النبيذ في كؤوس، على نغمات الموسيقى، ويتكلمون على أرائك، بدلا من الجلوس على الأرض، كمعادة أسلافهم، وإلى هذا تشير التوراة، «المضطجعون على أسرة من العاج، والتمددون على فرشهم، والآكلون خراقة من الغنم، وعجولا من وسط الصيرة، الهاذرون مع صوت الرباب، المخترعون لأنفسهم آلات الغناء كداود، الشاربون من كؤوس الخمر، والذين يدهنون بأفضل الأدهان»^(٣).

وبالغت النساء في استخدام العديد من أنواع التجميل، ومواد الزينة، كشيء ضروري، لا يمكن لنساء أورشليم أن يستغنين عنه، وقد حفظت التوراة لنا وصفاً لهذا كله في سفر إشعياء، حيث تقول: «وقال الرب: من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين بمدوات الأعناق، وغامزات

(١) عاموس ٣: ١٥، وكذا:

M.J. Lagrange, Etudes Sur les Religions semitiques, Paris, 1905, p. 498.

A. Lods, op.cit., p. 28-29, 397.

وكذا:

(٢) عاموس ٣: ١٥، وكذا:

Cicel Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 27.

(٣) عاموس ٦: ٤-٦.

يعيونهن، وخاطرات في مشيهن، ويخشخن بأرجلهن، يصلع السيد هامة بنات صهيون، ويعرى الرب عورتهم، ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخل والصفائر والأهلة، والحلق، والأساور والبراقع، والبصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشامات والأحراز، والخواتم وخزائم الأنف، والثياب المزخرقة والعطف والأردية والأكياس، والمرائي والقمصان والعمائم والأزر، فيكون عوض الطيب عفونة، وعوض المنطقة حبل، وعوض الجداول قرعة، وعوض الديباج زنار مسح، وعوض الجمال كى رجالك يسقطون بالسيف، وأبطالك في الحرب، فتئن وتنوح أبوابها، وهى فارغة تجلس على الأرض،^(١).

وقد أدى الحفاظ على هذه الحياة الجديدة المفاجئة، إلى أن استغل الأغنياء الفقراء، الذين كانوا يباعون - كما تباع السائمة - وفاء لحقوق دائنين، لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا، واقتراف الغش في التجارة والموازن الباطلة، والسلع التافهة، وأخذ الهدايا والرشوة، وهكذا اضمحلت الفضائل في الحياة العامة والخاصة، وحتى العدل قد اعوج في المحاكم والقضاء، وكانت البنات والأرامل الذين ليس لهم حام ضحية لأطماع المستغلين والمنحرفين، ومن هنا يصرخ «عاموس» النبي (٧٦٠-٧٤٦ ق.م) صرخته الداوية: رؤساء متمردون، وشركاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة، ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم.

هذا وقد بلغت الإباحية، والتحلل الاجتماعي، حداً شنيعاً مخزياً، حتى ليذهب «رجل وأبوه إلى صبية واحدة، فيدنسوا اسم قدسى، ولم يخف التجار خيانتهم وأطماعهم، لكى «يبيدوا بائسى الأرض»، وتجاهل القوم كل الشرائع الإنسانية، فتمددوا على ثياب مرهونة، وشربوا «خمر المغرمين في بيت آلهتهم»^(٢).

(١) إشعياء ٣: ١٦-٢٤.

(٢) عاموس ٦: ٢-٨، ١٠: ٦، ٤-٨: ٦، حبيب سعيد، الأنبياء الأقدمون يتكلمون، القاهرة،

وهكذا اختفت بالتدرج الثروات الصغيرة، وامتلات البلاد بالضياح الواسعة، وفي هذا يصيح «إشعيا» النبي (٧٣٤-٦٨٠ ق.م): «ويل للذين يصلون بيتاً بيتاً، ويقرون حقلاً حقلاً، حتى لم يبق موضع، فصرتم تسكنون وحدكم في وسط الأرض»^(١).

وهكذا تعرض أساس المجتمع الاقتصادي والاجتماعي لثورة صامتة، إبان القرن الثامن، فلم تعد الأرض يملكها ويفلحها «التواييت»، وهم فلاحون أحرار، يتوارثون حقول أجدادهم، ويكفلون بعملهم المتواصل عيشاً شريفاً لأنفسهم وأسرهم، بل تحولت الملكيات الصغيرة إلى ضياح واسعة، وكان معظم من يفلحونها من العبيد، وهي صورة تبدو لنا واضحة بعد ذلك بجيل، من أقوال النبيين «إشعيا الأول» (٧٣٤-٦٨٠ ق.م) و«ميخا» (٧٤٠-٧٠١ ق.م).

هذا فضلاً عن أن هناك إشارات، تعرض لنا بين حين وآخر، وتدل في الوقت نفسه، على الوسائل التي حدث بها هذا التحول، ويلوح لنا أن ما فعلته الأميرة الصورية «إيزابيل» - زوج الملك الإسرائيلي «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م) - مع «تابوت» اليزرعيلي^(٢)، إنما قد حدث بعد ذلك

ص ١٥-١٧؛ القس عاموس عبدالمسيح، دراسات في عاموس، ترجمة عاموس عبد المسيح، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٦٦-٧٣.

(١) إشعيا ٥: ٨.

(٢) تلخص القصة في أن رجلاً عبرانياً يدعى «تابوت» من بلدة يزرعيل، كان يملك كرمًا بجانب قصر الملك «أخاب» فطمع أخاب في كرم تابوت، ولكن الرجل رفض أن يبيع ميراث أجداده (الكرم) لملك إسرائيل، فحزن أخاب لذلك، وعلمت زوجته «إيزابيل» بذلك، فدبرت مكيده للاستيلاء على كرم تابوت، ومن ثم فقد أرسلت لشيوخ يزرعيل وطلبت منهم أن يتهموا تابوت بالتجديف على الله والملك ويرجموه عقاباً له على ذلك، هو وأولاده، ونفذ شيوخ يزرعيل ما أرادت منهم «إيزابيل» وتم رجم تابوت وأولاده، وهكذا استولى «أخاب» على الكرم، لأن العادة عند بني إسرائيل وقت ذلك أن يستولى الملك على ميراث الأموات، الذين لا ورثة لهم، وقد أدى

مراراً وتكراراً، ومن ثم فقد أصبح المالك - وقد أثرت فيه الحروب القاسية التي نشبت على الحدود فأفقرته وأفلسته - أصبح فلاحاً يستأجر الأرض من مالكيها، ثم أصبح آخر الأمر مسترقاً، وارتفع مستوى الترف بين الأغنياء، وهبط مستوى المعيشة بين الفقراء، وأخذت الفجوة بين هاتين الطبقتين تتسع على مر السنين^(١).

وقد أدى ذلك كله، إلى ردود فعل في الكيان الإسرائيلي، ومن ثم فقد أدرك مشرعو إسرائيل - سواء أكانوا ملوكاً، أو كهنة في أكثر الأحيان - أن واجبهم إنما يقتضى التدخل في النزاع الاجتماعي الذي يقسم الشعب الإسرائيلي إلى فرق وأحزاب، وهكذا اتجهت مجموعة القوانين المدنية المجددة في التوراة أو العهد القديم - التي كتبت على ما يبدو، في القرن التاسع قبل الميلاد - إلى تحرير العبراني الذي أصبح عبداً في قضية دين بعد ست سنوات، تقول التوراة: وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم: إذا اشترت عبداً عبرانياً، فست سنين يخدم، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً، إن دخل وحده يخرج، وإن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه، إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات، فالمرأة وأولادها يكونون لسيده، وهو يخرج وحده، ولكن إن قال العبد: أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حراً، يقدمه سيده إلى الله، ويقربه إلى الباب أو إلى القائمة، ويثقب سيده أذنه بالمشقب، فيخدمه إلى الأبد^(٢).

ذلك إلى أن يغضب رب إسرائيل على أحبب وزوجه، وأن يطلب من النبي «إيليا» (حوالي عام ٨٥٠ ق.م) إلى أن يذهب إلى «أحاب» وأن يقول له: «في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً». (انظر: ملوك أول ٣١: ١-٢٢؛ ٣٤-٣٨؛ ملوك ثان ٩: ٣٠؛ قاموس الكتاب المقدس ١٩٤٢/٢-١٩٤٣، بيروت ١٩٦٧).

(١) ملوك أول ٢١: ١-١١؛ تيودور روبنسون، تاريخ العالم، لإسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، القاهرة، ص ١٢١.

(٢) خروج ٢١: ١-٦.

ويحث المشرع العبراني صاحب الدين ألا يكون قاسياً، وألا يحتفظ بالرهن الذي أخذه كضمان لمدة ليلة واحدة، إن كان هذا الرهن غطاءً أخيه العبراني، تقول التوراة: «إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي، لا تضموا عليه ربا، إن ارتهنت ثوب صاحبك، فإلى غروب الشمس ترده له، لأنه وحده غطاؤه، هو ثوبه لجلده، في ماذا ينام، فيكون إذا صرخ إلى أُنَى أسمع، لأنى رؤوف»^(١)، ثم يقرر بعد ذلك اعطاء الأرض التي لا تستغل مدة أقصاها سبع سنوات للفقراء الصالحين.

ويدهى أن صدور مثل هذه التشريعات إنما يشير إلى الحال الذي بلغه المجتمع في ذلك العصر، فهنا ترى الفوارق بين طبقات المجتمع، فضلا عن المصير المحتوم للكثرة المطلقة من أبناء المجتمع، على الرغم من الإصلاحات العقائدية والاجتماعية، حتى صدور تشريع يقرر سقوط الدين بعد سبع سنوات^(٢).

غير أن هذا التطرف في التشريع، ومحاولة كسب مغنم لطبقة من الشعب، على حساب طبقة أخرى، لم يأت بالفائدة المرجوة للإصلاح الاجتماعي^(٣)، ذلك لأن هذه الخطوات - فيما يرى بعض الباحثين - لم تكن إلا «مسكنات» لفكرة أعمق جذورا، وأكثر ضرورة، لإعادة أسلوب الحياة البدوية، ذلك لأن إسرائيل إنما كانت قد ضلت الطريق منذ أن استوطنت فلسطين، وكان أملها الوحيد هو الرفض التام لهذه الحضارة، التي اقتبست من الأجانب، وهكذا كان اعتقاد «يهوناداب بين ركاب» القينى، الذى فرض على قومه في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد، واجبا دينيا، وذلك بمراعاة العادات البدوية التى كانوا يسيرون عليها من قبل، كمعادة مرعية، ومن ثم فقد أصدر «يهو ناداب» على أيام الملك الإسرائيلى «ياهو»

(٢) تنية ١٥: ٢، ٢٢: ٢٠.

(١) خروج ٢٢: ٢٥-٢٧.

(٣) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٨٤٢-٨١٥ ق.م) دستوراً يحتم عليهم الإقامة في الصحراء، وفي خيام، وأن تعتمد حياتهم على تربية الماشية، فلا يبنون بيوتاً، ولا يزرعون زروعاً، ولا يشربون خمرًا^(١) - كما أشرنا من قبل.

ولكن معظم الإسرائيليين لم يأخذوا بوجهة نظر «الركابيين» في أسلوب الحياة، ذلك لأن القوم إنما كانوا قد تشبعوا بعبادات وسبل الحياة المنتظمة، ولم يعودوا بقادرين على التخلي عنها، ورغم ذلك فقد شعر الكثيرون من بسطاء العامة، بضرورة التمسك بحياة الآباء الصادقة، وهكذا عادت القوم ذكريات الأعوام السالفة، أيام الحياة الصحراوية غير المعقدة، وأخذوا يلعنون الحضارة المزيفة، والشراء الفاحش، على حساب العدالة والمساواة، لأن متاعب إسرائيل - فيما يعتقدون - إنما تعزى في الدرجة الأولى، إلى انتهاجها نهج الثقافة والحضارة الأجنبية - والكنعانية بوجه خاص - وأن هذه الحضارة الأخيرة قد جلبت على إسرائيل من المضار، أكثر مما قدمت من خير^(٢).

ومع ذلك فقد بقيت هذه الأوضاع التي تردى فيها المجتمع الإسرائيلي، وانتهت إلى سببه المشهور إلى بابل في عام ٥٧٨ ق.م، وهناك استغل النبي «حزقيال» (٥٩٣-٥٧٢ ق.م) التغيير الجذري الذي أحدثه السبي البابلي (٥٨٧-٥٣٩ ق.م) في نفوس قومه من بني إسرائيل، وأخذ ينظم المجتمع الإسرائيلي تنظيمًا جديدًا، قائمًا على توزيع الأراضي بين البطون والعائلات، دون إعطائها الحق في امتلاكها، ومن ثم فقد أصبحت الأراضي ملكًا للدولة وإن استثنى ابن الأمير، إذ أبيع له أن يرث ما كان في حوزة أبيه.

(١) ملوك ثان ١٠: ١٥-١٦؛ لرميا ٣٥: ١-١٩؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢٠؛ وكذا:

Adolphe Lods, Israel, From its Beginning to the Middle of the Eighth Century, London, 1962, p. 899.

A. Lods, op.cit., p. 400.

(٢) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢٠؛ وكذا:

واعتمد «حزقيال» في إصلاحه هذا، على أن الأرض وما عليها ملك لله، وأن الإسرائيليين ليسوا مواطنين متمتعين بكافة الحقوق القومية، بل هم مستأجرون فقط، وكانت النتيجة المرجوة لهذا التشريع وقف عمليات البيع والشراء، ورد الأرض التي بيعت بسبب أزمة، إلى صاحبها ثانية في سنة التحرير التي تجيء كل نصف سنة، إلا أن هذا القانون لم ينفذ^(١).

وفي عام ٥٣٩ ق.م أصدر العاهل الفارسي «كيروش الثاني» (٥٥٨-٥٣٠ ق.م)، أمره بالسماح للمنتفيين من اليهود في بابل بالعودة إلى أورشليم إن رغبوا في ذلك، ربما لأن الجالية اليهودية في بابل قد ساعدته على احتلال المدينة، وربما لأن العاهل قد رأى في وجود جالية يهودية في فلسطين تدين بوجودها إلى إحسانه سيشكل توازناً فعالاً، تجاه الحزب الموالي للمصريين، الذي طالما برز في شئون فلسطين^(٢).

وأياً كان السبب الذي دفع «كيروش» إلى السماح لليهود بالعودة، فإن «نحميا» (٤٤٥-٤٣٣ ق.م) قد وصل إلى أورشليم في نيسان (أبريل) من عام ٤٤٥ ق.م، مفوضاً من الحكومة الفارسية، ثم اتجه - بعد إعادة أسوار أورشليم، وتجديد الحصون^(٣) - إلى إعادة بناء المجتمع اليهودي الجديد بحماس شديد، وكانت هذه الفترة من أكثر فترات الضغط الاقتصادي والمعاناة، ومن ثم فقد اضطر كثير من أفراد الطبقة الكادحة - رغبة في الوفاء بالتزاماتهم إلى رهن أملاكهم إلى من يملكون المال، وتعرض المعسرون منهم لمصادرة أملاكهم وفاء لديونهم، بينما لجأ المعدمون إلى بيع أبنائهم كعبيد، للحصول على ثمن يبيعهم لسداد ما عليهم من التزامات^(٤)، غير أن هذا

(١) حزقيال ٤٥-٤٦؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٢) عزرا ١: ١-١١؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٤٢؛ وكذا:

S.A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 409; C. Roth, op.cit., p. 53.

(٣) انظر: محمد يوسى مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني «التاريخ»، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص

١٠٥٠-١٠٥٩.

C. Roth, op.cit., p. 60.

(٤)

كله، إن كان فيه شبهة من شرعية دينية عند يهود^(١)، فإن هناك أمراً آخر لجأ إليه القوم في هذه الفترة، تحرمه شريعة يهود، وهو «الربا» الذي انتشر بين الطبقات اليهودية المختلفة^(٢).

وقد دفع ذلك كله «نحميا» إلى أن يعقد اجتماعاً عاماً من الأغنياء، ويخهم فيه على جشعهم هذا، مما أد إلى أن يقبل معظمهم إعادة الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها، والأموال التي كانوا قد تقاضونها من المعسرين، في مقابل تأخير سداد الديون، وكعامل من عوامل تحسين ظروف المعيشة في البلاد، فقد تنازل «نحميا» عن حقوقه في الجزية التي فرضها الحكام السابقون^(٣).

ومع ذلك، فإن إصلاحات «نحميا» الاجتماعية هذه لم تأت بشمارها المرجوة، بسبب موقف الكهنة الذين جمعوا في أيديهم جميع السلطات السياسية، كما أنهم كانوا الاقطاعيين الحقيقيين، وقد اشتركوا مع آخرين - لم يكونوا أقل منهم ثراء - في توجيه الشعب، وتكليف المجتمع الإسرائيلي^(٤).

كانت أورشليم بعد العودة من السبي البابلي جمهورية ثيوقراطية، يحكمها الكهنة الشيوخ^(٥)، ثم انحرفت السلطة تدريجياً بأصحابها، فأمسى الكهنوت وسيلة للإثراء، وغدا الكاهن (كوهين) أسرع الناس إلى جمع المال، وتحول إلى أرسقراطي محافظ يعيش وسط الحرير والنعيم، ويتشبث بالأوضاع القائمة ليحافظ على امتيازاته الخاصة، وينفى العقائد الجديدة

(١) خروج ٢١: ٧-١١؛ تثنية ١٥: ١٢-١٨.

(٢) خروج ٢٢: ٢٤؛ تثنية ٢٣: ٩-١٠؛ ٢٤: ١٠-١٢.

(٣) C.Roth, op.cit., p. 60.

(٤) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢١

(٥) Ernest Renan, Histoire du Peuple d'Israel, 5, Paris, 1887, p. 40.

الآخذة في الانتشار عن البعث بعد الوفاة، وعن الثواب والعقاب^(١)، فهو

(١) كانت الديانة الإسرائيلية تجهل الآخرة والحياة بعد الموت - شأنها في ذلك شأن ديانة إخناتون - إذ لم يرد في أي موضع في التوراة، لإمكان حياة بعد الموت، وهو أمر يزيد غرابة، إذا ما علمنا أن الإيمان بالآخرة يمكن أن يتفق تمامًا مع عقيدة التوحيد، ذلك أن الإسرائيليين إنما كانوا يعتقدون أن الفرد يخدم الرب، ويتلقى بركاته في الدنيا، أو يساطة، فإنهم ما كانوا يعتقدون أن له «روح» يمكن أن يخلصها من هذا العالم، وأنها سوف تتلقى البركات في العالم الآخر، وإنما هو - فيما يعتقدون - إنما يعيش حياته هذه، وعندما يأتي إلى قبره بعد الموت، وبعد عمر طويل مديد خصيب، فإنما هي «النهاية»، ومن هنا اقتصر دين إسرائيل على الاهتمام بهذه الحياة الدنيا، وإن اعتقدوا أن الروح عندما تخرج من الجسد، تخوم حول الميت، وتتأثر بما يحدث لجثته، وهذا ما يفسر التثكيل بالقتلى وحرق جثثهم لتعذيب أرواحهم.

وهكذا اعتقد الإسرائيليون أنه من غير الممكن للإنسان أن يتلقى البركات وحكم الرب، إلا في هذه الأرض فقط، ويجسده فقط، وأن العودة إلى الأرض إنما هي البعث، ذلك لأن الروح تنزل عند الموت إلى عالم سفلى تحت الأرض، يسمى «شيول» Sheol، وكانت شيول هذه - أو العالم السفلى - تعنى نقيض ما تعنى به الضوء والحياة، وهي منطقة تكاد تقترب من العدم والنسيان، تنظر إلى البشر كوحوش، وتغلق عليهم أبوابها، دونما أي احتمال للهروب، إن سكانها من الأموات مجرد ظلال، يتميزون بالضعف الشديد، وهم منقطعون عن تبعية الرب، «لأنه ليس في الموت ذكرك، ليس في الهاوية من يحمذك»، وأن هناك وجه آخر للنظر، يذهب إلى أن الإسرائيليين إنما نظروا إلى الموتى «الرفاعيم» على أنهم إنما كانوا يملكون قدرات ومعارف فوق طاقة البشر، تمامًا مثل «الإلهيم» وأنهم يتحكمون في خصوبة الأرض، ومن ثم في أعشاب المرعى، وقطعان الماعز.

وظل الأمر كذلك، بل إن أنبياء اليهود إنما قد اشتركوا - مع كتبة التوراة الآخرين - في عدم الإيمان بأي نوع من الحياة بعد الموت، إلا أن هناك نصين في العهد القديم، يعبران بوضوح عن الإيمان بحياة أخرى، وأن كلا من النصين إنما يرجع إلى فترة متأخرة جدًا - ربما إلى القرن الثالث والثاني قبل الميلاد - وليس لواحد منهما تأثير على العقيدة في العهد القديم، وأما أول هذين النصين ففي جزء ملحق بسفر إشعيا، وقد جاء فيه: «تحيا أمواتك تقوم الجثث، استيقظوا، تزنموا يا سكان التراب، لأن طللك ملل عشيب، والأرض تسقط الأخيلة»، وأما الثاني، ففي سفر دانيال، وقد جاء فيه «وكثير من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، هؤلاء إلى العار، إلى الأذراء الأبدية».

وأما أسباب هذا التطور، فيرجع - فيما يرى بعض الباحثين - إلى عدة عوامل، منها (أولاً) الإحساس بعدالة الله، وذلك لأن الاختيار البشري أقحم على العقول نتيجة منطوقية، مؤداها أنه لا بد أن يكون لله مجال أوسع من هذا العالم يزكى فيه عدله، «وبعد أن يفنى جلدى هذا،

يستمتع بخيرات الدنيا، ولا يؤمن بالحياة الآخرة، ظاهره التدين والاستقامة، وجوهره الشك والانحراف^(١).

وكان هؤلاء الكهنة الارستقراطيون يخالطون عليّة القوم من غير اليهود، مما أثار سخط عامة اليهود، الذين كانوا يعتقدون أن اليهودى الحق، هو الذى يعتزل غير الأطهار من الأجناس الأخرى، وبالتالي فقد تكونت فى الظلام جماعات من «البروجوازية» الصغيرة، قليلة المال، كثيرة التدين، وهكذا أصبح المجتمع الإسرائيلى آخر الأمر، يتكون من أغنياء زنادقة ظالمين، وفقراء متدينين، ويصور الإنجيل هذا الوضع، بقوله: «طوباكم أيها المساكين، لأن لكم ملكوت الله، طوباكم أيها الجياع الآن، لأنكم تشبعون، طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون»، و«ويل لكم أيها الأغنياء، لأنكم قد نلتم

=

ويذوى جسدى أرى الله»، وقد رسخت هذه العقيدة فى عصر المكابيين (١٦٦-٦٣ ق.م.)، ومنها (ثانياً) الرقى المضطرد فى الدين الشخصى وعلاقة الإنسان بالله، كما نرى ذلك فى سفر المزامير «الله ليس إله أموات، بل إله أحياء، لأن الكل يحيون الله»، وليس مستمعاً ولا مقبولاً أن أنفس البشر التى تستمتع بمثل هذه الصلة مع الله تنحدر إلى «اللاشيعية» عند الموت، «أما أنا فالبر، أنظر وجهك، أشبع إذا استيقظت بشبهك»، ومنها (ثالثاً) توقع مجيء ملكوت الرب، بعد كل أسباب الفشل والخيبة التى عانتها الأمة، فلا يعقل أن الذين جاهدوا وكافحوا وحاربوا وماتوا فى سبيل قضية الأمة وتحقيق آمالها، لا يكون لهم نصيب فى ذلك اليوم المجيد (أيوب ١٩: ٢٦، ٢٦: ٥، إشعياء ١٤: ٩-١١، ٢٦: ١٤، ١٩، ١٤، ١٩، جامعة ٩: ١٠، مزموور ١٧: ١٥، ٨٨: ١٠، أمثال ٢: ١٨، حبيب سعيد، أديان العالم، ص ١٨٢-١٨٣، محمد ييومي مهرا، النبوة والأنبياء، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ١٠٢-١٠٥، وكذا:

Sigmund Freud, Moses and Monotheism, N.Y., 1939, p. 18-29.

وكذا:

E.W. Heaton, The Old Testament Prophets, (Penguin Books), 1969, p. 134-137.

Ernest Renan, Histoire du Peuple d' Israel, I, p. 128F. وكذا:

L.G. Levy, La Famille dans L'Antiquite Israelite, Paris, 1905, p. 33F وكذا:

(١) ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ١٩٧-١٩٨.

عزاءكم، ويل لكم أيها الشباعي لأنكم ستجوعون، ويل لكم أيها الضاحكون
الآن، لأنكم ستحزنون وتبكون» (١).

ومن البدهي أن ينجذب عامة اليهود إلى البروجوازية الصغيرة، وتأزم
الموقف بين الفقراء (ويمثلهم الفريسيون) والأغنياء (ويمثلهم الصدوقيون)،
أى بين الكهنة الأثرياء والبروجوازية الفقيرة، وكالعادة تمكنت هذه الأخيرة
من إثارة الشعب على الأغنياء، ولما هدم «تيتوس» معبد أورشليم فى عام
٧٠م، انتهى حكم الكهنة الأثرياء (الصدوقيين)، وانتقلت الزعامة إلى
البروجوازية الصغيرة (الفريسيين)، وهى التى سيطرت على اليهود حينما
خرجوا إلى الهجرة منذ العصر الهليني، بينما تحول الصدوقيون إلى طائفة من
الخوارج (٢).

(١) لوقا ٦: ٢٠-٢١، ٢٤-٢٥.

(٢) ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ١٩٨.

الفصل الثاني الأسرة

(١) النظام الأبوي

كانت الأسرة النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية العبرية، وذلك إلى حد أبعد مما كانت عليه الحال في المجتمع البدوي القديم، وكانت سلطة الأب هي السلطة العليا في المجتمع العبري، وإن لم تعدم آثاراً من سلطة الأم Mat-riachy إذ نجد بعضاً من النساء، مثل «ليئة» التي كانت أمّاً لقبائل «راؤبين» وشمعون ولاوى (ليفى) ويهوذا وزبولول ويساكر، وكذا «راحيل» أم يوسف وبنيامين، ومنهما انحدرت بطون كثيرة، والأمر كذلك بالنسبة إلى «زلفة» و«بلهة» وغيرهن.

هذا ويعلل بعض الباحثين إباحة زواج الأخت، وامرأة الأب، وامرأة الابن^(١)، بعدم الاعتراف بصحة النسب إلى الأب، مع الجزم بصحة نسبه إلى الأم، وقد ظل الاعتراف بإثبات صحة النسب عن طريق الأم قوياً ترده الأسفار المقدسة^(٢)، كحق الأم في التبنى، ومنح الاسم، وكذا الميراث حسب نسبها^(٣)، فكل هذه الظواهر وغيرها دليل على أن الأسرة الإسرائيلية مرت بطور سيادة الأم وهيمنتها عليها، ومن هنا نفهم نص سفر التكوين الذى يقول: «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً»^(٤). وإن كان الأبناء حين يتزوجون، إنما يبقون - فى غالب الأحيان - مع الأسرة، الأمر الذى أدى بطبيعة الحال، إلى أن يتسع بيت الأب^(٥).

(٢) تكوين ٤٢: ٢٨، ٤٣: ٢٩، ٤٤: ٢٠.

(١) حزقيال ٢٢: ١٠-١١.

(٤) تكوين ٢: ٢٤.

(٣) تكوين ٢١: ١٠، ٣١: ٣٠.

(٥) محمد جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، ص ١٠، وكذا:

وعلى أى حال، فإن سلطة الأب إنما ترجع إلى أن الرجل فى مجتمعات الرعى والزراعة، هو الذى يهيمن على الثروة الاقتصادية، حيث يسود النظام الأبوى، وتظهر الأسرة «البطيركية» Patriarcat، فينحدر النسب عن طريق الأب، ويتمتع هذا الأخير بسلطة كبيرة داخل الأسرة، فهو رأس الأسرة Paterfamilias، وزعيمها الدينى المشرف على طقوسها، ورسخت مع الأسرة البطيركية «عبادة الأسلاف»، تدعيماً لمركز الأب، فارتفع الرجل بعد وفاته إلى مصاف الآلهة، بينما هبط مركز المرأة إلى مستوى الماشية، يملك عليها الرجل حق الحياة والموت، فهى وأولاده فى مصاف رقيقه وأمواله، ولا أدل على ذلك من أن كلمة Familia عند قدامى الرومان، وكانت تعنى الحقل والبيت والنقود والعبيد، أى التركة التى تنتقل إلى الورثة - كانت المرأة جزءاً من «الفميلييا» أى من ثروة الرجل^(١).

هذا ولم تخرج أنظمة بنى إسرائيل عن الأنظمة السائدة لدى قبائل الرعى وفى مقدمتها «النظام الأبوى»، فالولد ينسب إلى الأب ويلتحق بعشيرة الأب، و«البيت» العبرى ليس الأسرة الزوجية الحديثة التى تقتصر على الرجل وزوجته وأولادهما المباشرين، بل هى الأسرة البطيركية المعروفة عند قدامى الرومان إذ يتكون «بيت بنى إسرائيل»، من الرجل، وعدد من الزوجات والسرارى (الإماء) والأولاد من الزوجات وزوجات الأولاد والأحفاد، بالإضافة إلى العبيد و«الجيريم» (الجيران)^(٢).

ويرأس الأسرة العبرية الأب، ويسمى «روش» (أى رأساً)^(٣)، ويتمتع

(١) ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ١١٥؛ على يدوى، أبحاث فى تاريخ الشرائع، مجلة القانون والاقتصاد، القاهرة ١٩٣١م، ص ٧٣١، ٧٤٦.

(٢) ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ١٥٣؛ وكذا: L.G. Levy, op.cit., p. 79, 131F. وكذا: A. Lods, op.cit., p. 217F.

(٣) أخبار أيام أول ٧: ٧.

بسلطات قضائية مطلقة^(١)، ويختار وريثه في حرية تامة^(٢)، ويستطيع التصرف في أبنائه كما يشاء، فله أن يبيع ابنته أمة لمن يرغب في شرائها^(٣)، بل كان يملك عليهم حق الحياة والموت، يقتلهم إذا شاء^(٤)، أو يقدمهم قرباناً للرب^(٥)، ويمتد هذا الحق إلى كل من يعيش في كنف الأب، فله أن يحرق زوجة ابنه المتوفى إذا زنت^(٦).

وكان الرجل «بعل» المرأة، أي سيدها، وهي تخاطبه بعبارة «سيدى»، والفرحة بمولد الابن، أعظم منها عند مولد البنت^(٧) - شأنهم في ذلك شأن بقية الساميين، والعرب^(٨) بصفة خاصة - لأن سلالة الذكور هي التي تحفظ

(١) تكوين ٢٨ : ٢٤.

(٢) تكوين ٢٧ : ١-٤٥؛ وانظر: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الأول - التاريخ، ص ١٨٩-١٩٥؛ وانظر: تكوين ٤٨ : ١٤ وما بعدها.

(٣) تكوين ٢١ : ٧-١١. (٤) تكوين ٤٢ : ٣٧. (٥) تكوين ٢٢ : ١٠.

(٦) تكوين ٣٨ : ٢٤؛ ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٤؛ وكذا:

A. Lods, Le Culte des Ancetres dans L'Antiquite Hebraique, p. 6.

(٧) تكوين ٣٥ : ١٧؛ خروج ٢١؛ وكذا:

Abdul-Aziz Bourham, De La Condition de la Femme dans L'Antiquite Hebraique, Alexandri, 1959, p. 19.

(٨) كان العرب يفضلون الذكور على الإناث، ومن ثم فإذا ولدت المرأة ولداً، هناها أفراد القبيلة وذبحوا الذبائح، لذلك كان يقال «بالرفاء والبنين»، لا «البنات»، وكان الأب - في الغالب - يسمى باسم ابنه، ومن هنا كانت «التكنية» بـ «أبى» وعلى العكس من ذلك، كان العرب - وبخاصة البدو - ينفرون من نسل الإناث خوف العار، أو السبى، أو خشية الإملاق، وكانوا إذا هتوا بينت قالوا: «آمنكم الله عارها، وكفاكم مؤنتها، وصاهرتم القبرة» (نهاية الأرب للنويري، ١٢٦/٣، ١٩٦؛ الميداني، مجمع الأمثال ٦٦/١؛ محاضرة الأدياء ٢٠٤/١؛ أحمد محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٣٠).

ويصور القرآن الكريم كراهية العرب للبنات في قوله تعالى: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (سورة النحل، آية : ٥٨-٥٩؛ وانظر: تفسير روح المعاني ١٤/١٦٠-١٦٨؛ تفسير الكشاف ٢/٤١٤؛ تفسير ابن كثير ٤/٢٠٠-٢٠٢؛ تفسير القرطبي ١٠/١١٦-١١٨؛ في ظلال القرآن ١٤/٢١٧٤، ٢١٧٨-٢١٧٩؛ تفسير الطبري ١٤/٨٣-٨٤).

«إسرائيل» وتخلد ذكراها، بل إن شريعة الطهارة من النفاس عند يهود، إنما تختلف بالنسبة إلى المولود الذكر، عنها بالنسبة إلى الأنثى، فالمرأة الإسرائيلية تكون نجسة لمدة سبعة أيام، إذا ولدت ذكراً، ولا بد أن تقدم تضحية الطهارة لمدة ٣٣ يوماً، وأما إذا كان المولود أنثى، فإن نجاستها تستمر ١٤ يوماً، وتضحية طهارتها ٦٦ يوماً، تقول التوراة: «وكلم الرب موسى قائلاً: كلم بنى إسرائيل قائلاً: إذا حبلت المرأة وولدت ذكراً، تكون نجسة سبعة أيام، كما في أيام طمث علتها تكون نجسة، وفي اليوم الثامن يختن لحم غرلته، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطهيرها، كل شيء مقدس لا تمس، وإلى المقدس لا تجيء، حتى تكمل أيام تطهيرها، وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما في طمثها، ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها، ومتى كملت أيام تطهيرها لأجل ابن أو ابنة تأتي بخروف حولي محرقة، وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية، إلى باب خيمة الاجتماع، إلى الكاهن، فيقدمها أمام الرب ويكفر عنها، فتطهر من ينبوع دمها، هذه شريعة التي تلد ذكراً أو أنثى» (١).

ومع ذلك فهناك رواسب من نظام أموى سابق، فكلمة «البطن» ولفظ «الأمة» (من أم) يستخدمان للدلالة على فروع العشيرة، وقد ظلت الأم مدة طويلة تحتفظ بالحق في تسمية أولادها، كما كانت الزوجة تبقى أحياناً مع أهلها، ويتردد الزوج عليها من وقت لآخر (٢)، والخيمة كانت ملك المرأة لا

وهكذا يصور القرآن الكريم حال الرجل في الجاهلية، إذا بشروه بولادة بنت له، فيحزن ويسود وجهه من الحزن، ويختلى بنفسه، ويفكر في الاحتفاظ بهذه البنت مع احتمال المذلة والهوان في ذلك، أو دفنها حية. (محمد بيومي مهران، مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول، الرياض ١٩٧٧، ص ٢٣٢-٢٣٥).

(١) لا يون ١٢: ١-٧.

(٢) قضاة ٨: ٣١، ١٥: ١، خروج ٤: ١٨-٢٠، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 218F.

A.A. Bourham, op.cit., p. 25-34.

ثم قارن:

الرجل، باعتبار أن الزوج ينتقل إلى زوجته^(١)، وموانع الزواج تأتي من ناحية الأم لا الأب^(٢)، وإن كان هناك من يذهب إلى أن أحداً لم يستطع أن يجد آثاراً لسيطرة الأم في التاريخ الإسرائيلي القديم^(٣).

على أن الزوج، رغم استمراره «بعلاء» للمرأة^(٤) (أى سيدها)، ورغم استمراره في التمتع بقدر كبير من السلطة داخل بيته، حتى أنه يستطيع أن يلغى عقود زوجته وابنته^(٥)، إلا أن جانباً كبيراً من سلطة الرجل، سرعان ما تنتقل بالتدرج إلى شيوخ المدينة، نتيجة التنظيم السياسي بعد سيطرة الإقطاع، فلم يعد الأب يملك حق الحياة والموت على أولاده، وأصبح ملزماً بأن يعرض الأمر على شيوخ المدينة يشكو لهم ابنه العاق، فيصدرون هم القرار بالرجم حتى الموت.

ورأى الإقطاع ضرورة المحافظة على الملكيات الكبيرة، فتحدد للابن الأكبر نصيب اثنين، وامتنع على الأب تجريد من الميراث، فإن لم يوجد ولد، ورثت البنت، وإن لم توجد خلفه ورثت الزوجة، مع تقرير حق استرداد الأرض بالشراء لأقارب المتوفى من الذكور، كما أدت ثورة الأنبياء إلى منع الأب من عرض ابنته للزنا^(٦).

وقد حلت - نتيجة لتلاشي الملكية الجماعية - الأسرة محل العشيرة، وزال التضامن بين الأعضاء، ولم تعد تزر وازرة وزر أخرى، فبعد أن كان

(١) تكوين ٢٤: ٦٧، ٣١: ٢٣، قضاة ٤: ١٧.

(٢) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٥٤-١٥٥، وانظر: تكوين ١٢/٢٠ (إبراهيم وسارة).

(٣) Abdul-Aziz Bourham, De la Condition de le Femme dans L'Antiquite Hebraique, Alexandrie, 1959, p. 19.

(٤) تثنية ٢٢: ٢٢.

(٥) عدد ٣٠: ٤-٤.

(٦) تثنية ٢١: ١٥-٢١، راعوث ٤: ٣-٥، لاويون ١٩: ٢٩، ثروت الأسيوطي، المرجع السابق،

«يهوه» - رب إسرائيل، «يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع»^(١)، «وبعد أن كان «الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون»^(٢)، أمسى لا يقتل الآباء عن الأبناء، ولا الأبناء عن الآباء، وإنما يجازى «يهوه» كل امرئ وفقاً لما آتاه»^(٣)، «وأن كل الأرواح من يهوه، وكل من يموت فمن أجل خطيئته»^(٤)، «وأن أحداً ليس بقادر على إنفاذ الآخرين، وأن ما يعمله الفرد لا يقع وزره على جماعة هذا الفرد أو نسله، وأن كل إنسان مسئول عن عمله»^(٥).

(٢) حزقيال ١٨: ١٠.

(١) خروج ٢٠: ١٥.

(٣) تثنية ٢٤: ١٦.

(٤) حزقيال ١٨: ١-٤، ٢٩: ٣٥، ١٧: ١٠، ٣١، ٢٩: ٣٠.

S.A. Cook, CAH, III, Cambridge, 1965, p. 467468.

(٥) حزقيال ٨: ١٤ وكذا:

ثانياً - الزواج

كان الزواج عند الإسرائيليين تحقيقاً لرغبة إلهية - فضلاً عن إشباع حاجة الرجل والمرأة الطبيعية - فالله، أو يهوه - فيما يرون - عندما خلق الإنسان ذكراً وأنثى، قال لهم: «أثمروا وأكثرُوا واملأوا الأرض»^(١)، هذا إلى جانب أن الرجل منهم إنما كان لا يرى سعادته في كثرة بهائم أو في ازدهار محصوله، وإنما كان يجد السعادة في زوجته وأولاده، «هو ذا البنون ميراث من عند الرب، ثمرة البطن أجرة، كسهام بيد جبار، هكذا أبناء الشبيبة، طوبى للذي ملأ جعبته منهم لا يخزون، بل يكلمون الأعداء في الباب»^(٢).

هذا فضلاً عن أن الرجل إنما كان يجد في زوجته عوناً له في الحقل، وفي البيت، ومن ثم فالزواج - عند القوم - لا يقوم في الغالب على الحب، لأنهم كانوا يخطبون لأطفالهم، كما كان الواحد منهم، هو الذي يختار زوجة ولده^(٣).

وانطلاقاً من هذا، فإن الإسرائيليين، إنما يعتبرون أن بقاء اليهودي أو اليهودية في العزوبة أمراً منافياً للدين، ذلك لأن شريعة يهود تفرض الزواج على كل يهودي، وأن الذين يبقون عزاباً يتسببون في أن يتخلى الله عن شعبه إسرائيل ومن ثم فالزواج فرض على كل إسرائيلي^(٤)، وهكذا تفرض

(٢) مزموذ ١٢٧: ٣-٥.

(١) تكوين ١: ٢٨.

A. Bourham, op.cit., p. 66-68.

(٣)

C.N. Starcke, La Famille Primitve, Paris, 1891, p. 262.

وكذا:

(٤) م . حاي بن شمعون، كتاب الأحوال الشرعية في الأحكام الشخصية للإسرائيليين، مطبعة كوهين وروزنتال بمصر، ١٩١١، ص ٧، مادة ١١٦، وكذا:

Jeu de Pauly, Code Civil et penel du Judaism, Paris, 1896, No. 393.

التوراة على كل يهودى أن ينشئ بيتاً^(١)، وترى فى الامتناع عمداً عن الإنجاب خطيئة كبرى عقابها إلهى، يصل إلى حد الموت^(٢).

ويشايح التلمود الاتجاه نفسه، حينما يقول: «إن بيت كل رجل هو امرأته، غير أن مجتمع التجارة لم يعد فى حاجة إلى كثرة الأولاد، مثل مجتمع الرعى أو الزراعة، فالتجارة دخلها من ربح الصفقات التجارية، لا من الأيدى العاملة لذلك لم يلق التلمود على عاتق كل يهودى واجب الإنسال بما لا يقل عن ولدين، على أن يكونا صبيين - قياساً على ما فعل موسى إذ أنجب ولدين هما «جرشوم واليعازر» - أو صبيًا وصبية - وفقاً لمدرسة هلال، قياساً على أن الله خلق الناس، ذكراً وأنثى^(٣).

(١) الزواج من الداخل

اتبع الإسرائيليون قاعدة الزواج من الداخل باطراد، بالنسبة إلى الرجل والمرأة على السواء، اتباعاً لأوامر ربهم «يهوه» الذى حرم على شعبه إسرائيل أن يتزوجوا من غير بنات يهود، أى «من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل، لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم»^(٤)، ومن ثم، فلا تصاهرهم، بتك لا تعط لابنه، وابنته لا تأخذ ابنك^(٥)، ومن ثم، فالرجل منهم إنما يختار زوجته من داخل عشيرته، هكذا فعل الخليل - عليه السلام - حينما بحث عن قرينة لولده إسحاق، إذ أمر خادمه «اليعازر الدمشقى» ألا يسعى إلى بنات كنعان، وإنما يذهب إلى عشيرة إبراهيم، وإلى أرض آبائه فى «فدان آرام» ليأتى لإسحاق بزوجة من هناك^(٦)، وقد قام جدل طويل بين العلماء حول هذا الزواج الداخلى^(٧) -

(١) تثنية ١٤: ٢٦، وانظر: حزقيال ٤٤: ٣٠. (٢) تكوين ٣٨: ٩-١٠.

(٣) ٢٧: ١، خروج ١٨: ٣-٤، ثروت الأسىوطى، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤) ملوك أول ١١: ٣. (٥) تثنية ٧: ٣. (٦) تكوين ٢٤: ١-٦٦.

(٧) كان العربى - كاليهودى - يفضل أن تكون زوجته من نفس قبيلته، فقوة التقاليد والرغبة فى نقاء الجنس - وهما أمران لهما أهمية كبيرة فى الحياة القبلية - تجعلان من اتخاذ الزوجات

الأمر الذي سبق أن ناقشناه في هذه الدراسة^(١).

هذا وقد أوصى إسحاق بدوره ولده يعقوب، ألا يتزوج من بنات كنعان، بل يرحل إلى بنات خاله «لابان»^(٢) ونقرأ في التوراة أن «عيسو» عندما ارتبط بامرأتين من الحيثيين، فاضت نفس أبيه بالمرارة، ومن ثم فقد ذهب إلى ديار عمه «إسماعيل بن إبراهيم الخليل»، عليهما السلام، وتزوج من ابنته «محلّة»^(٣).

غير أن قارئ التوراة، إنما يجد فيها أدلة تكاد لا تخصي على مخالفة يهود لمبدأ «الزواج من الداخل» بل إن القوم إنما قد استمروا بخالفون شريعة التوراة هذه، ويتزوجون من جيرانهم، على مدى تاريخهم القديم كله، وسواء أكانوا يقيمون في مصر أو في فلسطين أو في بابل، أو حتى بعد ذلك حين تشتتوا في كل أرجاء الأرض، بعد نهاية دولتهم في فلسطين.

وهكذا نقرأ في التوراة أن «يهوذا» - الابن الرابع ليعقوب - إنما قد تزوج من امرأة كنعانية، دونما أي تثريب^(٤)، وأن «شمعون» - الابن الثاني ليعقوب - قد تزوج من كنعانية كذلك، ورزق منها بولده «شاول»^(٥) وأن «يوسف الصديق» قد تزوج من «أسنات» بنت «فوطى فارغ كاهن أون» المصرية، وأنجب يوسف الإسرائيلي من «أسنات» المصرية، ولديه «منسى وأفرايم»^(٦)، وأن موسى - صاحب التوراة نفسه - إنما قد تزوج من امرأة عربية من «مدين»، هي «صفورة»، وقد رزق منها بولديه «جرشوم واليعازر»^(٧).

الأجنبيات أمراً بغيضاً، هذا فضلاً عن اعتقاد البعض منهم أن ابنة العم أصبر على ريب الزمان، ومنهم بنو عيس. (الميداني، مجمع الأمثال، ٢٧٠/٢؛ الجاحظ، البيان والتبيين، ٦٨/٣؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/١٩٧).

(١) محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الأول: «التاريخ»، ص ١٨٥-١٨٩، ط ١٩٧٨م.

(٢) تكوين ٢٨: ١-٨.

(٣) تكوين ٢٨: ٩-١٠.

(٤) تكوين ٢٨: ٢.

(٥) تكوين ٢٦: ٤٦-١٠.

(٦) تكوين ٤١: ٤٥-٥٢.

(٧) خروج ٢: ٢١-٢٢، ١٨: ٢-٤.

وفي عصر القضاة نرى «جدعون» يتزوج امرأة كنعانية من «شكيم» أنجبت له ولده «أيمالك»^(١)، ثم هناك «يفتاح الجلعادي»^(٢)، فضلا عن «شمعون» الذي تزوج بامرأة من «تمنة»^(٣)، بل إن التوراة لتشير إلى أن الزواج من الداخل في عصر القضاة هذا، لم يقتصر على قضاة إسرائيل الكبار، وإنما بدا وكأن الإسرائيليين قد نسوه تماما، تقول التوراة «وسكن بنو إسرائيل وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيتهم، وعبدوا آلهتهم»^(٤).

وعلى أي حال، فلم يكن الإسرائيليون يزوجون بناتهم من الأجانب، ومن ثم فإننا نقرأ في التوراة - وعلى مدى إصحاح كامل من سفر التكوين - عن ابنة يعقوب «دينة»، وقد شغف بها «شكيم بن حمور الحوى» حبا، ونال منها وطره، ثم عرض على أبيها أن يزوجها له، فقبل الأب، واشترط أخوها - شمعون ولاوى - أن يختن قوم شكيم قبل الزواج، ثم سرعان مايهتبل الأخوان الفرصة، ويجندلان بسيفهما كل ذكور المدينة، ويسبيان نساءها وأطفالها، ويستوليان على غنم القوم وحميرهم، وكل ما في المدينة وما في الحقل^(٥).

وقد يظن البعض أن ولدى يعقوب قد فعلا بينى شكيم ما فعلا، انتقاما للعرض المستباح، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما، لأنهما فعلا ذلك إيمانا منهما بعدم كفاءة ابن الرئيس الحوى للزواج من أختهما، فضلا عن أن بنى إسرائيل ما كانت بناتهم تتزوج من الأجانب، بدليل أن التوراة لا تحرم زواج الفتاة ممن يفتض بكارتها قبل أن يكون بعلا لها، غير أنها تفرض عليه

(٢) قضاة ١١: ١.

(٤) قضاة ٣: ٥-٦.

(١) قضاة ٨: ٣١.

(٣) قضاة ١٤: ١-٢٠.

(٥) تكوين ٣٤: ١-٣١.

ألا يطلقها بعد ذلك أبداً، تقول التوراة : «إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوجداً، يعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين من الفضة، وتكون هى له زوجة من أجل أنه قد أذلها، لا يقدر أن يطلقها كل أيامه» (١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه من الأسباب الرئيسية للزواج من الداخل عند بنى إسرائيل، الاحتفاظ بثروة العشيرة داخل العشيرة نفسها، حتى يأمن أبناؤها مورد الرزق، ويطمئنوا على لقمة الغد، لذلك حرم على البنات الزواج من خارج العشيرة، وتروى التوراة فى هذا المعنى، أن رؤساء الآباء من عشيرة جلعاد من سبط منسى، تقدموا إلى موسى، وقالوا : «قد أمر الرب^١ سيدى أن يعطى نصيب صلحفاد أختنا لبناته، فإن صرنا نساء لأحد من أسباط بنى إسرائيل، يؤخذ نصيبهن من نصيب آبائنا ويضاف إلى نصيب السبط الذى صرن له، فمن قرعة نصيبنا يؤخذ، فأمر موسى بنى إسرائيل حسب قول الرب^٢ قائلاً: بحق تكلم سبط بنى يوسف، هذا ما أمر به الرب^٣ عن بنات صلفحاد، من حسن فى أعينهن يكن له نساء، فلا يتحول نصيب لبنى إسرائيل من سبط إلى سبط، بل يلزم بنو إسرائيل كل واحد نصيب سبط آبائه، وكما أمر الرب^٤ موسى، كذلك فعت بنات صلفحاد، فصارت محلة وترصة وحجلة وملكة ونوعة بنات صلفحاد، نساء لبنى أعمامهن، صرن نساء من عشائر بنى منسى بن يوسف، فبقى نصيبهن فى سبط عشيرة أبيهن» (٢).

وهكذا انتشرت عادة الزواج من بنات العم، حتى لا يتحول نصيب لبنى إسرائيل من سبط إلى سبط، وحين عاد اليهود من السبي البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد، وأقاموا الدولة الثوقراطية، وغدت الأرض ملك الله، لا يتمتع مستغلها إلا بحق حيازتها، زالت أهمية الثروة كدافع إلى الزوج من

الداخل، وهكذا صدر سفر اللاويين من التوراة يوسع من نطاق المحارم، حتى شملت زوجة العم، وامرأة الابن، والجمع بين الأختين، أو بين الأم وابنتها، وغير ذلك^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا، أن عادة الزواج من الداخل، إنما قد وصلت عند اليهود إلى حد غير مقبول في أية شريعة سماوية - أو حتى في أى مجتمع متحضر - ومن هنا لم تكن عند الإسرائيليين محارم من جهة الأب، فكان الزواج بالعممة وابنة الأخ، بل والأخت لأب، فقد تزوج «عمرام» عمته «يوكابد»، وولدت له هارون وموسى^(٢)، وتزوج «ناحور» ابنة أخيه «هارون»^(٣)، ويقول إبراهيم الخليل عن امرأته «سارة» - كما جاء في التوراة - «وبالحقيقة أيضاً هي أختى ابنة أبى، غير أنها ليست ابنة أمى، فصارت لى زوجة»^(٤).

بل إن هناك ما يدل على أن الزواج بالأخت لأب، إنما ظل مباحاً حتى عهد الملكية الإسرائيلية، فعندما هام «أمنون بن داود» بأخته غير الشقيقة «ثامارا» وأراد أن يقضى منها وطره، استمهلتها واقترحت عرض الأمر على الملك (أى أبيهما داود، عليه السلام)، فهو لن يمانع فى زواجهما^(٥).

وفى الواقع أنه لم يصدر النهى عن الاتصال بالأقارب والصحار، إلا فى سفر التثنية - وهو الذى قيل أن الكاهن حلقياً، وجدده فى المعبد عام ٦٢٢ ق.م - أثناء الإصلاح الدينى فى يهوذا، ومن خلال ثورة إرميا النبى (٦٢٦-٥٨٠ ق.م)، فانطبع سفر التثنية بذلك كله، ومن ثم فقد صدر يحرم الاتصال بزوجة الأب، والأخت لأب، والأخت لأم، والحماة، والبهيمة^(٦).

(٢) خروج ٦ : ٢٠.

(٤) تكوين ٢٠ : ١٢.

(٥) صموئيل ثان ١٣ : ١٢، حيث تقول الآية: «والآن كلّم الملك، لأنه لا يمانع منك»

(٦) تثنية ٧ : ٢٠-٢٤.

(١) لاويون ١٨ : ٦-١٨.

(٣) تكوين ١١ : ٢٩.

وفي حوالي عام ٣٩٨ ق.م، عاد «عزرا»، من السبي البابلي^(١)، وكانت مشكلته الرئيسية - بعد إعلان الشريعة التي أحضرها معه من بابل - هي «الزواج المختلط» بين يهود وجيرانهم، والتي أصبحت - كما تشير نصوص التوراة - مشكلة خطيرة، تقول التوراة على لسان عزرا - «لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأرض حسب رجاساتهم، من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والمؤابيين والمصريين والأموريين، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيتهم، واختلطت الزرع المقدس بشعوب الأراضى، وكانت يد الروساء والولاة فى هذه الخيانة أولاه^(٢).

ويستمر «عزرا» فى روايته معلناً ألمه من هذه الخيانة لرب إسرائيل، فيقول: «اللهم إني أخجل وأخزى من أن أرفع يا إلهي وجهي نحوك، لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤسنا، وآثامنا تعاظمت إلى السماء، منذ أيام آبائنا، نحن فى إثم عظيم إلى هذا اليوم^(٣)، ذلك لأن ربهم «يهوه» إنما قد حذرهم من مصاهرة الأمم الأخرى، ولكنهم كانوا دائماً وأبداً، يصاهرون هذه الأمم^(٤).

ويجتمع «عزرا» برؤساء بيوت إسرائيل، لعمل إحصاء لكل من صاهر قومًا من غير الإسرائيليين، فوجد من بين الكهنة الكثير ممن اتخذوا نساء غريبة والأمر كذلك بالنسبة إلى اللاويين والمنفيين، «كل هؤلاء قد اتخذوا نساء غريبة، ومنهم نساء قد وضعن بنين^(٥).

ويرى بعض الباحثين أن «عزرا» قد استصدر أمراً من ملك الفرس، أسبغ به على تشريعه صفة الإلزام، ومن ثم فقد استخدم القوة فى هدم

(١) انظر عن هذا التاريخ: محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الثانى «التاريخ»، ص ١٠٥٩-١٠٦١.

(٢) عزرا ٩: ٦-٧.

(٣) عزرا ٩: ١-٤.

(٤) عزرا ١٠: ١-٤٤.

(٥) عزرا ٩: ١٤.

الزيجات المختلطة القائمة، وشتت الأسر بالعنف، وشرد الأطفال الأبرياء، وتم كل ذلك باسم «الدين» لاستئصال الرجس من بني إسرائيل، وفي ذلك نرى «عزرا» يفوق «نحميا» (٤٤٥-٤٣٣ ق.م) الذي اكتفى بلعن هؤلاء الأزواج وجلدهم ونزع شعورهم، ثم استحلفهم بالله قائلاً: «لا تعطوا بناتكم لبنينهم، ولا تأخذوا بناتهم لبنينكم ولا لأنفسكم»^(١).

(٢) حرية اختيار الزوج

كان الأب العبراني هو صاحب الكلمة الأخيرة في زواج أبنائه، وبناته، بل إنه إنما كان في استطاعته أن يبيع ابنته أمة لمن يعرض الثمن^(٢)، أو يدفع بها زوجة لمن يشاء من الرجال، وكان من حقه كذلك أن يختار زوجة لابنه دون استشارته^(٣)، فقد كان من غير المقبول لدى القوم أن يختار الابن عروسه بنفسه^(٤)، وهكذا كان رضا الطرفين عند بني إسرائيل - شأنهم في ذلك شأن الكثير من القبائل البدائية - ليس أمراً لازماً لانعقاد الزواج، ومع ذلك فقد كان يؤخذ أحياناً رأى الزوجين^(٥)، وطبقاً لرواية التوراة، فقد أخذ

(١) نحميا ١٣: ٢٣-٢٨؛ عزرا ١٠: ١٠-١٢؛ ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) خروج ٢١: ٧. (٣) تكوين ٢٤: ٢، ٣٤، ٢٩: ٢٣، ٢٨: ٦.

(٤) تكوين ٢٦: ٣٤-٣٥، ٢٧-٤٦.

(٥) كانت المرأة البدوية في الجاهلية العربية، تتمتع بحظ وافر من الحرية، ربما لم تعرفه أختها الحضرية، ومع أنها كانت تعيش في بيئة تفر تعدد الزوجات، وتخضع لنظام يجعل الرجل «بعلاً» أي سيداً لها، فقد كان مركز المرأة العربية قبل الإسلام عظيمًا، ومن ثم فقد استمتمت بحق الحرية في اختيار زوجها، فلم تكن تقسر على زوج لا ترضيه، أو تزوج بغير مشورة، بل إنها كانت في بعض الأحيان تزوج نفسها بنفسها، كما كانت تستطيع هجر زوجها والعودة إلى أهلها إذا لم يحسن هذا الزوج معاملتها. (الأغاني ١١/١٠٤، ١٦/١٠٠، ١٨/٢١٧؛ مجمع الأمثال ١/٤٤٠؛ أعلام النساء ١/٣٧٦-٣٧٧، ٥/١٣-١٧؛ وكذا: محمد بيومي مهران، مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة، الرياض ١٩٧٧، ص ١٤١-١٤٥، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الأول؛ وكذا:

P.K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, p. 29; R.A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1962, p. 47.

«لايان» رأى أخته «رفقة» قبل أن يدفع بها إلى إسحاق^(١)، وقد ارتبط «عيسو» بامرأة حيثية، بالرغم من معارضة أبيه «إسحاق»^(٢).

واستمرت سلطة الأب في عصر «التلمود»، ومن ثم فإن «المشنا» إنما تعترف للرجل - دون المرأة - بالحق أن يبيع ابنته القاضر أمة، كما تسمح للرجل - دون المرأة - بأن يزوج ابنته لمن يشاء، معتمدة في ذلك على نصوص في التوراة، في سفرى الخروج والتثنية^(٣)، وهكذا اعتبر التلمود أن تزويج الأب لابنته غير البالغة زواجاً صحيحاً، سواء رضيت الفتاة أو لم ترض، بيد أنها تسترد حريتها إذا ما طلقها زوجها، فتنقض ولاية الأب عليها، وتصبح حرة في قبول الزواج أو رفضه منذئذ، ذلك أن الزواج إنما قد أدخلها في سلطة الزوج، وأسقط ولاية الأب عنها، والساقط لا يعود.

على أن الصبية اليتيمة، إذا ما زوجها أمها - أو زوجها أخوها - دون رغبتها، كان الزواج باطلاً، ولم يعتد به، فإذا تم برضاها، جاز لها - مع ذلك - طلب فسخ الزواج، وذلك بأن تعلن أمام المحكمة رفضها البقاء مع زوجها^(٤).

(٣) انعقاد الزواج:

لم يعرف العبريون نظام الخطبة في عصر الآباء، وإنما كان الزواج يتم فجأة من غير تمهيد، ونقرأ في التوراة أن إسحاق رأى زوجته - لأول مرة - وكذا زوجه نفسها - بعد أن أحضرها «اليعازار» الدمشقي - خادم إبراهيم - من «فدان آرام»، جاء في التوراة أن «رفقة قامت وفتياتها، ركن على الجمال وتبعن الرجل، فأخذ العبد (اليعازر الدمشقي) رفقة ومضى، وكان إسحاق قد أتى من ورود «بئر لحي رثى» إذ كان ساكناً في أرض الجنوب، وخرج إسحاق ليتأمل في الحقل عند إقبال المساء، فرفع عينيه ونظر، وإذا

(٢) ٤٦: ٣٤-٣٥.

(١) تكوين ٢٤: ٥٧-٥٨.

(٣) خروج ٢١: ٧، تثنية ٢٢: ١٦.

(٤) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

جمال مقبلة، ورفعت رفقة عينيها، فرأت إسحاق، فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا، فقال العبد: هو سيدي، فأخذت البرقع وتغطت، ثم حدث العبد إسحاق بكل الأمور التي صنع، فأدخلها إسحاق إلى خباء سارة أمه، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها، فتعزى إسحاق بعد موت أمه^(١).

غير أن هذه الأمور سرعان ما تتغير على أيام الملكية، إذ بدأ العبريون - نتيجة الإقامة في المدن - يأخذون بنظام الخطبة، التي قد تطول أو تقصر، طبقاً للظروف المحيطة بالزوجين^(٢)، هذا وقد اعتبرت الخطبة الخطوة الأولى نحو الارتباط النهائي، بمعنى أن تلتزم الفتاة المخطوبة بحبس نفسها عن ذمة زوجها، فإذا عاشرت رجلاً آخر عوملت معاملة الزانية ورجمت بالحجارة حتى الموت، إلا أن يكون الزنا حدث في الحقل، لا في المدينة، فيفترض في الفتاة أنها صرخت لتنجو، لكن أحداً لم ينقذها^(٣).

ولم تكن هناك مراسيم معينة لإتمام الزواج، وإنما كان مسألة مدنية بحيث لا يتدخل الكاهن فيها، وربما السبب إنما كان ضعف الكهانة على أيام مرحلة الرعي^(٤)، وقد يتم الزواج بأن يصحب الرجل امرأته إلى الخيمة^(٥)، وقد تقام وليمة يحضرها أهل المكان، ثم يأخذ الرجل ابنته ويأتي بها إلى زوجها^(٦)، وقد يأتي خلفهما جمهور المهثين، يهللون ويصيحون ويحيون العروس^(٧)، كما ترافق العروس صويحباتها^(٨)، ويسير الموكب حتى بيت الزوجية^(٩)، وكانت العروس تحتفظ بالحجاب حتى دار العريس^(١٠)،

(١) تكوين ٢٤: ٦١-٦٧. (٢) L.G.Levy, op.cit., p. 157-158.

(٣) تثنية ١٢: ٢٣-٢٧، لروت الأسيرطي، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٤) L.G. Levy, Le famille dans L'Antiquite Israelite, Paris, 1905, p. 156.

(٥) تكوين ٢٤: ٦٧. (٦) تكوين ٢٩: ٢١-٢٣.

(٧) إشعياء ٤٩: ١٨، إرمياء ٢: ٣٢. (٨) مزمو ٤٥: ١٥.

(٩) إرمياء ٧: ٣٤، ١٦: ٩. (١٠) تكوين ٢٩: ٢٥.

حيث تقام هناك الحفلة الكبرى، والتي تستمر حوالي سبعة أيام، وربما أربعة عشر يوماً^(١)، ولكن قد يتم الزفاف في بيت العروس - الأمر الذي رأيناه في زواج يعقوب^(٢) وشمشون^(٣) - وفي هذه الحالة، فإن حفلة الزفاف تتم في بيت العروس، وليس في بيت العريس^(٤).

وتمضى الأيام، ويبدأ نفوذ الكهنة - وخاصة بعد السببى البابلى - يتغلغل في شئون الزواج، الذي نظر إليه القوم «كرابطة مقدسة» يكون الله فيها شاهداً بين الرجل وامرأته^(٥)، وإن بقى الأب - دون أية مراسم كهنوتية - يأخذ ابنته من يدها، ويسلمها إلى زوجها، ودرج ثروة القوم على إقامة عرس كبير، ويمتلىء بالرقص والغناء والمطور^(٦).

(٤) نظام المهر

كان الإسرائيليون يعتبرون المهر ركناً في الزواج لا ينعقد بدونه، وكان يعد - في بادئ الأمر - من حق الأب، وهكذا رأينا «شكيم بن حمور»، عندما تقدم لخطبة «دينة» ابنة يعقوب طلب من أبيها أن يحدد المهر الذي يريده لابنته^(٧)، «كثروا على جدا مهراً وعطية، فأعطى كما تقولون لى، وأعطوني الفتاة زوجة»^(٨).

(١) تكوين ٢٩: ٢٧؛ قضاة ١٤: ١٢.

(٢) تكوين ٣١: ١-٣٦.

(٣) قضاة ١٤: ١٠.

(٤) تكوين ٢٩: ٢٢؛ قضاة ١٤: ١٠.

(٥) ملاحى ٢: ١٤.

(٦) L.G. Levy, op.cit., p. 158F.

(٧) كان الأصل في المهر عند عرب الجاهلية دفعه للمرأة، غير أن ولى أمرها هو الذى يأخذه، لينفق منه على ما يشتري لتأخذه المرأة معها إلى بيت زوجها، وقد يأخذ ولى الأمر المهر لنفسه، ولا يعطى الزوجة منه شيئاً، لاعتقاده أن ذلك حق يعود إليه، ومن ثم فقد نهى الإسلام عن ذلك، يقول سبحانه وتعالى: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نَحْلَةً فَإِنَّ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا» (سورة النساء، آية: ٤٤؛ وانظر: تفسير الفخر الرازى ١٧٩/٩-١٨٢؛ تفسير الكشاف ٤٦٩/١-٤٧١؛ تفسير روح المعاني ١٩٨/٩-٢٠٠؛ فى ظلال القرآن ٢/٢٠٩-٢١٠؛ تفسير الطبرسى ١٢/٤-١٦؛ تفسير الطبرى ٥٥٢/٧-٥٦٠؛ الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٧/٣-١٠).

(٨) تكوين ٣٤: ١٢.

ونقرأ في التوراة أن يعقوب إنما قد ذهب إلى «فدان آرام» وأقام هناك فترة عند خاله «لابان»، عرض عليه بعدها أن ينكحه ابنته «راحيل»، على أن يأجره سبع حجج، وهكذا بدأ يعقوب يرعى الغنم لخاله سبع سنين، فلما وفي له شرطه، وأقبل الليل فدخل خيمته، فألقى فيها زوجه، فلما أصبح وجد أن خاله قد زوجه من ابنته الكبرى «ليئة» بدلا من «راحيل» بحجة «ألا تعطى الصغيرة قبل البكر»، ويتلع يعقوب الخدعة، ويتفق مع خاله على أن يخدمه سبع حجج أخرى، في مقابل أن يتزوج هذه المرة من «راحيل»، فلما قضى يعقوب الأجل، نال ما كان يبغي، وتزوج من «راحيل»^(١).

ونقرأ في كتاب الله الحكيم أن موسى - عليه السلام - عندما خرج من مصر فأرأ مستوحشا - بعد أن سمع أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه - حتى وصل إلى «مدين» عند خليج العقبة، عرض عليه شيخها، «إني أريد أن أتكحك إحدى ابنتي هاتين، على أن تأجرني ثمانى حجج، فإن أتممت عشرا فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك، ستجدني إن شاء الله من الصالحين»^(٢).

وبقى نظام المهر معمولاً به في عصر الملكية الإسرائيلية، كما أصبح له حد معلوم، خمسون من الفضة، وذلك في حالة الاتصال بالفتاة قبل الزواج، وإرغام الفتى على الزواج منها^(٣)، بل إن وفرة المال، وأهمية الأرض في مجتمع الإقطاع، ربما كانا سبباً في ظهور عادة جديدة، ذلك أن أهل الزوجة إنما بدأوا يقدمون هدية للزوج (دوطة)، وقد تكون حقلا، حتى يرتبط المال بالمال، والحقل بالحقل.

ونقرأ في التوراة أن الجيش المصري خرج من مصر، واستولى على

(١) تكوين ٢٩: ١-٣٥.

(٢) سورة القصص، آية: ٢٧، وانظر: تفسير القرطبي، ص ٤٩٨٧-٤٩٩٥.

(٣) تثنية ٢٢: ٢٨-٢٩.

«جازر» التي قدمها فرعون (كدوطة) لابنته امرأة سليمان، تقول التوراة «وصعد فرعون ملك مصر، وأخذ جازر وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة، وأعطاهها مهراً لابنته امرأة سليمان»^(١).

وقد أبقى التلمود على هدية الزواج، التي أصبحت في مجتمع التجارة مبلغاً من النقود يعاون الزوج على شئون التجارة، ويلتزم الزوج في العقد بأن يرد المبلغ نصف مضاعف، نظراً لاستثماره في التجارة وتزايد مع الزمن، فإذا قدمت الزوجة عند انعقاد الزواج ألف دينار، رد لها الزوج عند انحلال الزوجية ١٥٠٠ ديناراً، وهكذا، بل لقد أصبحت هدية الزواج لدى مجتمع التجارة إجبارية، فالتاجر في حاجة إلى رأس مال ليقوم بتجارته، وهو ملزم بصداق مؤخر، فيتوقع هدية معجلة، ومن ثم فقد نص التلمود على حد أدنى للدوطة هو (٥٠ زوز)، يلتزم به والد الزوجة، ولو لم يذكر في العقد^(٢).

(٥) الطلاق

عرف العبريون الطلاق، كما عرفوا الزواج، والذي كانت رابطة في عصر الآباء رخوة، يمكن فصمها في أي وقت، ينشأ بلا مراسم، ولا مقدمات، وينتهي بنفس الطريقة التي بدأ بها، ويدهى أن الطلاق إنما كان بيد الرجل، لأن المرأة لم تكن في هذه الفترة، غير جزء من بيت الرجل، اشتراها بماله، وأضافها إلى ثروته، وأمست في مستوى العبد والأمة والثور والحمار والأشياء الأخرى فهي كالسلعة لا تستطيع الخلاص من حائزها^(٣).

وظل الأمر كذلك، طوال عصر القضاة وبداية عصر الملكية، غير أن حركة الأنبياء قد أدخلت بعضاً من قيود على الطلاق، فقد اشترط سفر التثنية - الذي يرجع إلى الربع الأخير من القرن السابع قبل الميلاد - أن

(١) ملوك أول ١٦:٩.

(٢) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٦١-١٦٢.

يعطى الرجل امرأته المطلقة وثيقة تسريح، ثم لها بعد ذلك أن تتزوج من غيره، ولكنها لا تعود إلى زوجها الأول، إذا طلقت من زوجها الثاني، أو حتى في حالة وفاة هذا الزوج الثاني، تقول التوراة: «إذا أخذ الرجل امرأة وتزوج بها، فإن لم يجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته وصارت لرجل آخر، فإن أبغضها الرجل الآخر، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته، أو مات الرجل الأخير، الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة، بعد أن تنجست^(١)، وهناك إشارة أخرى إلى الطلاق في التوراة، حيث تقول: «إذا طلق رجل امرأته، فانطلقت من عنده، وصارت لرجل آخر، فهل يرجع إليها بعد^(٢)».

هذا وتحرم المرأة على مطلقها، إذا كان سبب الطلاق عقم مظنون، أو إشاعة كاذبة حول سوء سلوك المرأة، لحمل الرجل على التريث، وذلك عن طريق التهديد بأنه إذا أوقع الطلاق فسوف يكون بائناً، لا رجعة فيه.

ولعل من الجدير بالإشارة هنا إلى أن قوانين يهود، إنما تحرم على الرجل أن يطلق زوجته في حالتين: الواحدة: إذا ادعى الرجل أن زوجته ليست بكرًا، فعلى أبيها وأمها أن يأخذا علامة بكارتها، ويبسطا الثوب أمام شيوخ المدينة، الذين عليهم أن يتولوا تأديب الزوج وتفريضة مائة من الفضة تعطى لوالد الفتاة، باعتبار الزوج قد «أشاع اسمًا رديًا عن عذراء من إسرائيل»، فتكون له زوجة ويمتنع عليه أن يطلقها كل أيامه^(٣)، وأما الحالة الثانية: إذا كانت الفتاة عذراء وعاشرها الرجل قبل الزواج، يلتزم بأن يسلم أباها خمسين من الفضة، وأن يتزوجها وألا يطلقها كل أيامه^(٤).

(٢) لرميا ٣: ١.

(٤) تثية ٢٢: ٢٨-٢٩.

(١) تثية ٢٤: ١-٤.

(٣) تثية ٢٢: ١٣-١٩.

وهكذا يبدو بوضوح - من نصوص التوراة - أن الإسرائيليين قد عرفوا الطلاق، وأن قوانينهم إنما قد حولت الرجل حق طلاق زوجته، ولكنها لم تخول المرأة هذا الحق - أو حتى طلبه - وإن أباح لها القراءون ذلك فيما بعد. على أن قبولها للطلاق لم يكن شرطاً لوقوعه^(١)، على أن هناك حادثاً غريباً طلقت فيه المرأة العبرية زوجها^(٢)، ذلك أن «سالومي» ابنة أخ «هيروودوس» قد أرسلت وثيقة طلاق إلى زوجها «كوستاباروس»، غير أن هذه الحالة تعتبر غريبة وليست إسرائيلية^(٣).

بقيت كلمة أخيرة تتصل بـ «المرأة المشتبه في زناها»، الأمر الذي يتصل إلى حد كبير بنفوذ الكهنة، أو ما أسموه «شريعة الغيرة»، فإذا استراب رجل بامرأته وهجس في صدره أنها قد خانت مع رجل آخر، «يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقربانها معها... فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ ماء مقدساً في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن، ويجعل في الماء^(٤)» ثم يخلو الكاهن بالمرأة الظنينة ويشرع في

(١) م. حاي بن شمعون، الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين، القاهرة ١٩١٢، ص ٩٧؛ أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٥٤، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) كان من حق المرأة في الجاهلية أن تطلب الطلاق، وأن تجاب إلى طلبها، بل كان من حقها أن تشتراط على أن تكون المعصمة بيدها، وهكذا كانت هناك نساء من العرب يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بيدهن، إن شئن أقمن، وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق، وذلك لشرفهن وقدرهن، وهذا حق لم تظهر به أية امرأة من الأمم التي عاصرت العرب.

وجاء الإسلام، فأبقى على حق المرأة في الطلاق، إذا اشترطته على الزوج، كما أباح لها أن تختلع وأن تطلب التفريق لعيب في الزوج، أو لامتناعه عن الإنفاق أو لسوء عشرته، أو لغيبته الطويلة، وأباح للتي زوجت صغيرة أن تفسخ العقد أو تمضيه عند بلوغها. (ابن حبيب، المحبر، حيدر آباد الدكن، ١٩٤٢، ص ٣٩٨-٣٩٩؛ جواد علي، ٥٥٤/٥، أحمد الحوفي، المرجع السابق، ص ٢١٥؛ وانظر: عيون المسائل، ص ٧٧، ١٦٩، ٢٠٥).

(٣) فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ١٠٣.

(٤) عدد ٥: ١٥-١٧.

تلاوة بعض الألفاظ، ويستحلف المرأة أن تقر بما كان منها، ثم يجرعها الماء المشوب بالغبار.

«ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخنات رجلها، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة، فيرم بطنها، وتسقط فخدها، فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها، وإن لم تكن المرأة قد تنجست، بل كانت طاهرة، تتبرأ وتحبل بزرع»^(١).

ومن المعلوم أن الماء لا يدخل المرارة، وأن وظائف الأعضاء لا تمت إلى المسلك الخلقى بسبب وثيق، ولكنها إجراءات خادعة تتخذ لتعزيز سلطان الكاهن على المرأة، فهو ينفرد بها في خلوة، ثم يخرج راضياً أو ساخطاً، وينطلق بالقول الفصل حسبما يهوى، فيدينها بالموت مجللة بالعار، أو يدعها تنعم بالحياة مرفوعة الرأس ناصعة الجبين^(٢).

(٦) زواج ييوم

تشتق كلمة «يوم» العبرية من كلمة «يبيم»، وهو أخو الزوج، و«بيامة» وهي زوجة الأخ المتوفى - أي المرأة التي تزول إلى أخي زوجها المتوفى - ويعرف زواج «يوم» في اللغة الإنجليزية باسم Levirate، وهي كلمة مشتقة من الأصل اللاتيني Levir - أي أخى الزوج - والمقصود أن أرملة اليهودى الذى مات ولم ينجب، يجب تزويجها لأخيه الأعزب على وجه الإيجاب فإذا أنجب منها فإن المولود لا يحمل اسمه، وإنما يحمل اسم أخيه الميت وينسب إليه^(٣).

(١) عدد ٥: ٢٧-٢٨.

(٢) عصام الدين حفتى ناصف، منحة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٢-٣٣.

(٣) The Universal Jewish Encyclopaedia, 6, N.Y., 1948, p. 638.

وكتا: L.G. Levy, La Famille dans L'Antiquite Israelitee, Paris, 1905, p. 193.

ولعل السبب في هذا الزواج أن المرأة إنما كانت تعتبر جزءاً من ثروة الرجل ومالا ينتقل بالميراث، خاصة عند القبائل التي تعرف نظام المهر نتيجة لتوافر المال، إذ تتكاتف عادة أسرة الزوج في جمع المهر وتسليمه إلى أهل الزوجة، فيغلب الإحساس بأن المرأة دفع من أجلها ثمن، وأمست جزءاً من الثروة يعود إلى أسرة الزوج بعد وفاته، سواء إلى أخوته أو أبنائه أو أقاربه الآخرين^(١).

ولعل هذا النوع من الزواج العبري، إنما هو قريب الشبه من نكاح «الضيزن» (نكاح المقت) عند العرب الجاهليين، وهو أن المرأة حين يموت زوجها، فإن أكبر أبنائه يكون أولى بها من غيرها، بل ومنها من نفسها، فيلقى ثوبه عليها، ويرث نكاحها، ومن ثم فهو حر فيها، إن شاء نكحها، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره، ولا يزوجها حتى تموت، فيرث مالها، إلا أن تفتدى نفسها منه بفدية ترضيه، أو يتزوجها بعض إخوته بمهر جديد، فإن لم يكن للمتوفى ابن انتقل الحق إلى الأخ، ولأن هذا الزواج كان ممقوتاً عند العرب، سمي «زواج المقت»^(٢)، ومع ذلك فقد بقى هذا الأمر عند بعض العرب الجاهليين حتى جاء الإسلام ونزل الوحي بتحريمه. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم، إلا ما قد سلف، إنه كان فاحشةً ومقتاً وساءً سيئاً﴾^(٣)، وهكذا فرّق الإسلام بين كثير من الرجال ونساء

(١) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٦٣؛ وكذا:

James Frazer, Folklore of the Old Testament, II, London, 1919, p. 339-340.

Westermarck, History of Human Marriage III, London, 1921, p. 210F.

(٢) ابن حبيب، كتاب المهر، ص ٣٢٥-٣٢٦؛ النويري، نهاية الأب، ٥٣٢/٢؛ عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤، ص ١٥٦؛ جواد علي، ٥٢٤/٥؛ وانظر: السنن الكبرى ١١٦١/٧؛ سنن أبي داود ٢٣٠/٢؛ النهاية في غريب الحديث ١٠٤/١؛ وكذا:

W.R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabs, p. 104.

(٣) سورة النساء، آية: ٢٢؛ وانظر: تفسير الطبري ١٣٢/٨-١٤٠؛ تفسير الطبرسي ٥٩/٥-٦٢؛ تفسير الفخر الرازي ١٧/٩-٢٣؛ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٢٩٩/٣-٣٠؛ في ظلال القرآن ٢٨٢/٤-٢٨٣.

آبائهم، ومنهم «منصور بن زيان الفزاري»، و«مليكة بنت خارجة» المرية، ومنهم كذلك «تميم بن أبي مقبل»، و«دهماء» امرأة أبيه^(١).

وكان «زواج ييوم» Levirate Marriage إجبارياً عند بني إسرائيل في مرحلة الرعي، ونقرأ في التوراة أن «يهوذا» قد أخذ زوجة لعير بكره، اسمها «ثامارا» وكان عير بكر يهوذا شريكاً في عيني الرب، فأماته الرب، فقال يهوذا لأوثان: أدخل على امرأة أخيك وتزوج بها، وأقم نسلاً لأخيك^(٢).

وإذا لم يكن للمتوفى إخوة بالغون، انتقلت الأرملة إلى بيت أبيها، واحتبست حتى يكبر الإخوة الصغار^(٣)، وهي تعتبر في تلك الأثناء موقوفة على ذمتهم، ويمتنع عليها الاتصال بالرجال، فإن فعلت عدت زانية وعوقبت بالحرق^(٤)، وإن لم يكن للمتوفى أخوة على الإطلاق، ذهبت الأرملة إلى أقرب قريب لزوجها المتوفى، وهناك قصة «راعوث» مع حماتها «نعمى»، فقد مات زوج راعوث، دون أولاد، ولم يكن له أخوة، فلازمت راعوث حماتها ولم ترغب في فراقها، غير أن «نعمى» كانت أرملة كذلك، ولم يكن لها أولاد يصلحون للزواج من «راعوث»، ومن ثم فقد ذهبت الأخيرة إلى «بوهز» - قريب زوجها - ودخلت سرا إلى مضجعه ليلاً، وكشفت عن قدميه، ونامت حتى الصباح، ثم طلبت منه أن يطرح ذيل ثوبه عليها، فتزوجها الرجل، وأخذ التركية معها، وأنجب منها ولدًا، هو «عبيد» جد «داود» ذلك لأن «عبيد ولد يسي ويسي ولد داود»^(٥).

هذا وقد أبقى عهد مرحلة الزراعة على «زوايح ييوم»، إذ تم في هذه

(١) ابن حبيب، المخير، ص ٣٢٦، عمر رضا، أعلام النساء، ١٠٧/٥، وانظر أمثلة أخرى في: تفسير الطبري ١٣٣/٨.

(٢) تكوين ٢٨: ٦-٧.

(٣) تكوين ٢٨: ٦-٧.

(٤) تكوين ٢٨: ٢٤.

(٥) راعوث ٣: ١-٤؛ ثروت الأسبوطى، المرجع السابق، ص ١٦٤-١٦٥.

المرحلة توزيع الأراضي على الأسباط، وامتنع نقل نصيب سبط إلى سبط آخر، ومن ثم فقد أصبح الذي يموت دون ذرية، إنما يرثه إخوته، فيأخذون أرضه، ويدخلون بزوجته.

وسرعان ما تتغير الأحوال في عهد الإقطاع، وسكنى المدينة المفتوحة، ويصبح، «زواج يوم»، غير ملائم لهؤلاء الذين أصبح الواحد منهم، وقد انفرد بزوجته أو زوجاته، واستقل بمعيشته عن سائر إخوته، ولم يجد الأخ الحي أى معنى للزواج من أرملة أخيه، وأمسى هذا الزواج عبثاً مالياً لا تقابله أية ميزة اقتصادية، ومن ثم فقد اشترطت التوراة لإتمام زواج اليوم هذا، أن يكون الأخوان - الحى والميت - إنما كانا يقيمان تحت سقف واحد، ويشتركان فى معيشة واحدة، وفى هذه الحالة ينسب الولد البكر من هذا الزواج إلى الأخ المتوفى، تقول التوراة: «إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن، فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي، أخو زوجها يدخل عليها، ويتخذها لنفسه زوجة، ويقوم لها بواجب أخى الزوج، والبكر الذى تلده، يقوم باسمه أخيه الميت، لئلا يمحي اسمه من إسرائيل» (١).

وتمضى الأيام، وتتغير الأحوال، ويصبح «زواج يوم» اختيارياً، إن شاء الأخ تزوج من أرملة أخيه، وإن شاء تنازل عنها، وفى هذه الحالة الأخيرة، يصبح من حق أرملة المتوفى أن تشكو أخاً زوجها إلى شيوخ بنى إسرائيل، فإذا أصر على موقفه خلعت نعله من رجله أمامهم، وبصقت فى وجهه، قائلة: «هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه» فيسمى «مخلوع النعل»، وتصبح أرملة أخيه حرة تتزوج ممن تشاء، فكان خلع النعل طلاق (٢).

EB. 13, p. 979.

(١) تثنية ٢٥: ٥-٦؛ جواد على ١٥٤١/٥، وكذا:

(٢) أحمد الحوفى، المرأة فى الشعر الجاهلى، القاهرة ١٩٥٤، ص ٢٠٥-٢٠٦، محمد محمود جمعة، النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأم السامية، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٦٥.

والى هذا تشير التوراة فى سفر التثنية حيث تقول: «وان لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه، تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ، وتقول: قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسماً فى إسرائيل، لم يشأن أن يقوم لى بواجب أخى الزوج، فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه، فإن أصر وقال: لا أرضى أن أتخذها، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ، وتخلع نعله من رجله، وتبصق فى وجهه، وتصرخ وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه، فيدعى اسمه فى إسرائيل بيت مخلوع النعل»^(١).

وهكذا أصبح جزاء التنكر لزواج اليوم استهجان الجماعة لا غير، ولم يعد من يرفضه يصاب بالعقاب الإلهى ويموت»^(٢).

وعلى أى حال، فلقد استمر «زواج يوم» فى عهد التلمود، وإن أضاف التلمود إباحة تطوع الأخ الثانى للقيام بهذا الزواج، ويبدأ التخيير بالأخ الأكبر، فإن رفض يؤخذ رأى الأخوة الآخرين على التوالى، فإن أبوا جميعاً، يطرح الأمر من جديد على الأخ الأكبر، ويخير بين الزواج بأرملة أخيه، أو إجراء «خلع النعل» (الحاليلصاه)، هذا وقد اشترط التلمود أن تلتزم أرملة الأخ المتوفى بعدة، مدتها ثلاثة أشهر، من يوم وفاة زوجها، ثم تشرع بعد ذلك فى الزواج من أخيه أو خلع نعله»^(٣).

هذا وقد أعطى التلمود فرصة ثلاثين يوماً، للأخ الذى قبل زواج أرملة أخيه، له بعدها أن يعاشرها معاشرة الزوج لزوجته، أو يجبر على «خلع النعل»، كما أعفاه من دفع صداق جديد، اكتفاء بما للزوجة من مؤخر صداق على أموال زوجها الراحل، فإن الأخوة يدفعون فى المرأة مهراً واحداً لا يتجدد، بموجبه تنتقل المرأة من يد إلى يد، كما هى الحال لدى قبائل الرعى فى الشعوب البدائية.

(٢) تكوين ٣٨: ٨-١٠.

(١) تثنية ٢٥: ٧-١٠.

(٣) ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ٢١٢.

وإذا اختار الأخ الحي «خلع النعل»، ورث من تركته أخيه المتوفى حصة مساوية لحصص سائر إخوته، أما إذا تزوج أرملة أخيه استقل دون سائر إخوته بميراث المتوفى، وإن كان الربي «يهودا» يفسح الأولوية في هذا العرض للأب الحي، ويفضله في تركته الابن الميت دون ذرية، على الأخ ولو تزوج الأرملة، وهذا يعني أن الأخ قد يتلقى أرملة أخيه، دون أن يرث تركته، فيتحمل عبئاً مالياً، لا تقابله أية ميزة اقتصادية^(١).

وعلى أي حال، فلقد تجرأ أحبار يهود على «زواج ييوم» في القرن التاسع عشر الميلادي، ومن ثم فقد أصدر الربانيون الأحرار في مدينة «فيلادلفيا» بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٦٩م، ومدينة «أوجسبورج» بألمانيا في عام ١٩٧١م، قراراً بتحريم زواج ييوم، والحاليناه (خلع النعل) لعدم ملاءمتها للحياة العصرية^(٢)، هذا وقد عرضت قضية زواج ييوم على المحاكم المصرية في عام ١٩٥٦، فقضت المحكمة برفضها لتعارضها مع النظام العام وهو الرضا الواجب توافره من الطرفين لانعقاد كافة العقود، وهو في عقد الزواج الذي يجمع بين الأدميين ألزم، لما لهذا العقد من عظيم الأثر والشأن^(٣).

(٧) تعدد الزوجات

من المعروف أن الشعوب جميعاً - أو تكاد - قد مارست تعدد الزوجات، مارسه المصريون والفرس والعرب واليهود وغيرهم، ومارسه أصحاب الديانات السماوية الثلاثة الكبرى - اليهودية والمسيحية والإسلام^(٤).

(١) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٣) إهاب حسن إسماعيل، شرح مبادئ الأحوال الشخصية للطوائف الملية، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٣-٦٤ (القضية رقم ١٠١٢/١٩٥٦ بتاريخ ١٥/٦/١٩٥٦).

(٤) انظر: محمد بيومي مهران، مركز المرأة في الحضارة العربية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول، الرياض ١٩٧٧، ص ١٦٢-١٧٠.

وهناك من يعتبر نظام تعدد الزوجات، نظام بدائي، ومن يعتبره تابعا لحال المرأة، انحطاطا ورقيا - وأن تحريرها منه^(١)، إنما هو خطوة في سبيل تقدمها وفي الواقع، إن موقف المرأة نفسها إزاء تعدد الزوجات، إنما هو موقف مضطرب، بل إن الإنسان كثيرا ما تأخذه الحيرة، إزاء العواطف المتضاربة للنساء بشأن تعدد الزوجات، هذه زوجة عاقر تطلب من زوجها الزواج عليها، وتلك تلعن ضرائرها، وثالثة تفضل لزوجها أن يتزوج عليها، بدلا من أن يفرق في علاقات غير مشروعة مع نساء أخريات، ينفق عليهن في بذخ، ويجلب لها ولأولادها العار، ورابعة تحلم بالزواج من رجل متزوج بأخرى^(٢)، وهكذا.

وعلى أي حال، فإن تعدد الزوجات إنما كانت له - دون شك - دوافع القوية، والتي منها : أنه يحفظ للمرأة حرمتها التي يتشدد بها أعداء تعدد الزوجات، ذلك لأن إباحة التعدد لا يحرم المرأة حرمتها، ولا يكرهها على قبول من لا ترتضيه زوجا لها، ولكن تحريم التعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها، حين تلجئها الضرورة إلى الاختيار بين الزواج بصاحب زوجة، وبين عزوبة لا يعولها أحد، وقد يعجزها أن تعول نفسها^(٣).

ومنها أن المرأة قد تعجز عن الوفاء باحتياجات الحياة الزوجية، وذلك بسبب عقمها فلا يتحقق التناسل، وهو من المقاصد الرئيسية للزواج، أو بسبب عيبها الجنسي، مما يؤدي إلى منع الاتصال الجنسي بين الزوجين، أو يحول دون كماله، أو بسبب مرض عضال يصيب الزوجة فيشل، حركتها عن القيام بما تتطلبه الحياة الزوجية من أعباء.

ومنها عودة المطلقة إلى عصمة زوجها السابق، فقد يفرق الزوجان

(١) قاسم أمين، تحرير المرأة، ص ١٢٩.

(٢) عبد الناصر توفيق العطار، تعدد الزوجات، القاهرة ١٩٧٢، ص ٢٤-٢٥.

(٣) عباس العقاد، المرأة في القرآن، بيروت ١٩٦٩، ص ١١٨-١١٩.

بطلاق أو تطليق، ثم يرى الزوج بعد زواجه بأخرى أن يضم إلى عصمته زوجته السابقة وتبادل هذه الأخيرة تلك الرغبة، بعد أن عفى الزمان على أسباب الخلاف بينهما أو بدافع رعاية أبنائهما، أو لغير ذلك من الأسباب، وتعدد الزوجات في هذه الحالة هو الحل الاجتماعي الوحيد، الذي يبقى على الزوجة الجديدة دون فراق، ويعيد المطلقة إلى زوجها السابق ويكفل لأولاد المطلقة العودة إلى البيت الذي كان يجمع والدهم ووالدتهم معاً^(١).

وقد تتسع الدائرة، فيهدف الرجل من زواجه الجديد على امرأته إلى توثيق صلة القربى، فيعمد إلى الزواج بإحدى قريباته في حالت تبرز فيها حاجة هذا القربة إلى الزواج من قريبتها، كأن يكون لها أولاد لا يرعاهم زوج غريب عنهم مثلما يرعاهم زوج قريب لهم، كما لو كانت المرأة أرملة لأخ قريب توفي أو استشهد ويكون الأخ أو أحد أقرباء المتوفى أصلح من يتولى رعاية الأولاد، وقد يكون هناك حرج على مثل هذا القريب إذا دخل بيت هذه المرأة لرعاية الأولاد، فيعمد إلى الزواج بوالدتهم على امرأته، حتى لا يلوك المتطفلون أو الطامعون سمعته بالقول السوء، أو حتى يحفظ لهذه المرأة شبابها، أو حتى يحول بينها وبين الانحراف الاجتماعي أو الانحراف الخلقي، أو حتى يحفظ مثل هذا القريب نفسه من أن يتحدث بالسوء، وقد تكون هذه القربة عانساً يرى الزوج أن يضمها إلى رعايته، أو مريضة لا يرعاها غير هذا الزوج، فيتزوجها حتى لا تكون أقل من مستوى من زوجته، إلى غير ذلك من الأسباب التي تتحقق بها حاجات الناس ومصالحهم، أضف إلى ذلك كله أن تعدد الزوجات إنما يبتلع في أوقات الحروب مشاكل خطيرة، تنشأ من الزيادة المذهلة في عدد الأراامل من النساء، فضلاً عن أنه قد يعرض الأمة، أو بعض أفرادها، عما فقد من الأولاد، ويمنحها الأمل في استعادة قوتها، ومتابعة النضال^(٢).

(١) عبد الناصر توفيق المطار، المرجع السابق، ص ٣٥-٣٦.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٣٦-٤٩.

وعلى أى حال، فلقد مارس بنو إسرائيل تعدد الزوجات، وكان عندهم ذو صلة وثيقة بالرغبة فى كثرة الأولاد ليعاونوا سيد البيت فى رعى الغنم، وقد بلغت أهمية الخلفة عند بنى إسرائيل شأواً كبيراً، حتى أن المرأة العاقر إنما كانت تدفع بجاريتهما لتحمل منه، وتلد فى حجر سيدتها، فيفترض فى المولود أنه من نسل الزوجة، لا الجارية، هكذا فعلت «راحيل» حين قالت لزوجها يعقوب: «هو ذا جاريتى بلهة، أدخل عليها فتلد على ركبتى، وأرزق أنا أيضاً منها بنين، وهكذا رزق يعقوب بولدين من «بلهة جارية راحيل»، هما «دان وفتالى»، والأمر كذلك بالنسبة إلى زوجة الأخرى «ليئة» حيث «أخذت زلفة جاريتهما وأعطتها ليعقوب زوجة، فولدت زلفة جارية ليئة ليعقوب» ولدين هما «جاد وأشير»^(١).

وهكذا عرف الإسرائيليون تعدد الزوجات منذ عصر الآباء الأوائل، فإبراهيم الخليل - عليه السلام - يجمع بين سارة وهاجر، وبين قطورة وحجورة^(٢)، ويعقوب أو إسرائيل - عليه السلام - يجمع بين «ليئة» و«راحيل»، فضلاً عن جارتيهما «بلهة» و«زلفة»^(٣)، ولعل مما تجدر ملاحظته هنا أن يعقوب إنما قد جمع بين المرأة وأختها الشقيقة، رغم أن هناك نصوصاً فى التوراة تحرم الجمع بين الأختين، تقول التوراة: «لا تأخذ امرأة على أختها للضر، لتكشف عورتها معها فى حياتها»^(٤)، ولعل التفسير المقبول أن هذه نصوصاً متأخرة، وأن تحريم الجمع بين الأختين تحت رجل واحد، إنما جاء على أيام الملكية، وربما بعدها.

وعلى أى حال، فإن نصوص التوراة إنما تجيز تعدد الزوجات، بشرط ألا

(١) تكوين ١: ٣٠-١٣.

(٢) تكوين ١١: ٢٩-٣١، ١٦: ١٣-١، ٢٥: ١-٣، وانظر: تاريخ الطبرى، ١/١٦٠، ٢٤٤.

٣٠٩-٣١١؛ ابن الأثير ١/١٠٠، ابن كثير ١/١٥٠.

(٣) تكوين ١/٢٩-٣٥، ١٣: ١-٣٠، ٢٢: ٢٦.

(٤) لاويون ١٨: ١٨.

تكون بين الزوجات أختان في عصمة رجل واحد، مما يدل على أن الأسرة الإسرائيلية إنما كانت تقوم على تعدد الزوجات، كما كانت تساوي بينهن في الحقوق والواجبات، وإن كان عددهن يتفاوت قلة وكثرة حسب ثروة الزوج ومكانته.

غير أن بعض الإسرائيليين قد استغلوا هذا الحق فبالغوا فيه، حتى كان «لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه، لأنه كانت له نساء كثيرات»^(١)، وطبقاً لرواية التوراة، فقد تزوج «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) نساء كثيرات عدا الإماء السراري^(٢)، واقترب «رحبعام» (٩٢٢-٩١٥ ق.م) «بثمانى عشرة امرأة، وستين سرية، ولدن له ثمانية وعشرين ابناً، وستين بنتاً»^(٣)، وتزوج «أبيا» (٩١٥-٩١٣ ق.م) أربع عشرة امرأة، وخلف اثنين وعشرين ابناً، وست عشرة بنتاً^(٤)، وفاق سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م) كل أقرانه، فقد «كانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري»^(٥).

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن مبدأ تعدد الزوجات - كما يقول جوستاف لويون^(٦) - كان شائعاً كثيراً لدى بنى إسرائيل على الدوام وما كان القانون المدني أو الشرعى ليعارضه، سواء أكان ذلك للأنبياء أو غير الأنبياء، وسواء أكان ذلك فى عصر الآباء الأول، أو فى عصر القضاة، أو فى عصر الملكية^(٧).

وتصور أمثال بنى إسرائيل الأهمية الاقتصادية للمرأة فى مجتمع الزراعة، حيث تقوم بكثير من الأعمال فى الحقل والبيت، هى وأولادها،

(١) قضاة ٨: ١٣.

(٢) صموئيل أول ٢٨: ٢٧، ٢٥: ٣٩، ٤٣: ٥، ٣: ٤، ٤: ١٣.

(٣) أخبار أيام ثان ١١: ٢١.

(٤) أخبار أيام ثان ١٣: ٢١.

(٥) ملوك ١١: ٣.

(٦) جوستاف لويون، المرجع السابق، ص ٥٠.

(٧) محمد بيومى مهراڤ، المرجع السابق، ص ١٦٤-١٦٥.

ردون مقابل، وذلك في عبارات تمزج بين عقلية التاجر، وإعجاب الزوج، تقول التوراة: «امرأة فاضلة، من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ، بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها، تطلب صوقاً وكتاناً، وتشتغل يدين راضيتين، هي كسفن التاجر، تجلب طعامها من بعيد، وتقوم إذ الليل بعد، وتعطي أكلاً لأهل بيتها، وفريضة لفتياتها، تتأمل حقلاً فتأخذه، وبشر يديها تفرس كرماً، تنطق حقويها بالقوة وتشد ذراعيها، تشعر أن تجارتها جيدة، سراجها لا ينطفئ في الليل، تمد يديها إلى المغزل، وتمسك كفاها بالفلكة، تبسط كفيها للفقير، وتمد يديها إلى المسكين، لا تخشى على بيتها من الثلج، لأن كل أهل بيتها لابسون حلالاً».

«تعمل لنفسها موشيات، لبسها بوص وأرجوان، زوجها معروف في الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض، تصنع قمصاناً وتبيعهما، وتعرض مناطق على الكنعاني، العز والبهاء لباسها، وتضحك على الزمن الآتي، تفتح فمها بالحكمة، وفي لسانها سنة المعروف، تراقب طرق أهل بيتها، ولا تأكل خبز الكسل، يقوم أولادها ويطربونها، زوجها أيضاً يمدحها، بنات كثيرات عملن فضلاً، أما أنت ففقت عليهن جميعاً، الحسن غش، والجمال باطل، أما المرأة المتقية للرب فهي تمدح، اعطوها من ثمرة يديها، ولتمدحها أعمالاً في الأبواب»^(١).

واستمر تعدد الزوجات على عصر التلمود، ولكن أحبار اليهود إنما قد حددوه للرجل بأربع زوجات، وقد أصدر أحد أحبار اليهود فتوي صريحة بذلك، وذهب حاخام آخر إلى عدم وجود حدود، بينما اتجه حبر ثالث إلى إلزام الرجل بطلاق الزوجة الأولى، بناء على طلبها، في حالة زواجه بامرأة أخرى.

(١) التوراة، سفر الأمثال ٣١: ١٠-٣١.

وأما الملك فقد أباح له التلمود الزواج من ثماني عشرة امرأة، قياساً على ما في كتبهم بصدد الملك داود، وإن ذهب «ربي سيمون» إلى حرمان ولي الأمر من الزواج بنساء كثيرات، ولو كن متدينات، على أساس أن قانون الملوك يمنعهم من المبالغة في اقتناء الزوجات، وقد استغل الإسرائيلي هذا الحق فبالغ فيه، هذا إلى أن «ربي يهوذا» قد أباح للملوك تعدد الزوجات بغير حدود، على ألا تكن نساء فاسدات، هذا وقد أصدر الحاخام «جيرشوم بن يهوذا» (٩٦٠ - ١٠٤٠ م) قرار حوالى عام ١٠٠٠ م، بتحريم تعدد الزوجات بالنسبة إلى اليهود «الاشكنازيم»، لكن هذا التحريم لم يمتد إلى اليهود «السفرديم».

وربما الذى دفع الحاخام «جيرشوم» إلى إصدار هذه الفتوى ما كانت تلاقيه الجاليات اليهودية فى أوروبا من احتقار المسيحيين لليهود بسبب تعدد الزوجات (١).

وأما فى مصر، فقد حاول الربانيون أن يحصروا تعدد الزوجات فى أضيق نطاق، فجاء فى مجموعة أحكامهم: «لا ينبغي للرجل أن يكون له أكثر من زوجة، وعليه أن يحلف يميناً على هذا حين العقد، وإن كان لا حجر ولا حصر فى متن التوراة» وجاء أيضاً «إذا كان الرجل فى سعة من العيش، ويقدر أن يعدل، أو كان له مسوغ شرعى جاز له أن يتزوج بأخرى».

وهكذا يبدو واضحاً أن التعدد هنا مباح، ولكن الربانيين فى مصر، اشتروا القدرة على الإنفاق، والقدرة على العدل بين الزوجات، أو وجود مبرر شرعى لتعدد الزوجات، على أن عقم الزوجة عشر سنين (إن كانت بكرًا) أو خمسا (إن كانت ثيبًا)، يوجب على الرجل شرعاً (عند الربانيين)

(١) تثنية ١٧: ١٧، قضاة ٨: ٣٠، ٩، ٢٢، صموئيل ثان ١٣: ٥ م. حاي بن شمعون، المرجع

السابق، مواد ٥٤، ٥٥، ثروت الأسيوطى، المرجع السابق، ص ٢٣٢-٢٣٣، وكذا:

أن يطلقها، ولها ما لها من الحقوق في العقد، ولكن للرجل أن يتزوج عليها، إذا قبلت، وكان ذا ميسرة، هذا إلى جانب أن جنون الزوجة من الأسباب التي تبيح عند الربانيين الزواج عليها، بشرط موافقة السلطة التشريعية على ذلك^(١).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه هنا بالنسبة إلى رأى أحناف اليهود في تعدد الزوجات، أن واحداً منهم لم يكن يهودياً توراتياً في تفسيراته وأحكامه، وإنما كانوا يحاولون تلوين الشريعة اليهودية بالشرائع التي كان يعيشون بين أصحابها، فالحاخام «جرشوم» مثلاً، إنما يبدو مسيحياً في اتجاهه نحو تحريم تعدد الزوجات تحريماً تاماً، بحكم معيشته في أوروبا الكاثوليكية، بينما نرى الحاخام «م. حاي بن شمعون» - يتأثر بالشريعة الإسلامية، بحكم معيشته في القاهرة - لا يتشدد في التحريم برأى الحاخام جرشوم، بالرغم من مضي تسعة قرون على فتوى الأخير بالتحريم التام^(٢).

(٨) المحرمات

لم يعرف بنو إسرائيل في مرحلة الرعى نظام المحارم من جهة الأب، فتزوج إبراهيم أخته سارة^(٣)، واقتن «عمرام» بعمته «يوكابد»^(٤) - كما أشرنا من قبل - وحقق الزواج من الداخل غرضاً اقتصادياً، هو حفظ الثروة داخل العشيرة، ولما وزعت الأراضي بعد غزو فلسطين، حظر على البنات الزواج من الخارج، وشاع الاقتران بائنة العم.

(١) م. حاي بن شمعون، المرجع السابق، مواد ١٣٢، ١٦٤؛ عبد الناصر توفيق المطار، المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) حسن فاظا، المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(٣) تكوين ٢٠: ١٢. وأما المصادر العربية فتختلف بشأنها، فهي ابنة أخى إبراهيم (هاران) على رأى، وهى ابنة عمه على رأى آخر، وهى ابنة ملك حاران على رأى ثالث. (تاريخ الطبرى ١/٢٤٤؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ١/١٠٠؛ ابن كثير، قصص الأنبياء، ١/١٩٢؛ أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ١/٣١).

(٤) خروج ٦: ٥.

وعندما تغيرت الظروف، صدر سفر اللاويين يوسع نظام المحرمات، حيث حرم الزواج من الأم والبنت وبنات البنات، وبنات الابن، وامرأة العم لأب، وبنات الزوجة، وبنات بنتها، وبنات ابنها، والحماة وأمهات، والأخت والعممة، والخالة، وامرأة الأب، وامرأة الابن، وامرأة الأخ، وأخت الزوجة، تقول التوراة في سفر اللاويين: «لا يقترب إنسان إلى قريب جسده ليكشف العورة، أنا الرب، عورة أهلك، وعورة أمك، لا تكشف، إنها أمك لا تكشف عورتها، عورة امرأة أهلك لا تكشف، إنها عورة أهلك، عورة أختك بنت أهلك أو بنت أمك، المولودة في البيت أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها، عورة ابنة ابنك أو ابنة بنتك لا تكشف عورتها، إنها عورتك، عورة بنت امرأة أهلك، المولودة من أهلك، لا تكشف عورتها، إنها أختك، عورة أخت أهلك لا تكشف، إنها قريبة أهلك، عورة أخت أمك لا تكشف، عورة أخى أهلك لا تكشف، إلى امرأته لا تقترب، إنها عمتك، عورة كنتك لا تكشف، إنها امرأة ابنك، لا تكشف عورتها، عورة امرأة أخيك لا تكشف، إنها عورة أخيك، عورة امرأة وبناتها لا تكشف، ولا تأخذ ابنة ابنها، أو ابنة بنتها لتكشف عورتها، إنهما قريبتاها، إنه رذيلة، ولا تأخذ امرأة على أختها للضر، لتكشف عورتها معها في حياتها»^(١).

وقد اعتمد التلمود على ما جاء في سفر اللاويين وتوسع العلماء الريانيون في حالات التحريم، بعد أن زالت ملكية الأرض، واشتغل اليهود بالتجارة، واختفى نظام العشائر، ولجأ الحاخامات إلى القياس، فمثلا حرمت التوراة على الرجل أن يتزوج حفيده، فاستنتج التلمود شمول التحريم للجدة، باعتبار أن النزول من الرجل إلى حفيده يكون درجتين، فيقاس الصعود درجتين إلى جدته.

ولكن من ناحية أخرى، فلقد أجاز الريانيون المصريون الزواج بأخت

(١) لاويون ١٨: ٦-١٨.

الزوجة إذا توفيت، ذلك أن يحرم الجمع بين الأختين في التوراة والتلمود على السواء، إنما يستند إلى دفع الحرج بينهما حال حياتهما وهذا لا يتحقق متى توفيت الأخت الأولى^(١).

(٩) مكانة المرأة اليهودية

لم تكن مكانة المرأة هزيلة، كما قد يبدو، على الرغم من أثر البداوة في النظم الاجتماعية العبرية القديمة، فالزوجة كانت تتبع زوجها، ولكن المرأة كانت تبجل كثيراً، ولا سيما إذا كانت أمًا، وفي الوصايا العشر «أكرم أبك وأمك، لكي تطول أيامك على الأرض»^(٢) دون تمييز بين الوالدين.

ومن هنا، فرغم أن المرأة كان ينظر إليها - في وقت ما - على أنها جزء من المال الموروث، وأن الرجل هو «بعل» المرأة (أى سيدها)، ورب الأسرة، ومن حق الرجل أن يطلقها في أى وقت، وأن يقترب غيرها، بينما كانت المرأة لا تستطيع أن تهجر بيت الزوجية، وهى مطالبة بالإخلاص للرجل، وليس لها حق وراثته، رغم ذلك كله، فمكانة المرأة الإسرائيلية تختلف عن مكانة الأمة، وذلك لأن حق الرجل لا ينصرف إلى المرأة ذاتها - إلى شخصية المرأة - وإنما ينصرف إلى حياتها، لكي تضع له أطفالاً، والرجل لا يستطيع أن يبيع امرأته، كما يبيع أمته وابنته، بل إن الرجل لا يستطيع أن يبيع أمته نفسها، أو سبية الحرب، إذا ما اتخذها سرية له، غير أن المرأة ملزمة بالذهاب مع زوجها، والعمل معه كعبيدين سداً لدين، وذلك لمدة ست سنوات^(٣).

وكان للمرأة الإسرائيلية حق الملكية، وبخاصة أشياءها الخاصة، فهى

(١) لاويون ١٨: ١٠، ١٨: ١٨، ثروت الأسويطى، المرجع السابق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) خروج ٢٠: ١٣.

(٣) تشية ٢١: ١٤، خروج ٢٢: ٢-٣، لاويون ٢٥: ٣٩، ٤٧، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص

تأتى إلى بيت الزوجية، ومعها المنحة التي قد منحتها لها أسرتها، فضلا عن أمتها أو إمامها^(١)، وهكذا لم يكن مركز المرأة الإسرائيلية سيئاً جداً، فكون المرأة ملك للرجل، ليس نقيصة لها كزوجة، وإنما كأثى،، لأنها كانت قبل الزواج ملكاً لأبيها، وكان له الحق فى بيعها كأمة لمن يرغب فى شرائها^(٢)، والطاعة العمياء لرب الأسرة إنما كانت مفروضة أيضاً على الأطفال، إذ كان الأب يملك على أولاده حق الحياة والموت، يقتلهم إذا شاء^(٣)، أو يقدمهم قرباناً للرب^(٤)، بل إن هذا الحق إنما كان يمتد إلى كل من يعيش فى كنف الأب، فله - مثلاً - أن يحرق زوجة ابنه إذا زنت^(٥)، وأما المرأة (الزوجة) فقد كان لها - دون بقية أفراد أسرة الرجل - فى أهلها وأقاربها درع يقيها شر عادات الزمن.

وعلى أى حال، فلقد بلغت المرأة - رغم ذلك كله - مكانة جعلت قبائل بأكملها، تنسب إلى أمهاتها، ومن ثم فهناك الكثير من الشواهد القديمة التى تذكر سلالات من بنى إسرائيل نسبت إلى الأم، هذا فضلاً عن أن الأم الإسرائيلية إنما ظلت قرونًا تحتفظ بنسبة بنيتها إليها^(٦).

وهكذا وصلت المرأة اليهودية - فى بعض الأحيان، وإن كانت قليلة، بل ربما نادرة - إلى أعظم المناصب فى التاريخ اليهودى - الدينى والسياسى - وطبقاً لرواية التوراة، فإن النبوة الإسرائيلية لم تكن أبداً مقصورة على الرجال، دون النساء، فلقد تنبأت المرأة، كما تنبأ الرجل، بل إن ظهور النبيات الإسرائيليات إنما قد بدأ، حتى قبل أن يصل اليهود إلى فلسطين،

(١) تكوين ١٦: ١-٢٦، ٢٤، ٥٩، ٢٩، ٢٤، ٣٠، ٤، ٦.

(٢) تكوين ٤٢: ٣٧.

(٣) خروج ٢١: ٧.

(٤) تكوين ٣٨: ٢٤.

A. Lods, Israel, From its Beginning to the Middle of the Eighth Century, (٥) London, 1962, p. 192.

(٦) انظر: محمد بيومى مهران، النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٧١-٧٧.

ومع أكبر نبوات اليهود وأعظمها - وأعنى بها نبوة الكليم، عليه السلام، كما استمرت المرأة تنبأ في إسرائيل، حتى قبيل السبي البابلي بقليل (١).

ولعل «مريم» - أخت هارون وموسى - كانت أول نبية في ديانة يهود، تقول التوراة «فأخذت مريم النبية - أخت هارون - الدف بيدها، وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص، وأجابتهن مريم رنموا للرب، فإنه قد تعظم» (٢).

وهناك من عصر القضاة «دبورة» النبية، وربما كانت «حنة» أم صموئيل النبي، نبية كذلك، وأما «خلدة» امرأة «شلوم بن تقوة بن حرحس»، فقد كانت نبية مشهورة على أيام الملك «يوشيا» (٦٤٠ - ٦٠٩ ق.م) بل إن الملك اليهودي نفسه - حينما كان إرميا النبي (٦٢٦ - ٥٨٠ ق.م)، غارقاً في أحزانه، ولا يتنبأ إلا بالمصائب التي سوف تحل باليهود - لم يجلد أمامه إلا «خلدة» النبية، لتنبأ له، وذلك لأنها كانت - فيما يرى - أكثر استعداداً - بفضل طبيعتها الأنثوية - على كشف رحمة الله (٣)، وهناك «حنة بنت قنويل» - من سبط أشير (٤) - كما كانت زوجات الأنبياء، يدعون أحياناً نبيات (٥).

هذا إلى أن المرأة الإسرائيلية قد أخذت مكانها كذلك بين أنبياء إسرائيل الكذبة، ومن ثم فقد كان هناك نبيات كاذبات - كما أن هناك أنبياء كذبة - مثل «بوعديّة» النبية (٦).

(١) خروج ١٥ : ٢٠؛ عدد ١٢ : ٢، ٦.

(٢) ملوك ثان ٢٢ : ١٤؛ أخبار أيام ثان ٢٤ : ٢٠-٢٨؛ قاموس الكتاب المقدس، ١٣٤٤/١، باروخ سبيوزا، المرجع السابق، ص ١٥٣؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٦، وكذا:

C. Roth, op.cit., p. 45.

(٣) لوقا ٢ : ٣٦-٣٨؛ قاموس الكتاب المقدس ٣٢٤/١.

(٤) إشعياء ٨ : ٣. (٥) نحemia ٦ : ١٤؛ قاموس الكتاب المقدس ٩٥٢/٢.

(٦) قضاة ٤ : ٤، ٩؛ قاموس الكتاب المقدس، ٢٦٨/١؛ حسن ظاظا، المرجع السابق، ص ٢٨-٢٩.

وأما من الناحية السياسية، فالتاريخ اليهودي يحدثنا أن المرأة قد بلغت فيه - في بعض الأحيان - شأواً عظيماً، حتى أصبحت زعيمة قومها تارة، بل وقد جلست على عرش إسرائيل، تارة أخرى، ونقرأ في التوراة عن شخصية ظهرت في عصر القضاة، تعد - دون شك - من أقوى شخصيات ذلك العصر، وأعنى بها «دبورة» زوجة «فيدوت» من قبيلة أفرايم، والتي نالت ولاء قومها وزعامتهم، حتى أنها أصبحت «قاضية إسرائيل» متخذة لها مركزاً عند «نخلة دبورة» - بين الرامة وبيت إيل في جبل أفرايم - (١).

وقد قامت «دبورة» بالدعوة إلى العمل الموحد ضد الكنعانيين، وكان «باراق» أول من لبى نداءها، وجمع القوات الإسرائيلية عند جبل «تابور» في أرض الجليل، حيث دارت رحى الحرب بين «تغناك» و«مجدو» على ضفاف نهر «قيشون»، وأنجز الإسرائيليون نصراً كاملاً على عدوهم، سجلته دبورة في سفر القضاة من التوراة (٢).

ونقرأ في التوراة عن نساء كانت لهن مكانة عظيمة عند أزواجهن، فلقد استطاعت «بتشبع» الجميلة، والأثيرة عند زوجها داود، أن تنقل عرش إسرائيل من «أدونيا» - الابن الرابع لداود - إلى ولدها سليمان - الابن العاشر (٣) - وكانت «إيزابيل» ابنة ملك صور، ذات شخصية قوية، ومن ثم فقد استطاعت أن تسيطر على زوجها الملك اليهودي «أخاب» (٨٦٩-٨٥٠ ق.م) بل إنها إنما قد فرضت - أو كادت - على إسرائيل نظام الحكم الفينيقي، كما أنها جعلت ربها «بعل» يحل محل «يهوه» رب يهود في

(١) قضاة ٤ : ١-٣١، وكذا: W.F. Albright, The Biblical Period, 1963, p. 122.

(٢) ملوك أول ١ : ١-٥٣؛ محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص ٧٤٠-٧٤١، ٧٤٤-٧٤٥؛ قضاة ١٧/٤-٣١/٥.

(٣) ملوك أول ١٦ : ٣٠-٣٤، ١٨ : ١٩؛ ج. كوتتو، الحضارة الفينيقية، ص ٧٤؛ وكذا:

Cecil Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 25.

مملكة إسرائيل، حتى أن زوجها «أخاب» نفسه، إنما «قد عبد البعل وسجد له»، كما أنشأ له معبداً في السامرة، عاصمة إسرائيل، كما أقامت «إيزابيل» لنفسها حاشية من أنبياء السواري، بلغ عددها ٤٠٠ نبياً^(١).

وليت الأمر يقتصر على ذلك، فإن «عثليا» - ابنة إيزابيل وأخاب - إنما قد تزوجت من «يهورام» ملك يهوذا (٨٤٩-٨٤٢ ق.م)^(٢)، ثم سرعان ما انتهزت فرصة قتل ولدها «أخزيا» (٨٤٣ ق.م) في حملة ضد «حزائيل»، ملك آرام في «راموت جلعاد»^(٣)، حتى قتلت أبناء الأسرة المالكة في يهوذا، وأعلنت نفسها ملكة في أورشليم، كما أعلنت عبادة «بعل» كديانة رسمية في دويلة يهوذا^(٤)، بل إن «سيسل روث» إنما يذهب إلى أن هذه المرأة القوية، إنما كانت تخطط لإقامة أسرة ملكية جديدة في أورشليم من موطن أمها (صور)^(٥)، فهي كما نعرف - من أم صورية، وأب إسرائيلي، ثم هي في نفس الوقت زوج ملك يهوذي، وأم ملك يهوذي كذلك.

وعلى أي حال، فلقد استمرت «عثليا» تجلس على عرش يهوذا ست سنوات (٨٤٣-٨٣٧ ق.م)^(٦)، ثم انتهت حياتها إما بمؤامرة من الجيش، أو بتمرد عام ضد عبادة البعل^(٧).

(١) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 242.

(٢) ملوك ثان ٨: ١٨؛ أخبار أيام ثان ٢١: ٦.

(٣) ملوك ثان ٩: ١٧-٢٩؛ أخبار أيام ثان ٢٢: ٥-٩.

(٤) ملوك ثان ١١: ١؛ أخبار أيام ثان ٢٢: ١٠؛ وكذا: I. Epstein, Judaism, 1970, p. 47.

(٥) C. Roth, op.cit., p. 32.

(٦) وقارن :

William Foxwell Albright, The Biblical Period From Abraham to Ezra,

N.Y., 1963, p. 116.

(٧) ملوك ثان ١١: ١-٢١؛ أخبار أيام ثان ٣٣: ١-١٥؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 348-385.

M. Noth, op.cit., p. 387-388.

وفي عهد المكابيين جاءت «سالومي الكسندرا» لتجلس على عرش اليهودية، ولمدة سنوات تسع (٧٦-٦٧ ق.م) بعد زوجها «الكسندرجاني» (١٠٣-٧٦ ق.م) وبدهى أن اعتلاء «سالومي» العرش، إنما يشير إلى مكانة المرأة الممتازة في حياة اليهود في تلك الفترة، إذ أن كلا من ولديها «هيركانوس» و«أرسطوبولس» إنما كان صغيراً، وفي حاجة إلى وصي يدير شؤون الدولة نيابة عنه، وهكذا أصبحت «سالومي» ملكة على يهودا^(١).



الباب الخامس التنظيم السياسي والاقتصادي والقضائي والعسكري



الفصل الأول التنظيم السياسي

(١) ما قبل الملكية

كان العبرانيون - عندما وصلوا إلى فلسطين - قد انخرطوا في قبائل وعشائر وأسر، شأنهم في ذلك شأن بقية الساميين، ومن ثم فالتاريخ يحدثنا عن اثني عشر سبطاً ينتسبون إلى أبناء يعقوب الاثني عشر^(١) من زوجاته الأربع^(٢).

وكان عدد أعضاء العشيرة يصل إلى ثلاثمائة شخص^(٣)، ويتساوى أعضاؤها في الحقوق والواجبات، ويلتزمون بالأخذ بالثأر، ويتعرضون لثأر الغير^(٤)، فالعشيرة هي الوحدة الاجتماعية، ويعتقد أعضاؤها أنهم من دم واحد، ويعتبرون أنفسهم أخوة، وتقوم الرابطة بينهم على أساس التضامن الاجتماعي، ويحتفل بها عن طريق الختان، الذي يولد رابطة الدم بين العضو والعشيرة، وتضم العشيرة الأعضاء من أحرار وعبيد (وهم عادة أسرى حرب) ثم الجيران (الجيريم)، الذين يستجبرون بأحد أعضاء العشيرة، ويلوذون بحمايته^(٥).

(١) هناك ما يشير إلى أن العدد اثني عشر، ربما كان أمراً نظرياً، أكثر منه حقيقة تاريخية، ومن ثم رأينا التوراة، إما أنها تذكر بعد ذلك «لاوى»، ومن ثم يذكر «بيت يوسف» كسبط واحد فقط، ومرة لا يذكر «لاوى» وهنا يقسم بيت يوسف إلى سبطين: أفريم ومنسى (عدد ٢٠/١).

(٢) بنو ليئة (راؤبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون) وبنو راحيل (يوسف وبنيامين) وبنو بلهة (دان وفتالي) وبنو زلفة (جاد وأشير) (تكوين ٣٥: ٢٢-٢٦).

(٣) تكوين ١٤: ١٤.

(٤) تكوين ٤: ١٤، ١٥، ٢٣، ٢٤.

(٥) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٥١-١٥٢؛ وكذا: خروج ٤: ٢٥-٢٦؛ تكوين ٣٤:

L.G. Levy, op.cit., p. 67F.

١٥؛ وما بعدها؛ وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 221F.

وكذا:

ولم تكن هناك سلطة عليا فوق العشيرة، تؤدي إلى تماسك القبائل، بل كانت كل عشيرة تهيم على وجهها، وفقاً لهواها، ولم تنشأ مثل هذه السلطة إلا في عهد موسى، عليه السلام، بعد أن أقام بنو إسرائيل في «أرض جاسان»، واجتمعوا في صعيد واحد مدة طويلة، تزيد عن أربعة قرون، واحتاجوا إلى قدر من التنظيم السياسي، لتنفيذ خطة الخروج من مصر، واغتصاب كتعان، فغدا يشرف على القبائل والعشائر الشيوخ^(١) (الزكانيين)، كما عاون موسى مجلس من سبعين^(٢)، بناء على نصيحة من «شعيب» - النبي العربي - في نظر القضايا الثانوية، ويبقى هو المرجع الأعلى، مما يدل على أن النبي العربي إنما قد تقدم موسى في عقيدته الإلهية، وعلمه تبليغ الشريعة، وتنظيم القضاء في قومه^(٣).

على أن «باروخ سبينوزا» (١٦٣٢-١٦٧٧م)، إنما يذهب إلى أن موسى لم يكن له الحق في انتخاب خليفة له، وأن المفسرين إنما يسيئون ترجمة الآيات (عدد ١٩، ٢٣)، والتي لا تعنيان أن موسى قد أوصى يشوع أو أمده بتعليمات، وإنما تعنيان أنه نصبه قائداً أعلى، وهذا شائع دائماً في الكتاب المقدس^(٤)، ومن ثم يذهب «سبينوزا» بعد ذلك إلى أن موسى لو كان قد اختار له خليفة، لأخذ على عاتقه مهمة إدارة شؤون الدولة، أي

(١) خروج ٣: ١٨، ٢٤، ١٤، عدد ١١: ١٦، ٢٤، ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٥٢.
 (٢) ينسب الأحبار إلى موسى خطأ تأسيس ما يسمى عادة بالمحكمة العليا أو السنهدين، صحيح أن موسى اختار سبعين مساعداً له من شيوخ إسرائيل، ليساعده في تنظيم شؤون الدولة، ولكنه لم يضع قانوناً بتأسيس جماعة من سبعين عضواً، بل على العكس، فلقد أمر أن يقوم كل سبط في المدينة التي عينها له، بتعيين قضاة للفصل في المنازعات، طبقاً للقوانين التي وضعها هو نفسه.
 (باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٠٥).

(٣) خروج ٢٤: ١١، عباس المقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، القاهرة ١٩٦٠، ص ٨٠، باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، القاهرة ١٩٧١، ص ٤٠٠.

(٤) انظر: خروج ١٨: ٢٣، صموئيل أول ١٣: ١٥، يشوع ١: ١٩، صموئيل أول ٢٥: ٣٠.

كان له وحده حق مخاطبة يهوه (الله) في خبائه، وبالتالي كانت له سلطة سن القوانين وإلغائها، وإعلان الحرب، وإقرار السلام، وتعيين القضاة، واختيار خليفة له، أى له بوجه عام، القيام بجميع وظائف السلطة العليا، ومن ثم يصبح الحكم فى إسرائيل ملكياً، مع فارق يسير، هو أن الملكية العادية تقوم على تنفيذ مشيئة إلهية خافية على الملك نفسه، على حين تقوم دولة العبرانيين - أو يجب أن تقوم - طبقاً لمشية إلهية أوحيت إلى الملك وحده، وهو فارق يزيد من سلطة الملك، ولا يقلل منها شيئاً.

أما الشعب فإنه يكون فى كلا النوعين من النظام الملكى خاضعاً، جاهلاً بالمشيئة الإلهية، ذلك لأنه إنما يعتمد فى كليهما على كلمة الملك، ويعلم منه وحده، ماهو مشروع، وما هو غير مشروع ذلك لأن اعتقاد الشعب بأن جميع أوامر الملك إنما هى إلهام إلهى من شأنه أن يزيد من خضوعه له، لا أن يقلله.

على أن موسى - عليه السلام - لم يختار خليفة له على هذا النحو، وترك لخلفائه دولة تدار شئونها بطريقة لا يمكن وصفها بأنها نظام شعبى، أو أرستقراطى، أو ملكى، بل هو نظام «ثيوقراطى»^(١).

وأياً ما كان الأمر، فلقد استقر الإسرائيليون فى فلسطين بعد حين من الدهر، وقد أدى هذا الاستقرار إلى إحداث تغييرات جذرية فى تنظيمات هؤلاء البدو الغزاة، ومن ثم فلم تكن القبائل المكونة من مجموعة من عشائر، بقيادة على الاستقرار كجماعة مترابطة فى جهة واحدة - كما فعلت قبائل منسى ودان^(٢)، - بينما تشتت قبائل أخرى، مثل شمعون ولاوى، وتضاءلت قبائل مثل «راؤبين»^(٣) وهبطت ماكير وجلعاد من قبائل - على أيام دبورة^(٤)

(١) باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٠١.

(٢) يشوع ١٧: ١٤-١٨، عدد ٣٢: ٣٩، ٤١-٤٣، قضاة ١٧-١٨.

(٣) تثنية ٣٣: ٦.

(٤) قضاة ٥: ١٤-١٧.

... فأضحت بطون، بل مجرد عشيرة (مشباحة = Mishpahoth) في تاريخ الأنساب التقليدي^(١).

ومن ناحية أخرى، فقد ازدادت أهمية قبيلة «يهودا»، بسبب امتصاص هذه القبيلة اليهودية لعناصر كنعانية، كالقنينيين والقنزيين واليرحمثيين^(٢)، والقبائل شبه البدوية التي امتصتها يهوذا على أيام داود (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م.)، وقد صورت هذه القبائل في تاريخ الأنساب، وكأنها قد تحدرت من يهوذا^(٣).

ونمت قبيلة «بيت يوسف» إلى درجة أنها قد انقسمت إلى قسمين وبرزت منها قبائل أفرام ومنسى، و«بنيامين» (ابن اليد اليمنى) بمعنى الجنوب (وهو اسم له نفس معنى اليمن - أي جنوب شبه الجزيرة العربية)، وهو دون شك المنطلق الجنوبي «لبيت يوسف» القوي، وإن كان هذا التقسيم - فيما يبدو - لم يتم إلا بعد الاستيطان في فلسطين بفترة طويلة، ذلك لأن الجد الأكبر (بنيامين) إنما قد صور - في التقاليد - كوافد لاحق في كنعان^(٤).

ومن ثم فهناك افتراض بأن بعض القبائل الإسرائيلية التي جاءت في قوائم التوراة، لم تظهر في الوجود حتى لحظة استيطان كنعان ومن ثم فقد سميت بأسماء الأماكن التي احتلتها، ومنها، - على سبيل المثال - جلعاد وبنيامين وأفرام، هذا فضلا عن أسماء أشير وبيت يوسف، وفيما عد شمعون ودان، قد صورت فيما بعد على أنها إنما كانت موجودة في البلاد على أيام تحوتمس الثالث وسيتي الأول ورعمسيس الثاني، ومن ثم فربما

A. Lods, op.cit., p. 391.

(١) يشوع ١٧: ١-١٢، وكذا:

(٢) انظر عن هذه القبائل: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني، ص ٥٧٢-٥٧٨.

A. Lods, op.cit., p. 391.

(٣) أخبار أيام أول ٢: ٩، ١٨-٢٠، ٢٥-٢٧، ٣٣-٥٥، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 391.

(٤) تكوین ٣٥: ١٦-٢٠، وكذا:

كانت هذه أسماء لقوم من الكنعانيين، أو حتى أسماء لأماكن كنعانية^(١).
وأياً ما كان الأمر، فلقد اغتصب العبرانيون أرض «اللين والحسل»، التي
عهدتها السواعد الكنعانية بالجد والعرق والكفاح، وتم تقسيم هذه الأرض
التي استولت عليها القبائل الإسرائيلية بحق الغزو، والأمر كذلك بالنسبة
للأرض التي يعتزمون غزوها.

واستقر بنو إسرائيل في ربوع كنعان وبقي بعضهم على ولائه لحرفة
الرعى في الهضاب الجنوبية، في حين تحولت غالبيتهم إلى فلاحه الأرض
وزراعة الحبوب، وشرع هؤلاء الرعاة في تطبيق أنظمتهم المتعلقة بالملكية
الجماعية للأرض^(٢)، ونقرأ في التوراة أن الأرض المفتوحة إنما كانت تقسم
على إحدى عشرة قبيلة من قبائلهم الاثني عشر، بينما وزعت القبيلة الثانية
عشرة - وهي قبيلة لاوي - على القبائل الأخرى للخدمة الدينية، وهذه
القبائل إنما كانت بدورها تقسم إلى عشائر، ولكنها تتجمع حول هيكل
مركزي في «شيلوه»^(٣).

وبدأت الأسباط المتميزة - بعد تقسيم الأرض - أقرب إلى الدولة
الحليفة، منها إلى الدولة الواحدة، صحيح أنه بالنسبة إلى الدين، كان يجب
النظر إلى العبرانيين على أنهم أمة واحدة، أما بالنسبة لعلاقة كل سبط
بالآخر، وحقوقه تجاهه، فقد كانوا أسباطاً متحالفة^(٤).

(١) انظر: تيودور روينسون، المرجع السابق، ص ١٠٨، محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الأول
«التاريخ»، ص ٢٤٦-٢٤٧؛ فيلب حتى، المرجع السابق، ص ١٩٣، وكذا:

Stanley Arthur Cook, op.cit., p. 360.

W.M.F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, p. 34. وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 46, 49-51, 392. وكذا:

(٢) عدد ٢٦: ٥٢-٥٦، ٣٣: ٥٤، ١٣: ٣٤، ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) مبيتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤٠، وكذا:

M.Noht, Das System des Zwolf Steomme Israel, 1930, p. 39-60.

(٤) باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٠٤، وكذا: M.F. Unger, op.cit., p. 1015.

وهكذا ظل بنو إسرائيل في بداية استقرارهم في فلسطين يتبعون التقسيم القبلي، واستمرت العشائر السابقة محور الحياة الاجتماعية، غير أن الحروب المكثرة ضد الفلسطينيين إنما قد اضطرتهم إلى أن يسندوا - من وقت لآخر - الرياسة إلى شخص واحد، أشبه بالقائد الحربي والزعيم الديني، أطلق عليه لقب «القاضي»، حتى عرفت هذه الفترة بعصر القضاة^(١).

ولعل من الأهمية بمكان أن بعض العلماء، إنما قارن هذا النظام القبلي العبراني بمجلس «الامفكتيون» Amphickyony اليوناني، والذي يقوم على مبدأ مماثل من المركزية الدينية، وكانت سلطة الكاهن الأكبر عظيمة، ولكن من المبالغة أن نزع وجود حكومة «ثيوقراطية» فإن سلطة القضاء لم تكن سياسية، إذ كان القاضي يتصدر القوم في أثناء الأزمات، وقد ظل هؤلاء القضاة يحكمون العبرانيين طوال القرن ونصف القرن^(٢) التاليين لدخولهم فلسطين، وكانت سلطة القضاة عارضة محدودة المدى والمدة، وهي في هذا النظام تذكرنا بسلطة زعماء النظام البدوي الذي تتميز به الحياة السامية في مراحلها الأقدم عهداً، وكانت سلطة القضاة تعتمد أساساً على رضا الله عنهم وتأييده لهم، ومن ثم فقد سميت هذه الفترة «عصر الرضا الرباني» Chaismatic Age^(٣).

ولم يكن القضاة قضاة بالمعنى المفهوم، ولم يكونوا مشرعين بالمعنى القديم، وإنما كانوا طبقة من الأبطال المحاربين والمنقذين، أقامهم الرب «ليخلصوهم من يد ناهبيهم»، ولم يكونوا خلفاء لبعضهم البعض، بل إننا نشهد أكثر من واحد في وقت واحد، «ولم يكن في بنى إسرائيل ملوك في تلك الأيام، حتى إذا كانوا من الكهنة»، وكان الواحد منهم يطلق عليهم

(١) Ernest Renan, Histoire du Peuple d'Israel, Paris, 1887, p. 293.

A. Lods, op.cit., p. 386F.

وكذا:

(٢) انظر الآراء المختلفة عن هذه الفترة: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٦٢٥.

(٣) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤٠-١٤١.

أحياناً لقب «ملك» أو «قاضى»^(١)، ذلك لأن لفظ «قاضى» (شوفط) إنما يستخدم فى سفر «راعوث» بمعنى «وال» أو «حاكم»، لكنه يرد فى أسفار أخرى - مثل عاموس - بمعنى «ملك»^(٢).

هذا ويفهم من مقدمة سفر القضاة أن القاضى كان يتمتع بحق مقدس يمنحه إياه «يهوه» - رب إسرائيل - يهدف تحرير الشعب من معصية ارتكبتها، فعاقبه يهوه لهذه الخطيئة، وأسلمه إلى طاغية مستبد، ثم تاب الشعب، فغفر له، وقد تكرر هذا الصنيع أربعة عشرة مرة^(٣)، فيما بين موت يشوع، وتولية شاول عرش إسرائيل، فحكاه المجتمع الإسرائيلى فى تلك الأعوام كانوا يسمون «القضاة» لأن كلا منهم إنما كان يصدر حكماً على الحاكم المستبد المذل للمجتمع الإسرائيلى، وذلك بتحرير هذا المجتمع من ظلم الظالمين^(٤).

والحق أنك لا تجد واحداً من القضاة استطاع أن ييسط سلطانه على جميع بنى إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام والشيوخ إنما كان يتسلم قيادة زمرة واحدة، عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر، لم يحتفظ حتى بقيادة تلك الزمرة^(٥).

وهكذا يبدو واضحاً أنه لم يقم أحد - بعد وفاة موسى، عليه السلام - بكل مهام السلطة العليا، ومن ثم فلم يكن تصريف الأمور فى دولة

(١) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٢٥.

(٢) عاموس ٢: ٣، ثنية ١٧: ٩، ١٢.

(٣) وأما هؤلاء القضاة فهم: عشتيل بن فزاز وأهود بن ججرا، وشمجر بن عناه، ودبور، وجدعون، وأبيمالك، وتولع، وبائير الجلعمادى، ويفتاح الجلعمادى، وعبدون بن هليل الفرعتمونى، وشمشون، وعالى. انظر: محمد بيومى مهران، إسرائيل، الكتاب الثانى «التاريخ»، ص ٦٣٠-٦٥٧.

(٤) فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، ص ١٧٠.

(٥) جوستاف لوبون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيترة، القاهرة ١٩٦٧، ص ٣٥.

العبرانيين يعتمد على مشيئة إنسان واحد، أو حتى مجلس واحد، وكان بعض منها من اختصاص سبط ماء، والبعض الآخر من اختصاص بقية الأسباط، وكان لجميع الأسباط نفس الحقوق، مما يدل بوضوح على أن نظام الحكم بعد وفاة موسى لم يكن ملكيًا، ولا أرستقراطيًا ولا شعبيًا، وإنما كان ثيوقراطيًا^(١).

ومن هنا لم يتألف من الغزاة في يوم من الأيام أمة واحدة، بل ظلوا زمنًا طويلًا، يؤلفون اثني عشر سبطًا، مستقلين استقلالًا واسعًا أو ضيقًا، نظامهم وحكمهم لا يقومان على أساس الدولة، بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة، فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء، هو الحكم الفصل في شئون القبيلة، وهو الذي يتعاون مع القبائل الأخرى، إذا ألجأتهم إلى هذا التعاون الظروف القاهرة، التي لا مفر من التعاون فيها^(٢).

(٢) الملكية الإسرائيلية

وتمر الأيام ويدرك الإسرائيليون، أن الظروف المحيطة بهم إنما تحتم عليهم الوحدة، والاتفات حول شخصية واحدة، وإلا ذهبت ريحهم، وطردها من فلسطين، فقد كان الكنعانيون من ناحية، والفلسطينيون من ناحية أخرى، يضعون بنى إسرائيل بين شقى الرحى، كذلك كان المديانيون والمؤابيون والعمونيون والآراميون، لا يكفون عن الإغارة على حدود إسرائيل، فضلًا عن الفرقة التي كانت تمزق بنى إسرائيل من الداخل^(٣).

وهكذا تجمعت الظروف الضرورية لقيام الملكية الإسرائيلية، وقد كان

(١) باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٠٧.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٠٧.

(٣) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٤١، وكذا: O. Eissfeldt, op.cit. p. 570

ضغط الفلسطينيين على الإسرائيليين واحداً من أقوى العوامل الكثيرة لتجميع قوى بنى إسرائيل، وإنشاء مملكة، وتنصيب ملك عليهم، ومن ثم فقد اهتبل الإسرائيليون فرصة اشتداد الحرب بينهم وبين الفلسطينيين فأنشأوا لهم مملكة، وربما كان الأصح أن تهديد الفلسطينيين للكيان الإسرائيلي من أساسه، إنما كان هو السبب في قيام المملكة الإسرائيلية^(١).

وتتجه التقاليد العبرية القديمة إلى أن الملكية، إنما كانت خيراً وبركة على الشعب الإسرائيلي، بينما نرى التقاليد المتأخرة (الأحدث) في الملكية لعنة حلت بالمجتمع الإسرائيلي، فباعدت بينه وبين الله، وتقاسمته المصائب والنكبات، وبدهى أن أصحاب الاتجاه الأخير، إنما هم أصحاب السلطان الكهنوتي، من رجال الدين، الذين يعرضون بنظام الحكم في إسرائيل، ويحاولون توجيهه إلى الوجهة التي تروق لهم، ومن ثم فإن وجهة النظر الأخيرة هذه، إنما تذهب إلى أن إسرائيل ما كانت في حاجة إلى النظام الملكي، ذلك لأن كل ما كانت إسرائيل في حاجة إليه لإقرار النظام وسلامة الحكم، إنما كان متوفراً لديها قبل قيام الملكية، فقد كان على رأس المجتمع الإسرائيلي ربّه يهوه، الذي يحكم عن طريق خدامه من رجال الكهنوت - أو بالأحرى عن طريق كبير الكهنة - ولما كان القاضي يقوم بشئون إسرائيل المدنية - وبخاصة الحروب - ومن ثم فإن الكهانة إنما كانت ترى أن اختيار إسرائيل للنظام الملكي، إنما هو رفض لسلطان «يهوه» - رب إسرائيل - وتقليداً للشعوب الوثنية المجاورة التي شاءت أن تستبدل «الملك» بالقاضي^(٢).

وهكذا نرى «صموئيل» النبي يتردد كثيراً في إجابة شيوخ إسرائيل، عندما ما أتوا إليه في «الرامة» يطلبون منه، أن «اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب»، بل «لقد ساء الأمر في عيني صموئيل، وهنا نتحدثنا التوراة

(١) عن قيام الملكية الإسرائيلية انظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٦٦١-٦٦٦.

(٢) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠.

أن الرب إنما قد خاطبه قائلاً: «اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك، بل إياي رفضوا، حتى لا أملك عليهم»^(١).

على أن هناك اتجاهًا آخر، يؤيد قيام الملكية الإسرائيلية، بل ويذهب إلى أن «يهوه» هو الذي اختار الملك، وهو الذي يمدّه بالسلطان والعدالة، وهو يحكم بفضل الله، والملك أكثر من هذا، إنما هو ممثل الربّ على وجه الأرض، وهو صورته، فالجتماع الإسرائيلي كان يعتقد أن الله هو ملك الملوك، ونقرأ في التوراة: «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون» و«يأمن بيتك ومملكتك إلى الأبد أمامك، كرسيك يكون ثابتًا إلى الأبد»، و«قطعت عهدي مع مختاري حلفت لداود عبدي إلى الدهر، أثبت نسلك»^(٢).

وعلى أي حال، فالملك - في نظر التوراة - هو الشخص المكرس ليهود (نذير = Nazir)، ومسيح الربّ يهوه، ومن العصيان أن ترتفع يد ضده^(٣)، ومن أشق الأمور أن تلعن الملك، لأنك تلعن «يهوه» (الله - والعياذ بالله) نفسه^(٤)، وكان القوم يعتقدون أن للملك قوى، مثل «رجال الرب» عند الشعوب البدائية، الذين يتحكمون في المطر والشمس، ومن ثم فيفترض أنه هو الذي يتسبب في المجاعة^(٥)، وكان يخاطب على أنه «نفس أنوفنا، مسيح الرب»^(٦)، وأنه «سراج إسرائيل»^(٧) وتقران حكمته بمثلها عند ملاك الرب، «لأن الملك إنما هو كملاك الله لفهم الخير والشر»^(٨).

(١) صموئيل أول ٨: ١-٨.

(٢) مزور ٢: ٦، ٨٩: ٣-٤؛ صموئيل ثان ٧: ١١٦؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٣) صموئيل أول ٢٤: ٧-١١، ٢٦: ٩-١١، ٢٣: ١١-١٤، ١٦-٤، ١٢.

(٤) خروج ٢٠: ٢٧.

(٥) ملوك ثان ٦: ٢٦-٢٧؛ إشعيا ٨: ٢١؛ مزور ٧٢: ٣، ١٦.

(٦) مرابي لرميا ٤: ٢٠.

(٧) صموئيل ثان ٢١: ١٧.

(٨) صموئيل ثان ١٤: ١.

وطبقاً لرواية التوراة، فمن حقه أن يدعى أنه «ابن الرب»، «أنا أكون له أباً، وهو يكون له ابناً»^(١)، لأنه عند تتويجه يجعله ربه «يهوه» هدفاً لإقرار خاص بالتبني، «إني أخير من جهة قضاء الرب، قال لي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتك»^(٢)، وتمادوا بعض الملوك إلى حد بعيد، حتى انتحلوا لقب «الآلهة»^(٣)، ولكن سبق أن أقامت «اليهوية» Jahwism تمييزاً حاداً بين «إلوهيم» Elohim، وبين المخلوق الفاني، حتى لا تؤخذ هذه الادعاءات مأخذ الجدل^(٤).

ومن ناحية أخرى، فلقد كان الملك كذلك كاهناً، وقد رقص داود رقصة مقدسة أمام التابوت مرتدياً لباساً كهنوتياً (إفود من الكتان)^(٥)، ومن بعده بارك سليمان شعبه^(٦)، ومن قبلهما أعير شاول في طفولته إلى «يهوه»، والحق بمعبد «شيلوه»، وكان الملك يعين الكهنة ويقيلهم من وظائفهم حسب أهوائه الشخصية، كما كان يغير من أثاث المعبد في أى وقت يشاء^(٧).

وكان الملك يمنح سلطته المقدسة عن طريق مسحة (دهانه) بزيت البركة، وهى طقوس ذات شكلين، الواحد : ديني، والآخر: أكثر ديمقراطية، وكان الشكل الديني لهذه الطقوس مستخدماً فى سورية فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، وهو يفترض أن عادة مسح الملك بزيت البركة، إنما كانت سابقة لعصر «شاول» (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م)^(٨).

(٢) مزمور ١٢: ٧.

(١) صموئيل ثان ٧: ٤.

(٣) مزمور ٨٢: ٦٥.

(٤) Adolphe Lods, Israel from its Beginning to the Middle of the Eighth Century, Translated by S.H. Hooke, London, 1962, p. 393-394.

(٦) ملوك أول ٨: ٥٤-٥٦.

(٥) صموئيل ثان ٦: ١٤.

Ibid., p. 394.

(٧) A. Lods, op.cit., p. 355-356, 394.

وكان الشيوخ القدامى يحملون «الحرية» أو «الإكليل» (الذي يلبس على الرأس) و«السوار» (الذي يلبس في الذراع)^(١)، وهما شعار الملكية القديمة، وربما لم يقتبس «التاج» كذلك قبل عهد «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م)^(٢) وأصبحت مراعاة قواعد آداب السلوك والتعامل واجبة في القصر الملكي، كلما تقدم الزمن، وطبقاً لتقاليد الشعوب المجاورة، فلقد أصبح من الواجب على كل شخص يريد مقابلة «داود» أن يقدم التماساً بذلك، فضلاً عن أنه إنما يكون مجبراً على أن يركع بنفسه أمامه على الأرض^(٣).

ونظراً لأن القوم إنما كانوا يعتقدون أن ملكيتهم إنما كانت ذات أصول دينية، فلقد أصبحت السلطة الملكية دينية مطلقة، وإن كانت هناك قلة من الملوك - من أمثال سليمان وأخاب - يقادرة على إملاء سلطتها وإرادتها على الشعب الإسرائيلي.

ومع ذلك، فقد كانت هناك حدود لسلطة الملك الإسرائيلي، منها (أولاً) أن عدم وجود قاعدة ثابتة لوراثة العرش^(٤)، قد أعطت القوم فرصة لاختيار ملكهم الجديد، أو على الأقل، وضع شروط لا بد وأن يرضخ الملك الجديد لها، وإلا فلن يحصل الملك على موافقة القبائل على تنويجه ملكاً لإسرائيل، ومثال ذلك، ما حدث بعد وفاة سليمان في عام ٩٢٢ ق.م، إذ اجتمعت القبائل على هيئة مؤتمر عام في «شكيم» - على مبعده ٩ كيلاً إلى الشمال الغربي من السامرة، ٥٠ كيلاً شمال أورشليم - وأتى «رحبعام بن سليمان» إلى هناك، وأرادت القبائل الإسرائيلية، أن تجعله ملكاً، وخليفة

(١) صموئيل ثان ١: ١٠. (٢) صموئيل ثان ١٢: ٣٠-٣٢.

(٣) صموئيل ثان ١٤: ٤.

(٤) لم تكن هناك قاعدة ثابتة قد وضعت (حتى أيام داود على الأقل) لخلافة العرش في دولة إسرائيل الجديدة، ولكن بما لا شك فيه أن الابن الأكبر في البيت المالك كان صاحب الحق في ذلك، إلا أن مكانة الأم، وتخيير الملك، واختيار الشعب، وموافقة يهوه (رب إسرائيل) الصريحة، قد تكون سبباً في اختيار أحد إخوته الصغار.

A. Lods, op.cit., p. 364.

لأبيه سليمان، أى أن هذه القبائل إنما أرادت أن تناقش معه أمر التعيين، وأن يملو شروطهم على الملك الجديد، قبل موافقتهم على جلوسه على عرش إسرائيل (١).

وبدهى أن هذا، إنما يعنى أن القبائل الإسرائيلية لم تعترف بالورثة التقليدية التى حدثت من قبل فى الحالات الضرورية، كالتى حدثت بعد سقوط شاول، وتولية ابنه «إيشبعل»، بسبب نفوذ «أبنيير» المهاب، ومرة أخرى عند وفاة داود وتولية سليمان، بسبب قوة داود الشخصية، والأمر كذلك بالنسبة إلى اختيار كل من «شاول» و«داود» ملكاً على إسرائيل (٢).

وهكذا يمكن القول أن القوم إنما أرادوا أن يمنحوا التاج بأنفسهم لرجعهم، وأن يعقدوا معه ميثاقاً، وقد أعطوه أفضلية على غيره، بصفته الابن الأكبر لسليمان العظيم، ولكنهم طلبوا منه تأكيداً بإنهاء الأعباء التى أصبحت لا تطاق منذ أيام سليمان، وبدهى أن من هذه الأعباء الجزية النوعية، طالما أن المدينة الكنعانية السابقة هى التى احتضنت الحركة (٣).

ويبدو أن فريقاً من المؤرخين قد وجدوا غرابة فى أن ملكاً، كان له الحق - كما كان لأبيه من قبل، وكما سوف يكون لابنه من بعده - فى أن يجلس على العرش بحق الوراثة، ومع ذلك فهو يرضى بأن يطرح حق وراثة العرش للتصديق الشعبى، ومن هنا فإن هذا الفريق من المؤرخين إنما يستنتجون أن «اجتماع شكيم» إنما كان اجتماعاً ثورياً، قصد منه الملك محاولة استعادة الإسرائيليين الذين تمردوا من قبل، وليس لتنصيبه ملكاً - كما تقول التوراة - ولكن حكم الوراثة المطلق لم تكن قد تثبتت أقدامه بعد

(١) Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 226.

(٢) انظر عن هذه الأحداث: محمد يومية مهران، إسرائيل، الكتاب الثانى «التاريخ»، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٧٠٧-٧٠١، ٧٤٠-٧٤١، ٧٤٤-٧٤٥.

(٣) M.Noht, op.cit., p. 226-227.

في إسرائيل، حتى يستطيع الملك أن يعفى من متاعب الحصول على الموافقة الشرعية، سواء فيما يختص بتعاقب الملوك، وبخاصة في أوقات المحن، أو حتى في أمور التشريع الهامة^(١).

ومنها (ثانياً) أن الملوك سمحوا ببناء للتنظيم القبائلي القديم بالبقاء، ومن ثم فقد استمر الشيوخ - وهم رؤساء العائلات الرئيسية في إسرائيل - يناقشون أمور مدنهم الهامة، ويصدرون الأحكام في بعض القضايا، كما كان «أخاب» ملك إسرائيل يشاور الشيوخ في عظام الأمور^(٢).

غير أن قيادة الملك الإسرائيلي للجيش إبان الحروب، إنما قضت تدريجياً على الأسر والقبائل الإسرائيلية التي كانت من قبل هي التي تتولى الدفاع، فتحظى بشرف النصر، واستتبع قيام الملكية وتولى الملك قيادة الجيش إبان الحروب، إنشاء جيش عامل تولى قيادته وتدريبه رجال من قبل الملك، ويدينون له ولعرشه بالولاء، كما حرص الملك على إسناد المناصب الرئيسية في الجيش إلى أقاربه والمخلصين له ولبيته، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نجد شيوخ القبائل أو البطون لا يبلغون مكائتهم عن طريق منزلتهم من أهل القبيلة أو السبط، بل عن طريق النفوذ الملكي ودرجة إخلاصهم للعرش^(٣).

ومنها (ثالثاً) أن الملك الإسرائيلي كان يقوم بتعيين موظفين لجباية الضرائب، وزيادة عدد القوات العسكرية، ورغم أن القوم إنما كانوا يطلبون أن يحكم الملوك في قضاياهم مباشرة، غير أن منفذى الأحكام التي يصدرها الملوك، إنما كانوا يقيمون وسط ذوى قرياهم، وليست هناك رابطة مباشرة بينهم وبين الملك أو أتباعه^(٤).

(١) صموئيل ثان ١٦: ١٨، ملوك أول ١: ٤٠، ٢: ٥، ١٢: ١-١١، ملوك ثان ١١: ٤-٢٠،
A. Lods, op.cit., p. 372-373.

(٢) ملوك أول ٢٠: ٧-٨، ٢١: ٨-٤، ملوك ثان ١٠: ١-٥.

(٣) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٧٢.

(٤) ملوك ثان ٤: ١٣، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 395.

غير أن أيلولة القضاء إلى الملك إنما قد جردت أولئك الذين كانوا يباشرونها من رؤساء الأسباط والكهنة منها، وهكذا نجد الملك في المجتمع الإسرائيلي يصبح قاضياً، وباسمه تصدر الأحكام، حتى أصبح لفظ «قاضى» مرادفاً للفظ «ملك»^(١).

ومنها (رابعاً) أن الأنبياء كثيراً ما كانوا يثيرون سخط الملوك - حتى الأتقياء منهم - بسبب السلطة التي كان معترفاً بها لهم في الحكم على حسن الأفعال وقبحها، وفي لوم الملوك أنفسهم عندما يتعارض سلوكهم العام أو الخاص، مع ما قرره الأنبياء، وهكذا نقرأ في التوراة أن الملك «أساء» (٩١٣-٨٧٣ ق.م) إنما قد حكم طبقاً للشريعة، ولكنه وضع «حناني» في السجن، لأنه تجرأ على لومه علانية لوماً شديداً للاتفاق الذي عقده مع ملك الآراميين^(٢).

وعلى أي حال، فلم يكن هناك دستور محدد لحقوق الحاكم أو ذوى قرياه، ولم يكن قانون الملكية، الذي جاء في سفر التثنية من التوراة^(٣)، لم يكن أكثر من ترخيص سياسى بقيام الملكية، وهو - على أي حال - ينتمى إلى مرحلة لاحقة، من الواضح أنها أضيفت فيما بعد إلى القانون التثنوى، كما يبدو من نص التثنية (١٧: ١٨-٢٠)

(١) انظر: تثنية ١٧: ٩، ١٢؛ ملوك ثان ١٥: ١٥؛ إشعياء ١٦-٥.

(٢) ملوك أول ١٥: ١١-١٤؛ أخبار أيام ثان ١٦: ٧-١٠؛ باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٢٤.
 (٣) جاء في هذا القانون: «متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت اجعل على ملكاً كجميع الأمم الذين حولي، فإنك تجعل عليك ملكاً، الذي يختاره الرب إلهك، من وسط إخوتك تجعل عليك ملكاً، لا يحل لك أن تجعل عليك رجلاً أجنبياً، ليس هو أختاك، ولكن لا يكثر له الخيل، ولا يرد الشعب إلى مصر كي يكثر الخيل، والرب قد قال لكم لا تمردون ترجون في هذا الطريق أيضاً، ولا يكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه، وفضة وذهباً لا يكثر له كثيراً، وعندما يجلس على كرسي مملكته يكتب له نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين، فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته، لكي يتعلم أن يتقى الرب إلهه، ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها، لئلا يزيغ قلبه على إخوته، ولئلا يبعد عن الرصية يميناً أو شمالاً، لكي يطيل الأيام على مملكته هو وبنوه في وسط إسرائيل (تثنية ١٧: ١٤-٢٠).

ويصف المصدر المعاصر لحكم الملكية النبي صموئيل بأنه قد أندر الملاء من قومه بغض الرب، إن هو رضى فملك عليهم ملكاً، ذلك أنه كان منتظراً أن تظهر في ملوك إسرائيل كل مظاهر البذخ والإسراف التي كانت تقترن بها حياة الملوك السابقين، فضلاً عن المجاورين لهم من أم لها ملوك، كان منتظراً أن يسخروا الشباب لصنع الأسلحة وحملها، والاشتباك في الحروب، وخدمة العرش، وكان منتظراً كذلك أن يسخروا بنيتهم لفلاحة أراضيهم، وأن يأخذوا من بناتهم وزوجاتهم «عطارات وطباخات وخبازات» وكان منتظراً أن تفرض الضرائب الثقيلة على الحقول والكروم، وحتى البهائم والغنائم^(١).

ويشهد قلق «حزقيال» (٥٩٣-٥٧٢ ق.م) على وجود هذه الأخطاء التي حذر منها «صموئيل النبي» بغية عدم تكرارها، وبالرغم من أنه حتى «أخاب» إنما قد أجبر على أن يلجأ إلى الاتهام الباطل الذي اتبعه في الحصول على بساتين كروم «نابوت» اليزرعيلي^(٢)، فإن سلطة الملك إنما قد أجبرت فقط على التخلي مظهرياً عن المبدأ القائل بأن ما يرثه الفرد عن أسلافه لا يصح أن ينتهك^(٣).

وأيما ما كان الأمر، فلقد ساعد قيام الملكية في إسرائيل على إيجاد حكومة مستقرة، نجحت في الحفاظ على الأمن في ربوع البلاد، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأنه طوال فترة حكم الشعب لم تنشب إلا حرب أهلية واحدة، وأشفق المنتصرون على خصومهم المهزومين، إلى حد أنهم ساعدوهم بكل الوسائل على استرداد كرامتهم وقوتهم الأولى^(٤).

ولكن عندما استبدل الشعب - الذي لم يكن مهيباً للخضوع للسلطة

A. Lods, op.cit., p. 395.

(١) صموئيل أول ٨: ١٠-١٥، وكذا:

(٢) ملوك أول ٢١: ١-٢٩.

A. Lods, op.cit., p. 396.

(٣)

(٤) قضاة ١٩: ١-٢: ٤٨.

الملكية - نظامًا ملكيًا بالنظام الأول، توالى الحروب الأهلية دون توقف، ووقعت معارك رهيبة لم يحدث مثلها حتى ذلك الحين، فقد قتل محاربو «يهوذا» خمسمائة ألف من محاربي «إسرائيل» في معركة واحدة^(١) (وهو أمر لا يمكن تصديقه بحال من الأحوال)، وفي معركة أخرى، أباد محاربو إسرائيل بدورهم عددًا كبيرًا من سكان يهوذا، وأسروا الملك، وهدموا جزءًا كبيرًا من حائط أورشليم، وسلبوا المعبد كله، ثم رجعوا بغنائم عظيمة، بعد أن ارتوا من دماء إخوتهم اليهوديين، وأخذوا منهم رهائن كثيرة^(٢)، وبعد بضع سنوات استعادت يهوذا قوتها، وسرعان ما نشب القتال بينها وبين إسرائيل، في معركة حامية الوطيس، كتب النصر فيها للإسرائيليين على اليهوديين، فقتلوا مائة وعشرين ألف رجل، وأسروا مائتي ألف طفل وامرأة من اليهوديين^(٣).

أضف إلى ذلك أن القوم قبل الملكية إنما كانوا - كما تقول التوراة - ينعمون بفترات من الأمن والسكينة، وصلت إلى أربعين سنة في بعض الأحيان، وإلى ثمانين سنة في أحيان أخرى^(٤)، أما أثناء الملكية فكانت الحروب تكاد لا تنقطع بعد أيام سليمان العظيم - صلوات الله وسلامه عليه - وهكذا نجد المجتمع الإسرائيلي - وبخاصة في الشمال - لا يخرج من دوامة، إلا وتتلقفه أخرى، وتتحول إسرائيل - أو الدولة الشمالية - إلى مسرح للانقلابات السياسية، فلا يكاد يتربع على عرشها ملك، حتى يقتله آخر، ويحل محله، معتقدًا أو مدعيًا، أنه يحرر الشعب، ويأخذ بيده إلى العزة والرفاهية، أما يهوذا، فقد غدت أهميتها السياسية ضئيلة، فانزوت بين تلالها في الجنوب، ولم يجد النفوذ الأجنبي كبير عناء ليمتد إليها في كل شؤونها الدينية والدينيوية^(٥).

(١) أخبار أيام تان ١٣: ١٣-٢٠.

(٢) ملوك تان ١٤: ٨-٢٠، أخبار أيام تان ٢٥: ١٧-٢٨.

(٣) أخبار تان ٢٨: ٦-٨، باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٤) أخبار أيام تان ٣: ٧-٣٠.

وأما علاقة الدولتين - إسرائيل ويهوذا - ببعضهما، فلم تكن في أغلب الأحيان طيبة، فقد كانت الواحدة منهما تريق دماء الأخرى، في نزاع إثر نزاع، من أجل الحدود تارة، ومن أجل سيطرة الواحدة على الأخرى، تارة أخرى، وهكذا كانت منذ البداية «حروب بين رحبعام ويربعام كل الأيام»، وقد ظلت الحروب مشتملة الأوار بينهما، يرثها خلف عن سلف، «وكانت حروب بين أسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما»^(١)، وهكذا نسمع دائماً عن اقتتال إسرائيل ويهوذا بين الفينة والفينة، بل إن التوراة كثيراً ما تختتم حديثها عن كل ملكين متعاصرين في إسرائيل ويهوذا بهذه العبارة «وكانت بينهما حرب كل الأيام».

وأخيراً، فإن الأنبياء الكذبة لم يخدعوا الشعب إلا بعد أن تركت مقاليد الأمور للملوك، والذين كثيراً ما كان الكثير من هؤلاء الأنبياء الكذبة يتملقونهم، هذا فضلاً عن أن الشعب إنما قد اعتاد أن ينتقل بين روح التعالي وروح التواضع، حسب الظروف، كان يستطيع أن يقوم نفسه بسهولة، عندما تحل به المصائب فيتوجه إلى الله، ويعيد للقوانين حرمتها، بحيث لا يتعرض للخطر، أما الملوك، الذين اعتادوا الكبر والغرور، فلم يكن في استطاعتهم أن يطأوا رؤوسهم، دون إذلال لأنفسهم، ولذلك تمسكوا برذائلهم، حتى حلّ الخراب الكامل بالمدينة المقدسة^(٢).

وعلى أي حال، وأياً كان أثر الملكية على شعب إسرائيل، فقد كان هناك - على أيام الملكية - موظفون كثيرون في الدولة، وأعلى هؤلاء الموظفين، إنما كان «المذكير» Mazkir (كاتب أسرار الدولة)^(٣)، و«كاتب الدولة»^(٤)، والذي كان موظفاً هاماً، يوحى بالاحترام، وكانت وظيفته تدوين

(١) ملوك أول ١٤: ٣٠، ١٥: ١٦.

(٢) باروخ سبينوزا، المرجع السابق، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٣) صموئيل الثاني ٨: ١٦، ٢٠: ٢٤، ملوك أول ٤: ٣.

(٤) صموئيل الثاني ٨: ١٧، ٢٠: ٢٤، ملوك أول ٤: ٣.

الحوادث الهامة، وحفظ الحوليات الملكية، التي كانت دون شك أساس كل الإشارات الحقيقية في التوراة للنظام الإداري والبناء الاجتماعي (في عهد داود مثلاً)، ومن بينها الإشارة إلى التعداد القومي الكبير، فضلاً عن الإشراف على جميع المراسلات بين الملك وموظفيه، وكذا مع الأمراء الأجانب.

وهناك من الموظفين المرموقين كذلك، رئيس السخرة، ورئيس الجلادين، وصاحب الملك، وعبد الملك، ومدير البيت، ورجال التشريف، وموظفو الحرم، هذا فضلاً عن اثني عشر موظفاً كانوا يتولون الأمور المالية، أما موظفو الحاشية فكانوا كثيرين، فمنهم الساقى والموكل بالملابس وغيرهما، أما حاكم المحافظة فكان ضابطاً، وكان يشرف على شئون محافظته، فضلاً عن جمع الضرائب التي يحتاجها الملك^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن سليمان - عليه السلام - إنما قد عمل على تفتيت أى تحالف بين القبائل، ومن ثم فقد مزق الحدود القديمة التي كانت تفصل بين قبيلة وأخرى، ثم قسمها إلى اثنتي عشرة محافظة، تختلف في حدودها عن الحدود القديمة للقبائل الاثنتي عشرة، وفرض على كل محافظة إعاشة الملك وحاشيته وجيشه وخيله شهراً في السنة^(٢).

ومن المعروف أن مملكة «شاؤل» كانت بسيطة، ومن ثم فلم يحرص شاؤل على فرض ضرائب جديدة من أجل جيشه، كما أنه استمر يعيش من عمله في حقله الخاص، ولم يتخذ لنفسه قصرًا أو بلاطاً مترفاً، وكان في

(١) صموئيل الثاني ٨: ١٨، ملوك أول ٤: ٥-٦، ١٠: ٥، ٢٢: ٩، ملوك ثان ٨: ٦، ٩: ٢٢،

١٠: ٢٢، أخبار أيام أول ٢٧، إشعياء ٣: ٣، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٢) صموئيل ثان ٩: ٩، ١٣: ٢٢، ١٦: ١ وما بعدها، ٢٥: ١٩ وما بعدها، وكذا:

O. Eissfeldt, CAH, II, Part 2, Cambridge, 1975, p. 591; A. Lods, op cit., p.371.

أول كل شهر، وعند مشرف كل قمر جديد، يقيم مأدبة في منزله يدعو إليها ضباطه، ويجلس في صدارتها على مقعد، مستنداً على الحائط، وإلى يمينه حريته، كما أنه اعتاد أن يعقد مجلس الحرب في ظلال الشجرة المقدسة في «جبعة»، وظل حكمه في مظاهر كثيرة ملكياً قُبلياً، ولكنه كان أكثر تقدماً مما كان عليه أيام جدعون ويفتاح^(١).

وعلى أي حال، فرغم أننا لا نعرف الكثير عن الشؤون الإدارية في إسرائيل، على أيام داود، فليس هناك من شك، في أن داود إنما كان مسعولاً عن بعض التغييرات الأساسية في شؤون الإدارة، والدليل على ذلك من قائمة الموظفين الكبار، التي جاءت في التوراة - كما رواها سفر صموئيل الثاني^(٢) - وكان كل منهم يدير هيئة من الهيئات الحكومية، يساعده في ذلك دون شك هيئة من الموظفين الصغار، ومن الواضح أن هذا التنظيم قد أصبح تدريجياً، ذلك لأن المقارنة بين القائمة التي قدمتها لنا التوراة في سفر صموئيل الثاني - والتي ترجع على أية حال - إلى الجزء الأخير من عهد داود، وتلك التي قدمتها لنا التوراة كذلك - في سفر الملوك الأول^(٣) - عن موظفي عهد سليمان الكبار، تظهر المقارنة بوضوح تلك الزيادة المستمرة في عدد الموظفين الرئيسيين^(٤).

وأياً ما كان الأمر، فإن الجهاز الحكومي الإسرائيلي يجمع بين التشريع والإدارة، أو بين المدنيين والعسكريين، فموظف الملك كان يمثل جميع السلطات - عسكرية أو إدارية أو قضائية - ومن هنا نجد كيف تجمعت السلطات في يد فرد، ومن هنا فلا عجب إذا وجدنا الأنبياء يوجهون مرّ النقد

(١) صموئيل أول ١٢: ٥٠-٥٢، ٢٢: ٧؛ صموئيل ثان ٤: ٢-٣؛ وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 356-357.

(٢) صموئيل ثان ٨: ١٦-١٨، ٢٠: ٢٣-٢٦.

(٣) صموئيل ثان ٢٠: ٢٢-٢٦؛ ملوك أول ٤: ٢-٦.

M. Noth, op.cit., p. 271.

(٤)

إلى الموظفين، ذلك لأن الموظف إنما كان آلة في يد الملك أو رجاله ينفذون كل ما يأمر به دون إبداء أى اعتراض، فكان الموظف يرتشى وتمتد يده إلى كل ما تصل إليه، فهدف الموظفين إنما هو جمع الثروات فحسب، وفي سبيل ذلك كانوا يقتربون مختلف أنواع الجرائم، فالرشوة والتحيز من الصفات المميزة للموظفين - كباراً كانوا أم صغاراً - ومن ثم فلا عجب إذا تحطمت الوحدة الاجتماعية في إسرائيل إبان عهد النظام الملكي^(١).

وأخيراً، فلعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن اليهودية إنما قد أصبحت - فيما يرى بعض الباحثين - بعد العودة من السبي البابلي في عام ٥٣٩ ق.م، «جمهورية ثيوقراطية»، يحكمها الكهنة الشيوخ^(٢)، وقد أقام «نحميا» (٤٤٥-٤٣٣ ق.م)، و«عزرا» (الذى وصل إلى أورشليم حوالى عام ٣٩٨ ق.م) نظاماً لحكومة تتمتع بالحكم الذاتى فى فلسطين، وكان لها مجل له رئيس يتولى السلطة الإدارية العليا فى البلاد، ويساعده مجلس مكون من الكهنة، وآخر من الشيوخ^(٣).

وفى عهد «سمعان المكابى» (١٤١-١٣٥ ق.م)، الذى عين ملكاً^(٤)، على اليهودية، فأنشأ السنهدرين الكبير، والذى تصفه مصادر غير الأحبار، بأنه مجلس سياسى - يرأسه كبير الكهنة - وفى العهد الرومانى قسمت اليهودية إلى خمسة أقسام صغيرة، يحكم كل منهم «سنهدرين» صغير^(٥).

(١) صموئيل ثان ١١ : ١٤؛ ملوك أول ١٢ : ١٠؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) Ernest Renan, Histoire du Peuple d' Israel, Paris, 1887, p. 40.

(٣) نحميا ٨ : ٩، ١٠ : ٢، وكذا:

J. Finegan, Light from the Ancient Past, Princeton, 1969, p. 238.

(٤) قارن : فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

(٥) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٣١٠، وكذا: F. Josephus, Antiquities, XIV, 5, 3.

وكذا: Martin Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 404-405.

وكذا: Cecil Roth, A Short History of the Jewish People, London, 1969, p. 84-85.



قادش، ومنطقة عبر الأردن - بصفة خاصة - تتناسبان مع الزراعة البسيطة، وأسلوب الحياة الرعوية^(١)، ومن ثم فإن الوافدين الجدد عندما وصلوا إلى كنعان لم تكن الحياة الزراعية صعبة أو عديمة المذاق بالنسبة إليهم، حيث استبدلوا الخيمة بالمنزل، واحتفظ أبناء «يائير» المقيمون في عبر الأردن باسم «حووث يائير» (معسكرات يائير)، ولكننا نعرف من نصوص معينة أنها كانت «مدن عظيمة ذات أسوار»، ومن الواضح أن دائرة خيام الوافدين، تطورت تدريجياً إلى مدن محصنة^(٢).

وتم التغيير بالتأكيد على أيام القضاة، وجاء في رؤيا في قصة جدعون، أن رغيفاً من الشعير إنما كان رمزاً لإسرائيل، بينما تصور العدو الميدياني الباحث عن رزقه على شكل خيمة^(٣)، كما يرمز في قصة «يوثام» الإسرائيلية إلى أعضاء المجتمع النافعين بالزيتونة أو شجرة التين أو الكرم^(٤)، وهكذا أصبح الوافدون الجدد منصرفين بكل حواسهم إلى الزراعة، وهي المهنة التي تربط الفلاح بالأرض^(٥)، وبالتالي بالاستقرار، واعتبروها توجيهات من ربهم «يهوه»^(٦).

واستقر بنو إسرائيل في ربوع كنعان، فاستمر بعضهم على حرفة الرعي خاصة في الهضاب الجنوبية، في حين تحولت غالبيتهم إلى فلاحة الأرض

(١) A. Lods, op.cit., p. 387.

(٢) تنية ٣: ١٤ عدد ٣٢: ٤١؛ يشوع ١٣: ٣٠؛ قضاة ١٠: ٤؛ ملوك أول ٤: ١٣؛ أخبار أيام أول ٢: ٢٣؛ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 387.

(٣) تقول التوراة: «وجاء جدعون فإذا رجل يخبر صاحبه يحلم، ويقول: قد حلمت حلمًا، وإذا رغيف خبز شعير يتدحرج في محلة المديانيين بوجاء إلى الخيمة وضربها فسقطت وقلبها إلى فوق فسقطت الخيمة، فأجاب صاحبه وقال: ليس ذلك إلا سيف جدعون بن يواش رجل إسرائيل، قد دفع الله إلى يده المديانيين وكل الجيش» (قضاة ٧: ١٣-٤٤).

(٤) قضاة ٩: ٨-١٣.

(٥) A. Lods, op.cit., p. 388.

(٦) إشعيا ٢٨: ٢٦.

وزراعة الحبوب، وشرع هؤلاء الرعاة في تطبيق أنظمتهم المتعلقة بالملكية الجماعية للأرض فوزعوا الأراضي المغتصبة على القبائل المختلفة عن طريق القرعة، وحظروا نقل الأنصباء من قبيلة إلى أخرى^(١).

غير أن تطور الاقتصاد من الرعي إلى الزراعة، أدى إلى تبلور نظم جديدة فسرعان ما تلاشت الملكية الجماعية، وظهرت تدريجياً الملكية الفردية، فلقد مكن المحراث الإنسان من الاستقرار نهائياً في الأرض، وتولى زراعة قطعة معينة على سبيل الدوام، واستأثر بإنتاجها دون غيره من الناس، فبدأ يشعر بحقه في البقاء فيها هو وأولاده من بعده، وتبلورت مع الرعي فكرة الملكية الخاصة للأرض، سواء أكانت ملكية أسرة، أم ملكية فردية، وحلت محل الملكية الجماعية للبطن^(٢)، بدليل أن بعض النصوص تقرر لأقارب البائع حق استرداد الأرض المباعة، وتعترف ضمناً بوجود ملكية فردية تصلح محلاً للبيع والشراء، واستمر التحول مثل مد البحر حتى بلغ أقصاه ونشأ الإقطاع ثم تضخم، وتمثل بالتالي في الناس عنصر الثروة والتميز بينهم طبقاً لها^(٣).

ويدهى أن الإسرائيليين إنما قد أخذوا الزراعة عن الكنعانيين، وأصبحوا بالتدريج مجتمعاً زراعياً خالصاً، وكانت صادرات البلاد من القمح والعسل والزيت والتوابل والدهن وما إلى ذلك، وكانت ترسل هذه المحاصيل إلى فينيقيا على وجه الخصوص، إذ كانت فينيقيا ليس لديها غير أرض ضيقة لا تكفي لإعاشة مدنها الكبيرة، وتأتى فينيقيا إلى بلاد اليهودية في مقابل ذلك ما تصنعه في مصانعها أو ما تأتي به من العالم، الذي كانت ذات علاقة به، من الحلى والرياش والسلاح والنسيج والخشب والعاج^(٤).

(١) عدد ٢٦: ٥٢-٥٦، ٣٣: ٥٤، ٢٤: ١٣، ٣٦: ٩ وكذا: A. Lods, op.cit., p. 449-450.

(٢) ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١١٢، صوفى حسن أبو طالب، مبادئ تاريخ القانون، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤٩-٨٧.

(٣) لاويون ٢٥: ٢٤-٢٦، راعوث ٤: ٤، ثروت الأسيوطي، المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠.

(٤) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٤-٤٥.

وقد دفع سليمان ما عليه من دين لحليفه «حيرام» ملك صور من القمح والزيت، وكانت زراعة الكروم منتشرة لدرجة أن الشعراء إنما كانوا يصورون الأمة على شكل «كرمة» ومن الجدير بالملاحظة أن الكروم والتين والزيتون من الثمار التي اشتهرت بها فلسطين منذ القدم، كما أن الجلوس في ظلها باعث على الهدوء والسلام^(١).

وكان الإسرائيلي يستخدم المحراث في حرث الأرض، ثم بعد ذلك يمهدها، ويزع فيها أحيانا أكثر من صنف، أما الحصاد فكان يتم بالمنجل، ثم يحمل عادة إلى تل مرتفع ويدرس بالنورج، وأحيانا كان يؤتى بالثيران أو الحمير، وترك على الحصاد فتهرسه وتدرسه، وهناك نوع آخر من وسائل الدرس، وهي العربة (وتسمى العجلة)، أما إذا كانت الكمية صغيرة فيكتفى في درسها بدقها بالعصا، ثم تدرى الحبوب بالمدرى وتحفظ بعد ذلك في حفر في الحقل، تعرف باسم «مطونيم»، أما «التين» فيقدم طعاماً للماشية بجانب الشعير^(٢).

وقد لعبت الصناعة دوراً صغيراً في الحياة الاقتصادية عند بني إسرائيل، إذ كانت تقوم على عددٍ صغير من الحرف ذكرت في الأدب العبراني، فقد كانت كتعان بلدًا زراعيًا خاليًا من الصناعة، مما اضطر سليمان إلى أن يحضر الصناع من صور، والنجارين من بيبلوس، عندما أراد بناء معبده^(٣)، وعلى أي حال، فلقد كان الحرفيون في الغالب في القرى والمدن المحصنة هم «الحدادون»، ولم يوجد في إسرائيل حرفيون مهرة في كثير من الفنون^(٤)،

(١) ملوك أول ٥: ٥، هوشع ٢: ١٠، ١٤؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٢) تثنية ٢٢: ١٩، لاويون ١٩: ١٩، قضاة ٦: ١١، أيوب ٣٩: ١٠، إشعياء ٢٨: ٢٤، ٢٧: ٤١؛
١٥، ٤٨: ٢٤، إرميا ١٥: ٧، ٤١: ٤٨، عاموس ١: ٣؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢٥.

A. Lods, Israel From its Beginnings to The Middle of the Eighth Century, (٣)
London, 1962, p. 370.

(٤) صموئيل أول ١٢: ٢٠-٢١.

فقد كان بنو إسرائيل عاطلين، حتى فى إبان أبهتهم، عطلا تامًا من العمال المهرة، ومن هنا فقد طلب سليمان من حليفه «حيرام» أن يرسل إليه نجارين «لأنه ليس بيننا من يعرف قطع الخشب»^(١) وأن يرسل إليه كذلك «رجلا حكيمًا فى صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والأرجوان والقرمز والأسمانجونى، ماهرًا فى النقش»^(٢)، فى مقابل أن يعطيه «عشرين ألف كر من الحنطة، وعشرين ألف كر شعير، وعشرين ألف بث خمر وعشرين ألف بث زيت»^(٣).

وكان النجار فى إسرائيل يعمل فى نفس الوقت صانعًا للأثاث، وبناء وحفارًا وخطابًا، وقد مارس - دون شك - العمل فى المعادن والحجارة، إلى جانب مهنته كعامل فى قطع الأخشاب، وذلك لأن كلمة «حرش» Ha-rash، إنما تشير إلى ذلك العامل الذى يعمل فى هذه المهن الثلاثة، والفرقة بين الواحدة والأخرى من هذه المهن، كان يجب أن يضاف إليها ما يميزها عن غيرها^(٤)، كأن تقول «عامل فى الحديد»^(٥) و«نجار فى الخشب»^(٦)، و«عامل فى الحجر»^(٧) و«بناء» أو «صانع الحائط»^(٨).

وبالإضافة إلى هؤلاء الحرفين غير المتخصصين، كان هناك «صانع الفخار» الذى قلد النماذج الأجنبية بأسلوب بدائى، وقد كان هناك صانع الفخار فى أورشليم^(٩)، ولكن يبدو أن الجهات التى كانت فى مجاورات حبرون وبيت جيرين، إنما كانت تشتهر أكثر من غيرها بصناعة الفخار، بسبب وفرة الصلصال هناك، ويبدو أن معظم مقابض الفازات، التى تنتمى إلى القرن السابع قبل الميلاد مختومة بأسماء مدن كحبرون وسكوت، فضلًا

(٢) أخبار أيام ثان ٧: ٢.

(١) ملوك أول ٦: ٥.

(٤) A. Lods, op.cit., p. 389.

(٣) أخبار أيام ثان ١٠: ٢.

(٦) صموئيل ثان ١١: ٥، إشعيا ٤٤: ١٢-١٣.

(٥) أخبار أيام ثان ١٢: ٢٤.

(٧) صموئيل ثان ١١: ٥، أخبار أيام أول ١٥: ٢٢، (٨) أخبار أيام أول ١٤: ١.

(٩) إرميا ١٨: ٢-٤.

عن عبارة «من أجل الملك» على أساس أن هناك من هؤلاء الصناع من كانوا يقيمون في القصور الملكية، هذا إلى جانب أن بعضاً من صناع الفخار إنما كانوا يحفرون أسماءهم على سلعمهم^(١).

ومن البدهي أن التخصص في الحرف، إنما كان في المدن أكثر منه في القرى وكان يزود أورشليم خبازون محترفون يعيشون في أحياء خاصة (سوق الخبازين)^(٢) وكان هناك من يعملون في صناعة الحلوى من الذهب، وكان الصائغ عادة يذيب الذهب والفضة ليجعل المعدن أكثر طواعية لصياغته، وذلك بإضافة البورق إليه وكان القوم يصنعون من الذهب الخواتم والأسوار والحجول، كما كان الصائغ خبيراً باللحام، وباستخدام خيوط الذهب في الأقمشة^(٣)، التي استوردها في عصر سليمان من «أوفير»^(٤).

وكان هناك سقاعون يجلبون المياه للبيوت، كما كان هناك نساجون يعملون في صناعة الأقمشة الشعبية، أما الأقمشة الرفيعة فكانت تستورد من مصر وسورية وبابل، وما أن يمضى حين من الدهر، حتى تبدأ النساء في غزل الكتان والصوف وطبقاً لرواية «المشاة» فقد انتقل النول المصري إلى فلسطين، وبمرور الأيام بدأ الإسرائيليون ينسجون الأقمشة الملونة، وقد يستخدمون خيوطاً ذهبية في الأقمشة الفاخرة^(٥).

وكان هناك من يحفرون على الأختام الشمعية، مثل ختم «شما»

(١) A. Lods, op.cit., p. 389.

وكذا: P. Schwalm, La Vie Privae du Peuple Juif, p. 233-234.

على أن هناك من يحدد الفترة (٦٥٠-٥٠٠ ق.م) انظر: H. Vincent, JPOS, I, p. 64.

وهناك من يحدد الفترة (٧٢٧-٦٤٣ ق.م) . انظر: R. Dussand, Sy, 1925, p. 338.

(٢) لرميا ٣٧ : ٢١ .

(٣) خروج ٢٨ : ١٦ ؛ إشعيا ١ : ٢٥ ، ٤١ : ٧ .

(٤) عن موقع أوفير انظر: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني «التاريخ»، ص ٧٨٢-٧٩٢ .

(٥) يشوع ٧ : ١١ ، خروج ٢٨ : ٥ ، ٣٩ : ١٢ ، حزقيال ٧ : ١٢ ، ٢٧ : ١٧ ، صغنيا ١ : ٨ ، فؤاد حسنين،

المرجع السابق، ص ١٣٠-١٣١ .

Shema - خاتم الملك يربعام - وهو خليط من العناصر البابلية (الأسد) والمصرية (عنخ) والفلسطينية (النقش)^(١)، وهناك صناعة العطور، حيث ظهرت مجموعة العطور المحترفين في القرن السابع قبل الميلاد^(٢).

هذا وقد ذكر الحديد كثيراً في صناعة الآلات أيام عصر داود، كما استخدم في صناعة الأبواب، وذكرت في سفر أيوب الدروع الحديدية والسلاسل والفئوس والمسامير والمقابض، وكان الإسرائيليون على علم بأفران صهر الحديد والنحاس في عصبون جابر^(٣).

وفي الواقع، فلقد كان موقع «عصبون جابر»^(٤) اختياراً موفقاً، في مكان لم يسبق من قبل، بين تلال أدوم من الشرق، وتلال فلسطين من الغرب، وحيث يمكن الإفادة إلى أقصى الحدود من الريح التي تهب من الشمال، بحيث تبلغ غاية سرعتها في وسط وادي العربة، وذلك للانتفاع بها في تأجيج النار اللازمة للتكرير، هذا فضلاً عن أن «أدوم» وكل المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة غنية بالنحاس والحديد، ونقرأ في التوراة عن «أرض حجارتها حديد، وفي جبالها تحفر نحاساً، ومن هنا كانت «عصبون جابر» - بجانب وادي عربة والنقب - مركزاً لصهر النحاس والحديد في عصر سليمان، الذي وصفه «نلسون جلوك» بأنه «ملك النحاس العظيم»^(٥).

(١) A. Lods, op.cit., p. 390.

R. Dussaud, Sy, 1925, p. 108. وكذا:

(٢) صموئيل أول ٨: ١٣، نحميا ٣: ٨، وكذا:

(٣) تثنية ٤: ١٠، ١٩: ١٥، صموئيل أول ١٧: ١٥، صموئيل ثان ١٢: ٣١، ٢٢: ٣٥، ملوك أول

٨: ٥١، مزمو ١٤٩: ١٩، ٢٤: ٢٠، ٢٤: ٢٤، ملوك ثان ٦: ١٥، إشعيا ٤٥: ٢٢، لرميا ١٥:

١٢، عاموس ١: ٢٣، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٤) انظر عن موقع عصبون جابر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٧٩٢، ط ١٩٧٨م.

(٥) تثنية ٨: ٩، وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 594. وكذا: J. Finegan, op.cit., p. 181.

وكذا: W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, 1953, p. 133F.

وكذا: N. Gbueck, The Other Side of the Jordan, N.Y., 1940, d, 89F.

وقد اكتشف «سير فلنדרز بتري» في «جمعة» معامل لاستخراج الحديد، أصغر كثيراً من تلك التي في «عصيون جابر»، ويبدو أن داود كان قد نازع الفلسطينيين حقهم في احتكار الحديد، وأخذ عنهم طريقتهم السرية في صهره كضمن لهزيمتهم، ومن ثم فإن مخزونات النحاس والحديد قد استخرجت وصهرت في عهد سليمان بدرجة كبيرة^(١).

وأما التجارة، فقد كانت بسيطة في إسرائيل، لأن التاجر الإسرائيلي لا يملك سلعة للتصدير يمكن أن تقوم عليها تجارة ناجحة، ولكنه في موقع يمكن أن يتصرف منه كوسيط، وقد أدرك سليمان هذه الحقيقة فاشتغل بتجارة الخيول.

ولم تفلت تجارة المرور، التي كانت من قبل حرة من يد سليمان، ومن ثم فقد احتكرها وفرض عليها إتاوة، محتجاً ببعض الطرق التي عبدها، وزودها ببعض المحطات، وهكذا كانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية، والمحملة بالتوابل من تلك البلاد، خاضعة لدفع الرسوم، عندما كانت تمر بأراضي مملكة إسرائيل^(٢).

وعلى أي حال، فرغم أن بعض الملوك - من أمثال سليمان^(٣) وأخاب^(٤) ويهوشافط^(٥) وعزريا^(٦) - قد بذلوا جهداً كبيراً لتنمية التجارة، فإن إجمالي التجارة الدولية - فيما يبدو - إنما بقى في أيدي الفينيقيين والعرب، وأن نشاط الإسرائيليين التجاري في فلسطين، إنما كان محدوداً

(١) وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ص ١٢٨، وكذا: W. Keller, op.cit., p. 198-199.

(٢) فيلب حتى، المرجع السابق، ص ٢٠٧؛ فؤاد حنين، المرجع السابق، ص ٢٣٨، وكذا:

A. Lods, op.cit., p. 370.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٧٥٧-٧٩٢.

(٤) ملوك أول ٢٠: ٣٤.

(٥) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٩٥٩-٩٦٠.

(٦) أخبار أيام ثان ٢٦: ٢.

للاغاية أثناء عهد الملكية وحتى نهاية الدولة اليهودية في فلسطين، وقد اقتصر على بيع المنتجات الزراعية والماشية والأرض (١).

وهكذا كان النشاط التجاري في إسرائيل القديمة أضيق نطاقاً وأبسط نظاماً إلى حد بعيد عن نظيره في أرض الرافدين، حيث ينبئ قانون حمورابي وغيره من القوانين عن درجة عالية نسبياً من التطور الصناعي والتجاري، فكان العبريون يزاولون البيع والشراء بطريقة شديدة البساطة، ولم يكن يلزم - فيما يبدو - تحرير عقد مكتوب، كما كان الحال في بابل، وأول عقد من هذا النوع يذكر العهد القديم، إنما كان في سفر متأخر، هو سفر إرميا، وعلى أي حال، ففي حالة عدم وجود عقد مكتوب، إنما تجب شهادة الشهود، حتى يضمن على نحو فعال احترام العقد الشفوي.

وكانت الديون والقروض تعالج في النظام العبري القديم على نحو بالغ السذاجة، فقد كانت مثل هذه العمليات التجارية شديدة البعد عن مزاج الشعب، ويمكن القول بوجه عام، أن التشريع العبري في مثل هذه الأمور يدل على ميل إلى حماية الفقير، لتحقيق العدالة الدينية والخلقية، وكان الربا محرماً تحريمًا صريحاً - مع أنه عملهم المفضل تجاه الأجانب في كل زمن، وكان مبدأ التضامن القومي الزاجر القوى الوحيد الذي يضع حداً لجشع اليهودي - وهكذا كان الإقراض مقابل رهن بقيود، تخفف منه إلى أبعد حد ممكن، وفي كل سنة يعتق جميع العبريين، وكان يتنازل أيضاً عن كل الديون (٢).

وظل المجتمع الإسرائيلي في هذا الوضع حتى جاء السبي البابلي (٥٨٧-٥٣٩ ق.م) فانتزعه من الزراعة إلى التجارة، بسبب انتقال

(١) عاموس ٨: ٥، هوشع ١٢: ٨-٩.

(٢) خروج ٢٢: ٢٥-٢٧، إرميا ٩: ٣٢-٣٤، ٨: ١١، سبتينو موسكاتي، المرحع السابق،

الإسرائيليين إلى مملكة بابل، حيث كانت الحياة التجارية هناك قد استكملت كل مقوماتها، وإن كان هذا لا يعني أن اليهود إنما كانوا جددًا في ميدان التجارة، إذ كانت لهم خبرتهم منذ أيام سليمان، حتى أصبحت أورشليم وقت ذلك من أنشط أسواق التجارة في الشرق الأدنى القديم، على أن الخبرة اليهودية في ميدان التجارة إنما كانت في حدود ضيقة، بسبب اشتغال القوم بالزراعة، وربما بسبب الاضطرابات التي سادت معظم أيام دولتهم في اليهودية، وعلى أي حال، فلقد كانت تجربتهم التجارية في بابل نواة لنشاطهم المعروف في العالم في هذا المضمار^(١).

وهناك أساس للاعتقاد بأن التجار والمرابين كانوا من الأوساط اليهودية في بابل، الفئة الأكثر نفوذًا اقتصاديًا، ذلك لأن النصوص إنما تشهد على أن النازحين اليهود قد اشتركوا اشتراكًا نشطًا في الحياة التجارية، ومارسوا عملية التسليف بالربا، وقد كانت هذه العملية متبعة بشكل واسع بين سكان بابل^(٢).

N. Ausubel, The Book of Jewish Knowledge, p. 126.

(١)

(٢) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ١٠١٤-١٠١٦، وكذا:

L. Brentano, Das Wirtschaftsleben der Antikem Welt, 1929, p. 80.

(٢) التنظيم القضائي

اتبع الإسرائيليون نوعين من التقاضي - أعنى الكهنوتي والقبلي - فالكاهن أو النبي إذا ما عرضت عليه مشكلة من المشاكل، استشار الله فيوحى إليه بما يوحى، هكذا فعل موسى، ووظيفة الكاهن إرشاد الشعب إلى اتباع التعاليم الدينية والأحكام الشرعية، أما القضايا الصغيرة فكان يكتفى المتخصصان بعرضها على شيوخ الأسرة أو القبيلة، الذين يباشرون عادة نظر مثل هذه الدعاوى، وتنص التوراة أن هذا النظام التشريعي أوجده موسى في المجتمع الإسرائيلي استجابة لرأى «يثرو» كاهن مدين، وأن موسى نفسه، إنما كان القاضي الأعلى لشعبه، وأنه عين من بين الشيوخ وزعماء القبائل المختلفة، قضاة تابعين له على طوائف الشعب المختلفة^(١).

وفي عصر الملكية كانت السلطة القضائية تابعة للملك، فهو قاضي القضاة، وهو المرجع الأخير للأحكام، كما يتبين من قصة المرأة التقوعية^(٢)، ومن القضايا الأخرى التي كان يتقدم بها أصحابها إلى الملك مباشرة للفصل فيها، غير أن الملك إنما كان يخلع دائماً سلطته القضائية على الكهنة^(٣).

وبعد موت سليمان في عام ٩٢٢ ق.م، وانقسام الدولة إلى قسمين (إسرائيل ويهوذا) كانت سلطة القضاء في أيدي الأعيان المحليين، غير أنه في مملكة يهوذا، قام الملك «يهو شافط» (٨٧٣-٨٤٩ ق.م) بإصلاح القضاء، وذلك بأن أقام في كل مدينة محكمة تتألف من «لاويين» وقضاة

(١) خروج ١٨: ١٠، ١٩-٢٠، عدد ١١: ١٦، تثنية ١: ١٥، ٣٣: ١٠، سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٢؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) خلاصة القصة أن امرأة من تقوع مات زوجها، وترك لها ولدين، فقتل أحدهما الآخر في الحقل، وحين طلب منها شيخ المدينة تسليم القاتل لقتله جزاءً وفاقاً على ما ارتكبت يدها، فشكت للملك داود، لأن في هذا الحكم هلاك ولديها الاثنين، فعلم الملك أن المراد عودة ولده أبسالوم الذي قتل أخاه أمنون، ومن ثم فقد وافق على ذلك. (صموئيل ثان ١٤: ١-٣٣).

(٣) تثنية ١٧: ٩؛ صموئيل ثان ١٥: ٢؛ ملوك أول ٣: ٦.

مدنيين، فضلا عن إنشاء محكمة عليا في أورشلين (القدس)، وبعد العودة من السبي البابلي، أعاد «عزرا» تنظيم القضاء، الذي أصبح - آخر الأمر - في أيدي «السنهدرين» Sanhdrin^(١).

وكانت الإجراءات القضائية في منتهى البساطة، فكان القضاء يجلسون عند مدخل المدينة، حيث يجتمع القوم للبيع والشراء في السوق^(٢)، ومن ثم فإنشاء قاعة للمحكمة في حجرة بالقصر الملكي في أورشلين، إنما كان من تجديرات سليمان العظيم، وعلى أى حال، فلقد كان الخصمان يمثلان أمام القاضى، ويدافعان كل عن موقفه، وإذا لم تكن هناك دعوى، لم تكن هناك محاكمة، فعجلة القانون كانت لا تدور إلا بناء على طلب^(٣).

وكان التحقيق القضائي يتم شفويا، وكان لا بد لإقامة دليل، باتفاق شاهدين على الأقل، ويستثنى من إحضار الشهود الوالد الذى يطلب إصدار حكم بإعدام ولده العاق، وينص القانون صراحة على أن كل دعوى يجب أن تؤخذ فيها شهادة شاهدين على الأقل، وأقوال الشاهد الواحد لا تكفى لإدانة المتهم، واستصدار الحكم بإعدامه، ويروى المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» أن القوم ما كانوا يقبلون شهادة النساء والعبيد.

وكان على القاضى مناقشة الشاهد، والتأكد من صدق شهادته، وكان من حق القاضى أن يوقع على شاهد الزور، نفس العقوبة التى كانت ستوقع على المتهم، إذا ما ثبت عدم صحة شهادته^(٤)، وثمة موضع فى سفر التثنية يدل على أن الواجب إنما كان يقضى بتنفيذ العقوبة بعد الحكم مباشرة، وأمام عيني القاضى الذى أصدر الحكم^(٥).

(١) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٢.

(٢) تثنية ٢١: ٩. (٣) سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٢.

(٤) تثنية ١٧: ٦، ١٩: ١٨، عدد ٣٥: ٣٠، متى ١٨: ٦؛ فؤاد حستين، المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٥) تثنية ٢٥: ٢.

ومع ذلك تدلنا قصة «نابوت» اليزرعيلى وبستان كرمه، على أنه لم يتعذر على القوم من بنى إسرائيل إدانة رجل برئ، وذلك بالتحريض على الشهادة زوراً ضده، فلقد نجحت الملكة «إيزابيل» فى تحريض رجلين على الشهادة زوراً بأن «نابوت» قد جدف بالله والملك، ومن ثم فقد حكم عليه بالموت، فرجم بالحجارة حتى مات، وأخذ الملك «أخاب» بستانه^(١).

وكان المبدأ السائد فى قانون العقوبات الإسرائيلى، هو نفس المبدأ السائد عند كل الساميين، وهو «العين بالعين، والسن بالسن»^(٢)، فضلاً عن شريعة الكهنة «كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن»^(٣)، ويثبت «كتاب العهد» صراحة قانون القصاص، على أنه المبدأ الأساسى لقانون العقوبات، وهذا المبدأ إنما يكرر ويؤكد كثيراً فى مواضع مختلفة من التشريع العبرى، وهو مأخوذ عن عادة سادت النظام القبلى القديم، وقد ورد هذا القانون فى «قانون حمورابى»^(٤) (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م)، فاستقر فى تشريعات الشرق الأدنى القديم.

وقد يستبدل حكم القصاص بالدية إذا ما اتفق الطرفان المتخاصمان، إلا فى حالة الضرب المفضى إلى الموت أو القتل، «فلا تأخذوا فدية عن نفس القتال المذنب للموت، بل إنه يقتل»^(٥)، وإذا كان القتال عن غير عمد

(١) ملوك أول ٢١ : ١-٢٩، وكذا:

T.H. Robinson, A History of Israel, I, 1932, p. 300-301.

A. Lods, The Prophets and the Rise of Judaism, London, 1937, p. 64. وكذا:

(٢) خروج ٢١ : ٢٤، تثنية ١٩ : ٢١.

(٣) لاويون ٢٤ : ٢٠.

(٤) انظر عن قانون حمورابى: نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء السادس،

ص ٥٩-٨١، عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، ص ٤٦١-٤٦٧، وكذا:

محمد بيومى مهران، العراق القديم، الإسكندرية ١٩٩٠، ص ٢٣٨-٢٨٣، وكذا:

Theophile J. Meck, The Code of Hammurabi, ANET, 1966, p. 163-180.

(٥) عدد ٣٥ : ٣١.

يستطيع الانتفاع بحق اللجوء إلى حمى ولم يكن هذا الحمى مقصوراً على المباني والأماكن المقدسة، فسفر الثنية^(١) يذكر بناء مدن تكون ملاذاً يحمي به، وطالب الثأر من قاتل غير عامد كان يحق له المطالبة بإخراج القاتل من حماه، ولكن سفر العدد ينص صراحة، على أنه إذا وجد القاتل حمى يلوذ به، فإنه لا يحق لولى الدم أن يلجأ إلى العنف، وينصب نفسه قاضياً في قضية هو خصم فيها، وإنما يجب أن تفصل الجماعة فيما إذا كان القتل عمداً حقاً، أو عن غير عمد^(٢).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن شريعة «السن بالسن، والعين بالعين» إنما كانت تطبق تطبيقاً معنوياً، بمعنى أنه إذا اقتترف عضو من أعضاء الجسم خطيئة ييتر هذا العضو، كأن تقطع يد الابن التي تمتد إلى الوالد وتصفعه^(٣)، أو يد المرأة التي تمتد إلى عورة رجل لإيذائه، تقول التوراة: «إذا تخاصم رجلان بعضهما بعض، رجل وأخوه، وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه، ومدت يدها وأمسكت بعورته، فاقطع يدها، ولا تشفق عينك»^(٤).

هذا ولم يكن بنو إسرائيل يطبقون شريعة السن بالسن على العبيد، ففي حالة قتل عبد - مثلاً - يجب على القاتل أن يدفع لسيدته ثمنه^(٥)، وإذا تسبب السيد في إتلاف عين العبد، أو سن من أسنانه، وجب عليه عتقه، تقول التوراة: «إذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أخته فأتلفها يطلقه حرّاً عوضاً عن عينه، وإن أسقط سن عبده أو سن أخته، يطلقه حرّاً عوضاً عن

(١) ثنية ١٩: ٣٠.

(٢) عدد ٣٥: ٢٢-٢٥، سبتينو موسكاني، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٣) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٤) ثنية ٢٥: ١١-١٢.

(٥) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٩٣.

سنه^(١)، أى أن القوم لم يلتزموا بحكم واحد تجاه الناس جميعاً، ولم يسيروا على المبدأ القائل «عيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد، ورجلاً برجل، وكياً بكى، وجرحاً بجرح ورضاً برضى»^(٢).

وكان بنو إسرائيل ينظرون إلى شريعة القصاص على أنها مرتبطة بالمسئولية الجنائية، أى أن تشترك الأسرة كلها (أو العشيرة أو القبيلة) فى واجب الثأر لأحد أفرادها، إذا ما أصابه ضررٌ من شخص لا ينتمى إلى الجماعة، والله نفسه يعاقب على الذنوب،، وقد يلحق العقاب بذرية المذنب، ولكنه يجزى المحسنين خير الجزاء^(٣)، ذلك لأن الشريعة اليهودية إنما قد اعتبرت قتل النفس أشنع الجرائم، حتى أنها جعلت الثأر واجباً مقدساً، وشريعة إلهية^(٤)، وأما صاحب الثأر، أو المطالب به، فهو أول قريب للقتيل، ويعرف باسم «ولى الدم»، وله أن يقتل أى فرد من أسرة القاتل، فالقتل إذن لا ينصب على القاتل وحده، بل على كل أسرته^(٥)، ثم بعد ذلك حاولت الحكومة أن تتولى هى أخذ الثأر للقتيل بإعدام القاتل^(٦)، وإن فشلت فى كثير من الأحيان، ذلك لأن فكرة نقل العقوبة إلى أفراد أسرة الجانى، إنما كانت قوية جداً فى المجتمع الإسرائيلى، على أساس أن دم القاتيل إنما ينجس الأرض، وبالتالي فلن يطهرها إلا بإراقة دم القاتل، ولعل هذا كله إنما يفسر لنا اشتراك المجتمع فى رجم الجانى، حتى يتطهر سائر أفراد المجتمع من خطيئته، ويقضى على الجريمة^(٧).

وهناك وسائل كثيرة اتبعتها المجتمع الإسرائيلى لتنفيذ عقوبة الإعدام،

(١) خروج ٢١: ٢٦-٢٧.

(٢) خروج ٢١: ٢٤-٢٥.

(٣) خروج ٢٠: ١٨؛ حزقيال ١٨: ١١؛ سبتينو موسكاتى، المرجع السابق، ص ١٧٠-١٧١.

(٤) تكوين ٩: ٥-٦.

(٥) تثنية ١٩: عدد ٢٥.

(٦) صموئيل ثان ١٤: ٤.

(٧) خروج ٢٠: ٥، ٣٤: ٧؛ عدد ٣٥: ٣٠؛ تثنية ١٩: ١٩؛ يشوع ٧: ٢٤؛ ملوك ثان ٩: ١٢٦؛

فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٩٤.

فقد كان هناك الرجم بالحجارة، حيث يساق المحكوم عليه بالموت خارج مضارب الخيام في العصر البدوي، أو خارج المدينة في عصور الملكية، فيرجمه الشهود بالحجارة أولاً^(١)، وكان هناك الشنق، كما كان هناك الحرق، وخاصة في حالة اشتغال الكاهنة أو ابنة الكاهن بالدعارة، وكالزواج من المحارم^(٢)، وهناك الصلب الذي أدخله الرومان إلى فلسطين، وإن حرموا استعماله على المواطنين الرومانيين^(٣)، وهناك الجلد أربعين جلدة، زيدت فيما بعد إلى تسع وثلاثين جلدة^(٤)، وكان الجلد أولاً بالعصا، ومن ثم استبدل عنها بعصا تنتهي بثلاث شعب من الجلد،، ولما كانت تلك الأخيرة أقسى من الأولى، فقد خفض عدد الضربات إلى ثلاث عشرة^(٥).

وأخيراً هناك الغرامات، وهي نوعان غرامة الإثم، وغرامة الخطيئة، وهي ترتبط بقانون القصاص، وذلك حين تكون فدية يستعاض بها عن تطبيقه، ولكنها إنما كانت تفرض في حالات معينة أخرى، كجريمة قذف فتاة عذراء.

على أن القانون العبري إنما كان في جملته خال من بعض الملامح المألوفة في التشريع الحديث، فهو مثلاً لا يعرف عقوبة الحبس، وفي الواقع إن التقاليد القضائية في الشرق الأدنى القديم، إنما كانت تخلو تماماً من الحبس، كوسيلة للدفاع عن المجتمع^(٦)، وإن ظهرت عقوبة السجن والنفي بين الإسرائيليين فيما بعد العودة من السبي^(٧).

(١) عدد ١٥: ٣٦، لاويون ٢٤: ١٤، تثنية ١٦: ١٧، ملوك أول ٢١: ١٠، سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٢) لاويون ٢٠: ١٤.

(٣) تثنية ٢١: ٢٢، لاويون ٢٠: ١٤، ٢١: ٩، يشوع ٧: ١٥، صموئيل ثان ٢١: ٩، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٩٤.

(٤) تثنية ٢٥: ١-٣، كورنثوس الثانية ١١: ٢٤. (٥) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٦) سبتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧٢. وهذا غير صحيح، فقد سجن يوسف عليه السلام في مصر. (سورة يوسف، آية: ٣٣-٤٢، ١٠٠).

(٧) ملوك ثان ٦: ٢٦، ١٦: ١٠-٨: ٢٦.

وأما الآداب العامة، فلقد حرصت شريعة يهود على احترامها، ومن ثم فقد جعلت عقوبة الإعدام على كل من تسول له نفسه الاستهانة بها، وهكذا كان كل من يقترب فاحشة جنسية مع الحيوان يعدم^(١)، كما حرمت كشف عورة الأهل والأقارب، وفرضت أقسى العقوبات على المستهترين^(٢)، كما أحاط المجتمع الإسرائيلي الأسرة بتشريع يكفل المحافظة عليها وعلى شرفها، ففرض أقسى العقوبات على الخيانة الزوجية، تقول التوراة: «إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة، زوجة بعل، يقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة، والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل»^(٣)، كما فرضت الشريعة كذلك عقوبة على الرجل الذي يحاول الانتقاص من شرف وعفة زوجته^(٤).

وفي الواقع أنه ليس زنا الأزواج هو الجرم الوحيد الذي تحرمه شريعة يهود على مزاج بنى إسرائيل الداعر، ففي شريعتهم تعداد لدعارات عنيفة مع شدة عقوبة من يقترب إحداها، وثبتت هذه الشدة كثرة المخالفات، وإن كان سفاح ذوى القربى - أى الزنا بالأخت والزنا بالأم - فضلا عن اللواط والمساحقة، ومواقعة البهائم، من أكثر الآثام التى كانت شائعة بين ذلك الشعب الشبق، هذا إلى جانب أن الرجال والنساء - زوجات وبنات - قد مارسوا الدعارة المقدسة على أبواب المعابد فوق التلال^(٥).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العقوبات على انتهاك حق الملكية، إنما كانت خفيفة على نحو ملحوظ، ولاسيما إذا قارناها بعقوبة الموت التى كانت تفرض فى كثير من الأحوال على هذا النوع من الجرائم

(٢) لاويون ١٨: ١-٣٠.

(١) خروج ٢٢: ١٩.

(٤) تثنية ٢٢: ١٣-٢١.

(٣) تثنية ٢٢: ٢٢.

(٥) لاويون ٢٠: ٩-٢١، تثنية ٢٣: ١٧-١٨، ٢٧: ٢١، ملوك ثان ٢٣: ٧، هوشع ٤: ١٣.

جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٥١.

في قانون حمورابي وكان على اللصوص دفع تعويض يزيد غالباً عن قيمة السرقة، فإذا لم يستطيعوا فرض عليهم الرق كغيرهم من المدنيين العاجزين عن الدفع، وكانت عقوبة مماثلة تفرض على المختلسين^(١).

(١) سبتيو موسكاتي، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٣) التنظيمات العسكرية

كان الإسرائيليون يعتبرون كل قادر على حمل السلاح محارب، وكان سلاح هذا المحارب البدوي عبارة عن حربة، وفرس مكرم مفر، وناقة هيفاء، أما التعبئة العامة للغزو، فتتم عن طريق تجمع العشيرة حول فارسها، وإذا كان العدو أشد مراساً، استعدت القبيلة حلفاءها، وهاجموا العدو مجتمعين، ومن يكتب له النصر يقسم الأسلاب، ويعود أدراجه^(١).

وفي الواقع فإن بني إسرائيل، رغم ممارستهم للحرب باستمرار، لم تصبح الحرب فناً ولا علماً عندهم، فكانت تعوزهم التعبئة، وما كان ليكتب لهم فوز، إلا بضرب من الصولة المشابهة لغارة البدو المعاصرين، وبنو إسرائيل إذا كانوا جناء خوفاً بطبيعتهم، لم يبدوا مرهوبين إلا بما كان حاول إلقاء زعمائهم وأنبيائهم فيهم من حماسة مؤقتة^(٢).

ونقرأ في التوراة أن «جليات» (جالوت) الفلسطيني، عندما طلب من بني إسرائيل أن يخرجوا إليه من ييارزه، «وسمع شاول، وجميع إسرائيل، كلام الفلسطيني هذا، ارتاعوا وخافوا جداً»^(٣)، بل إن القائد الفلسطيني إنما ظل يخرج إلى الميدان صباح مساء طيلة أربعين يوماً، دون أن يجرؤ واحد من بني إسرائيل على منازلته^(٤)، بل إن القوات الفلسطينية عندما ظهرت في الميدان، ارتعد بنو إسرائيل، ففريق اختبأ بين المقابر والغياض والصخور وغيرها، وفريق ولى مدبراً نحو شرق الأردن، بل أن الشعب كله إنما قد ارتعد من وراء شاول، وهو ما يزال بعد في الجلجال^(٥).

ومن قبل عندما سار «جدعون» بجيشه، لمحاربة الميديانيين، كان تعداد

(١) فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٠٦. (٢) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٣) صموئيل أول ١٧: ١١. (٤) صموئيل أول ١٧: ١٦.

(٥) صموئيل أول ١٣: ٦-٧.

جيشه اثنين وثلاثين ألفاً، فخطبهم بقوله «من كان خائفاً مرتعداً، فليرجع وينصرف، فتركه من هؤلاء اثنان وعشرون ألفاً، وبعد اختبار آخر، ترك الجيش، وتقاعس عن القتال جميع رجال إسرائيل، إلا أقل القليل ممن عصم الله، حتى لنرى أن نتيجة التصفية، إنما كانت ثلاثة مائة رجل، من اثنين وثلاثين ألفاً^(١).

وأما فن القتال عند الإسرائيليين، فلم يرق إلى مستواه عند الكنعانيين أو الفلسطينيين، الذين نجحوا في تكوين قوات محاربة، من فرسان ومشاة ومركبات حديدية^(٢)، الأمر الذي لم يبلغه بنو إسرائيل، إلا عندما نزلوا المدن المحصنة، وأصبح لكل أمير مدينة أو شيخ قبيلة قواته الخاصة، التي تولت الدفاع عن مدينته أو قبيلته^(٣).

وظل الأمر كذلك حتى قيام الملكية الإسرائيلية، فبدأ «شاؤول» (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م) في تكوين جيش نظامي، انضم إليه كل إسرائيلي لائق للخدمة العسكرية^(٤)، وربما من أجل هذا السبب نرى «داود» (١٠٠٠-٩٦٠ ق.م) فيما بعد، يكلف ضباط جيشه بعمل تعداد للمجتمع الإسرائيلي^(٥).

وعلى أى حال، فلقد كان الجيش الإسرائيلي على أيام داود يتكون من عنصرين أساسيين هما^(٦):

(أ) السبا: Saba: أى أفراد الحرس الملكي، وهم جماعة من رجال القبائل الأقوياء، كانوا يستدعون بصوت النفير، ويرفع الأعلام، أو إشعال النار على التلال، وهى قوات بدون زى موحد، كان تجمعها ووضعها تحت

(٢) قضاة ١: ١٩، صموئيل أول ١٣: ٥.

(١) قضاة ٧: ٣-٨.

(٤) عدد ١: ٢-٣، ٢٦: ٢.

(٣) قضاة ٩: ٢٩.

(٥) انظر: محمد يومى مهران، إسرائيل، الكتاب الثانى، التاريخ، ص ٧٣٠-٧٤٠.

(٦) انظر: نفس المرجع السابق، ص ٧٢٧-٧٢٨.

السلاح يعتمد على الإرادة الفردية الجيدة^(١)، وكان داود يستخدمهم ضد الشعوب المجاورة في شرق الأردن، وكانوا يحملون مع «تابوت العهد» إلى أرض المعركة، ومن الواضح أن داود، إنما كان ينظر إلى «تابوت العهد» هذا، بأهمية كبيرة، أثناء الحروب، لأنه كان يمثل تحالف القبائل الإسرائيلية جمعاء^(٢).

(ب) الجيبوريم : Gibborim، وهي القوات الدائمة، وقد تكونت نواتها الأولى من ستمائة مقاتل، كانوا قد تجمعوا من قبل حول «داود» عندما نفاه «شاؤل» - أو بالأحرى عندما هرب منه - وكانوا يسمون «رجال داود الأقوياء»، وإن لم يكونوا جميعاً من الإسرائيليين، بل كان معظمهم في الحقيقة من شعوب أجنبية^(٣)، وعلى أي حال، فلقد كانوا ينتمون إلى داود شخصياً، وليس إلى القبائل الإسرائيلية، وكانوا سلاحه في خطواته الأولى نحو العرش الإسرائيلي، وقد أحرز بهم انتصارات هامة، كاتتصاره الحاسم على الفلسطينيين وكاحتلال «دولة المدينة أورشليم»^(٤).

هذا وقد كان جيش إسرائيل وقت ذلك مقسماً إلى عدة فرق، فرقة من ألف، وأخرى من مائة، وثالثة من خمسين جندياً، وكانت كل فرقة تحت إمرة قائد خاص، أما اللواء الضارب، فهو الذي يكون الحرس الملكي لداود^(٥).

وجاء سليمان (٩٦٠-٩٢٢ ق.م.)، وأدرك ضرورة تكوين جيش قوى للدفاع عن دولته، فضلاً عن تجارته، ومن ثم فإن المصادر التاريخية، إنما تنسب إليه وحده استعمال «العربات الحربية» في جيش إسرائيل^(٦).

(١) صموئيل ثان ١٩: ٨-١٠، ملوك أول ٢٢: ١٧، وكذا: A. Lods, op.cit., p. 862.

(٢) M. Noth, op.cit., p. 198. (٣) A. Lods, op.cit., p. 362.

(٤) M. Noth, op.cit., p. 198.

(٥) صموئيل أول ٤: ٥٢، ٨: ١٢، ١٧: ١٨، ٢٢: ١٤، فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٦) انظر: محمد بيومي مهران، إسرائيل، الكتاب الثاني «التاريخ»، ص ٧٥٣-٧٥٦.

ونقرأ في التوراة أن داود عندما هزم مملكة «آرام صوبه» قد استولى على مئات الخيول، غير أن داود لم يكن يملك عربة واحدة^(١)، بل إنه إنما كان يرى أن استعمال العجلة الحربية في جيشه ليس ضرورياً، على الرغم من أنه كان قد أدرك أهمية هذا السلاح أثناء حروبه مع الآراميين، وهكذا ما أن ورث سليمان داود، وآل إليه عرش إسرائيل، حتى أدخل هذا السلاح في جيشه، بل إنه إنما جعل منه القوة العسكرية الرئيسية في هذا الجيش^(٢).

وطبقاً لما جاء في التوراة^(٣)، فإن سليمان إنما كان يملك ما بين ١٤٠٠، ٤٠٠٠ حصاناً^(٤)، وأما عن مباني الشكنات العسكرية الخاصة بفصائل العجلات الحربية - طبقاً لما جاء في سفر الملوك الأول من التوراة^(٥) - فقد اكتشف في «مجدو» وغيرها، اسطبلات للخيول، وحظائر للعربات مع بعضها، وكانت تلك التي في «مجدو» تسع ١٥ عربة، ٤٥٠ حصاناً^(٦).

هذا وقد كان قائد العربة الحربية يتلقى تدريبات طويلة شاقة، ويظل في الخدمة طالما كان قادراً على أداء وظيفته أو على الأقل لعدة سنوات، ومن ثم فإنه يصبح جندياً محترفاً، وعندما زاد عدد العربات أصبح من الضروري

(١) تقول التوراة: «وضرب داود عدد عزز بن رحوب ملك صوبه، حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات، فأخذ داود منه ألفاً وسبع مئة فارس، وعشرين ألف راجل، وعرقب داود جميع خيل المركبات». (مزموتيل ثان ٨: ٣-٤)؛ غير أن بقية النص إنما يشير إلى أن داود «أبقى منها مائة مركبة».

(٢) O. Eissfeldt, The Hebrew Kingdom, CAH, II, Part, 2, 1975, p. 583-589.

(٣) ملوك أول ٥: ١١.

(٤) O. Eissfeldt, op.cit., p. 589.

W.F. Albright, op.cit., p. 135F. وكذا:

(٥) ملوك أول ٩: ١٩، ١٠: ١٦.

(٦) W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, N.Y., 1957, p. 127, 223.

Y. Yadin, Newlight on Solomon's Middle, BA, 23, 1960, p. 62F. وكذا:

C. Watzinger, Dankmaier Palertinas I, Leipzig, 1933, p. 67F, Figs. 80-81. وكذا:

استخدام عدد لا بأس به من الجنود المرتزقة، ذلك لأن عدداً قليلاً من الإسرائيليين الذين كانوا مكلفين بالخدمة العسكرية كانوا يصبحون جنوداً محترفين.

وليس هذا يعني - بحال من الأحوال - أن هؤلاء الإسرائيليين المجندين بالجيش، ولا يعملون في سلاح العربات العربية، قد أعفوا من القيام بالمهام العسكرية، بل بالعكس من ذلك، كان الواحد منهم إذا لم يستدع للخدمة في الجيش، فإنه إنما كان يكلف بالعمل في بناء التحصينات والحظائر الخاصة بالعربات، فضلاً عن العمل في مشاريع سليمان البنائية الأخرى، ومن ثم فمن الأفضل أن نطلق على العمل الذي اشتهر باسم «السخرة» Corvee خدمة الأعمال العامة، لبناء وصيانة التحصينات الدفاعية، وخدمة الجيش (١).

ويبدو أن إسرائيل قد احتفظت بجيشها، سواء أكان ذلك في الشمال أو الجنوب، بسبب الحروب مع جيرانها، فضلاً عن الحروب التي كانت تنشب باستمرار بين قبائل الشمال والجنوب، وعلى أي حال، فهناك ما يشير إلى أن «نبوخذ نصر» (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) لما استولى على أورشليم نقل إلى بابل نحو عشرة الاف رجل، يعتقد أنهم كانوا يكونون الجيش النظامي، ولم يترك في فلسطين إلا الفلاحين (٢).

هذا ويبدو أن الإسرائيليين جميعاً كانوا يجندون في الجيش، ولم يعف من التجنيد الإجباري هذا سوى الكهنة واللاويون (٣)، ونقرأ في سفر التثنية عن اعفاءات أخرى من الخدمة العسكرية، منها ذلك الرجل الذي بنى بيتاً جديداً ولم يدشنه، ومنها ذلك الرجل الذي غرس كرمه ولم يبتكره، ومنها ذلك الرجل الذي خطب امرأة ولم يدخل بها، ومنها ذلك الرجل الخائف

(٢) ملوك ثان ٢٤ : ١٤ .

(١) O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

(٣) عدد ٢ : ٣ .

وضعيف القلب «لثلا يذوب قلوب إخوته مثل قلبه»^(١)، ومنها ذلك الرجل الذي تزوج بامرأة جديدة «لا يخرج في الجند، ولا يحمل عليه أمراً ما، حرماً يكون في بيته سنة واحدة، ويسر امرأته التي أخذها»^(٢).

ولست أظن إلا أن هذه الإعفاءات غير الضرورية، إلا ضربة توجه في الصميم إلى قانون التجنيد الإجباري، وإلا كيف يكون قانون التجنيد الإجباري ساري المفعول، وكل هذه الإعفاءات موجودة، فالكهنة معفون، وسيط اللاويين معفون، ومن خطب ولم يتم زواجه بعد يعفى، ومن تزوج بامرأة جديدة يعفى، ومن غرس كرمًا ولم يجنه بعد يعفى، بل إن الخائف والضعيف القلب - وما أكثرهم في إسرائيل - معفون.

وأيا ما كان، فلقد عرف الجيش الإسرائيلي نوعين من الأسلحة، الخفيفة والثقيلة، وكان النوع الأولي يشتمل على المقلاع والقوس ومجن صغير، وقد اشتهر باستخدامه البنيامينيون^(٣)، وأما النوع الثاني، فهو مجن كبير، ودرع وخوذة، وربما كانت هذه الأنواع من الأسلحة القتالية للملوك وعظماء القوم، أكثر منها للعامة والفقراء، وعلى أي حال، فإن النصوص تنسب إلى «أوريا الحيثي» أنه أول من أدخل الدرع والخوذة إلى الجيش الإسرائيلي^(٤).

وأما عربة القتال فقد أخذها الإسرائيليون عن الحيثيين عن طريق الكنعانيين وفي كل عربة ثلاثة جنود، السائس والمحارب وحامل المجن، الذي يحمي الاثنين^(٥).

(٢) تثنية ٢٤: ٥.

(١) تثنية ٢٠: ٥-٨.

(٣) صموئيل أول ١٧: ٤٠، ٢٥، ٢٩؛ صموئيل ثان ١: ٢٢، ٢٣؛ أخبار أيام أول ٨: ٤٠، ١٢، ٨٢، ٢٤، ٣٤.

(٤) صموئيل أول ١٧: ٥، ٢٨-٢٩، ٣١: ٩؛ أخبار أيام ثان ٢٦: ١٤؛ أيوب ٣٩: ٢٣، ٤١: ٢١.

(٥) ملوك أول ١٠: ٢٨-٢٩؛ فؤاد حسنين، المرجع السابق، ص ٢١٠.

هذا وقد عرف الإسرائيليون كذلك الحصون والقلاع، ونقرأ في التوراة أن «بعشا» (٩٠٠-٨٧٧ ق.م) بعد أن بدأ يحكم إسرائيل من «ترصة» (وهي ترزة في مكان تل الفارع الحالية، على مبعدة ١١ كيلا شمال شرق شكيم) بنى حصناً على حدود مملكته الجنوبية عند «الرامة» (وهي تل الرامة الحالية، على مبعدة ستة كيلو مترات شمالي أورشليم)، لاتخاذها مركزاً عسكرياً لتهديد عدوته دولة يهوذا، غير أنه ترك هذا الحصن شاغراً، بسبب هجوم الآراميين على منطقته، وعندئذ استدعى «أسا» (٩١٥-٩١٣ ق.م) ملك يهوذا، كل جيشه لاستخدام الأحجار والأخشاب، التي في حصن بعشا في «حصونه» التي أقامها في «جبعة» - على مبعدة ثلاثة كيلو مترات شرقي الرامة - بغية الدفاع عن مملكة يهوذا، ضد أي هجوم يمكن أن تقوم به إسرائيل ضدها^(١).

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الإسرائيلي إنما كان ينظر إلى الحرب على أنها شيء مقدس، بمعنى أن القائد الأعلى لجيشهم إنما هو «يهوه»، قياساً على أنه «رب الجنود»^(٢)، ومن ثم فحروب إسرائيل إنما هي «حروب يهوه»^(٣). وبالتالي فهم يعتقدون بأن الله ملزم بأن يحامي عنهم، لأن حمايتهم حماية لكرامته هو، وإذا حدث أن سقطت الأمة، فمعنى هذا - في نظرهم - أن الله - والعياذ بالله - قد سقط^(٤)، ومن هنا كان عليه أن يكرس كل وقته وسلطانه من أجل شعبه إسرائيل، وهو لذلك يحارب إلى جانبهم، أو يحارب بدلا عنهم أو يطرد من أمامهم أعداءهم، ويسر لهم قتلهم، ويحل لهم نهبهم^(٥).

(١) ملوك أول ١٥: ١٦-٢٢، وكذا: O. Eissfeldt, op.cit., p. 590.

(٢) صموئيل أول ١٧: ٤٥.

(٣) خروج ١٧: ١٦، عدد ٢٥: ٢٨، قضاة ٥: ٢٣، صموئيل أول ٢٥: ٢٨.

(٤) القس عاموس عبد المسيح، دراسة في عاموس، ترجمة حارث قريصة، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٨.

(٥) عبده الراجحي، الشخصية الإسرائيلية، ص ٤٧، تثنية ٩: ٣.

وكان «يهوه» يحمل «التابوت» إلى أرض المعركة، ومن هنا نفهم كيف أن بنى إسرائيل كانوا لا يبدأون معركة قبل أن يستشيروا ربهم «يهوه»، وقبل أن يقدموا له القرابين، وكانت صيحة الحرب عندهم إنما هي نداء لربهم يهوه^(١)، ومن ثم فيجب أن يكونوا في حالة طهارة دينية، الأمر الذي يفرض عليهم تجنب النساء^(٢).

وأما شريعة الحرب عند بنى إسرائيل - كما تصورها التوراة - فهي شريعة تختلف عن كل شرائع الحروب وأعرافها في تاريخ الدنيا، فليست هناك أمة - مهما بلغت من الوحشية والبربرية - ببالغة ما بلغته يهود من قسوة وهمجية، ولنقرأ الآن ما جاء بالتوراة بهذا الشأن: «متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض، التي أنت داخل إليها لتمتلكها، وطرده شعوباً كثيرة من أمامك، الحيثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والجويين واليبوسيين، سبع شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك، فإنك تحرقهم (تقتلهم) لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم^(٣).

وتستطرد التوراة قائلة: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالملك، بل عملت حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يديك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، كل غنيمتك فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل

(١) قضاة ٧: ٢٠، ٢٠: ٢٠-٢٧-٢٨؛ صموئيل أول ٤: ٦، ٧: ٨، ١٣: ٩، ١٤: ٣٧، ٢٣: ٢؛ ملوك

أول ٢٢: ٥.

(٢) تثنية ٢٣: ١٠-١٢؛ صموئيل ثان ١١: ١٦؛ فؤاد حنين، المرجع السابق، ص ٢١٣.

(٣) تثنية ٧: ١-٣.

بجميع المدن البعيدة منك جدا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب^١ إلهك نصيباً، فلا تستبقى منها نسمة ماء^(١).

ولعل هذا النص يبين لنا بوضوح شريعة إسرائيل في الحرب، بل عقيدة إسرائيل الدينية في الحرب، فرب^٢ إسرائيل يأمر شعبه، باستعباد جميع شعوب المدن القريبة منهم، حين توافق على الصلح معهم، فإن شنت حرباً ضدهم، وكتب لهم نصراً عليها، فليس لهذه الشعوب عند الإسرائيليين سوى السيف تضرب به رقاب رجالهم جميعاً، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، فغنيمة خاصة للإسرائيليين.

على أنه يجب ألا يفهم من هذا أن النساء والأطفال لم يتعرضوا لأقسى أنواع التعذيب والقتل والبلاء، فالتوراة غنية بالنصوص التي تشير إلى مدى وحشية بنى إسرائيل، فهم لا يحترمون امرأة، ولا يشفقون على طفل، فكثيراً ما يقرر الإسرائيليون بطون الحبالى، ويقطعوا الأطفال بحد السيف، ومن عجب أن هذه الوحشية الإسرائيلية لم تكن مقصورة على الأجانب وحدهم، بل إنما امتدت إلى بنى إسرائيل أنفسهم فى الحروب التي وقعت بينهم، بل إن روح الانتقام عند القوم إنما وصلت كذلك إلى تخريب البلاد، بقطع الأشجار، وردم الآبار، وحرق القرى والمدن^(٢).

وعلى أى حال، فإن التوراة إنما تأمر بنى إسرائيل بالنسبة إلى الشعوب القريبة - ولعلمهم يعنون بها تلك التي تسكن أرض كنعان - تأمرهم بالأى يقوا منها نسمة أبداً، أى على الإسرائيليين أن يبيدوهم تماماً.

(١) تثية ٢٠: ١٠-١٨.

(٢) تثية ٢٠: ١٩-٢٠؛ قضاة ٩: ٤، ٩: ٤٥؛ ملوك ثان ٣: ١٩، ٥: ١٦-١٧؛ أخبار أيام أول ٢٠: ١؛ إشعياء ١٣: ١٦-١٧؛ عاموس ١: ١٣؛ هوشع ١٠: ١٤؛ فؤاد حسنين، المرجع

السابق، ص ٢١٢.

وعندما تم لبني إسرائيل اغتصاب أرض «اللبن والعسل»، هددهم ربهم «يهوه» بالانتقام المريع، إن لم يطردوا السكان الأصليين من أرضهم المقتضية، تقول التوراة - على لسان يهوه - «إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم، ومناخس في جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أنى أفعل بكم، كما هممت أن أفعل بهم»^(١)، لأن رب إسرائيل وعد شعبه إسرائيل «اعلم اليوم أن الرب إلهك هو العابر أمامك نارا آكلة، هو يبيدهم ويذلهم أمامك، فتطردهم وتهلكهم سريعًا كما كلمك الرب إلهك»^(٢).

ثم هناك كذلك هذه العبارة الناضحة بالشر، الموصية بأضرى وأفدح العدوان: «قومي ودوسي يابنت صهيون، لأنى أجعل قرنك حديدًا وأظلافك أجعلها نحاسًا، فتسحقين شعوبًا كثيرين، وأحرق (أقتل) غنيمتهم للرب، وثروتهم لسيد كل الأرض»^(٣).

وهكذا كانت الوحشية اليهودية فى الحروب إنما هى من شعائر دينهم - دين يهوه، رب يهود - وأن الإسرائيليين عندما يقومون بكل أنواع الوحشية والهمجية إنما هم ينفذون أمر رب إسرائيل «رجل الحرب» الذى جعل القتل فريضة فرضها على موسى، وعلنى هود من بعده، و«زكاة للرب»، ذلك الرب الذى لا تراه - من خلال نصوص التوراة - إلا شرها غضوبًا، متعطشًا للدماء.

ولنتوقف الآن قليلا، لنرى رأى الإسلام فى مثل هذه الأمور، فأما الأسرى، فيقرر القرآن الكريم أنه بعد أن يصبح الأعداء أضعف من أن يهاجموا المسلمين، فللقائد الخيار بالنسبة إلى الأسرى، فهو إما أن يطلق

(٢) تثنية ٩: ٣.

(١) عدد ٣٣: ٥٥-٥٦.

(٣) ميخا ٤: ١٣.

سراحهم بفدية، وإما أن يمن عليهم بحريتهم بغير مال، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿حتى إذا أئتمتهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد، وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها﴾ (١).

وأما عن النساء والشيوخ والأطفال، فلدينا حكم الإسلام فيهم عن طريق وصية رسول الله - ﷺ - لجيش أرسله لحرب (٢): يقول فيها جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله - ﷺ - «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى بركة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا،

(١) سورة محمد، آية : ٤٤؛ وانظر: تفسير القرطبي، ص ٦٠٤٥-٦٠٤٩؛ تفسير ابن كثير ٢٨٩٧/٢٨٩١-٢٨٩١، صحيح البخاري، ٧٥/٤، (طبعة دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ)؛ سنن أبي داود ٥٥/٢-٥٨، (القاهرة ١٩٥٢).

(٢) إن الدافع للحروب في الإسلام هو دفع الاعتداء، ومن ثم فإن الحرب في الإسلام لم تكن لدخول الناس في دين الله غضباً، ذلك لأن القرآن الكريم إنما يقرر «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» وإنما كانت الحرب في الإسلام لدفع الاعتداء، وذلك بنص القرآن الكريم حين يقول ﴿فَمَنْ عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، آية : ١٩٤، ٢٥٦).

هذا وقد جعل القرآن الذين لا يقاتلون المؤمنين في موضع البر - إن وجدت أسبابه - وإن الذين يقاتلونهم هم الذين يمتدون: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتسبطوا إليهم، إن الله يحبّ المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» (سورة الممتحنة، آية : ٨-٩).

وهكذا يبين القرآن الكريم بكل وضوح أن بواعث الحرب في الإسلام، إنما تكمن أساساً في قتال الذين يقاتلون المسلمين في دينهم، بل وقد اعتبر فتنة المتدين في دينه أشد من قتله «والفتنة أشد من القتل» (سورة البقرة، آية : ١٩١)؛ «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» (سورة البقرة، آية : ١٩٣).

هذا فضلاً عن أن الذين يخرجون المسلمين من ديارهم، وكذلك الذين يظاهرون على هذا الإخراج ويعاونوهم فيه، بالوسائل المادية والأدبية، ولهذا فرض القرآن الكريم في آية أخرى على المسلمين أن يقاتلوا هؤلاء المعتدين البغاة حتى تعود الأمور إلى وضعها الحقيقي، وحتى يعود المسلمون إلى ديارهم التي أخرجوا منها، يقول سبحانه وتعالى: «وقاتلوهم حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» (سورة البقرة، آية : ١٩١).

وضعوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»، وفي معنى هذه الوصية يقول رسول الله - ﷺ - «سيروا باسم الله وقاتلوا أعداء الله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تنفروا، ولا تمثلوا».

ويروى الإمام البخارى فى صحيحه، عن ابن عمر، رضى الله عنهما، أنه قال: «وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله - ﷺ - فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان»^(١).

وكان الخلفاء الراشدون يهتدون بهدى النبى الأعظم - ﷺ - فى حروبه، ومن ذلك وصية أبى بكر الصديق - صاحب رسول الله، وخليفته على المسلمين - لأسامة بن زيد وجيشه، والتي يقول فيها: «أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني، لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بيعيراً إلا لما كله، وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً، فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسيف إلا خفقاء»^(٢).

بل إنه لمن الغريب حقاً، أن يصل المصريون على عهد الفراعين، إلى قريب من هذه المبادئ السامية منذ الأسرة السادسة (حوالى عام ٢٣٤٠ - ٢١٨١ ق.م) فيها هو «ونى» قائد الجيش الذى أرسله الملك «ببى الثانى» على رأس حملة ليقضى على تمرد تفشى بين البدو فى جنوب فلسطين، و«ونى» هذا يفخر بأنه استطاع أن يمنع جنوده من كل ما يسىء إليهم

(١) صحيح البخارى، الجزء الرابع، ص ٧٤-٧٦، (دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨ هـ)؛ سنن أبى داود (٤٩١٢-٥٣)، (القاهرة ١٩٥٢).

(٢) محمد أبو زهرة، نظرية الحرب فى الإسلام، ص ١٥.

كجنود، حتى أنه منع الواحد منهم من أن يجتلس خبزاً أو نعلا من المارة، أو أن يخطف قطعة قماش من أية قرية، كما منع أيّاً منهم من اغتصاب نعجة من الناس» (١).

ولنعد الآن إلى التوراة : لنرى ما هو موقف اليهود من هذه المبادئ الإنسانية السامية؟ أو قل ما هي أخلاقيات الحرب عند اليهود، وطبقاً لنصوص التوراة، كتاب اليهود المقدس؟

تصور التوراة موسى، نبيّ الله ورسوله، على أنه كان غضوباً متعطشاً للدماء (وحاشاه أن يكون كذلك)، لم يرضه أن يسبى الإسرائيليون نساء المديانيين - أصهاره وأحوال ولديه جرشوم واليعازر - وأطفالهم، بعد أن قتلوا كل رجالهم، وأحرقوا جميع مدنهم وحصونهم، فإذا بالتوراة تصوره، وكأنه يثور على رؤوساء جيشه، الذين تركوا النساء والأطفال أحياء، ثورة عارمة، ويأمرهم أن «اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر» (٢).

ثم تحدثنا التوراة كذلك أن يشوع - فتى موسى وخليفته - يأمر قومه اليهود بعد الاستيلاء على «أريحا» أن «اقتلوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وأحرقوا المدينة بالنار مع كل بهائمها» (٣).

ثم تستطرد التوراة فتذهب إلى أن موكب الخراب قد انتقل - وعلى رأسه يشوع - من أريحا إلى «عاي»، فيصب عليها - ما صبه على أريحا من قبل - ويقتل أهلها عن بكرة أبيهم، حتى أن التوراة تفاخر، بأنه «لم يبق منهم شارد ولا منقلب»، وحتى سقط بحد السيف في ذلك اليوم من رجال

(٢) عدد ٢١ : ٢١.

(١) A. H. Gardiner, op.cit., p. 96.

(٤) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣) عد ٣١ : ١-١٨.

ونساء، اثني عشر ألفاً، جميع أهل عاي، ثم «أحرق يشوع عاي وجعلها تلا أدياً خراباً»^(١).

وتصور التوراة كذلك «داود» - النبي الأواب - على أنه كان غارقاً في الدماء، متوحشاً، شديد القسوة، فتروى أن داود قد جمع «كل الشعب وذهب إلى ربّة عمون (عمان الحالية) وحاربها وأخذها... وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً، وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد، وفؤوس حديد وأمرهم في آتون الآجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون، ثم رجع داود، وجميع الشعب إلى أورشليم»^(٢).

وهكذا تنسب التوراة إلى داود أنواعاً من التهذيب لم يعرفها الإسرائيليون من قبله، رغم ما يعرفه قراء التوراة من وحشية اليهود، التي لا أثر للرحمة فيها، ومدى استهانتهم بالروح البشرية - وكذا الحيوانية - فالإخراق بالأفران، بإلقاء الناس في آتون النار، وسلخ جلودهم، ووشرهم بالمنشار، ووضعهم تحت نوارج الحديد وفؤوسها، هذا فضلاً عن الذبح المنظم بالجملة لجميع بني عمون ومدنهم، كل ذلك أمر غير مقبول ولا مستساغ حتى من أطنى الطغاة، فضلاً عن أن يكون ذلك من داود، الملك النبي، ولكن ما حيلتنا، والتوراة - كتاب اليهود المقدس - تجعل القتل «فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى»^(٣)، و«زكاة للرب، رجل الحرب»^(٤).

ومن هنا كان الأهلون من أعداء اليهود يوقفون، فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة، فيبادون باسم «يهوه» - إله يهود - من غير نظر إلى الجنس أو السن، وكان التحريق والسلب، يلازمان سفك الدمان^(٥)، ويعلق «هـ.ج. ويلز» على ما ورد في التوراة عن قسوة داود، بقوله: «إن قصة داود بما

(٢) يشوع ٨: ٢٢-٢٩.

(١) يشوع ٦: ١٦-٢٤.

(٤) خروج ١٥: ٣.

(٣) صموئيل ثان ١٢: ٢٩-٣١.

تخوى من قتل وسفك دماء، واغتيالات متلاحقة، يأخذ بعضها برقاب بعض، أشبه بتاريخ أحد الرؤساء المتوحشين، منها بتاريخ ملك ممدن^(١).

ويعترف الكاتبان اليهوديان «م. مارجوليس» و«أ. ماركس»^(٢) بقسوة دادو، وإن عللا ذلك بكثرة الثورات التي قامت ضده، وبخاصة ثورة ولده «أبشالوم»^(٣)، وثورة «شع بن بكرى»^(٤).

ونحن إن كنا ننكر - الإنكار كل الإنكار - أن ذلك قد حدث مع داود - النبي الأواب - فإننا إنما نقدمه كنموذج لما تراه التوراة شريعة لأخلاقيات الحرب عند يهود، وهم في نفس الوقت، إنما يؤمنون بذلك ويعتقدونه.

وهكذا يبدو واضحاً أن وحشية يهود، وحب إسرائيل لسفك الدماء، إنما تستمد روحها من دين إسرائيل، وتلقى تعاليمها من توراة يهود، فتتنزل على نفوسهم منزلة التقديس، وتتلقاها قلوبهم، وكأنها وحى من رب إسرائيل على موسى ويشوع وداود وغيرهم، وبذا غدت داء إسرائيل، الذى لا أمل معه فى دواء، وجرحاً فى نفوس يهود، لا يرجى منه شفاء، مادام للدين أتباع، وما قامت جماعة إسرائيل باتباع دين إسرائيل، لأن كل ذلك من أخلاقيات الحرب عند يهود، إنما هى نصوص توراة افتراها يهود على الله، وعلى كليمه موسى عليه السلام.

(١) M. Margolis and A. Marx, A History of the Jewish People, p. 55-56.

(٢) صموئيل ثان ١١: ٢، ١٢-١٢: ١٣، ٢٩: ١٤، ١-٣، ١٥: ٧-١٠، ٢٠: ١-٢٢، ١٨: ١-٢٣.

M. Noth, op.cit., p. 201-202. وكذا:

O. Eissfeldt, op.cit., p. 585-586. وكذا:

(٣) W.F. Albright, Archaeology and the Religion of Israel, Baltimore, 1963, p. 158.

(٤) صموئيل ١٩: ٩-٢٠: ٤؛ محمد بيومى مهراڻ، إسرائيل، الكتاب الثانى «التاريخ»، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٧٣١-٧٣٨.

فهرس أعلام الجزء الثالث

(أ)

إرميا:	التوراة:
١٢، ٣٥، ٣٨-٤٠، ٤٣-٤٥، ٤٩، ٥١،	في معظم صفحات الكتاب.
٦٥، ٧٠-٦٨، ٩٦، ١٠٨-١٠٩، ١١٣، ١٣٣،	اليهود:
١٨٤، ١٩٧، ٢٠٦.	في معظم صفحات الكتاب.
المزامير:	إسرائيل:
١٢، ٥٩-٦٠، ٨٣، ٩٦، ١١٣، ١٧٤،	في معظم صفحات الكتاب.
٢٩٣-٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣١٤، ٣٥١.	التلمود: في معظم صفحات الكتاب.
الأمثال:	الإسكندرنية:
١٢، ٥٩-٦١، ٦٥، ١٨٥، ٢٧١، ٢٩٣،	٧، ١١، ١٧، ٧٢، ٩٣، ٩٥-٩٧، ١٠٨،
٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٣٦، ٣٦٢.	١١٢، ١١٤، ١١٨، ٢٧٠.
أيوب: ١٢، ٥٩، ٦١-٦٦، ٩٦، ١٥١، ٢٥٠	المسيحيون:
المراثي: ١٢، ٥٩، ٦٨، ٧١.	٩٣، ١٢٠، ٢١٣، ٢٧١، ٣٧١-٣٧٣.
الجامعة:	الأنبياء:
١٢، ٥٩، ٧١، ٨٣، ١١٣، ١٢١، ١٨٤،	١١-١٢، ١٧-١٨، ٣٠، ٣٤-٣٥، ٣٨،
٢٧١، ٣٥٣.	٤٠، ٤٧، ٥٣، ٥٨، ٧٠، ٧٣، ٨٣، ٨٨-٨٩،
أستير:	١٠٠، ١٠٦، ١١٧، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٧،
١٢، ٥٩، ٧٢-٧٣، ٧٩، ٨٣، ١٠٧،	١٣٩-١٤٠، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٨-١٥٣، ١٧٣،
١١٣، ١٦٥، ٢٤٣-٢٤٤، ٢٤٤، ٣٥٨،	١٧٦، ١٨١-١٨٣، ٢٣٥، ٢٩٨.
أخبار:	الكتابات:
١١، ١٣، ١٩-٢٠، ٤٠، ٦٢، ٧٩، ٨٦،	١١-١٢، ١٧-١٨، ٥٩، ٧٠، ٧٣،
٩٤، ١٠٩، ١١٤، ١٨٧، ٢٠٢، ٣١٧، ٣٢٣،	١٠٠، ١٠٦، ١١٧، ١٢٣، ٢٩٣، ٣٢٣.
٣٣٠، ٣٣٦، ٣٣٩-٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥١،	إشعيا:
٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٧٣-٣٧٥.	١٢، ٤٠-٤٢، ١٣٣، ١٨٤، ١٨٦،
إيليسا: ١٩٦	٢٠٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢٣٥، ٢٤٩، ٢٥٨، ٢٧٠،
الساميون: ٩٨، ٢٠٣، ٢٨٤.	٣٥٨، ٣٥٥.

آبوت:	السامريون:
.٣٤٠	.٢٠٩، ١٠٠، ٣٧، ١٤-١٣
الحبشة:	البروتستانت:
.٢٠٤، ١٠١، ٢٨	.٢٤٤، ١٢١، ١١٣، ١٧، ١٤-١٣
أحاز:	الكاثوليك:
.٢١٠، ٢٠٣، ١٣٣، ٥٣، ٣٠	.١٢٠، ١١٥، ١٠٥، ٧٤، ١٨، ١٤-١٣
أدولف إرمان:	الأرثوذكس:
٣٠٦	.٣٤، ١٣
السير إرنست للفرد واليس بدج:	آخاب:
.٣٠٩	.٣٤، ١٣
ارتكزر كسيس الأول:	إسرائيل ولفنسون:
.٧٢، ٣٣	.٣٤٤، ٣٢٩
إيبل رباني:	الإسلام:
.٣٤١	.١٥٢-١٤٩، ١٤٣، ١٠٢، ٢١، ١٨-١٧
الفينيقيون:	اللاويون:
٣٦	.٣١٩، ٣٣، ١١
الصدوقيون:	أمنمؤوي:
.٣٢٠	٣٠٩-٣٠٦، ٣٠٤
الفينيقيون:	الحيثيون:
.٣٦	.١٩١، ١٨٩، ٢٢٢
الفريسيون:	أورشليم:
.٣٢٠، ١١٤، ١١١	.٤٧، ٤١-٤٠، ٣٦، ٣٠-٢٨، ٢٦-٢٥
الفاستينيون:	.٤٩، ٥٥-٥٧، ٦٩-٧١، ٧٤، ٧٩، ٨١-٨٣،
٢٠٤، ١٥٧، ١٣٢، ٢٨، ٢٦، ٢٥	.١٨١، ١٧٩، ١٣٢، ١١٧، ١١٢، ١٠٨، ٩٤
.٢٣٩، ٣٢٠، ٢٦٣-٢٦٢	.٢٠٣، ٢٠١، ١٩٦-١٩٥، ١٩٢، ١٩٠
الكنعانيون:	.٢٦٩، ٢٦٤، ٢٤٨، ٢٣٩، ٢٢٤، ٢٠٦-٢٠٥
٢١٨، ٢١٤، ١٩٠، ١٣٠، ١٢٧، ٣٦	.٣٢٢-٣٢١، ٣٠٣، ٢٧٩، ٢٧٦، ٢٧٤-٢٧٣
الأردن:	.٣٦٢، ٣٣٨-٣٣٧
٢٥٨، ٢٤١، ١٧٩، ١٦٦، ١٢٦، ٣٦	

أنشودة آتون:	إرنست سيلين:
.٣٠٣، ٢٩٦	.٤١
الكلدانيون:	إرنست رينان:
.٦٩	.١٢١
أكزركسيس الأول:	العراق:
.٢٤٤، ٢٢٧، ٧٢	.٣٢٨-٣٢٧ ، ٢٩٠ ، ٢٨٧ ، ٤٤
أنطيوخس الرابع أيفانس:	.٣٣٨-٣٣٦
.١١١	آشور:
اليونان:	.٢٦٩، ٢٣٣-٢٣٢، ٦٠، ٥٤، ٤٥-٤٤
٢٣٦، ١٠٤، ٧٩	أدوم:
الآراميون:	.١٦٠، ١٢٩، ٦٣، ٤٩
.٢٥٧-٢٥٦، ١٩١	آشور بانتيال:
إلوهيم:	.٥٤
٢٤٩، ٢٠٥، ١٣٥، ٨٧، ٨٥	آشور حان الثالث:
السامرة:	.٥٠
.٣١٤، ٢٥٧، ٢٠٣، ٨٥	الناصره:
السريانية:	.٥٢
.١١٠، ١٠٧، ١٠٣، ١٠١، ٩٩، ٦١	الميديون:
.٣٦١، ٢٤٨، ٢١١، ٢٠٩	.٥٤
الأموراثيم:	البتدقية:
.٣٣٩، ٣٣٧، ٣٣٥	.٣٤٦-٣٤٥
الأرمينية:	الإسكندر الأكبر:
.١٠٧، ١٠١، ٩٣	.١٠٩، ٧٨-٧٧، ٧٤، ٧١، ٥٧، ٣٤
أسفار الأبوكريفيا:	.٢٧٠، ١٢٤، ١١١
.٩٩، ٩٧-٩٦، ٨٣، ٨٠، ١٨، ١٤	العبرانيون:
.٣٤٠، ١١٦-١١٣، ١٠٧-١٠٤	.١٣٢، ١١٨، ١١٣، ١٠٩، ٧٦، ٥٨
القديس أوريجين:	.٢٩١-٢٩٠، ٢٧٠، ٢٣٨، ٢٣٥، ٢١٠، ١٧٤
.١١٨	.٣٠٣، ٣٠١-٢٩٨، ٢٩٦-٢٩٥، ٢٩٣

آدم كلارك:	القدیس اثناسیوس:
١٨٥	.٧٢
إختاتون:	القدیس أوغسطینوس:
١٣١ ، ٢٣٠ ، ٢٩٥-٢٩٦	.١١٤
٢٩٨-٣٠٤ ، ٣٠٧	القدیس هیرونیموس:
إسماعیل:	.٩٩-٩٨
١٢٨ ، ١٥١ ، ١٩٢ ، ٣٢٢	المطران جیمس أشار:
.٣٥٦	.٢٤٤
الأسباط:	أمستردام:
١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ٢٠٧	.٣٤٧ ، ١٢٠
.٢٦٧-٢٦٦	ابن حزم:
ابن کثیر:	.٣٥٧-٣٥٦ ، ١٦١ ، ١٥٤ ، ١٢٢
.١٤٣	انکی:
أبشای:	.٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥
.١٤٤	ابن عزرا:
القس منیس عبد النور:	.١٢٣ ، ١٠٢
.١٤٩ ، ١٤٦	أوتو:
أیمالك:	.٢٨٥
١٤٦-١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٦-١٥٧	آدم:
.٢٣٧ ، ١٩٣-١٩٢	١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٥٤ ، ٢١٥-٢١٦
أمنون:	.٣٦١ ، ٣٥٤ ، ٢٨٨-٢٨٥
.١٧٩-١٧٧	إبراهیم:
أبشالوم:	.١٠٢ ، ١٢٩ ، ١٣٧-١٣٨ ، ١٤٠-١٤١
.١٩٨-١٩٧ ، ١٧٩-١٧٧	.١٤٣-١٤٤ ، ١٤٦-١٥٤ ، ١٥٦-١٥٧ ، ١٧٤
المشنا:	.١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١-٢٠٢ ، ٢١٢
٣١٧ ، ٣٢٥-٣٣٨ ، ٣٣١	.٢٢١-٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧
.٣٤٠-٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩-٣٥٠	إسحاق:
أوسترلی:	.١٠١ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٥١
.٢٩٢ ، ٢٣٢	.١٥٥-١٦٢ ، ١٩٢-١٩٣ ، ٣٤٢-٣٤٣
	.٣٥٤

يا بل:	أدونيا:
٣٤، ٣٩، ٤١، ٤٧، ٥١، ٥٦-٥٧،	. ١٧٩
٦٠، ٧٤، ٩٧، ١٠٨-١١٠، ٢٢٥-٢٢٧،	أخيا الشيلوني:
٢٤٠، ٢٧٩، ٢٨١-٢٨٣، ٢٨٧، ٣٢٣-٣٢٤،	. ١٨٤
٣٢٧، ٣٣٤، ٣٣٨-٣٣٩، ٣٦٢.	اليوسيون:
باروخ بن نيريا:	. ١٨٩-١٩٠، ٣٦
. ٤٤	أريحا:
باروخ سينوزا:	. ١٨٩، ١٩١
٣٩، ٦٢، ٧٩، ١١٩-١٢٠، ١٢٨،	أقرايم:
بني عمون:	. ١٩٠، ٢٠٧، ٢٣٦، ٢٦٤-٢٦٥
. ٨١، ١٥٤، ١٧١-١٧٢، ١٩٧.	العمالقة:
بطليموس الثاني:	. ١٢٥، ٢٥٧، ٢٥٩-٢٦٠
. ٩٣-٩٦	أبشعين:
بطليموس الأول:	. ٢٠٢، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٥،
. ٩٤	. ٣٥٣
بطليموس الرابع:	أول مردوخ:
. ١١٢	. ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٨٢-٢٨٣
بلهة:	أوسركون الرابع:
. ١٦٢-١٦٣	. ٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٦
بتر سبع:	أيوبوت الثاني:
. ١٩٢، ٢٦٥	. ٢٢٣-٢٣٤
بنيامين:	
. ٢٠٠، ٢٠٧، ٢٦٦-٢٦٨	(ب)
بيري الحثي:	بني لاوي:
. ٢٢١	. ٢٣، ٢٥٣، ٢٦٤
بسمه:	بيت إيل:
. ٢٢١	. ٣٠، ٢٥٥، ٢٦٦

تف نخت:	۲۳۶-۲۳۴	بیلشاصر:	۲۲۵-۲۲۴
تکلیوت الثانی:	۲۳۵	بیت لحم:	۲۶۴، ۹۹
تدمر:	۲۳۸-۲۳۷	بغداد:	۳۳۶
تجملات بلاسر الأول:	۲۳۷	بال:	۳۴۵
توبال:	۲۸۰	(ت)	
تروا:	۳۴۲	توری:	۸۰، ۴۶، ۴۱
(ج)		توماس ہونز:	۱۱۹
جازز:	۲۰۷، ۲۰۴، ۱۹۲، ۱۹۰، ۲۳۶	توماس کارلیل:	۶۶
جاد:	۲۰۷، ۱۹۷، ۱۸۶، ۱۸۴، ۳۸	تشارلز:	۷۵
جان استروک:	۱۲۵، ۱۱۹	تیوس:	۸۲
جورج فلہام فردرک ہیجل:	۱۲۱	تھوتمس الثالث:	۲۳۰، ۱۴۴
جرار:	۱۹۲، ۱۵۷-۱۵۶، ۱۵۳، ۱۴۶	تلمای:	۱۷۸
جشور:	۱۷۸	تجملات بلاسر الثالث:	۲۳۲
		تالیس:	۲۳۶، ۲۳۳

جورج فریدمان:	جلیات:
.۳۵۳	.۱۹۹
جورج ویلز:	جویریاس:
.۲۷۹	.۲۲۶
	جیمس هنری بوستد:
(ح)	.۳۰۷، ۲۹۹، ۲۹۵، ۲۳۳
حزقیال:	جیمس فریزر:
.۱۲، ۴۰، ۴۵-۴۶، ۶۲، ۶۵، ۶۸،	.۲۶۱
.۲۳۸، ۱۳۳	جوتیبه:
حبقوق:	.۲۴۵، ۹۱، ۸۷
.۵۵، ۴۷، ۱۲	جوشن:
حجی:	.۲۵۲
.۸۳، ۵۷-۵۶، ۴۷، ۱۲	جرشون:
حوریب:	.۲۵۳
.۲۷	جدعون:
حوباب بن رعویل:	.۲۶۰-۲۵۷
.۱۹۴	جبعه:
حمورابی:	.۲۶۵، ۱۹۷
.۲۸۲، ۳۴	چیحون:
حران:	.۲۸۵
.۲۳۶	جرسمان:
حبرون:	.۳۰۷، ۳۰۳، ۲۹۹، ۲۹۷، ۲۹۲
.۱۲۹، ۱۶۴، ۱۹۲، ۲۲۳-۲۲۴،	جان یویوت:
.۲۶۳	.۲۹۹
حاصور:	جون ویلسون:
.۱۸۹	.۳۰۱-۳۰۰
حام:	جریجوری التاسع:
.۲۱۸، ۲۱۷، ۲۰۸، ۲۰۳	.۳۷۰

ديته:	حبيب سعيد:
.١٦٣، ٦٢	.٢٤٥، ٢٣٩، ٢٢٩
درايفر:	حانيس:
.٨٩	.٢٣٦
دان:	حسن ظاڤا:
.١٢٩، ١٦٣-١٦٢، ١٩١، ٢٠٧	.٢٣٩
.٢٦٥، ٢٦١	(خ)
دبوره:	خربة قمران:
.١٩٤	.٤٢
دمشق:	خليج العقبة:
.٢٢٢، ٢٥٦-٢٥٧، ٢٧٥	.٢٢٥
داريوس المادى:	(د)
.٢٢٤-٢٢٧	
دربوتون:	دانيال:
.٢٤٥	.١٢، ٥٩، ٦٥، ٧٣-٧٦، ٧٩، ٨٣، ٩٦
دليله:	.١٠٩، ٩٨-١١٠، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٢٦-٢٢٧
.٢٦٣	داود:
دلون:	.٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٦، ٥٩-٦٠، ٦٣، ٦٨
.٢٨٥-٢٨٧، ٢٨٩	.٧١، ١٣١، ١٥١، ١٦٥، ١٧١-١٨١، ١٨٤
ديرخ ابرص:	.١٨٦، ١٩٠-١٩١، ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٣-٢٠٤
.٣٤١	.٢١٣، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣٢٤، ٣٦٣
ديرخ ابيض زوطا:	دارا الاول:
.٣٤١	.٥٧، ٧٢، ٢٢٦-٢٢٧
دافيد بن جوريون:	دوم:
.٣٥٣	.٤١
(ر)	را الثالث:
راعوث:	.٧٨
.١٢، ٣٩، ٥٩، ٦٨	

سفر الخروج:

٢٣٣-٢٢٢، ٨٥

سيماخوس:

٩٨

سمعان:

١١١

سلوقس الرابع:

١١١

سان جيروم:

١١٨

سارة:

١٢٩، ١٤١-١٤٣، ١٤٧-١٤٩، ١٥٣

١٥٧، ١٩٢، ١٩٤، ٢٢٣

سفر العهد:

١٨٤، ١٣٥

سيناء:

٢٣، ١٤٤، ١٩٥، ٢٥٢-٢٥٣

٣٠١-٣٠٢، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٥٧، ٣٦٢

سفر ملوك إسرائيل:

١٣٣، ١٨٤، ١٨٦

سام:

٢٠٨، ٢١٨

سومر:

٢٣٦

سير الن جاردنر:

٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٥، ٢٩٩

سوا:

٢٣٢-٢٣٦

٢٢، ٣١، ٨٩، ٩١، ١٣٢-١٣٣، ١٣٥

١٨٦، ١٨٨، ١٩٤-١٩٦، ١٩٨-١٩٩، ٢٠١

٢٠٣، ٢٠٦، ٢١١-٢١٢، ٢٢٢، ٢٤٨، ٢٥٣

٢٩٥

سفر التثنية:

٢٣، ٣١، ٣٥، ٣٧، ٨٨، ٩١

١٢٦-١٢٨، ١٣٢-١٣٦، ١٩٤، ١٩٦-١٩٧

٢٠١، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦

سليمان:

٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣٩، ٦٠-٦١، ٦٤-٦٥

٦٧-٦٨، ٧١، ٧٩، ١٠٨، ١١٣-١١٤، ١٢٧

١٣٣، ١٥١، ١٧٢، ١٧٤-١٧٥، ١٧٧

١٧٩-١٨٠، ١٨٤-١٨٥، ١٩٠، ٢٠٦-٢٠٨

٢٢٩، ٢٣٧-٢٣٨، ٢٤٨، ٢٧١-٢٧٢، ٢٧٦

٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٢، ٣٦١

سفر التكوين:

٩١، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٦، ١٤٧، ١٥٦

١٥٨، ١٦٢-١٦٣، ١٩٢-١٩٣، ١٩٦-١٩٧

١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٩-٢١٠

٢١٧-٢١٨، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣١

٢٤٠-٢٤١، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٨٣، ٢٨٨

سفر الشريعة:

٢٥، ٢٩، ٣١، ٣٣

سفر العدد:

١٢٨، ١٣٠، ١٨٦، ١٩١، ١٩٤-١٩٧

سورية:

٤٧، ٢٢٢-٢٢٣

سائیس:	۲۳۶-۲۳۳
ساجان:	سیجموند فروید:
۲۸۱، ۲۶۰، ۲۰۴، ۱۹۹، ۲۸-۲۶	۳۰۴، ۲۴۲
شہبہ الجزیرۃ العربیۃ:	سولومون شختر:
۲۹	۳۱۸
شاهین مکاریوس:	سدر زواعیم:
۲۸۶، ۱۰۲، ۶۳	۳۵۴-۳۵۳، ۳۲۲-۳۲۱
۷۲	سدر موعد:
شمعون الأول:	۳۲۲
۳۲۳، ۲۰۷، ۱۹۱، ۱۶۳	سدر ناشیم:
شمعون الثانی:	۳۵۷، ۳۲۳
۳۲۳	سدر نزیفین:
شمعی النبی:	۳۶۸، ۳۲۳
۱۸۵-۱۸۴	سدر قلداشیم:
شویلو لیوما:	۳۲۴
۲۲۲	سوفرم:
شلنصر الخامس:	۳۴۱، ۳۲۳
۲۳۱	سایمان الإسحاقی:
شیکو:	۳۴۲
۲۳۲	
شمشون بن منوح:	
۲۶۴-۲۶۱	
شولم:	
۲۷۱	
شولیت:	
۲۷۱	
شیشتق الأول:	
۲۹۱	

(ش)

شکیم:

۲۳۷-۲۳۶، ۱۶۳، ۲۵

شیلوہ:

۲۶-۲۵

طبرية:	شمای:
.٢٢٨، ٢٣٦، ٢٢٩، ٢٢٥	.٢٢٢، ٢٢٤
	شیتومیر:
(ع)	.٢٤٥
عاموس:	(ص)
.٢٠٠، ١٣٣، ٤٨-٤٧، ١٢	صموئیل الأول:
عوبديا:	.٢٠٤، ١٩٩، ١٨٦، ٣٩-٢٨، ٣٥، ١٢
.٤٩، ٤٧، ١٢	صموئیل الثاني:
عزرا:	.١٧٧، ١٧٣، ٣٩-٢٨، ٣٥، ١٢
.٦٨، ٦٠-٥٨، ٤٠-٣٩، ٣٤، ٣٢، ١٢	.٢٠٨، ٢٠٠، ١٩٨، ١٩٣، ١٨٦-١٨٥
.١١٨-١١٧، ١٠٧، ٩٨، ٩٢، ٨٨، ٨٣-٧٢	صموئیل نوح کریم:
.٢٠٢، ١٣٦-١٣٤، ١٣٠، ١٢٦، ١٢٣، ١٢٠	.٢٨٩-٢٨٧
.٣٢٤-٣٢٣	صفتيا:
عمر بن الخطاب:	.٥٦-٥٤، ٤٧، ١٢
.٢١	صهيون:
عمان:	.٣٢١، ١٧٤، ٢٦
.٦٣	صيدا:
عيسى:	.٣٦
.١٥٢-١٥١، ١٣٨-١٣٧	صبری جرجس:
عدو الرائي:	.٣٧٧، ٨٦
.١٨٥-١٨٤	صوعن:
غفرون الحثي:	.٢٣٦-٢٣٥
.٢٥٥، ٢٢١	(ط)
عشتار:	طبية:
.٢٧٠، ٢٤٣	.٥٤
عين حرود:	
.٢٥٨-٢٥٧	

فؤاد حسنين:	عمر بن أبي ربيعة:
.٧٩	.٢٧٠
فلهاوزن:	عبد المنعم أبو بكر:
.٨٥	٣٠٢
فارس الشدياق:	عقيا:
.١٠٣	.٣٧٥، ٣٢٥، ١٠٤
فسباسيان:	عانة:
.١١٢	.٣٢٦
فاتر:	عكا:
.١٣٦-١٣٥	.٣٤٣
قوطيفار:	غزة:
.٢٢٨، ١٩٣	.٢٦٣، ٢٣٢، ٢٢٣، ٩٤
قوط:	
.٢١٨	
فيثوم:	(ف)
.٢٥٤	
فيثون:	فلسطين:
.٢٨٥	، ٦٤-٦٣، ٤٦، ٤٢-٤١، ٣٢، ١٧، ١١
فينيقيا:	، ٩٥-٩٣ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١١٠-١٠٩ ، ١٢٩
.٢٩٧، ٢٩٥	، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢١٨
فرانسوا دوما:	، ٢٢٢-٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٩ ، ٢٨١
.٢٩٩	، ٢٩٠-٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٢١
فرانسوا فولتير:	، ٣٢٧-٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦-٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣
.١٢١، ٦٢	.٣٦٢
فرق هشالوم:	فيكتور هيجو:
.٣٤١	.٦٧
فاس:	فارس:
.٣٤٣	، ١٨٤ ، ١٠٣ ، ٨٠-٧٩ ، ٧٦ ، ٧٣-٧٢
	.٢٨٦، ٢٥٥، ٢٤٣، ٢٢٧-٢٢٦

كارلشات:	فرنسا:
.١١٩	.٣٤٩، ٣٤٦، ٣٤٢
كمان:	
.١٤٢-١٤١، ١٣٢، ١٣٠، ١٢٦، ٨٣	(ق)
.٢٠١، ١٩١، ١٨٩، ١٥٧-١٥٦، ١٤٦-١٤٥	
.٢٤١، ٢٣٦، ٢٢٣-٢٢٢، ٢١٨-٢١٧، ٢٠٨	قرية أربع:
.٢٩٠، ٢٨١، ٢٤٨	.١٢٩
كوش:	قادش:
.٢١٨، ٢٠٤-٢٠٣	.١٩٢، ١٨٩
كشن:	قمبیز الثاني:
.٢٣٦، ٢٣٤-٢٣٣	.٢٢٦
كفين:	قسطنطين الأكبر:
.٣٠٧	.٣٣٨، ٣٣٠
(ل)	قيسارية:
	.٣٣٦
لوسيان جوتيه:	قرطبة:
.٩١، ٨٧، ٧٥	.٣٤٣
لنجيركه:	(ك)
.٨٥	
لويس التاسع:	كبروش الثاني:
.٣٤٦	.٢٧٩، ٢٢٧-٢٢٦، ٨٠-٧٩، ٥٧-٥٦
لويس شایل:	كوخ:
.١١٩	.٨٥
لوز:	كمبردج:
.١٣٠	٩٨
لوط:	كرينليوس فاندليك:
.١٥٥-١٥٣، ١٥١، ١٤٦-١٤٥، ١٤٣	.١٠٣
.١٩٧	

ملاخی:	لاوی:
.۳۱۳، ۸۳، ۵۹-۵۸، ۵۶، ۴۷، ۱۲	.۲۶۴، ۲۵۳، ۲۰۰، ۱۶۳، ۲۳
محمد رسول اللہ ﷺ:	لبنان:
.۳۷۸، ۲۱۶-۲۱۵، ۱۷۵، ۱۵۲-۱۵۱	.۲۷۵، ۲۷۳، ۱۸۵
مکیدہ:	لابان:
.۲۸	.۲۰۱
میکال:	لباشی مردوخ:
.۲۶	.۲۲۵
مصر:	لینتوبولیس:
.۶۵-۶۴، ۶۰، ۴۵-۴۴، ۳۰-۲۹، ۲۷	.۲۳۳
.۱۰۸-۱۰۷، ۱۰۱-۱۰۰، ۹۴، ۹۱، ۶۹	
.۱۵۳، ۱۴۷، ۱۴۵-۱۴۱، ۱۳۰، ۱۱۲	
.۱۹۶-۱۹۵، ۱۹۰، ۱۶۷-۱۶۶، ۱۵۷-۱۵۶	
.۲۳۶-۲۲۸، ۲۲۲، ۲۱۱، ۲۰۷، ۲۰۱، ۱۹۹	
.۲۹۰، ۲۵۴، ۲۵۱، ۲۴۸، ۲۴۵، ۲۴۲	
.۳۰۴، ۳۰۱-۳۰۰، ۲۹۸-۲۹۶، ۲۹۳-۲۹۲	
.۳۴۳، ۳۱۳	
مراد کامل:	
.۳۸	
مردخای:	
.۲۴۴-۲۴۳، ۷۳-۷۲	
مارتن لوثر:	
.۲۴۴، ۱۱۵، ۱۱۳، ۷۲	
میکائیل:	
.۳۷۷، ۷۴	
میلان:	
.۹۸	
	(م)
	موسی:
	.۲۷، ۲۵-۲۰، ۱۸-۱۷، ۱۳، ۱۱
	.۹۷-۹۶، ۹۰-۸۵، ۶۴، ۶۱، ۳۹، ۳۵-۳۳
	.۱۳۹-۱۳۴، ۱۳۲-۱۲۳، ۱۲۰، ۱۱۷، ۱۰۰
	.۱۷۴، ۱۷۰-۱۶۵، ۱۵۴، ۱۵۲-۱۵۰
	.۱۹۸، ۱۹۵-۱۹۴، ۱۸۹، ۱۸۶، ۱۸۴-۱۸۳
	.۲۲۱، ۲۱۴، ۲۱۲، ۲۰۹-۲۰۸، ۲۰۲-۲۰۱
	.۲۶۳، ۲۵۴-۲۵۲، ۲۴۲، ۲۳۱-۲۳۰، ۲۲۳
	.۳۲۰-۳۱۸، ۳۰۴، ۳۰۲، ۲۹۸، ۲۹۵
	.۳۴۴، ۳۴۱، ۳۳۳-۳۳۲، ۳۳۰، ۳۲۳-۳۲۲
	.۳۶۴، ۳۶۲، ۳۴۹
	موسی الخورینی:
	.۱۰۱
	میخا:
	.۱۹۷، ۵۴-۵۳، ۴۷، ۱۲

مری:	منسی:
.۲۷۴	.۲۰۷، ۱۹۰، ۱۳۲، ۱۱۵، ۱۱۳، ۱۱۰
مری کارع:	موران:
.۳۱۲	.۱۱۹
موسی بن میمون:	مؤاب:
.۳۶۸، ۳۴۳، ۳۳۲، ۱۰۲، ۶۲	.۱۵۴، ۱۲۸، ۱۲۶
(ن)	مایر:
	.۲۴۵، ۱۴۸، ۱۴۵
	مدیان:
ناحوم:	.۱۹۵-۱۹۴، ۱۶۶
.۵۴، ۵۱، ۴۷، ۱۲	مریم:
نشید الإنشاد:	.۳۶۹، ۱۶۹، ۱۵۲
.۲۷۲-۲۷۱، ۱۲۱، ۶۷، ۵۹، ۱۲	مریم دبارة:
نشید الفتیان الثلاثة:	.۹۹
.۱۱۳، ۱۰۹، ۸۳	مجدو:
نشید إختاتون:	.۱۹۶-۱۹۵، ۱۹۰-۱۸۹
.۳۰۷، ۳۰۴، ۳۰۱، ۲۹۹، ۲۹۵	مصرايم:
نحمیا:	.۲۱۸
.۸۳، ۸۱، ۷۹-۷۶، ۷۳، ۶۸، ۵۹، ۱۲	موصرو:
.۱۱۷، ۹۸، ۹۲، ۸۸	.۲۳۳
نابلس:	مردخای:
.۲۳۶، ۲۰۵، ۱۴	.۲۴۴-۲۴۳، ۷۳-۷۲، ۲۳
نجیب میخائیل:	مردوك:
.۲۵۴، ۱۳۶، ۱۱۷	.۲۸۱، ۲۴۳
ناتان:	مراری:
.۳۴۰، ۱۸۶، ۱۸۴، ۱۷۲	.۲۵۳
نیثوی:	مجان:
.۲۶۹، ۵۴، ۵۲-۵۰	.۲۸۶

ہالیس:	نیوخذ نصر:
.۶۵	،۲۲۵-۲۲۴،۲۰۱،۷۰-۶۹،۵۵،۵۱
ھیرونی موس:	.۳۳۸
۱۱۵،۱۰۵،۹۹-۹۸،۷۶	نجد:
ھیرو دوس الکبیر:	.۶۳
.۳۲۵،۸۲	نیقیہ:
ہبو:	.۷۲
.۱۱۴	نابلیون:
ہاجر:	.۱۱۷
.۱۹۲،۱۳۴	نوح:
ہنری واسکات:	،۲۰۵ ،۱۵۲-۱۵۱ ،۱۳۷ ،۶۵
.۱۲۶	.۲۱۸-۲۱۷
ہستاسبس:	نفتالی:
.۲۲۷	.۲۰۷،۱۹۰،۱۶۳-۱۶۲
ہنو:	نبوید:
.۲۳۲	.۲۲۵
ہوجر فلکر:	نخاو:
.۲۳۳	.۲۹۱،۱۹۵
ہامان:	
.۲۵۵،۲۴۳	(ھ)
ہربرت جورج ویلز:	ہوشع:
.۲۷۹	.۲۳۳،۲۳۱،۴۷،۱۲
ہومیر:	ہولشر:
.۲۹۲	۴۶
ہلیوپولیس:	ہارون:
.۳۱۴	.۱۹۸،۱۷۰-۱۶۶،۱۵۱،۳۵،۲۷
ہلل:	ہرفورد:
.۳۳۳،۳۲۵-۳۲۴	.۴۶

هانريخ جرتيز:

.٢٤٧

يونيل:

.٢٢٨، ٤٧، ١٢

يونان:

.٨٣، ٥٣-٥٠، ٤٧، ١٢

(و)

يوشيا:

، ٨٨ ، ٥٩ ، ٤٥ ، ٣٤-٣٢ ، ٣٠-٢٩

وليم أولبرايت:

.٣١

.١٩٦-١٩٥، ١٨٦، ١٨٤

يثرون:

.١٩٥-١٩٤

وليم فلندرز بتري:

.٢٥٣

يربعام الأول:

.٣٠

وليم هيز:

.٣٠٠

يربعام الثاني:

.٢٥٦-٢٥٥، ٥٠، ٤٨-٤٧

وستمنستر:

.١١٥

يهوديت:

.٢٢١، ١١٣، ١٠٧

وادي الصرار:

.٢٦١

يهوذا:

، ٤٩ ، ٤٧ ، ٤٥-٤٤ ، ٤١ ، ٣٩ ، ٣٥ ، ٣٠

وادي السند:

.٢٨٦

، ١٣٦ ، ١١٧ ، ٩٥ ، ٨٧-٨٥ ، ٨١ ، ٥٧-٥٣

وادي يزرعيل:

.٢٥٩، ٢٥٧، ١٩٠

، ١٦٥-١٦٤ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٠-١٩١

، ٢١٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٣-٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٧ ، ١٩٣

، ٢٦٤ ، ٢٥٦-٢٥٥ ، ٢٤٨ ، ٢٣٩-٢٣٨ ، ٢٢٤

.٣٢٨، ٣٢٦، ٣٢٤، ٢٩١، ٢٨٠

(ي)

يهو شافط:

٢٣٩، ١٨٦، ٨١

يشوع:

، ٦١ ، ٣٩ ، ٣٧-٣٥ ، ٢٥-٢٤ ، ١٣-١٢

يهوه:

، ١٣٠ ، ١١٠ ، ٩٤ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٦٥ ، ٤٨

، ١٣٠-١٢٩ ، ١٢٦ ، ١١٨ ، ١١٤-١١٣ ، ١٠٨

، ١٩٦ ، ١٩١ ، ١٨٠-١٧٩ ، ١٧٢ ، ١٣٥-١٣٤

، ١٩٧ ، ١٩١-١٨٩ ، ١٨٥ ، ١٦٦ ، ١٣٥ ، ١٣٢

، ٢٦٢ ، ٢٥٧ ، ٢٤٩ ، ٢١٣-٢١٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٠

.٣١٩، ٢٢٢، ٢١٣، ٢٠٧، ٢٠١

.٣٦٠-٣٥٩، ٣١٤، ٢٩٩

یوہان:	یہویاکین:
۲۸۰	.۲۴۷، ۱۹۸، ۱۰۸، ۵۷
یعازیم:	یہویاقیم:
.۲۸، ۲۵	۲۰۱، ۵۶-۵۵
یوسف کارو:	یعقوب:
.۳۴۵	، ۱۵۱ ، ۱۴۷ ، ۱۳۸ ، ۹۱ ، ۶۲ ، ۲۴۱ ، ۲۱۲ ، ۲۰۱ ، ۱۹۷-۱۹۶ ، ۱۶۴-۱۵۷ .۲۹۲
	یعقوب بن أشهر:
	.۳۴۴
	یاہو:
	.۱۹۶، ۱۸۶، ۱۸۴
	یوسفیوس:
	.۸۲
	یوسف:
	.۲۳۱، ۲۲۹، ۱۹۳، ۱۵۱، ۱۳۲، ۹۱
	یانیر:
	.۱۳۰
	یحییٰ:
	.۱۵۱
	یوآب:
	.۱۷۹، ۱۷۱
	یوناداب:
	.۱۷۹-۱۷۷
	یافث:
	.۲۱۸
	یابال:
	۲۸۰



المراجع المختارة

أولا - المراجع العربية:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - صحيح البخارى، دار الشعب، القاهرة ١٣٧٨ هـ.
- ٣ - صحيح مسلم، دار الشعب، القاهرة ١٩٧١-١٩٧٢ م.
- ٤ - مسند الإمام أحمد، طبعة الحلبي، القاهرة.
- ٥ - كتب التفاسير.
- ٦ - الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، دار الكتاب المقدس، القاهرة ١٩٧٠.
- ٧ - الكتاب المقدس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥١.
- ٨ - الكتاب المقدس، الأسفار القانونية التي حذفها البروتستانت، الإسكندرية ١٩٥٦.
- ٩ - إبراهيم خليل، محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن.
- ١٠ - إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود، القاهرة، ١٩٦٧.
- ١١ - أبكار السقاف، إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧.
- ١٢ - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الشيبانى)، الكامل فى التاريخ، الجزء الأول والثانى، بيروت ١٩٦٥.
- ١٣ - ابن تيمية (أحمد بن عبد الحلیم)، مجموع فتاوى ابن تيمية (الأجزاء من ١ إلى ٣٥)، الرياض ١٣٨١-١٣٨٢ هـ.
- ١٤ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)، الفصل فى الملل والأهواء والنحل (خمسة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٤.
- ١٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١.
- ١٦ - ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد)، الطبقات الكبرى، الجزء الأول، دار التحرير، القاهرة ١٩٦٨.

- ١٧ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، البداية والنهاية في التاريخ، الجزء الأول، بيروت ١٩٦٦.
- ١٨ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، قصص الأنبياء، جزءان، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٩ - ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل)، السيرة النبوية (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٦.
- ٢٠ - ابن هشام (أبو محمد عيد الملك بن أيوب)، سيرة النبي ﷺ (أربعة أجزاء)، القاهرة ١٩٥٥.
- ٢١ - أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، القاهرة ١٩٦٥.
- ٢٢ - أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، القاهرة ١٣٢٥ هـ.
- ٢٣ - أحمد حسن الباقوري، مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠.
- ٢٤ - الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف، مصر في القرآن والسنة، القاهرة ١٩٧٣.
- ٢٥ - الدكتور أحمد فخري، تاريخ الحضارة المصرية، العصر الفرعوني، الأدب المصري، القاهرة ١٩٥٨.
- ٢٦ - الدكتور أحمد فخري، دراسات في العالم العربي، القاهرة ١٩٥٨.
- ٢٧ - الدكتور أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة ١٩٦٣.
- ٢٨ - الدكتور أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١.
- ٢٩ - الدكتور إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧.
- ٣٠ - الدكتور إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩.
- ٣١ - الدكتور إسرائيل ولفنسون، موسى بن ممون: حياته ومصنفاته، القاهرة ١٩٣٦.
- ٣٢ - أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، بيروت ١٩٧٠.
- ٣٣ - الدكتور إسماعيل راجي الفاروق، أصول الصهيونية في الدين اليهودي، القاهرة ١٩٦٤.
- ٣٤ - الشهرستاني (أبو الفتح محمد)، الملل والنحل (ثلاثة أجزاء)، القاهرة ١٩٦٨.

- ٣٥ - الدكتور التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، تونس ١٩٧٤.
- ٣٦ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبري)، الجزء الأول والثاني، القاهرة ١٩٦٧.
- ٣٧ - المقدسي (المطهر بن طاهر)، كتاب البدء والتأريخ، الجزء الثالث والرابع، باريس ١٩٠٣-١٩٠٧.
- ٣٨ - إيلي ليفي أبو عمل، يقظة العالم اليهودي، القاهرة ١٩٢٤.
- ٣٩ - الدكتور ثروت أنيس الأسيوطي، نظام الأسرة بين الاقتصاد والدين: الجماعات البدائية، بنو إسرائيل، القاهرة.
- ٤٠ - الدكتور جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا، القاهرة ١٩٦٧.
- ٤١ - الدكتور جمال حمدان، شخصية مصر، القاهرة ١٩٧٠.
- ٤٢ - الدكتور جواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء)، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١.
- ٤٣ - حبيب سعيد، المدخل إلى الكتاب المقدس، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة.
- ٤٤ - حبيب سعيد، خليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام، القاهرة.
- ٤٥ - حبيب سعيد، الأنبياء الأقدمون، يتكلمون، القاهرة.
- ٤٦ - حبيب فارس، صراخ البرئ في بوق الحرية والذباح والتلمودية، مطبعة الجامعة، مصر ١٨٩١.
- ٤٧ - الدكتور حسن ظاظا، القدس: مدينة الله - أم مدينة داود؟، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ٤٨ - الدكتور حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ٤٩ - الدكتور حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، القاهرة ١٩٧١.
- ٥٠ - الدكتور حسن ظاظا وآخرون، الصهيونية العالمية وإسرائيل، القاهرة ١٩٧١.
- ٥١ - حسين ذو الفقار صبري، إنما الأمور بأصولها، المجلة العدد ١٥١، القاهرة ١٩٦٩.
- ٥٢ - حسين ذو الفقار صبري، توراة اليهود، المجلة، العدد ١٥٧، القاهرة ١٩٧٠.

- ٥٣ - حسين ذو الفقار صبرى، إله موسى فى توراة اليهود، المجلة، العدد ١٦٣ .
- ٥٤ - الدكتور خالد طه الدسوقي، الجالية اليهودية فى أسوان، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٥٥ - خالد محمد خالد، كما تحدث القرآن، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٥٦ - الدكتور رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، بيروت ١٩٦٨ .
- ٥٧ - الدكتور رشيد الناضورى، جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الثالث، بيروت ١٩٦٩ .
- ٥٨ - الدكتور سليم حسن، مصر القديمة (الأجزاء ١-١٣)، القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٥٨ .
- ٥٩ - الدكتور سليم حسن، الأدب المصرى القديم، الجزء الأول، القاهرة ١٩٤٥ .
- ٦٠ - شاهين مكاربوس، تاريخ الأمة الإسرائيلية، القاهرة ١٩٠٤ .
- ٦١ - شوقى عبد الناصر، بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، القاهرة .
- ٦٢ - الدكتور صبرى جرجس، التراث اليهودى الصهيونى، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٦٣ - طه باقر، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول والثانى، بغداد ١٩٥٥ .
- ٦٤ - عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، دار الهلال، القاهرة .
- ٦٥ - عباس محمود العقاد، الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٦٦ - عباس محمود العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٦٧ - عباس محمود العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٦٨ - عباس محمود العقاد، مطلع النور، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٦٩ - عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٧٠ - عباس محمود العقاد، الله، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٧١ - عباس محمود العقاد، المرأة فى القرآن، بيروت ١٩٦٩ .

- ٧٢ - الدكتور عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧٣ - الدكتور عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٧٤ - الدكتور عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، القاهرة ١٩٦٧ .
- ٧٥ - عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٧٦ - عبد الله محمود شحاته، تفسير سورة الإسراء، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٧٧ - عبد الله محمود شحاته، في نور القرآن، القاهرة ١٩٧٣ .
- ٧٨ - عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٧٩ - الدكتور عبده الراجحي، الشخصية الإسرائيلية، الإسكندرية ١٩٦٨ .
- ٨٠ - الدكتور علي عبد الواحد وافى، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، القاهرة ١٩٦٤ .
- ٨١ - عصام الدين حفنى ناصف، محنة التوراة على أيدي اليهود، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٨٢ - عصام الدين حفنى ناصف، اليهودية في العقيدة والتاريخ، القاهرة ١٩٧٧ .
- ٨٣ - عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، بيروت ١٩٦٤ .
- ٨٤ - عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٦٧ .
- ٨٥ - الدكتور فؤاد حسنين، إسرائيل عبر التاريخ، الجزء الأول، القاهرة .
- ٨٦ - الدكتور فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٨٧ - كمال أحمد عون، اليهود من كتابهم المقدس، القاهرة ١٩٧٠ .
- ٨٨ - محمد الصادق عرجون، معجزات الأنبياء بين العقل والدين، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٨٩ - محمد العزب موسى، موسى في سيناء، الهلال، العدد ٦، القاهرة ١٩٧١ .
- ٩٠ - محمد بدر، الكنز في قواعد اللغة العبرية، القاهرة ١٩٣٦ .
- ٩١ - الدكتور منعم بيومي مهران، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية (رسالة ماجستير)، الإسكندرية ١٩٦٦ .
- ٩٢ - الدكتور محمد بيومي مهران، مصر والعالم الخارجى في عصر رعمسيس الثالث (رسالة دكتوراة)، الإسكندرية ١٩٦٩ .

- ٩٣ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ اليهود القديم (١)، مجلة الأسطول، العدد ٦٣، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ٩٤ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ اليهود القديم (٢)، مجلة الأسطول، العدد ٦٤، الإسكندرية ١٩٧٠.
- ٩٥ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ اليهود القديم (٣)، مجلة الأسطول، العدد ٦٥، الإسكندرية ١٩٦٥.
- ٩٦ - الدكتور محمد بيومي مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١)، مجلة الأسطول، العدد ٦٦، الإسكندرية ١٩٧١.
- ٩٧ - الدكتور محمد بيومي مهران، قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢)، مجلة الأسطول، العدد ٦٧، الإسكندرية ١٩٧١.
- ٩٨ - الدكتور محمد بيومي مهران، النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨، الإسكندرية ١٩٧١.
- ٩٩ - الدكتور محمد بيومي مهران، أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩، الإسكندرية ١٩٧١.
- ١٠٠ - الدكتور محمد بيومي مهران، التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠، الإسكندرية ١٩٧٢.
- ١٠١ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثاني، إسرائيل، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٣.
- ١٠٢ - الدكتور محمد بيومي مهران، الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي، مجلة كلية اللغة العربية، العدد الرابع، الرياض ١٩٧٤.
- ١٠٣ - الدكتور محمد بيومي مهران، قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد الخامس، الرياض ١٩٧٥.

- ١٠٤ - الدكتور محمد بيومي مهران، العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض ١٩٧٦.
- ١٠٥ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.
- ١٠٦ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض ١٩٧٧.
- ١٠٧ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الجزء الأول، في بلاد العرب، (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض ١٩٧٨.
- ١٠٨ - الدكتور محمد بيومي مهران، النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل، الإسكندرية ١٩٧٨.
- ١٠٩ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسة حول الديانة العربية القديمة، القاهرة ١٩٧٨.
- ١١٠ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، إسرائيل، الكتاب الأول، التاريخ، الإسكندرية ١٩٧٨.
- ١١١ - الدكتور محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، إسرائيل، الكتاب الثاني - التاريخ، الإسكندرية، ١٩٧٨.
- ١١٢ - الدكتور محمد حسين هيكل، حياة محمد ﷺ، القاهرة ١٩٧٠.
- ١١٣ - الدكتور محمد عبد القادر، الساميون في العصور القديمة، القاهرة ١٩٦٨.
- ١١٤ - الدكتور محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤.
- ١١٥ - محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩.
- ١١٦ - محمود أبو رية، دين الله واحد علياً لسنة جميع الرسل، القاهرة ١٩٧٠.

- ١١٧ - محمود الشرقاوى، الأنبياء فى القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠ .
- ١١٨ - الدكتور مراد كامل، الكتب التاريخية فى العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨ .
- ١١٩ - الدكتور مصطفى كمال عبد العليم، اليهود فى مصر فى عصرى البطلمة والرومان، القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٢٠ - منيس عبد النور، إبراهيم السائح الروحى، القاهرة .
- ١٢١ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، الإسكندرية ١٩٦٦ .
- ١٢٢ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الرابع، الإسكندرية ١٩٦٦ .
- ١٢٣ - الدكتور نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الخامس، الإسكندرية ١٩٦٦ .
- ١٢٤ - ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) معجم البلدان، (خمسة أجزاء)، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧ .
- ١٢٥ - يس منصور، عصمة الكتاب المقدس، الإسكندرية ١٩٦٨ .

ثانياً - المراجع المترجمة إلى اللغة العربية:

- ١٢٦ - الكسندر شارف، تاريخ مصر، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٠.
- ١٢٧ - إيمانويل فليكوفسكى، أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٢٨ - باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفى، القاهرة ١٩٧١.
- ١٢٩ - تيودور روينسون، تاريخ العالم، إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، القاهرة.
- ١٣٠ - ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة الدكتور طه حسين، القاهرة.
- ١٣١ - جان يويوت، مصر الفرعونية، ترجمة سعد زهران ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة ١٩٦٦.
- ١٣٢ - جوستاف لويون، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيمتر، القاهرة ١٩٦٧.
- ١٣٣ - جيمس بيكى، الآثار المصرية فى وادى النيل، الجزء الأول، ترجمة لبيب حبشى وشفيق فريد، ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار (الألف كتاب)، القاهرة ١٩٦٣.
- ١٣٤ - جيمس فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ومراجعة الدكتور حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٢.
- ١٣٥ - جيمس فريزر، الفولكلور فى العهد القديم، الجزء الثانى، ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم، ومراجعة الدكتور حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧٤.
- ١٣٦ - سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية القديمة، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨.
- ١٣٧ - عاموس عبد المسيح، دراسة فى عاموس، ترجمة حارث قريصة، القاهرة ١٩٦٦.

- ١٣٨ - ف.ب. ماير، موسى، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة.
- ١٣٩ - ف.ب. ماير، يشوع وأرض الموعد، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٤٩.
- ١٤٠ - ف.ب. ماير، حياة صموئيل، ترجمة القس مرقس داود، القاهرة ١٩٦٧.
- ١٤١ - فيلب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد
وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨.
- ١٤٢ - م.ص. سيجال، حول تاريخ الأنبياء عند بنى إسرائيل، ترجمة الدكتور حسن
ظاظا، بيروت، ١٩٦٧.
- ١٤٣ - و.ج. دي بوج، تراث العالم القديم، ترجمة زكى سوسن، القاهرة ١٩٧١.
- ١٤٤ - وليم أولبرايت، آثار فلسطين، ترجمة الدكتور زكى إسكندر، والدكتور محمد
عبد القادر، القاهرة ١٩٧١.
- ١٤٥ - ول. ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثانى، ترجمة محمد بدران، القاهرة
١٩٦١.
- ١٤٦ - يورى أبفانوف، احذروا الصهيونية، ترجمة ماهر عسل، القاهرة ١٩٦٩.

ثالثاً - المراجع الأجنبية:

147. Abaraoni, (Y.), The Land of the Bible , 1966.
148. Albright, (W.F.), The Archaeology of Plaestine, London, 1949.
149. Albright, (W.F), Archaeology and the Reiligion of Israel, Baltimore, 1963.
150. Albright, (W.F.), The Bible and the Ancient Near East, London, 1961.
151. Albright (W.F.), The Biblical Period from Abraham to Ezra, N.Y., 1963.
152. Allegro, (J.), The Dead Sea Scrolls, 1971.
153. Alleman, (H.C.), Old Testament Commentary, Philadelphia, 1948.
154. A Allis, (O.T.)< The Five Books of Mose, Phialdelphia, 1923.
155. Alheim, (F.) and Stiehl (R.), Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964.
156. Barton, (G.A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.
157. Baron, (S.W.), A Social and Religions History of the Jews, N.Y., 1967.
158. Bell, (H.L.) Cults and Creeds in Graeco - Roman Egypt, Liverpool, 1954.
159. Benzidger, (L.), Passover and Feast of Unleavened Bread in Encyclopaedia Biblica, III, 1902.

160. Benzinger, (I.), Feast of Tabernacles, in Encyclopaedia Biblica, 4, 1904.
161. Benzinger, (I.) and Cheyne, (T.K.), Day of Toneyment in EB, I, 1899.
162. Berkovits, (E.), Towards Historic Judaism, Oxford, 1943.
163. Berry, (G.R.), The Book of Proverbs, Philadelphia, 1905.
164. Bertholet, (A.), Histoire de la Civilisation d'Israel, Paris, 1929.
165. Bertman, D. Initiation au Judaisme, Paris, 1937.
166. Bonfante, (G.), Who Were The Palistines, AJA, L., 1946.
167. Box, (G.H.), Hebrew Studies in the Reformation , in the Legacy of Israel, Oxford, 1953.
168. Box, (G.H.), Judaism in the Greek Period, Oxford, 1953.
169. Bright, (J.), A Short History of Israel, Philadelphia, 1959.
170. Bright, (J.), Modern Study of the Old Testament Literature in the Bible and the Ancient Near East, N.Y., 1961.
171. Burrows, (M.), The Dead Sea Scrolls, N.Y., 1955.
172. Burry, (G.R.), The Book of Proverbs, Philadelphia, 1905.
173. Cadbury, H.G., Egyptian Influences on the Book of Proverbs, J.R., 1929.
174. Cameron, (G.G.), Darius and Zerxes in Babylouia, AJSL, LVIII, 1941.

175. Capelrud, A.S., Joe Studies, Uppsala, 1948.
176. Charles, (R.H.), Apocrypha and Pseudepigrapha of the Old Testament, 2 Vols., Oxford, 1913.
177. Charles, (R.H.), Acritical and Exegetical Commentary on the Book of Daniel, Oxford, 1929.
178. Cook (G.A.), The Text-Book of North Semitic Inscriptions, Oxford, 1903.
179. Cook, (S.A.), Israel and the Neighbouring, CAH, III, Cambridge, 1965.
180. Comwell, P.B., On the Location of Dilmun, BASOR, 103, 1946.
181. Daumas, F., La Civilisation de L'Egyptie Pharaonique, Paris, 1965.
182. Davis, A.P., The Ten Commandment, N.Y., 1956.
183. Demombynes, G. Contribution a L'etude de Pelerimage de la Mekke, Paris, 1923.
184. Dennefelt, L., Les Proplemes du Livre de Joel, Paris, 1926.
185. Doughery, R.P., Nabonidus and Belshazzar , New Haven, 1929.
186. Driver, S.R. Notes on the Hebrew Text of the Books of Samuel, Oxford, 1890.
187. Driver, S.R. Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinburgh, 1950.
188. Eissfeldt, O., Einleitung in das Alte testament, Tubringen, 1956.

203. Graetz, H., History of the Jews, II, Philadelphie, 1956.
204. Grayzel, S., A History of Jews , Philadelphia, 1964.
205. Greene, B. Resume Chronologique de l'Antic Testament, Lyon, Geneve, 1909.
206. Gressman, H., Die Neugefundene Lehr das Amen-em-Ope, Und die Vovexilische Spruchdichtung, Israel, in ZAW, XLII, 1924.
207. Gressman, H., and Others, The Psalmists, Oxford, 1926.
208. Gruignebert, C., Le Monde Juif au Temps Jews, Paris, 1935.
209. Hall, (H.R.), The Anceint History of the Near East, London, 1963.
210. Hastings (J.), A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936.
211. Hayes, W.C., The Scepter of Egypt, II, Harvard, 1959.
212. Heaton, E.W., The Old Testament Prophets, Penguin Books, 1969.
213. Hermann, I. , The Jews and Human Sacrifice, Human Blood and Jews Ritual , An Historical and Sociological Inquiry, London, 1909.
214. Hitti (P.K.), History of the Arabs, London, 1960.
215. Hooke, S.H., Middle Eastern Mythology, Penguin Books, London, 1963.
216. Humbert, P. Recherches sur les Sources Egyptiennes de la Litetera-ture sapientale d'Israel, New Hatel, 1929.

250. Noth (Martin), The History of Israel, London,, 1965.
251. Oesterlay (W.O.E.), The Wisdom of Egypt and the Old Testament, London, 1927.
252. Oesterlay (W.O.E.), and Robinson, T.H., Introduction to the Books of the Old Testament, London, 1934.
253. Oesterlay (W.O.E.), and Robinson, T.H., Hebrew Religion, London, 1937.
254. Oesterlay (W.O.E), Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, Oxford, 1947.
255. Olmstead, Albert, (T.), History of the Presian Empire, Chicago, 1970.
256. Oppenheim, A.L., Babylonian and A Syrian Historical Texts, ANET, 1966.
257. Petrie, (W.M.F.), Egypt and Israel, London, 1925.
258. Pfeiffer, (R.H.), Introduction to the Old Testament, N.Y., 1941.
259. Renan (ernest), Histoire Generale et Systeme Compare des Langues Semetique, Paris, 1855.
260. Ripley, W.Z., Races of Europe, London, 1900.
261. Robert, B.J., The Old Testament Texts and Versions, London, 1951.
262. Robinson, T.H., The Structure of the Book of Obadiah, JTS, 17, 1916.

263. Rogers (R.W.), *Coneiform Parallels to the Old Testament* , London, 1912.
264. Roth (Cecil), *The Ritual Murder Litiel and the Jews* , London, 1935.
265. Roth, L., *Jewish Thought of the Modern World, in the Legacy of Israel*, Oxford, 1953.
266. Rowley, (H.H.), *The Nature of Prophecy in the Light of Recent Study*, Harvard, 1945.
267. Rowley, H.H., *The Servant of the Lord and Other Essays on the Old Testament*, 1962.
268. Sachar, (A.L.), *A History of the Jews*, N.Y., 1945.
269. Samuel, R. *Ropaport, Toles, and Maximus, from the Talmud*, London, 1910.
270. Sandman, S., *Studies in Judaism*, JPSA, 1945.
271. Schechar, S. *Studies in Judaism*, JPSA, 1945.
272. Simon, (J.), *Histoire Critique de Vieux Testament*, Paris, 1978.
273. Skinner, J., *Prophecy and Religion*, Cambridge, 1922.
274. Steinmann, J., *La Critique devant la Bible*, Paris, 1956.
275. Steinmuller, J.E., *Companion to Scripture Studies*, 11, N.Y., 1942.
276. Sykes, C., *Crossroads to Israel*, London, 1965.
277. Torrey, (C.C.), *The Prophecy of Maluchi*, JBL, 1898.

278. Torrey, (C.C.), Pseudo - Ezekiel and Original Prophecy, New Haven, 1930.
279. Torrey, (C.C.), The A Pocyphal Literature, New Haven, 1948.
280. Trumbull, H.C., The Reasonableness of the Miracle of Jonah, LCR.
281. Tushingam, A.D., A Reconsideration of Hoses, Chapter 1-3, in JNES, 12, 1925.
282. Unger, (M.F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.
283. Vogelstein, M., Biblical Chronology, Part 1, Cincinnati, 1944.
284. Vincent (H.), Canaan d'apres l'Exploration Recent , Paris, 1914.
285. Voltaire, Dictionnaire Philosophique, Paris - Garnier, 1954.
286. Watermann, (L.), The Treasuries of Solomon's Private Chapel, JNES, 6, 1947.
287. Watermann, (L.), Hosea, Chapters 1-3, in JNES, 14, 1955.
288. Waxman, M., A History of the Jewish Literature , 1, London, 1960.
289. Weigall, A., Histoire de l'Egypte Ancienne, Paris, 1968.
290. Welch, (A.C.), The Code of Deuteronomy, N.Y., 1924.
291. Wells, (H.G.), A Short History of the World, (Penguin Books), 1965.
292. Wilson, J., The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963.
293. William, F., Edgerton and John A. Wilson, Historical Records of Ramses III, Chicago, 1935.

294. Wilson, (J.A.), The Instruction for Amen-Em-Op t, ANET, 1966.
295. Wilson, (J.A.), The Instruction for King Meri-Ka-Re, in ANET,
Princeton, 1966.
296. Woolley, (Sir Leonard), Ur of the Chaldees, , London, 1950.
297. Woolley, (Sir Leonard), Excavations at Ur, London, 1963.
298. The Beginnings of Civilization , N.Y., 1965.
299. Yahuda, A.S., Die Sprache des Pentagench in Ihren Beziehungen
Zun Egyptischen, Erstes Buch, 1929.
300. Yongg., (Y.), Introduction to the Old Testament, 1949.
301. Zeitlin, S., The Apocrypha, JQR, 37, 1917.



المؤلف في سطور

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

- ١ - ولد في البصيلية - مركز إدفو - محافظة أسوان.
- ٢ - حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين بقنا، حيث تخرج فيها عام ١٩٤٩.
- ٣ - عمل مدرساً بوزارة التربية والتعليم (١٩٤٩-١٩٦٠).
- ٤ - حصل على ليسانس الآداب بمرتبة الشرف من قسم التاريخ بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٠.
- ٥ - عين معيداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦١ م.
- ٦ - حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف في التاريخ القديم من كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٧ - عين مدرساً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٩ م.
- ٨ - عين أستاذاً مساعداً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٤ م.
- ٩ - عين أستاذاً لتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٩.
- ١٠ - أعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧ م.

- ١١ - عين عضواً في مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية في عام ١٩٨٢ م.
- ١٢ - عين عضواً بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة في عام ١٩٨٢ م.
- ١٣ - أعير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة في الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧ م.
- ١٤ - عين رئيساً لقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (١٩٨٧-١٩٨٨ م).
- ١٥ - اختير مقررًا للجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم (١٩٨٨-١٩٨٩ م).
- ١٦ - عين أستاذًا متفرغًا في كلية الآداب - جامعة الإسكندرية في عام ١٩٨٨ م.
- ١٧ - عضو لجنة التراث الحضاري والآثري بالمجالس القومية المتخصصة.
- ١٨ - عضو اللجنة الدائمة للآثار المصرية في هيئة الآثار.
- ١٩ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢٠ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة في الآثار الفرعونية وتاريخ مصر والشرق الأدنى القديم.
- ٢١ - عضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة المساعدين في التاريخ.
- ٢٢ - أشرف وشارك في مناقشة أكثر من ٥٥ رسالة دكتوراه وماجستير في تاريخ وآثار وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم في الجامعات المصرية والعربية.
- ٢٣ - أسس وأشرف على شعبة الآثار المصرية بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية منذ عام ١٩٨٢ م.
- ٢٤ - شارك في حفائر كلية الآداب - جامعة الإسكندرية في الوقف - مركز دشنا - محافظة قنا، (في عام ١٩٨٠/١٩٨١ م)، وفي «تل الفراعين» مركز دسوق - محافظة كفر الشيخ في عام (١٩٨٣/٨٢ م).
- ٢٥ - عضو اتحاد المؤرخين العرب.

مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولاً - التاريخ المصري القديم:

- ١ - الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية
الإسكندرية ١٩٦٦
- ٢ - مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث
الإسكندرية ١٩٦٩
- ٣ - حركات التحرير فى مصر القديمة
القاهرة ١٩٧٦
- ٤ - إخناتون: عصره ودعوته
القاهرة ١٩٧٩

ثانياً - فى تاريخ اليهود القديم:

- ٥ - التوراة (١) - مجلة الأسطول - العدد ٦٣ .
الإسكندرية ١٩٧٠
- ٦ - التوراة (٢) - مجلة الأسطول - العدد ٦٤ .
الإسكندرية ١٩٧٠
- ٧ - التوراة (٣) - مجلة الأسطول - العدد ٦٥ .
الإسكندرية ١٩٧٠
- ٨ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١) - مجلة
الأسطول - العدد ٦٦ .
الإسكندرية ١٩٧١
- ٩ - قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢) - مجلة
الأسطول، العدد ٦٧ .
الإسكندرية ١٩٧١
- ١٠ - النقاوة الجنسية عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٨ .
الإسكندرية ١٩٧١
- ١١ - أخلاقيات الحرب عند اليهود، مجلة الأسطول، العدد ٦٩ .
الإسكندرية ١٩٧١
- ١٢ - التلمود، مجلة الأسطول، العدد ٧٠ .
الإسكندرية ١٩٧٢
- ١٣ - إسرائيل، الجزء الأول، التاريخ .
الإسكندرية ١٩٧٨
- ١٤ - إسرائيل، الجزء الثانى، التاريخ .
الإسكندرية ١٩٧٨

- ١٥ - إسرائيل، الجزء الثالث، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩
- ١٦ - إسرائيل، الجزء الرابع، الحضارة. الإسكندرية ١٩٧٩
- ١٧ - النبوة والأنبياء عند بنى إسرائيل: الإسكندرية ١٩٧٩
- ثالثاً - فى تاريخ العرب القديم:
- ١٨ - الساميون والآراء التى دارت حول موطنهم الأصيلى. الرياض ١٩٧٤
- ١٩ - العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة. الرياض ١٩٧٦
- ٢٠ - مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة. الرياض ١٩٧٧
- ٢١ - الديانة العربية القديمة. الإسكندرية ١٩٧٨
- ٢٢ - العرب والفرس فى العصور القديمة. الإسكندرية ١٩٧٩
- ٢٣ - الفكر الجاهلى. القاهرة ١٩٨٢
- رابعاً - فى تاريخ العراق القديم:
- ٢٤ - قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة. الرياض ١٩٧٦
- ٢٥ - قانون حمورابى وأثره فى تشريعات التوراة الإسكندرية ١٩٧٩
- خامساً - سلسلة دراسات تاريخية من القرآن الكريم:
- ٢٦ - الجزء الأول - فى بلاد العرب. بيروت ١٩٨٨
- ٢٧ - الجزء الثانى - فى مصر. بيروت ١٩٨٨
- ٢٨ - الجزء الثالث - فى بلاد الشام. بيروت ١٩٨٨
- ٢٩ - الجزء الرابع - فى العراق. بيروت ١٩٨٨
- سادساً - سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم:
- ٣٠ - مصر - الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣١ - مصر - الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣٢ - مصر - الجزء الثالث. الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣٣ - الحضارة المصرية - الجزء الأول. الإسكندرية ١٩٨٩
- ٣٤ - الحضارة المصرية - الجزء الثانى. الإسكندرية ١٩٨٩

- ٣٥ - تاريخ العرب القديم (الجزء الأول). الإسكندرية ١٩٩٤
- ٣٦ - تاريخ العرب القديم (الجزء الثاني). الإسكندرية ١٩٩٤
- ٣٧ - تاريخ لبنان القديم بيروت ١٩٩٤
- ٣٨ - الحضارة العربية القديمة الإسكندرية ١٩٨٨
- ٣٩ - بلاد الشام الإسكندرية ١٩٩٠
- ٤٠ - تاريخ السودان القديم الإسكندرية ١٩٩٤
- ٤١ - المغرب القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٤٢ - العراق القديم الإسكندرية ١٩٩٠
- ٤٣ - التاريخ والتأريخ الإسكندرية ١٩٩١
- سابعاً - سلسلة : في رحاب النبي وآل بيته الطاهرين:
- ٤٤ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الأول بيروت ١٩٩٠
- ٤٥ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثاني بيروت ١٩٩٠
- ٤٦ - السيرة النبوية الشريفة - الجزء الثالث. بيروت ١٩٩٠
- ٤٧ - السيدة فاطمة الزهراء بيروت ١٩٩٠
- ٤٨ - الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الأول) بيروت ١٩٩٠
- ٤٩ - الإمام علي بن أبي طالب (الجزء الثاني) بيروت ١٩٩٠
- ٥٠ - الإمام الحسن بن علي بيروت ١٩٩٠
- ٥١ - الإمام الحسين بن علي بيروت ١٩٩٠
- ٥٢ - الإمام علي زين العابدين بيروت ١٩٩٠
- ٥٣ - الإمام جعفر الصادق تحت الطبع
- ثامناً - معجم المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم:
- ٥٤ - الجزء الأول، مصر - الجزيرة العربية - بلاد الشام بيروت ١٩٩٧
- ٥٥ - الجزء الثاني: العراق - المغرب - السودان بيروت ١٩٩٧
- ٥٦ - دراسة حول التأريخ للأنبياء - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - العدد ٣٩ لعام ١٩٩٢

٥٧ - الإعجاز في القرآن - دراسة في الإعجاز التاريخي -
الإسكندرية ١٩٩٣ .

تاسعاً - سلسلة الإمامة وأهل البيت:

بيروت ١٩٩٥

٥٨ - الإمامة

بيروت ١٩٩٥

٥٩ - الإمامة والإمام علي

بيروت ١٩٩٥

٦٠ - الإمامة وخلفاء الإمام علي

فهرس الجزء الرابع

الباب الثالث

الديانة اليهودية

٣٩٧	
٣٩٩	الفصل الأول: الله في التوراة.
٤٠٠	١ - الله واليهود
٤٠٣	٢ - صفات الله في التوراة
٤١٥	الفصل الثاني: يهوه إله إسرائيل
٤١٩	١ - الأصول العربية للإله يهوه
٤١٩	٢ - يهوه والآلهة الكنعانية
٤٣٠	٣ - موطن يهوه
٤٣٦	٤ - يهوه والآلهة الأجنبية
٤٤٢	٥ - عقائد يهوه
٤٤٨	٦ - نشاط يهوه لمصلحة إسرائيل
٤٥٠	٧ - عقيدة تقديس يهوه
٤٥٢	٨ - غضب يهوه
٤٥٨	٩ - يهوه والتضحية البشرية
٤٦٥	الفصل الثالث: اليهود بين التوحيد والتعدد
٤٦٥	١ - عصر ما قبل موسى
٤٦٩	٢ - عصر موسى
٤٧٤	٣ - عصر القضاة
٤٧٧	٤ - عصر الملكية
٤٩٦	٥ - عصر السبي وما بعده
٤٩٩	الفصل الرابع: المقدسات الإسرائيلية
٤٩٩	١ - السورى

٥٥١	الفصل السادس : الهيئات والفرق اليهودية
٥٥١	أولا - الهيئات اليهودية
٥٥١	١ - السنهدرين
٥٥٣	٢ - المجمع
٥٥٤	ثانياً : الفرق اليهودية
٥٥٤	١ - الفريسيون
٥٥٧	٢ - الصدوقيون
٥٦٠	٣ - السامريون
٥٦١	٤ - الآسينيون
٥٦٢	٥ - الهروديون
٥٦٥	٦ - القراءون
٥٦٦	٧ - الجليليون
٥٦٧	٨ - الليرتنيون
٥٦٧	٩ - الغيوريون
٥٥٥	الفصل السابع : اليهودى بين الانغلاق والتبشير
٥٥٥	١ - فكرة الانغلاق
٥٥٦	٢ - التبشير باليهودية
الباب الرابع		
٥٨١	الحياة الاجتماعية
٥٨٣	الفصل الأول : التطور الاجتماعى فى المجتمع الإسرائيلى
٥٨٣	١ - طبقات المجتمع الإسرائيلى
٥٨٤	٢ - التطور الاجتماعى فى إسرائيل
٥٩٧	الفصل الثانى : الأسرة
٥٩٧	أ - النظام الأبوى
٦٠٣	ب - الزواج

